جامعة تـــونس الأولى
كليـــة العلـــوم الانسانية والاجتماعيـــة
قســـم التاريـــخ

بجايــة في العهد الحفصي : دراسة اقتصادية واجتماعيــة

أطروحة الدكتوراه الموحدة

(الجـزء الاول)

اعـداد
صالـــح بعيزيـــق
باشـــراف
الاستـــاذة منيـــرة شابوتـــو - رمـــادي

تـــونس 1995

الإهـــداء

الى روح والـدي العـزيـز

الحـاج عبـد العـزيـز بعيزيـق

شكر و تحية

ارفع شكري الخالص وتقديري الكبير الى استاذتي

السيدة منيرة شابوتو - رمادي

التي احاطتني بكامل العناية فبذلت ونفعت وعلمت بأمانة واخلاص ومثابرة وثبات

واقدم تحية إكبار ومحبة لاثنتين

امي وزوجتي العزيزتين

ربتني الاولى على حب العلم والعمل وتشحذ عزمي باستمرار .
وشجعتني الثانية بإخلاص على الثبات في نفس الدرب .
فكانت لي خير سند طوال مدة البحث دون كلل أو ملل .

وحبي لمن منحني التشجيع ببراءة الطفولة التلقائية ابنتي

منال وحذام

وتحيتي لكل من شجعني من اخوتي واقاربي واصدقائي .
وشكري الجزيل لمن ساعدني على انجاز هذا البحث خاصة :

اخي محمد

والصديقين : عبد القادر بن عمر والمنصف الخراط

والآنسة ثريا الوسلاتي

ملاحظـــات :

- الغينا حرف « هـ » أمام التاريـــخ الهجـري و « م » امام التاريخ الميلادي . وكتبنا التواريخ كالآتي : 1229/626 .

- وقع الاستغناء عن عبــارة « مصدر سابق » بالنسبة الى المصــادر التي سبق ذكرها كاملة .

- وضعنا الكلمة المقتضبــة « .éd» امام اسم الناشــر للمصــدر او مجموعة الوثائق لنميزه عن المؤلف .

- حرصنا في الهوامش على مراعاة أسبقية التاليف عند ذكر المصادر في الهوامش واسبقية تواريخ الصدور عند ذكر المراجع .

- نشيــر الى ان جميـــع الخرائط والجداول الواردة في البحث من انجازنا شخصيا بالاعتماد اساسا على المعطيات المتوفرة في المصــادر (ما عدا قائمة السلاطين الحفصيين بتونس ص 106(م)) .

المقدمة

طبع المجتمع الحفصي في آن واحد بانتشار البداوة واهمية المدن . فهما عالمان تزامنا ، كل بمكوناته ومميزاته وأدواره .

ولقد تميز عالم البداوة باهمية الارياف وتوزع القبائل الرحل او المستقرة في كامل فضاء الدولة الحفصية بكثافة متفاوتة سواء القبائل البربرية ، او القبائل الهلالية والسليمية التي اختص المجال الحفصي باحتوائها دون غيره من بلاد المغرب آنذاك ..

وتميز عالم المدن بتعدد العواصم الجهوية كاقطاب سياسية واقتصادية وثقافية ووجود عدد هام من المدن الوسطى والصغرى الى جانبها ، وبتوزعها سواء في الداخل او على السواحل .

ونذكر من العواصم الجهوية الداخلية : باجة وقفصة وقسطيلية (او توزر) وقسنطينة وبسكرة ؛ ومن العواصم الجهوية الساحلية تونس بوصفها عاصمة جهتها إضافة الى كونها عاصمة الدولة آنذاك ، وبجاية التي تشكل موضوع بحثنا (1) ، وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس .

ولكنها اختلفت من حيث اهميتها وخصوصياتها . فقد كانت مدينتا تونس و بجاية ، دون منازع اهم المدن الساحلية بل اهم مدن الدولة الحفصية عامة .

فتونس كانت عاصمة الدولة وقطب إفريقية اي الجناح الشرقي لها .
وكانت بجاية عاصمة الجناح الغربي وقطب المغرب الاوسط . فقد

---

1) نشير الى ان بجاية اليوم مدينة جزائرية ساحلية تنتمي الى بلاد القبائل الصغرى وواقعة على خط الطول 5 درجات و 44 دقيقة و 36 ثانية شرقا وخط العرض 36 درجة و 44 دقيقة و 54 ثانية . وهي مركز ولاية وميناء بترولي هام وموقع سياحي .
Carte topographique de Béjaïa (Bougie) au 1/500,000 ,Feuille n° 26, Type 1922 ,levés stéréographiques aériens de 1959 , Dessinée et publié par l'Institut géo. Nat. 1965 :

فاق اشعاعهما السياسي والاقتصادي والثقافي جهتيهما . واختلفتا عن بقية المدن الحفصية الساحلية ببعدهما المتوسطي الواسع الذي لم يكن ليقارن مع مدن ساحلية وسطى او صغرى مثل بونة أو جيجل أو بنزرت أو حتى مدن هامة مثل المهدية وصفاقس وطرابلس .

ولقد برهنت المصادر العربية وغير العربية على اهمية بجاية كمركز سياسي وعمراني واقتصادي وثقافي .

وهناك عوامل تاريخية وجغرافية وبشرية واقتصادية جعلت من بجاية آنذاك مدينة متوسطية كبرى تمثلت اساسا في نشأتها وتوسعها السريع في العهد الحمادي وفي موقعها المتميز برا وبحرا ورصيدها البشري وتنوع الاطراف التجارية المتوسطية بها ونمو نشاطهم في الحوض الغربي للمتوسط واهمية تجارة الصحراء وقوة العملة الحفصية واستقرارها .

لذلك سندرس بجاية اقتصاديا بوصفها ميناء متميزا ضمن المدن الساحلية الكبرى ، وسندرسها اجتماعيا بوصفها تجمعا حضريا هاما . ولا بد من التساؤل عن خصوصياتها عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا خلال العهد الحفصي ، التي قد تميزها عن غيرها .

ولكن بجاية كانت مدينة هامة منذ عهد الحماديين وخلال العهد الموحدي ، اذ تحولت منذ 1069/461 الى عاصمة للدولة الحمادية ، وتوسعت عمرانيا واصبحت منذ القرن 11/5 مركز الثقل في المغرب الاوسط .

وهذا ما يدعونا الى التساؤل عن التحولات التي عرفتها بجاية في العهد الحفصي ضمن تطورها العام .

وباجمال ارتأينا اعتمادا على ما كنا نقوله وبعد تفحصنا لمعطيات المصادر المتوفرة (2) ان نتساءل حول اهم خصوصيات مدينة بجاية والتحولات التي عرفتها في العهد الحفصي عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا .

تلك هي الاشكالية التي نريد ان نعالجها باختيارنا للموضوع التالي لبحثنا : « بجاية في العهد الحفصي ، دراسة اقتصادية واجتماعية .»

وهو ينحصر من حيث المجال في مدينة بجاية ، اي انه دراسة مونوغرافية . ويمتد بالنسبة للفترة على كامل العهد الحفصي الذي عاشته بجاية من 1229/626 تاريخ ضمها من قبل مؤسس الدولة الحفصية ابي زكرياء الاول (1229/626-1249/647) الى 1509/915 تاريخ استيلاء

---

2) انظر لاحقا : تقديم المصادر » ص 10-27 من البحث.

الاسبان عليها ، باستثناء الفترة القصيرة للحكم المريني الذي دام في بجاية 13سنة من 1347/748 الى 1360/761 ، اي ان تاريخها الحفصي يبدأ مع قيام الدولة الحفصية ولكنه ينتهي قبل نهايتها بـ 65 سنة .

وتمثل الفترة الحفصية اطول فترة في تاريخ بجاية الوسيط اذ دامت 280سنة (شمسية) او 267 سنة ان استثنينا الفترة المرينية ، بينما دامت الفترة الحمادية 84 سنة والفترة الموحدية 77 سنة .

ولقد اخترنا هذا الموضوع نظرا الى اهمية مدينة بجاية ومينائها واعتمادا على الاعتبارات التالية :

1) **أولا** ، لان المصادر اولت مكانة هامة لبجاية في العهد الحفصي اذ تواتر الحديث عنها في مناسبات عديدة ، وذكرت في رسائل وعقود مختلفة مع اهم المدن الحوض الغربي للمتوسط وبلدانه : المدن الايطالية ،مرسيليا وأرغون.

2) **ثانيا** ، لانه لم ينجز الى حد الآن بحث تاليفي عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبجاية في العهد الحفصي اما العمل الذي انجزته شخصيا بعنوان « بجاية في العهد الحفصي » في نطاق شهادة الكفاءة في البحث بإشراف الاستاذة منيرة شابوتو - رمادي ، بتونس 1978 ، فانه كان مونوغرافيا عامة عن تاريخ بجاية في العهد الحفصي ، ولا يعوض بحثا مختصا في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي .

3) **ثالثا** ، لان الفترة الحفصية عامة ما زالت في حاجة ملحة لبحوث مونوغرافية .

وقد توخينا تخطيطا بثلاثة أجزاء :

اردنا في الجزء الاول بعنوان « التطور التاريخي والمعطيات السكانية والعمرانية » تتبع تطورها التاريخي العام وتاريخها السياسي الحفصي وتقدير عدد سكانها وربطة بتطور مجالها العمراني ووظائفها الاقتصادية .

وكانت لنا غايتان : تمثلت غايتنا الاولى في التعرف على مدينة بجاية التي ورثها الحفصيون . وجاءت الاجابة في الفصل الاول الذي حمل عنـــوان « بجاية إرث حمادي أساسا »

وتمثلت الغاية الثانية في إبراز تحولات بجاية ووزنها ونظامها سياسيا وعمرانيا وسكانيا في العهد الحفصي نظرا للعلاقة الوطيدة والجدلية

بين هذه التحولات ووزنها ونظامها السياسي من جهة ودورها ووزنها اقتصاديا وتركيبة مجتمعها ،العلاقات بين فئاته من جهة أخرى . وكان ذلك موضوع الفصلين الثاني والثالث .

وخصصنا الجزء الثاني للحديث عن نشاط بجاية الاقتصادي وكان بعنوان : « بجاية ميناء نشيط » وكان اكثر كثافة من الجزءين الأول والثالث ، نظرا لكثافة المواضيع المطروحة . وهذا أمر طبيعي لان حركة الميناء مثلت الخصوصية الرئيسية لبجاية ومحور الحياة الاقتصادية والنشاط الحيوي للمدينة .

وحاولنا ان ندرس في هذا الجزء جميع الانشطة الاقتصادية للميناء واسسها . فتحدثنا عن ميداني الانتاج الفلاحي والحرفي في فصل اول ، وتساءلنا عن مدى اوتباطها بالحركة التجارية للميناء في مستوى نوعية المنتوجات والقدرة على المساهمة في تزويد السوق .

وتطرقنا في الفصل الثاني الى دور بجاية في تجارة القوافل ، لاسيما تجارة بلاد السودان . فرسمنا شبكة الطرقات البرية والصحراوية التي تربطها ببلاد المغرب والمشرق وبلاد السودان ، ثم وضحنا آليات التبادل ودور بجاية كميناء متوسطي يربط تجار الصحراء والمغرب بتجار المتوسط .

وخصصنا الفصل الثالث لدراسة بجاية كميناء لتجارة البحر الابيض المتوسط . فركزنا اولا على دراسة الهياكل والعملة ، خاصة الميناء ومؤسساته والاسطول والفنادق وخصوصيات العملة المضروبة في بجاية وقيمتها وتداولها . وطرحنا إشكالية الاسطول ونشاطه . ثم اهتممنا بنشاط الميناء الذي كان ذا اتجاهين : تمثل الاول في النشاط التجاري ، فعرفنا بالعلاقات التجارية وتطورها والبضائع المتبادلة .وبوبنا هذه العلاقات حسب البلدان المتعاملة مع بجاية نظرا لخصوصيات كل منها واختلاف المراحل التي مرت بها ، وتمكنا من استنتاج عام لمراحل تطور الحركة التجارية في الميناء اعتمادا على تطور العلاقات الثنائية . وتمثل الاتجاه الثاني في تصاعد القرصنة اذ مثلت بجاية اهم قاعدة حفصية لنشاطها. فبينا تطورها وقوتها وشرحنا استراتيجيتها ووضحنا مردودها وسلبياتا .

وقد بوبنا القرصنة قبل حديثنا عن العلاقات التجارية لانها أثرت في تطورها الى جانب عوامل أخرى .

وتراءت لنا في جميع مراحل دراستنا لنشاط الميناء وهياكله وعلاقاته التحولات التي عرفها في العهد الحفصي ووزنه وأدواره .

واهتممنا في الجزء الثالث بدراسة المجتمع الحضري لبجاية بوصفها من أكبر الحواضر الحفصية المتوسطية . وارتبطت دراسته بالجزءين السابقين لانهما يوفران عناصر عديدة لتفسير تركيبته وطبيعته وصراعاته وتناقضاته .

واردنا ان ندرسه أفقيا وعموديا .

فتساءلنا في فصل اول عن أصوله البشرية . ووجدنا الاجابة في دراسة حركة الهجرة نحو بجاية منذ ان بنيت في العهد الحمادي (1068/460) ولاحظنا ان التوافد كان من بلاد المغرب أولا ، خاصة من باديتها القريبة ومن منطقة الحضنة ، ومن الاندلس ثانيا . وقدوم الاندلسيون خاصة في العهد الحفصي . واهتممنا بالكشف عن اصول الوافدين الجغرافية والاجتماعية حتى نبين مساهمة العناصر الوافدة في تركيب المجتمع البشري والطبقي .

وخصصنا الفصل الثاني لدراسة الرتبية الاجتماعية فتساءلنا اولا عن مقاييس التراتب الاجتماعي . فتبين ان الجاه هو المقياس الاساسي للفصل بين « الخاصة » و« العامة» ، فخصصنا له الباب الاول من هذا الفصل لشرح مفهومه ووظيفته الاجتماعية . ثم تحدثنا عن « الخاصة » و « العامة » في البابين الثاني والثالث محاولين الكشف عن التناقض بينهما ودعائم نفوذ الفئات والعناصر البشرية والصراعات بينهما . وحاولنا ان نبين دور العائلات الكبرى ومراحل تداول نفوذها في أعلى مراتب السلطة .

وفسرنا مساهمة مختلف المؤثرات السابقة للعهد الحفصي والجديدة في نحت طبيعة المجتمع ، لا سيما تزايد نشاط التجارة وتصاعد القرصنة وتوافد الاندلسيين .

وأخيرا أردنا ان نرسم في الخاتمة العامة مختلف النتائج التي توصلنا اليها فيما يتعلق بالتحولات التي عرفتها بجاية في العهد الحفصي وخصوصياتها في مستوى المدينة والاقتصاد والمجتمـــع .

تقديم المصادر

*

ان غايتنا من تقديم المصادر هو التعريف باصنافها وإبراز ما توفره لنا من المعطيات التي أفادتنا في موضوعنا ، رغم صعوبة استغلالها للاسباب التالية :

- لان العديد منها إخباري يهم الاحداث السياسية او سير وتراجم الفقهاء ، ولا يهتم بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية .
- لانها لا تغطي كامل الفترة الحفصية بانتظام واسترسال .
- لان البعض يعيد ما قيل في مصادر سابقة .
- لانها تفتقد اجمالا الى ارقام صريحة ودقيقة ، وقد نبحث عن بعض المسائل فلا نجد جوابا عنها في اي نوع من المصادر كبعض المسائل الديمغرافية او تحديد عدد من المواقع العمرانية كالجوامع والاسواق ، حتى الجامع الاعظم او دراسة بعض النواحي التنظيمية الاقتصادية او التتبع الدقيق لاصول العائلات وامتدادها ونفوذها ، الى غير ذلك من المسائل .

وسنستعرض نوعية المعطيات بالنسبة لكل صنف من أصنافها التي بوبناها في ثلاث مجموعات :

- الكتب او المصنفات
- الرسائل والعقود
- الآثار

أ - الكتب أو المصنفات :

يمكن تصنيفها الى كتب التاريخ وكتب الرحلات والجغرافيين وكتب الطبقات والتراجم وكتب النوازل والفقه وأنواع أخرى مثل الموسوعات والكتب الادبية .

1 - كتب التاريخ

نذكر من بينها كتبا حاولت ان تحيط بتاريخ كل الامم ، في مقدمتها « الكامل في التاريخ » لابن الاثير (1) و « كتاب العبر » لابن خلدون (2)

---

1) ابن الاثير (ابو الحسن) ، *الكامل في التاريخ* ، دار صادر دار بيروت للطباعة والنشر ، 1967/1387 ، 12 جزءا + جزء للفهارس .

2) ابن خلدون (عبدالرحمان) ، *كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر* ، نشر دار الكتاب اللبناني 1959 ، 7 مجلدات

الذي قدم لنا اخبارا غزيرة عن الاحداث الجارية في بجاية في العهد الحفصي ، وقد ينفرد ببعضها مقارنة بالمصادر الاخرى ، وذلك ضمن الجزءين الهامين اللذين خصصهما لتاريخ بلاد المغرب والبربر، وكتبا اختصت بتاريخ دولة او منطقة دون الاخرى منها « كتاب البيان المغرب في تلخيص أخبار الاندلس والمغرب » لابن عذارى المراكشي (3)،و « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي (4) الذي لم يقتصر على الاخبار التاريخية بل أورد لنا ايضا بعض المعلومات الجغرافية، لا سيما تلك التي تهم المسالك التي كانت تربط بجاية بغيرها في بلاد المغرب ، و « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » لابي زكرياء يحيى ابن خلدون ، (5) و « الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية » لابن القنفذ القسنطيني (6) . وتوفر لنا الفارسية بعض الجزئيات المتعلقة بتاريخ بجاية التي قد لا يذكرها كتاب العبر، رغم ان معطياتها اقل كثافة لا سيما وان صاحبها كثيرا ما عاين الاحداث عن كثب . فهو من سكان قسنطينة القريبة من بجاية . و « تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » لابي عبد الله الزركشي (7) و « الادلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية » لأحمد بن الشماع (8) وهذان المصدران يواصلان زمنيا مدنا بالاخبار عن احداث بجاية لان صاحبيهما عاشا خلال القرن 15/9 اي بعد ابن خلدون وابن القنفذ .ونذكر مصدرا من نفس النوع مختلفا عما سبق ذكره اذ اختص بتاريخ بجاية دون غيرها ، وهو النص الذي كتبه ابو علي ابراهيم المريني . ونشره شارل فيرو (Ch. Féraud) مترجما الى الفرنسية في «المجلة الافريقية » سنة 1868 (9) بعد ان تمكن من الحصول على المخطوط من بني يعلا بمساعدة أحد البجائيين (10) والنص يروي احداث استيلاء الاسبان على بجاية سنة

---

3) ابن عذارى المراكشي : *كتاب البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب* ، جزءان ، تحقيق كولان وبروفنسال ، دار الثقافة بيروت 1948 .

4) المراكشي (عبد الواحد) ، *المعجب في تلخيص اخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الى آخر عصر الموحدين* ، دار الكتاب - الدار البيضاء 1978 .

5) ابن خلدون (ابو زكريايحيى) ، *كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد* ، تحقيق الفريدبال (Alfred Bel) ، الجزائر 1910/1328 .

6) ابن القنفذ القسنطيني ، *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية* ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر 1968 .

7)الزركشي (ابوعبد الله) ، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية* ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس 1966.

8) ابن الشماع (احمد) ، *الادلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية* ، تحقيق الطاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1984 .

9) Féraud(Ch.L)éd., "Conquête de Bougie par les espagnols d'aprés un manuscrit arabe", *Revue Afraicaine*, 12 Année n° 70-71 (1868) ,p. 245-256 et 337-349.

10) Ibid., p. 246.

1510-1509/915 والفتـرة التي سبقتها مباشرة ، نقلا عن شاهـد عيان اسمه ابو محمد بن عبد الحق (11) وتميز بدقة الاخبار والتواريخ . ويبـدو انه جزء من كتاب لابي علي ابراهيم المريني بعنوان « عنـوان الاخبار فيما مـر على بجاية » (12) ولا نملك اليوم بين ايدينا من هذا الكتاب الا النص الذي نشره فيرو بالفرنسية .

وأفادتنا كتب التاريخ في الاجابة عن نشاة المدينة ومتابعـة تاريخهـا السياسي وتطوره . واشتملت بصفة عامة على تواريـخ مضبوطـة للاحداث السياسية .

كما أفادتنا في دراسة المجتمع وكانت « الفارسية » و « العبـر » و « تاريخ الدولتـين » و « الادلة البينـة » ، رغم تركيزهـا على الاحداث السياسية ومتابعة أطوار الحكـم ، أكثر كتب التاريـخ تواترا في دراستنا للمجتمع البجائي في العهد الحفصي ، الى جانب انواع الكتب الأخـرى ، لانها احتوت معلومـات وإشـارات أمكـن استغلالها لدراسـة بعض العائلات والفئات الاجتماعية ببجاية مثل ابن ابي هلال (13) وابن سيـد الناس (14) وبعض المظاهر الاجتماعية بها مثل ثورة علي بن صالح (15) .

2 -كتـب الرحلات والجغرافيين :

ضمـت التآليف الجغرافيـة الكتب والمعاجم وقد نقل العديـد من الجغرافيـين الاخبار عـن سابقيه مثلا ، نقل الادريسي عن ابن حوقل (16) ، ونقل صاحب الاستبصـار عن ابي عبيـد البكري (17) ، ومارمول عن ليـون

---

11) Ibid., p. 252.

12) *Ibid.*, p. 248.

13) انظر ص 69 ، 70 ، 87 ، 102 ، 405 من البحث.

14) انظر ص 12 ، 103 ، 376 - 377 ، 406-414 من البحث .

15) انظر ص 453-455 من البحث .

16) ذلك ما قـالته ك . فنكـار :
Venacker (Cl.) ," Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes IX é- XIIé s . " *Annales E.S.C.*, 28 éAnnée , N° 3 , 1973,p. 660.

17) ذلك ما قاله هـ . ر . ادريس :
Idris (H.R.) , *La Berbérie Orientale sous les Zirides Xé - XII é s .* , Publication de L'institut d'études Orientales , Faculté des lettres, Alger ,Ed. Librairie d'Amérique et d'Orient -Adrien Maisonneuve , Paris 1962 , 2 tomes , t. II, p. 640 .

الافريقـــي .وخصص البعض منهـم فقرات هامة للتعريف ببجايةووصفها مثل الادريســي (18) وصاحب الاستبصار ('18) والعمري (''18) الذي تميز عنهمـــا بمعاصرته للحفصيين .

ومن بين اصحاب المعاجم ، خصص ايضا كل من ياقـــوت الحمـــوي في « معجم البلدان » (19) و ابو الفداء في« تقويم البلدان » ('19) ومحمد ابن عبد المنعم الحميري في « كتاب الروض المعطار» (''19) فقـــرة للتعريف ببجاية . والحميري هو الذي عاصر الحفصيين وعاش قريبا منهم . ولقد كان دقيق الوصف احيانا ولكن نلاحظ انه نقل فيما يخص بجاية الجزء الاكبر عن سابقيه لا سيما الادريسي وصاحب الاستبصار .

تميـزاصحاب الرحلات بمعاينــــة الاحداث ومعايشتها وبمشاهـــدة مباشرة للاماكن والمسالك والمدن ، منهم من مر ببجايـــة مثل محمد العبدري الذي زارها سنة 1289/688 في طريق الذهاب وعاد اليها بعد ثلاث سنوات عند ايابه ، وخصها بوصف دل على اعجابه بها رغم انه لم يعجب بعديد المدن الاخـــرى ('''19) ، وابـن بطوطـة الذي تواصلـت رحلتـه من 1325/725 الـــى 1353/754 (20) ، ومر ببجايــة سنة 1325/725 في طريق الذهاب ('20) وقـــد سجـــل مشاهداتـــه الشخصيـــــة من بلاد المغـــرب

---

18) الادريسي (ابو عبد الله) ، *المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق* ، تحقيق محمد الحاج صادق ، باريس 1983 ، ص 116 .

'18) نشرت هذه الفقرة في *الاصالة* ، عدد خاص ، مارس - افريل ، (1974) ، ص 100-101 .

''18) العمري (ابن فضل الله) ، *وصف افريقية والاندلس* ، *مقتطف من كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار* ، تحقيق ح.ح عبد الوهاب ، مطبعة النهضة ، تونس ، دون تاريخ ، ص 8-9 .

19) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان*، 5 مجلدات ، دار صادر - دار بيروت ، 1957 ، ج ا، ص 339 .

'19) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، دار الطباعة السلطانية ، باريس 1840 ، ص 136-137 .

''19) الحميري (ابو عبد الله محمد) ، *كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار* ، حققه احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، الطبعة الثانية ، 1980 ، ص 80-82 .

'''19) العبدري (محمد) ، *الرحلة المغربية* ، تحقيق محمد الفاسي ، نشر جامعة محمد الخامس - الرباط 1968 ، ص 26-31 ، 277 .

20) ابن بطوطة (محمد) ، *تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار* ، الشركة العالمية للكتاب ودار الكتاب اللبناني ، بيروت 1991 ، ص 19 ، 306 .

'20) المصدر نفسه ، ص 19-20 .

الى المشـــرق الى بلاد الســودان، وخالد البلوي الذي زار بجاية اثناء رحلته في طريق الذهاب سنة 1336/736 وطريق الاياب سنة 1340/740 (''20) وعبد الباســـط بن خليـــل الذي زار بنفسه إفريقيـــة سنة 1462/866 وتوقــف ببجاية فـــي ذي القعدة 868 / جويليـــة 1464 وفي ربيع الثاني 871 / اكتوبر 1466 ، واورد مشاهداتـــه ضمن كتابـــه « الـــروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » وهناك رحالة آخرون تحدثـوا عن بجايـــة رغم انهـــم لم يزوروهـــا مثل الرحالـــة البلجيكي أدورن (Adorne) الـــذي زارافريقيـــة سنـــة 1470/874 ودون ابنـــه رحلتـــه .ونشـــر برنشفيك(R. Brunschvig) الجزءين الخاصـين بافريقيـــة من رحلتي عبد الباســـط وأدورن سنـــة 1936 ('''20) . ومنهم مـــن لم يتحدث عن بجاية بالذات ولكـــن اثار جوانب متصلـــة بموضوعنـــا مثل « كـادا موستـــا » (CADA MOSTA) (21) و « فرنانديـــز فالانتـــين » (FERNANDEZ VALINTINE) (22) اللذين زارا بلاد المغرب خلال النصـــف الثاني للقرن 15/9.

ويعتبر حسن بن محمد الوزان الفاسي المسمى بليون الافريقي (Léon l'Africain) صاحب كتاب « وصف افريقيـــا » (23) شـــاهـــد عيـــان

''20) البلوي (خالد بن عيسى) ، *تاج المفرق في تحلية علماء المشرق* ، جزءان ، مقدمة وتحقيق الحسن السايح ، نشر صندوق احياء التراث الاسلامي المشترك بين المغرب والامارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة ، المحمدية (المغرب) 1964 ، ج ا، ص 53 ، 153 ؛ ج اا، ص 138 .

'''20) Brunschvig (R.)éd. , *Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XV é s* " Abdelbasit b. Halil et Adorne , Publication de l'Institut d'etudes Orientales de la Faculté des lettres d'Alger , Ed. Larose Editeurs, Paris 1936.
وقد ذكرت بجاية في صفحات 41 ، 67 ، 68 ، 209 .

21) الحرير (ادريس صالح) ، « العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنـــوب الصحراء الكبـــرى وأثرها في نشـــر الاسلام هناك » ، *مجلة البحوث التاريخية* ،عدد 1 ،(1983) ، ص 80.

22) المرجع نفسه والصفحة نفسهـــا .

23) ولد حسن بن محمد الوزان في غرناطة سنة 1494/900-1495 وتربى وتعلـــم بفـــاس ، وأسر بجربة سنة 1515/921 وحمل الى البابا يوحنا ليو العاشر الذي نصره وسماه « جان ليون » (Jean Léon) . ولذلك فانه الف كتابه « *وصف افريقيـــا* »(*Description de l'Afrique*) في روما ، وهو القسم الثالث من كتاب « الجغرافيا العامة» الذي الفه بالعربية ، ثم ترجم هذا القسم الى الايطالية سنة 1526/933 او لربما اعتمد عليه لتاليف كتاب آخر بالايطالية سماه « وصف إفريقيا » . والمهم انه لم يصلنا باللغة العربية بل بالايطالية . العربي (اسماعيل) ، « بجاية من خلال النصوص الغربيـــة » ، *مجلة الأصالة* ، عدد خاص :بجاية عبر العصور ، السنة 4 ، العدد 19 ،(1974/1394) ،ص 71 - 82 ؛ الوزان الفاسي (حسن) ، *وصف إفريقيا* ، ترجمـــه عن الفرنسيـــة محمـــد الحجـــي ومحمد الاخضـــر ، منشورات الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر، الرباط ، 1980/1400، ص 12 .

ايضـــا لشمـــال إفريقيـــا في بدايـــة القـــرن 16/10 قبـــل سنـــة 1515/921 التاريخ الذي أسر فيه بجربة من قبل النصارى .وخصص فقرة عن بجاية ولكنه اعتمد في تاليف كتابه على ذاكرته وقد يكـــون قام ببعـــض الاخطـــاء . ووصلنـــا كتابه باللغـــة الايطاليـــة ثم ترجمـــه « إيبـــولار» (A.Epaulard) الـــى الفرنسيـــة ونشـــره في جزئين ببـــاريس سنـــة 1956 (24) ، ثم نقله الى العربية عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الاخضر بالرباط سنة 1980 (25) .

اهتمت كتب الرحلات والجغرافية بالجانب العمرانـــي وان اقتصرت على الوصف العـــام . وقدمـــت لنا خاصـــة معلومات ثرية وهامـــة حول المســالك والطرقات وتجارة بلاد الســـودان لا سيمـــا مؤلفات ابن حوقـــل والبكري والادريسي وياقوت الحموي والعبدري وابي الفداء والعمري وابن بطوطـــة والـــوزان .

3 - كتب الطبقات والتراجم

وهي أكثر عددا بالمقارنـــة مع ما سبقهـــا ، وفي مقدمتها « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعـــة ببجايـــة » لابي العباس الغبريني (26) . وذلك لانه مختص ببجاية ويوفر لنا الـــى جانب 109 مـــن التراجم معلومات متنوعة ذات صبغة اجتماعية او اقتصادية . ومؤلفـــه كان أحد كبار قضاة بجاية في القرن 13/7 (27) وبالتالـــي فقد عايش أغلبيـــة العلماء الذين ترجم لهم . وكان شاهد عيان لعديد الوقائع التي رواها أثنـــاء الحديث عنهم .

اما المؤلفات الاخرى فانها تورد تراجم أعلام عاشـــوا ببجايـــة ضمن ما تقدمه . ولا بد من الاشارة الى ان عددا وافرا منها يجتر نفس الترجمـــة عمن سبقه .

---

24) L'Africain (léon) , *Description de l'Afrique* , Nouvelle éd. traduite de l'Italien par A. Epaulard . Librairie d'Amérique et d'Orient - Adrien Maisonneuve ,2 Tomes ,Paris 1956.

25) الوزان الفاسي (حسن) ، *وصف إفريقيا* ، مصدر سابق .

26) الغبريني (ابو العباس احمد) ، *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية* ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيـــع الجزائـــر ، 1970 . **وسنستعمـــل هذه الطبعة لاحقا** . نشير الى ان محمد ابن ابي شنب هو اول من حقق هذا الكتاب ونشره بالجزائر سنة 1910 ، ثم اعاد تحقيقه ونشره ثانية رابح بونار ، وقام عادل نويهض بتحقيقه ونشره ثالثة بدار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979 .

27) ابن خلدون ، *العبر* ، ج‌VI، ص 719 ؛ النباهي المالقـــي ، *كتاب المرقبة العليا* ، ص 132 انظـــر مقدمتي المحققين رابح بونار وعادل نويهض لكتاب « *عنوان الدراية* » .

ومن بين هذا النوع من المصادر يختص « أنس الفقير وعز الحقير » لابن القنفذ (28) بترجمة حياة ابي مدين شعيب ابن الحسن الاندلسي.

وقائمة هذه المصادر طويلة نكتفي بذكر عدد من رؤوس العناوين : « التكملة» لابن الآبار ، « وفيات الاعيان » لابن خلكان ، « صلة الصلة » لابن الزبير ، « ذيل وفيات الاعيان » لابن القاضي ، « شذرات الذهب » لابن العماد « الديباج المذهب » لابن فرخون ،«البستان » لابن مريم « التشوف » لابن الزيات التادلي ، « بغية الملتمس» لابن عميرة ، « لسان الميزان » للعسقلاني ، « نفح الطيب » لاحمد المقري ، « مرآة الجنان» لابن محمد اليافعي ، « بغية الوعاة » و « طبقات الحفاظ» لعبد الرحمن السيوطي ، « الضوء اللامع » للسخاوي ...

يوفر لنا هذا النوع من الكتب ، وان كان ذا اهتمام واحد وهو التراجم ، مادة غزيرة استغلالها ممكن في اتجاهات مختلفة ، لا لدراسة الحياة العلمية وتياراتها فحسب بل ايضا لدراسة الهجرة وتركيبة المجتمع ، خاصة فئات العلماء ودعائم نفوذها ، اذ تمدنا بمعلومات عن الأصل الجغرافي للعالم ومدة استقراره ببجاية وولادته ووفاته ومكانيهما ومهنته واختصاصه ومكان دراسته وأساتذته ومؤلفاته واحيانا أسرته ، وبعض اعماله ومواقفه و« كراماته وبركاته » .وتذكر لنا المناصب الادارية والسياسية التي قد يتقلدها البعض منهم . ونجد ضمنها حتى بعض المؤشرات التي نستطيع استغلالها لدراسة فئات « العامة » كإشارتها « للمساكين » والفقراء والسود (29) .

كما تتضمن هذه الكتب معطيات متفرقة عن المظاهر العمرانية والحياة الاقتصادية كذكرها لعدد من أسماء الابواب والمساجد والاسواق المحلية وأسرى القرصنة (30)وروايات عن الجفاف والازمات الطبيعية بهدف ابراز

---

28) ابن القنفذ القسنطيني ، *انس الفقير وعز الحقير* ،تحقيق محمد الفاسي وادولف فور ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط 1965 .

29) الغبريني ، *عنوان الدراية*، ص 151 ، 161 ، 165 ؛ ابن الزيات التادلي ، *التشوف الى رجال التصوف* ، تصحيح أدولف فور ، الرباط 1958 ، ص 448 - 449 ؛ المقري (أحمد) ، *نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب* ، تحقيق احسان عباس ، 8 مجلدات ، دار صادر - بيروت 1388/1968 ، ج II، ص 189 .

30) وردت مثلا معطيات هامة عن القرصنة في بجاية ضمن ترجمة ابي الطاهر عمارة الشريف في كتاب *عنوان الدراية* للغبريني ص 76 -77 .

كرامات الاولياء الصالحين ،واشارات تهم حتى التجارة البحرية والاحباس ببجاية (31) .

4 - كتب النوازل والفقه :

استعملنا منها « فتاوي البرزلي » (32) و « المعيار المعرب » لاحمد الونشريسي (33) .

كان هذا النوع من الكتب بالنسبة الينا اداة بحث هامة حتى وان لم تتعرض نوازله لبجاية الا نادرا ، فقد أعاننا على دراسة قيمة العملة والمعادلة بين اصنافها والكشف عن مواقف الشرع من القضايا المتعلقة بها ، وايضا مواقف السلطة ، خاصة مسالة تداول العملة « المغشوشة » (34) . كما وفر لنا بعض المعطيات الاجتماعية والاقتصادية كإشارة الونشريسي « لاصحاب الاموال الطائلة » ببجاية او الاحباس بها .

5 - أنواع مختلفة من المصادر

منها« لسان العرب » لابن منظور من نوع الموسوعات او المعاجم اللغوية ، و « التعريف بابن خلدون ورحلته » الذي يمكن اعتباره من السير الذاتية ، ومقدمة ابن خلدون التي تختلف عن « كتاب العبر » وان كانت تمثل الجزء الاول منه لانها تتضمن الجانب النظري ، وكان بالنسبة الينا المصدر الاهم من غيره لدراسة مقاييس تقسيم المجتمع ، وكتاب « صبح الاعشى » لابي العباس القلقشندي ، وهو كتاب أدبي اورد نماذج من رسائل الملوك منها اربعة تهم بجاية (35) .لكنها ليست من نوع الرسائل التي تضبط العلاقات

---

31) المصدر نفسه ، ص 188 - 189 .

32) البرزلي (ابو القاسم بن احمد) ، *جامع مسائل الاحكام بما نزل بالمفتين والحكام او نوازل البرزلي او فتاوي البرزلي* ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم 04851 ، جزءان .

33) الونشريسي (أحمد بن يحيى) ، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والاندلس والمغرب* ، 13 جزءا ، دار الغرب الاسلامي -بيروت 1401/1981.

34) نوازل البرزلي ، جII، ورقة 38 ظهر ؛ الونشريسي ، المصدر نفسه ، جV، ص 57 ، 77 - 78 ؛ ج VI، ص 129.

35) ثلاث رسائل من السلطان ابي الحسن المريني (731/1331 - 749/1348) الى الملك محمد بن قلاوون بمصر (709/1309 - 741/1341) ، ورسالة من صاحب غرناطة يوسف بن الاحمر (733/1333-755/1354) الى ابي الحسن المريني . ابو العباس القلقشندي *صبح الاعشى في صناعة الانشاء* ، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، طبع المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة ، 15 جزءا ، جVI، ص 310،جVII ص 63 - 65 ، 395 - 407 ؛ ج VIII، ص 91- 92.

الثنائية سواء السياسية او الاقتصادية او تثير مشاكل متعلقة بالبلدين ، بل هي مراسلات ودية بين حاكمين تعلمنا بموقف المرسل من محاولة الاستيلاء على بجاية من هذا او ذاك او فتحها . وقد تخبرنا عرضا عن أهميتها الاقتصادية دون تدقيق. ولا يمكن اعتبارها رسائل اصلية لان ابا العباس القلقشندي قد لا يوردها كاملة .

الى جانب هذه المصادر لدينا مجموعة من الرسائل والعقود والبقايا الأثرية .

II - الرسائل والعقود

هذه الرسائل والعقود قتلانية وميورقية إيطالية ومرسيلية وهي تضبط العلاقات السياسية والتجارية مع اسبانيا القتلانية وميورقة والمدن الايطالية ومرسيليا .ولم تصلنا وثائق من هذا النوع بين الدول الاسلامية فيما بينها ماعدا تلك التي ذكرها القلقشندي ('35) . وحتى الوثائق العربية التي نشرها ألاركون فهي تهم علاقات بجاية وغيرها من مدن او دول المغرب مع أرغون (''35) .

وأشير الى انه تعذرت علىّ معاينة الوثائق المخطوطة في مختلف مراكز الارشيف الاوروبية لعائقين اساسيين : اولا لعدم تمكني من اللغة المكتوبة بها ، وثانيا لمحدودية امكانياتي المادية . وحاولت تجاوز ذلك باستغلال ما توفر من وثائق منشورة اسبانية وايطالية ومرسيلية او استعمال الوثائق الايطالية التي نشرها برنشفيك ملخصة في عديد المواضع ضمن كتابه « تاريخ افريقية في العهد الحفصي » (36) او تلك التي استدل بها جورج جيهال (G. Jehel) في كتابه « الجنويون في الحوض الغربي للبحر المتوسط » ('36) .

وقد اقترحت الاستاذة منيرة شابوتو -رمادي باتفاق مع الاستاذ «ميشال بالار» (M. Balard) على الطالب الفرنسي د. «دومينيك فاليريون»(D. Valérian) بان يعد اطروحته حول بجاية كميناء متوسطي في العصر الوسيط اعتمادا على الوثائق الاوروبية اساسا حتى يكون عمله متكاملا مع ما قمت به فوافق وشرع في ذلك .

'35) راجع الهامش رقم 35 ص 16 من البحث .

''35) انظر لاحقا ص 18 من البحث .

36) برنشفيك (روبار) ، *تاريخ افريقية في العهد الحفصي* ، تعريب حمادي الساحلي، جزءان ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1988 .

'36) Jehel (G.) , *Les Génois en méditerranée occidentale (fin XI è- début XIVè s.)* , Paris 1993.

1 - وثائق اسبانيا القتلانية :

تحتل المجموعة المتعلقة باسبانيا القتلانية الصدارة . وتوجد في ارشيف تاج أرغون (A.C.A) ("36) وارشيف المعهد البلدي للتاريخ ببرشلونة (37) وقد زرت شخصيا هذين المركزين .

أ -وثائق ارشيف تاج أرغون :

يحتوي أرشيف تاج أرغون على أكبر عدد من الوثائق التي تهمنا ضمن القسمين الهامين التاليين :

* دفاتر « المستشارية »(Cancelleria)
* الرسائل الملكية الديبلوماسية (Cartas Reales Diplomaticas)

اللذين يعتبران اهم الاقسام الموجودة في هذا المركز الوثائقي (38) نظرا لكثرة الوثائق التي يحتويانها ويتضمن قسم الرسائل الملكية مجموعة من الرسائل الاصلية باللغة العربية عددها 162 وثيقة وهي قليلة جدا بالمقارنة بالعدد الضخم من الوثائق المكتوبة باللغة القتلانية ، محفوظة في خزائن 1و2و3 في صناديق تحمل عنوان « رسائل ملكية ديبلوماسية الخ (هكذا) عربية » (CARTAS REALES DIPLOMATICAS etc ARABES) وتهم العلاقات مع إفريقية ومملكة تلمسان والمغرب الأقصى وغرناطة ومصر . وهي مؤرخة بين 1277/676 و 1362/764 ما عدا معاهدة واحدة بين ارغون ومصر مؤرخة في(7 رمضان 833 / 30 ماي 1430) .

("36 A.C.A.= Archivo de la Corona de Aragon .

37) يسمى : « أرشيف المعهد البلدي للتاريخ » (Institut Municipal d'Historia)
او « الارشيف البلدي للتاريخ » (Archives Historico Municipal (A.H.M))
او « ارشيف المدينة للتاريخ » (Archivo Historico de la Ciudad)

38) هناك بجانب هذين القسمين : قسم وثائق الرق (Pergamins) وقسم الدفاتر المختلفة . مع الملاحظة انه يوجد داخل كل قسم تبويب ثان ،وهو تبويب زمني حسب فترات الملوك بالنسبة لدفاتر « المستشارية » (Cancelleria) وحسب نوع الوثائق او موضوعها او لغتها او مصدرها بالنسبة للاقسام الاخرى . ويحتوي كل قسم على آلاف الوثائق .

انظر ايضا :

Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane et le Maghrib de la bataille de las Navas de Tolosa (1212) à l'Avénement du Sultan Mérinide Aboul - Hassen* (1331),P. U.F. 1966,P. 4-6 .

وقد نشر هذه الرسائل العربية « ألاركـون(M.A. Alarcon) بالاشتـراك مع قرسيا دي ليناراس (Garcia de Linarés) سنة 1940ورافقها بترجمة الى اللغة الاسبانية (39) . ونشر قبلهما « جيمنـز صولر » (Gimenez Soler) الرسائل الخاصة بعلاقات أرغون مع تونس سنة 1909-1910 ورافقها ايضا بترجمة الى اسبانية في مجلة « حوليات معهد الدراسات القتلانية » (40) ولكن قراءة آلاركون ودي ليناراس أدق وافضل لان ج. صولر لم يتوصل احيانا لقراءة بعض الكلمات فترك امكنتها فارغة .

واستعملنا منها في موضوعنا 10 وثائق مؤرخة بين 1307/706 1361/761 ('40) ويتركز محتواها على اسرى القرصنة والأتاوة التي يريد خايم II (690 /1291 - 1327/727) فرضها على بجاية ، وتسود الوثائق المكتوبة بالقتلانية في ارشيف تاج أرغون . ويكون ما هو متعلق بموضوعنا مجموعة هامة . وهي إما رسائل اوعقود واغلبها رسائل تهتم بالعلاقات مع أرغون وايضا ميورقة . ونشر الكثير منها بداية من أواخر القرن XVIII، بفضل مجهودات عدد من الباحثين أهمهم دي كابماني (De Capmany) الذي نشر كتابه « ذاكرة تاريخية عن البحرية والتجارة والفنون لمدينة برشلونة العتيقة » لاول مرة في مدريد بين سنتي 1779 و 1792 ثم أعيد تنقيحه ومراجعته والتقديم له ونشره في برشلونة بين سنتي 1961 - 1963 (41) كما نشر ايضا وثائق اخرى من ارشيف ارغون في

---

(39) Alarcon (Maximiliano A.) y Garcia de Linares (Santon y Ramon),éd , *Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon*, Publicaciones de los escuelos de Estudios Arabes de Madrid y Granada .serie C Num.1 . Imprenta de estanislao Maestre - Madrid 1940 .

وتوجد نسخة من هذا الكتاب في ارشيف تاج أرغون ببرشلونة تحت رقم 940 . VIII . 22 Compra

(40) Soler (André Gimenez) ," Documentos de Tunez , Originales o' Traducidos " ,*Anuari de l'Institut d'Estudios Catalans* (1909-1910) p. 210-257 .

('40) Alarcon (M.A.),éd. , *Los Documentos Arabes..., op.cit.* , Doc. N° 23, 107, 110, 119, 130,131,134,136,137,140.

(41) نشـرة 1961 - 1963 .

De capmany y de Montpalau (Antonio) ,éd., *Memorias historicas sobre la marina comerico y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, Réedicion anotada prologo del excm SR F.E CHAMENI , Introduccion y notes por E. Giralt y Raventos , Revision documental por c. Batlle y Gallart Edit Teide Imp . Juvenil -Publication de camara oficial de comercio y navegacion de Barcelona Vol I en 1961 , Vol II- 1 en 1962 , Vol II- 2 en 1963 .

اما النشرة الاولى فقد ظهرت تحت نفس العنوان في 4 أجزاء وقامت بها :

La Real Junta y consulado de Commercia de la misma Ciudad , Madrid , Imp. A. sanche ,t.I et II en 1779 , t.III et IV en 1792 .

كتابه « معاهدات قديمة (AntiguoTratados)(42) . وتمتد هذه الوثائق التي نشرها في كتابه من نهاية القرن 13/7 الى بداية القرن 16/10 ويعود اغلبها الى القرن 14/8 لا سيما النصف الاول منه . ورجعنا الى ستة منها مؤرخة بين 1313/713 و 1323/723 .

ثم نشر دي ماس لاتري (De Mas Latrie) عددا من وثائق أرشيف أرغون في كتابه « معاهدات سلم وتجارة » (Traités de paix et de commerce) سنة 1866 بباريس . وتضمن الكتاب 8 وثائق تهم موضوعنا ، 7 مؤرخة بين 1313/712 و 1323/723. وواحدة في 1462/867 (43) . ولا بد من الملاحظة ان«دي ماس لاتري » أعاد نشر العديد من الوثائق التي سبق ان نشرها « دي كابماني» .

وتهتم وثائق الناشرين بمسائل التجارة والقرصنة وتعيين القناصل .

ثم ج. صولر (G. Soler) في 1909 - 1910 في حوليات معهد الدراسات القتلانية (Anuari de l'Institut d'Estudios Catalans) (44) ونشر « روبار برنشفيك » (Robert Brunschvig) 18 وثيقة في حوليات معهد الدراسات الشرقية (.A.I.E.O) لسنة 1936 مأخوذة من الدفتر رقم 555 من دفاتر قسم « المستشارية (Cancelleria)(45) ، مؤرخة في 1336-1337 (736-738) تهم علاقات أرغون بالدولة الحفصية وتركز على مشكل الأسرى القتلانيين وتحاول انتزاع دفوعات مالية لفائدة أرغون .

وظهر في 1951 كتاب لـ « ماسيا دي روس » (Masia de Ros) جمع وثائق من عهد خايم II (Jaime II)(1291/690 - 1327/727) الى الفونس IV (Alphonse IV)(1327/727 - 1336/736) (46) تهم علاقات

---

42) De Capmany y de Montpalau (A.), éd. ,*Antiguo Tratados de Paces y Alianzas* , indices por jose Hinojosas Montalvo, Madrid 1786 , Valencia 1974 .

42') Du même,éd. , *Memorias* ..., *op.cit.*, doc. 87,98,112, 113 ; Du même , Antiguo Tratados ... *op.cit* ., p. 71-95 .

43) De Mas Latrie,éd., *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen,âge* récueillis par ordre de l'empereur (de France) avec une introduction historique en 342 pages ,Ed. H. Plon , Paris 1866 , Doc. XI,XII,XIII,XV,XIX,XX,XXI, XXX(Royaume d'Aragon)

44) Soler (A.G.),éd. ," Documentos de Tunez ... " , op.cit., p. 210-257 ;

45) Brunschvig (R.),éd. ,"Documents inédits sur les relations entre la couronne d'Aragon et la Berbérie Orientale au XIV è.s ", *Annales de l'Institut d'Etudes orientales*, Tome II, (1936) , p. 235-265.

46) Masia de Ros (Angeles),éd. , *La corona de Aragon y los Estados del Norte de Africa Politica de Jaime II y Alffonso IV en Egipto , Ifriquia y Trencén*,Instituto espaniol de Estudios Mediterrane , Publicaciones sobre Historia ,Barcelona 1951 .

ارغون مع مصر وافريقية وتلمسان ، وتتعرض اساسا الى الامتيازات التجارية كحرية التجارة في ميناء بجاية والامتياز« الجمركي »ومسائل القرصنة التي اثيرت من الطرفين والاعانة العسكرية ضد بني عبد الواد والاتاوة السنوية . وتخبرنا عن تعيين بعض القناصلة القتلانيين

ولابد ان نلاحظ انه أعاد نشر بعض الوثائق التي سبق أن نشرها « دي كابماني » (De Capmany) في كتابه ('46) والاركون (Alarcon) في كتابه « وثائق عربية... » ("46) .

وقام شارل إيمانويل ديفورك (Ch. E. Dufourcq) ايضا بمجهود متميز في نشر هذا النوع من الوثائق ، خاصة الدفتر 1389 التابع لقسم « المستشارية » (47) مؤرخ بين 1360 و1386 م (761 - 788 هـ) ، ويضم مراسلات وعقود تخص علاقات أرغون بدول المغرب وغرناطة ومصر ، وعددها 310 وثيقة لخص ديفورك مضمونها ورافقها بحواشي ، واستعملنا منها في بحثنا 37 وثيقة لها علاقة بموضوعنا يتركز محتواها على الاتاوة السنوية التي يريد أرغون فرضها عى الحفصيين وعلى مسالة أسرى القرصنة وتعيين القناصلة والسفراء .

قد تتعرض وثائق ارشيف تاج أرغون من حين لآخر الى توابع أرغون خاصة ميورقة (48) . ولكن ميورقة لم تكن تابعة بصفة دائمة ، لهذا لنا معاهدات مستقلة بها أورد ديفورك البعض منها في كتابه « إسبانيا القتلانية ...» (49) ونشر « أغيلو » (AGUILO) معاهدة 23 نوفمبر 1312 (11 رجب 712) مع بجاية (50) .

('46 De capmany(A.),éd.,*Memorias* ... ,éd. 1779-1792,t. IV ,doc XIX ,XX ,XXVI ,XXXIX ; du même , *Antiguo Tratados* ...,p. 60.

("46 Alercon (M.A.),éd. ,*Los documentos arabes* ..., *op.cit.*, doc 124 p. 277.

(47 Dufourcq (ch.E.),éd.,"Catalogue chronologique et analytique du registre 1389 de la Chancellerie de la couronne d'Aragon intitulé " Guerre sarracenorum 1367 -1386" (1360-1386) ",*Miscélanea de Textos Médievales*,2, Universidad de Barcelona ,Instituto de historia Medieval , Barcelona , (1974), p. 67-152 .

48) مثال : الوثيقة رقم 96 من دفتر 1389 بارشيف أرغون بتاريخ 1366/7/13 (3ذو القعدة 767) يطالب فيها ملك أرغون « بيدرو IV » (Pedro IV) (37-1336/736 - 1387/789) بجاية بوصفه ملك ميورقة ايضا ووارثا لمستحقاتها بـ « اتاوة» كان التزم بها السلطان ابو يحيى ابو بكر (1318/718 -1346/747) الى ملك ميورقة مقابل اعانة عسكرية تلقاها ضد تلمسان .

Dufourcq (Ch.)éd., " Le registre 1389 ..." ,*op.cit.*, p. 90.

(49 Du même , l'Espagne Catalane ..., *op.cit.*, p. 420-421- 446 ,501 .

(50 Aguilo , " Tractat de pan entre el Rey de Mallorca Don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechre ... dia 23 de nov. de 1312 " *Boletin de la Sociedad Arqueologica Luliana* , (1915) ,p. 217-226 .

ب - وثائق أرشيف المعهد البلدي للتاريخ » ببرشلونة :

اما بالنسبة لارشيف المعهد البلذي للتاريخ (Institut Municipal d'Historia) فقد رجعنا خاصة الى وثائق « مجلس المائة » (Consell de Cent) التابعة لـ « رصيد البلدية » (Fons Municipal) ، خاصة « السجل العام لمجلس المائة » (Libre del Consell) الذي يمتد من سنة 1301 م (700-701 هـ) الى 1433 (836-837 هـ) ويضم 29 مجلدا ، نشر « دي كاماني » (de Capmany) منها في كتابه « ذاكرة تاريخية ...» (Memorias Historicas...) عددا هاما من الوثائق سبعة تهم علاقات بجاية بارغون (51) ، احتوت نفس المواضيع السابقة .

ان الوثائق القتلانية هي وثائق رسمية بامضاء السلطة الحاكمة ، العديد منها يهم العلاقات مع بجاية مباشرة او يدرج بجاية ضمن المعاهدات مع السلاطين الحفصيين او المراسلات معهم . وهي تركز على محاور القرصنة والاتاوة السنوية ، والاعانة العسكرية وتعيين القناصلة والامتيازات التجارية . وتبدأ في الثلث الأخير من القرن 13/7 ، ويعود أغلبها الى القرن 14/8 دون ان تغيب الوثائق الراجعة الى القرن 15/9 .

2 - وثائق ايطالية ومرسيلية :

توجد بين ايدينا ايضا وثائق ايطالية ومرسيلية.اولها وثائق اصلية باللغة العربية نشرها ميشال أمري (Michel Amari) سنة 1863 مصحوبة بترجمة الى اللغة الايطالية (52) . وتختلف نوعيتها عن الوثائق القتلانية اذ ان اغلبها غير رسمي ويتكون من مراسلات التجار انفسهم ما عداعدد قليل .

وانتقينا منها 10 وثائق ذات صلة بموضوعنا (53) 7رسائل خاصة و 3 فقط رسائل رسمية (54) وتوجد من بين العشرة رسالتان فقط مبعوثتان

(51 De Capmany(A.),éd.,*Memorias ..., op.cit.* ,tII ,doc. N° 94,95,96,99,120,390et 391

(52 Amari (M.),éd., *I diplomi arabi del R. Archivio Fiorentino* , testo originale con la traduzione letterale e illustrazioni , In Firenze ,1863 .

53 *Ibid* , doc. n° III , V , XIV , XV , XVII , XVIII , XIX , XX ,XXV et XXXII , respectivement p. 10-13, 17-22, 48-49, 50-52, 55-56, 57-59 , 60-62 , 63-64, 75-77 et 115-118 .

من بجاية. والبقية :واحدة من بيزة وواحدة لا نعرف مصدرها وستة من تونس وبالنسبة لبجاية ، الرسالة الاولى غير رسمية بعثها ترجمان اسمه أحمد بن تميم الى أحد الشيوخ في بيزة يطلب منه الوساطة لدى قائد بحر بجاية ليعود الى الترجمة لتجار بيزة في الديوان . وهي مؤرخة في ربيع الآخر 604 / 13 - 22 نوفمبر 1207 (55) . والرسالة الثانية من أمير بجاية المستقل ابي العباس أحمد (1366/767 - 1370/772) الى صاحب بيزة « الرايس جوان دكوت » (Giovan de Conti) بتاريخ 30 رمضان 767 / 10 جوان 1365 تتضمن موافقته على منح الامن والسلم لتجار بيزة بشرط المعاملة بالمثل (56)

اما الرسالتان الرسميتان الآخريان ، فالاولى بتاريخ ربيع الاول 578 / جويلية 1182 من مطران بيزة وكرسيكا وسردانيا الى الخليفة الموحدي ابي يعقوب يوسف (558 / 1163 - 580 / 1184) تضمنت احتجاجا على ضريبة استثنائية فرضت في ميناء بجاية على تجار بيزة تمثلت في دفع درع على كل بضاعة بـ 500 دينار (57) و الثانية مؤرخة في اوائل رمضان 582 / نوفمبر 1186 من الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (1184/580 - 1199/595) الى نائب قناصلة واشياخ بيزة ، منح فيها حرية التجارة لتجار بيزة في بجاية وموانئ أخرى ونص على ضريبة العشر(58).

وفيما يخص الرسائل الستة الاخرى ('58) ، فكلها مبعوثة من تجار جلود بتونس الى تجارة من بيزة يطالب فيها أصحابها بباقي اثمان سلعهم . وتفيدنا فيما يتعلق باسعار الجلود والصوف . وخاصيتها انها لا تحمل تواريخ ارسالها ، والمرجح انها تعود الى الفترة الموحدية والمؤكد انها ترجع الى نفس

---

54) الثلاثة رسائل الرسمية هي أرقام III و V و XXXII .

Amari (M.),éd. , *I diplomi arabi ...* , *op.cit* ., doc . XXv , p. 75-77.

(56 *Ibid* ., doc. XXXII , p. 115-118.

(57 *Ibid* ., doc. III , p. 10-13

(58 *Ibid* . , doc. V, p. 17-22.

('58 *Ibid* ., doc. XIV , XV , XVII , XVIII , XIX , XX , respectivement p. 48-49 , 50-52 , 55-56 ,57-59 , 60-62 , 63-64 .

الجـــزء الاول:

التطور التاريخي والمعطيات السكانية

الفصـــــل الاول

بجاية ارث حمادي اساسا

الباب الاول :

* المدينة قبل الحماديين

*

ان غايتنا من دراسة الفترات السابقة للعهد الحفصي بدءا بعصور ما قبل التاريخ هي التعرف على مدى مساهمة كل فترة في بناء بجاية التي سيرثها الحفصيون . فهل ساهمت عصور ما قبل التاريخ في تعمير المنطقة ؟ وهل كانت بجاية الحفصية إرثا للعصور القديمة ام إرثا لفترة وسيطية ؟

I - ما قبل التاريخ في بجاية ، تنامي حضور الإنسان وتركز الارضية البشرية :

هل تفسردراسة ما قبل التاريخ في بجاية وجهتها نشاة الارضية البشرية ؟

للاجابة لا بد من التعرف اولا على اهم الآثار المؤكدة لحضور الانسان وثانيا على تطوره خلال تلك العصور .

1 - مكتشفات ومواقع ما قبل التاريخ : رصيد هام :

توفرت منذ بداية القرن العشرين بقايا اثرية متعددة شاهدة على فترة ما قبل التاريخ في بجاية وما حولها ؛ وذلك بفضل اعمال التنقيب والحفريات

التي قام بها م.أ.ديبروج (1) (M.A . Debruge) بين 1902 و 1906 . كما عثرت سانتا كريستيانا (Santa Christiana) ايضا على بقايا لعظام واسنان حيوانية (2) . ولكن اعمال ديبروج بقيت تعد الاهم الى اليوم ، ونشرها بنفسه (3) والقى عنها تقارير علمية لا سيما في مؤتمري مونتوبان (Montauban) بفرنسا سنة 1902 وشاربورغ (Cherbourg) سنة 1905 بفرنسا ايضا (4) . ونوهت بها بعض صحف ذلك الوقت (5) .والعديد من الادوات والاثاث محفوظ في متحفي بجاية وقيرطا بقسنطينة (6) .

وتمثلت اهم مواقع ما قبل التاريخ في بجاية وما حولها والتي اكتشف جميعها ديبروج في مغارة علي باشا على بعد 1500 متر من البحر اسفل جبل غوراية وعلى بعد 2 كم تقريبا من بجاية في شمالها الغربي (7) ، ومغارة حصن كلوزال على بعد

---

1) راجع التعريف بديبروج ص 26 من البحث ، الهامش رقم 63 .

2) محفوظة في متحف بجاية بالواجهة الزجاجية رقم 12.

3) من بين اعماله المنشورة ما يلي :

Abri sous-roche à Bougie..., *op.cit* ; " la grotte du fort Clauzel ...," ,*op.cit* ; "Nouveaux rochers taillés de la région de Bougie " ,*op.cit* . " Catalogue des Objets préhistoriques renfermés dans les vitrines du Musée de Constantine " , *op.cit* .

4) القى ديبروج تقريرا عن حفريات مغارة على باشا في 9 اوت 1902 ونشرته الجمعية الفرنسية للرقي بالعلوم ضمن اعمال مونتوبان , Association française pour l'avancement des sciences Montauban 1902 , II , p. 866-883.

انظر ايضا :

Le Journal : Echos de Bougie, (1903) , rubrique : Archéologie .

والقى تقريرا عن حفريات مغارة حصن كلوزال في 4 اوت 1905 ،

Debruge (M.A) " La grotte du fort Clauzel, " *op.cit.* ,p. 624;

5) امثلة : *Echos de Bougie* (1903- 1906) *l'union Républicaine* (1906) ; *l'Action Sociale*, 18 Janvier (1925)

راجع الفصل : تقديم المصادر والمراجع ص 10-27 .

6) في متحف بجاية ، الواجهتان الزجاجيتان رقما 12 و 17 ؛ وفي متحف قيرطا ، الواجهة الزجاجية لما قبل التاريخ ببجاية .

7) توجد في متحف بجاية ادوات جلبت من هذه المغارة من اهداء ديبروج ، الواجهة الزجاجية رقم 12

انظر ايضا :

Debruge (M.A) , " lettre à M. le Directeur de l'Echos de Bougie " datée du 26 Janvier 1906 , *Echos de Bougie* (1906) ; " *Catalogue* ." *op.cit* . p.3-5 .
Gsell (S.),*Atlas de l'Algérie* , Alger -Paris 1911, Feuille 7 p. 4 Add.f 7 ; Marguet (G.) " Grotte d'Ali Bacha " Journal *l'union Républicain* (1906) ; *Echos de Bougie* (1903), rubrique : Archéologie ; Vaufrey (R.) , *Préhistoire de l'Afrique* , 2 tomes ,Masson et Cie - Paris ,Imprimerie Officielle Tunis 1955 , t.I : Le Maghreb , p.86, 338-339; Balout (L) ,*Préhistoire de l'Afrique du Nord,* Essai de Chronologie , Paris -Arts et Métiers 1955 p.12-13 ; Camps (G.) , *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara* doin éditeurs , Paris 1974,p.30 .

وقد نسبت هذه المغارة الى على باشا لانها وجدت على ارضه ، Marguet (G.) ,*Ibid.*

بعض مئات الامتـــار من هذا الحصن (8) ومخابئ الابر شمال شرقي بجاية في اعلى جوين الابر (9) ، وموقع قمة القردة شمال الجوين الذي احتوى على ركام جنائـــزي ومحطة صيد بحري (10) ،وميغاليت (Mégalithe)بجاية على مشارف المدينة في جبل غوراية في مكان يقال له الرمان ارتفاعه 11 متر وعمقه 27.8 متر ومتكون من خمس ارضيات متراكبـــة (11). هذا الى جانب عدد من الصخور المنحوتة الموجودة على بعد 500 متر من بجاية في الشمال الغربي في اتجاه هضبة الاطلال (12) ، وعدد من المواضع القريبـــــة من موقع قمة القردة (13) وقبو جنائزي منحوت في الصخرغير بعيد عن حصن كلوزال (14) وحفرة منحوتـــة فـــي الصخر قرب زاوية سيدي عبد الرحمان (15) ، ومخبأ « هرقل » تحت الصخر فـــي جبل غوراية قرب قرية دار الناصر في منطقة بجاية (16) .

مما لا شك فيـــه ان هذه المواقـــع والمواضـــع اكـدت بوضوح حضور الانسان في منطقة بجاية خلال ما قبل التاريخ . فهل تثبّت حضوره باستمرار على مدى عصور ما قبل التاريخ ؟

2 - تنامـــي حضور الانسان في جهـــة بجاية خلال عصور ما قبل التاريخ:

أ - خلال العصر الحجري القديم :

تعود بنا بعض آثارنا الى العصر الحجري القديم الاسفل ، لان ديبروج عثر على بقايا عظام بشرية في مغارة كلوزال (17) دلت علـــى أن الانســـان

---

8) تحفظ بقايا عظام بشرية في متحف بجاية مجلوبة من مغارة حصن كلوزال ، الواجهة الزجاجية رقم 12 انظر ايضا :
Debruge (M.A), " la Grotte du Fort Clauzel " *Op.Cit* ,p. 624-632; Gsell (S.) , *Atlas Archéologique ... op.cit.* , feuille 7 p.4 add.f.7 .

9) متحف بجاية ، الواجهة الزجاجية رقم 12؛ متحف قيرطا ، الواجهة الخاصة بما قبل التاريخ ببجاية .
Debruge (M.A.) " Catalogue ..." *op.cit* . p,.8-9 ; Gsell (S.) ,*Ibid* .
Marguet (G.) , "des Aiguades " ,*l'Union Républicaine* (1906) ; Vaufrey (R) , *Préhistoire de l'Afrique ...* , *op.cit* . , p. 251 .

10) متحف بجاية ، الواجهة الزجاجية رقم 12 .
Debruge (M.A.), " Catalogue... ", *op.cit.*, p.5-7 et 10-11; Gsell (S.) ,*Ibid* ;
Marguet (G.) ,*Ibid* .; Vaufrey (R) ,*Ibid.* ,p. 339 ; Balout (L.) , *Préhistoire de l'Afrique du Nord ...*, *op.cit.* , p. 467 .

11) Chabassiére (Jules), " le mégalithe de Bougie " , *Echos de Bougie*, N°9, (1906), rubrique : " Archéologie " ; Gsell (S.) ,*Ibid* .

12) Debruge (M.A.) " Nouveaux rochers taillés de la région de Bougie ", *op.cit.* ,p 1-3 .

13) Gsell (S.) ,*Atlas Archéologique ...* ,*op.cit* ., feuille 7 , N° 12

14) *Ibid* .

15) *Ibid* .

16) Débruge (M.A.) ," Abri sous-roche à Bougie ", *op.cit.* , p. 2-6 .

17) Débruge (M.A.) ," La grotte du fort Clauzel " , *op.cit* . , p. 631 .

قديم جدا على موقع بجاية . كما عثر في احدى حفرياته على فقرات عمود فقري « للماموث » (18) .

ثم تعود بنا آثارنا الى العصر الحجري القديم الاوسط الى فترة الحضارة الموسترية (Le moustérien) حسب التاريخ الذي قام به ديبروج للطبقات الارضية لمغارة علي باشا . وهي حضارة تؤرخ بين 70.000 و 35.000 سنة ق.م .

وتدلنا آثارنا على ان جوين بجاية عرف الحضارة الايبيروموريسية (Ibéromaurisienne) (19) التي تواصلت من 18000 الى 8000ق.م. وعاش هناك خلال هذه الفترة نموذج الانسان الذي عرف باسم نموذج مشتى العربي (20) . وهو من نوع انسان كرومانيون (Cromagnon) الانسان المفكر (Homo-Sapiens) .

ودلت الادوات المختلفة التي عثر عليها ان نمط عيشه هو نمط عيش نموذج انسان مشتى العربي ، فقد كان يعيش في المغارات والمخابئ ويعتني بالدفن ويقتات من الصيد البري والحلزون وبعض منتوجات البحر .

ودلت العظام البشرية المتطورة التي عثر عليها في مغارة علي باشا على انها بقايا انسان ذي بنية متينة ، جمجمته سميكة لا يقل سمكها عن 1صم ، وفكاه عاليان ومتينان وقامته طويلة . وهذا من خصائص انسان مشتى العربي . وارخ بحوالي 15000 سنة اي في ملء الفترة الايبيروموريسية .

ب- خلال العصر الحجري الحديث :

تواصلت الحياة البشرية في موقع بجاية وما حولها خلال العصر الحجري الحديث . ومن المرجح انه عرف الحضارة ذات الاصول او التقاليد المتوسطية(21)التي يبدو انها تركزت على رصيد الحضارة الايبيروموريسية وسميت بالمتوسطية لاتصالها بانماط حضارية قادمة من البحر الابيض المتوسط . وتهم المناطق الساحلية للشمال الافريقي . وتمتد من الناحية الزمنية بين 5000 و 2000 ق.م . ويقترب النوع البشري الى الانموذج

---

18) متحف بجاية ، الواجهة رقم 12

19) Gragueb (A.) et Mtimet (A.) , *La Préhistoire en Tunisie et au Maghreb* , éd. Alif , série les guides , Tunis 1989 ,p. 35.

20) *Ibid* , p.39-41.

21) Camps (G.) , *Les civilisations préhistoriques...* , *op.cit.,* p. 262 .

السابق لمشتى العربي وتكثر المصنوعات المشكلة التي تحمل زخرفة متنوعة دون ان تغيب انواع الاثاث والادوات المميزة للعصر الحجري الحديث .

وقد توفرت نفس هذه الخصائص في منطقة بجاية تمثلت في مغارات علي باشا وكلوزال والبقايا الفخارية والادوات المختلفة .

ج - خلال فجر التاريخ :

وعاش جوين بجاية بعد ذلك الفترة الانتقالية من حضارة العصر الحجري الى العصور التاريخية المسماة بعصر المعادن او فجر التاريخ . وقد بدات مع اوائل الالف الثانية ق.م وانتهت بقدوم الفنيقيين . ومن خصائصها استعمال المعادن . وقد وجدت في مغارة علي باشا ومخبإ الابر ومنطقة بجاية عامة قطع من النحاس وبقايا حديد احمر وفيروزي وغيرها (21) . ومن خصائصها ايضا صناعة الفخار ذي الزخارف الهندسية المتنوعة ورش المغرة الحمراء على جثث الموتى . ولنا بقايا منها في مخابئ الابر حيث وجدت قطع الفخار ، (22) او في الركام الجنائزي لقمة القردة ومغارة علي باشا حيث عثر على المغرة الحمراء (23) .

تواصل حضور الانسان في بجاية وما حولها طوال فترات ما قبل التاريخ من العصر الحجري القديم الاسفل . ودلت آثاره على انه جعل المكان مجالا حيويا له واستغل ثرواته لا سيما البحر والصخر والحيوان والمعدن والطين وتطور الى انسان مفكر وفنان . تبين ذلك في صناعاته ورسومه وزخارفه .

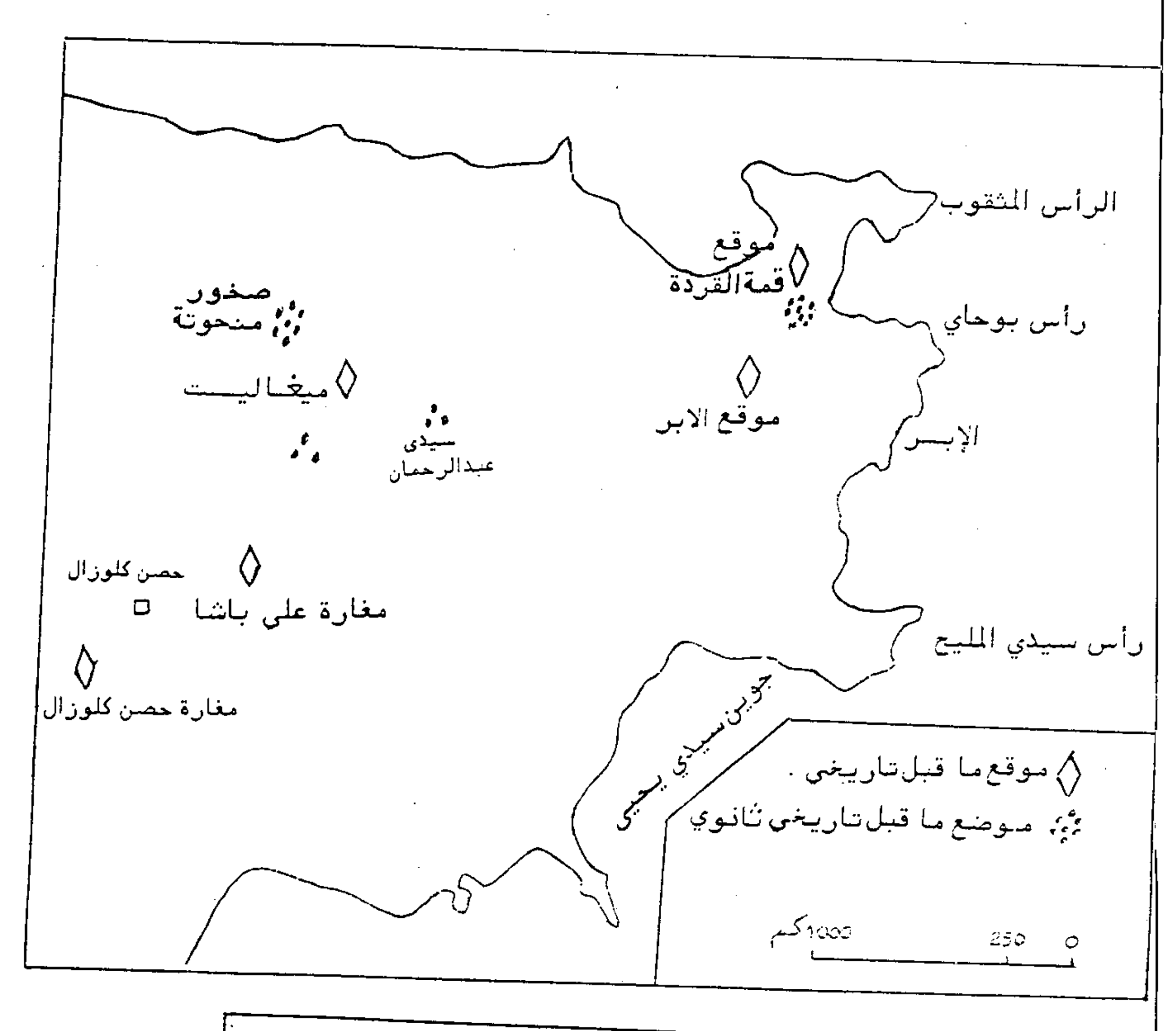
تركزت اذن دون انقطاع الارضية البشرية ، وكانت جزءا من الارضية البشرية البربرية لبلاد المغرب عامة التي تكونت اساسا من فصيلة انسان مشتى العربي الايبيروموريسي الذي عاش ايضا في جوين بجاية وفصيلة الانسان القبصي . فهي الارضية التي ستتراكم عليها الحضارات المقبلة بدءا بالحضارة الفينيقية .

(21 Débruge (M.A.) , " Catalogue ..." , *Op.Cit* ,p.5 et 8 .

(22 *Ibid* .

(23 *Ibid* ., p. 4;

متحف قسنطينية ، الواجهة الخاصة بما قبل التاريخ في بجاية .



اهم مواقع ما قبل التاريـــخ في بجاية وما حولها

(حسب حفريات ديبروج)

II - من صلداي القرطاجية الى الناصرية :

1 - هل صلداي قرطاجية ؟ :

نشات في العصر القديم على موقع بجاية مدينة « صلداي » (SALDAE).

يرى فيرو (Ch. Féraud) (24) وقزال (S.Gsell) (25) انها كانت اجمالا في موقع بجاية اليوم . وهما متفقان على انها كانت تقع بين حصني موسى في الغرب وبريجة في الشرق اي ذات محيط يساوي تقريبا ثلاثة آلاف متر . وكان يربط بينهما سور . لذلك فالمدينة احتلت المنحني الواقع جنوب جبل غوراية .

تعود نشاتها الى العهد القرطاجي حسب بعض المؤرخين والاثريين :
عثر ديبروج (A. Debruge) على قبر منحوت في الصخر قرب حصن كلوزال (Clauzel) ، قال انه يعود الى الفترة الفينيقية (26) . ورأى ستيفان قزال (S.Gsell) (27) وجان مازارد (J. Mazard) (28) ان القرطاجيين ، وهم بحارة ، اهتموا بموقع بجاية ليجعلوا منه مرفا تجاريا ضمن سلسلة توسعاتهم على سواحل شمال افريقيا والحوض الغربي للبحر المتوسط . وقال قزال انه من الممكن ان تكون صلداي قد ذكرت في رحلة سكيلاكس (Scylax) ضمن المدن البحرية القرطاجية (29)

واشار الى وجود انصاب بونيقية تحمل وجوها رافعة الايدي في حالة تعبد ، ويتضمن البعض منها نقائش باللغة الفينيقية (30) ، وذكر ان عديد النقود القرطاجية قد عثر عليها ببجاية (31) واستطرد ان وجودها لا يمثل دليلا على انتماء المدينة الى قرطاج اذ يمكن لها ان تستقبل نقودا قرطاجية وهي تحت سلطة النوميديين .

(24 Féraud (Ch.) , *Histoire des Provinces de constantine ..., op.cit.* ,t.I p.51-53 .

(25 Gsell (S.) , *Atlas Archéologique ...,op.cit* ,feuille 7 n° 12 .

(26 Débruge (A.) , " Tombeau présumé phénicien à Bougie , *Extrait du Bulletin de la Societé Archéologique de sousse*, 2ème Année, n° 4, (1904) , 4 pages.

(27 Gsell (S.) , *Atlas Archéologique ...Op.Cit* ,feuille 7 n° 12 ; Du même , *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* , 8tomes , Paris-Hachette 1913-1928 , t. II, p. 158 .

(28 Mazard (J.) ,*Corpus nummorum numidiae mauretaniaeque* ,Arts et métiers graphiques , Paris 1955 , p. 160-161.

(29 Gsell (S.) , *Atlas Archélogique* ..., feuille 7 , n° 12

(30 *Ibid* .

(31 *Ibid* .

تقلصت الدولة القرطاجية بعد هزيمتها امام الرومان في الحرب البونية الثانية سنة 202 ق.م . واقتصر مجالها على افريكا، وفرضت عليها رومة اتفاقية تلزمها بالا تعتدى على جيرانها ، لا سيما المملكة النوميدية اي مملكة ما سينسان الذي اعانته رومة على اقامتها من حدود قرطاج الى حدود المملكة الموريطانية . لذلك ، اصبحت صلداي تابعة لماسينسان (32) .

2 - صلداي الرومانية : قلعة ام مدينة ؟:

أ- صلداي ، قلعة اولا :

دخلت صلداي في النفوذ الروماني بعد هزيمة يوغرطان سنة 104 م لما قامت رومة باحتلال نوميديا الغربية . لكنها لم تضم بصفة فعلية اراضي نوميديا بل اكتفت بالسيطرة على بعض المواقع الهامة منها صلداي التي ذكرها بلين (Pline l'Ancien) ضمن ستة مواقع ساحلية (33) ، واسندت اراضي موريطانيا الشرقية الواقعة غرب صلداي الى بوخوس الموريطاني (Bocchus) (49 - 33 ق.م.) الذي وحد موريطانيا سنة 38 ق.م. من المحيط في الغرب الى وادي الرمال في الشرق (34) . واحتوى بذلك مدينة صلداي .

إثر موت بوخوس سنة 33 ق.م ، دعم «اوكتاويوس أوغسطس» (Octavius Augustus) الحضور الروماني في موريطانيا الشرقية بانشاء اثني عشر مستوطنة بين سنتي 33 و 25 ق.م. ، من بينها صلداي حيث ركز مجموعة من قدماء المحاربين (او الجنود المتقاعدين) (Veterani) من الفيلق السابع (legionis VII immunis) منذ 33 ق.م :

Col (oni) col (oniae) Iul (iae) Aug (ustae) sald(itanae) legionis VII immunis (35).

وذلك ليجعل منها قاعدة منيعة لمراقبة القبائل النوميدية مستغلا مناعة موقعها الجبلي وارتباطها بقلعة ومدينة اوزية (Auzia) على طريق وادي الساحل.

(32 Féraud (Ch.) , *Histoire des provinces de constantine ...*, *op.cit.* ,t I, p.44 ; Kaddache (M) ,*L'Algérie dans l'Antiquité* , 2è éd. , SNED -Alger 1982 p. 71.

(33 Gsell (S.) , *Atlas Archéologique ...op.cit* , feuille 7, n° 12;Du même , l*Histoire ancienne ...*, *op.cit.*, T. VIII, p. 202 ; Lambert (J.N.) , *Saldae - Bougie et le christianisme* imprimerie Charry, Alger 1958 ,p. 6.

(34 Mazard (J.) ,*Corpus numomorum ...* ,*op.cit.*, p.160 ;Lambert (J.N.) , *Ibid* ., p.6.

(35 Gsell (S.) , *Atlas Archéologique ... op.cit* ., feuille 7 , N° 12 ; *Histoire ancienne ...*,*op.cit.*, t.VIII, p. 202 ; Lepelley (Claude) , *Les cités de l'Afrique romaine au Bas Empire* , 2 tomes , Paris 1979-1981 , t.II, p. 505; Kaddache (M) , *L'Algérie dans l'Antiquité* , *op.cit.* p. 103 .

جعلت رومة من موريطانيا مملكة تحت الحماية الرومانية وجعلت من الامير النوميدي يوبا الثاني (JubaII) ملكا لها منذ 27 ق.م (35') وقد اختارت رومة هذا الحل لتدعم نفوذها اولا في افريكا البروقنصلية وتركز المستوطنين الرومان بها . عندئذ صارت بجاية تابعة لممتلكات يوبا الثاني . ويقول سترابون (Strabon) في هذا الشان ان صلداي مثلت الحد الفاصل بين مملكة يوبا ومجال رومة (36) . وقد عرف يوبا الثاني بولائه لرومة . وبرهن عن ذلك بان وضع على ذمتها فرقا عسكرية لمقاومة ثورة تاكفاريناس منذ قيامها سنة 17 م. (37) .

لما مات يوبا الثاني سنة 23 م خلفه ابنه بطليموس الذي كان صغير السن عندئذ ، فعجز عن الحكم ، فانضمت رعيته الى تاكفاريناس رغم انه بقي موالياً لرومة. لكن مارغريت راشي (M. Rachet) ترى انه بقي بعيدا عن صلداي واعتبرتها قاعدة رومانية هامة تصعب مهاجمتها (38). وتقول ان الملك لم يكن قادرا حتى على مهاجمة قلعة توبوسكتو (Tupusuctu) الحصينة التي تبعد 17 كلم عن صلداي ، وتعارض المؤرخ كانيا (R.Cagnat) الذي قال ان تاكفاريناس هاجمها (39) وتعتقد انه هاجم تبرسق (Tubursicum) (40) .

يتبين ان صلداي كانت منيعة وعينا من عيون رومة حتى عندما حكم الجهة حلفاؤها .

قد يفسر تركيزها بما كانت تعرفه الجهة من اضطرابات . فهي لم تقبل الانصهار في الامبراطورية شانها شان كامل نوميديا . وقد عرفت ذروة الغضب مع ثورات قبائل الكينكجنتناي (Les Quinquegentanei) بين صلداي وتيزي وزو . (41) وذكرت مارغريت راشي (M. Rachet) انه لما اضطربت منطقة سطيف حوالي سنة 227م جلب الجنود من موريطانيا الطنجية الى المواني مثل ميناء صلداي (42) .

35') Kaddache (M) , *Ibid.* , p. 103-106 .

36) Strabon, Jug.XVII, 3,12 ,cité par S.Gsell, *Ibid.*

37) Rachet (M.) , *Rome et les Berbères un problème militaire d'Auguste à Dioclétien* , Latomus , Bruxelles 1970 , p.115 ;Kaddache (M.) , *l'Algérie dans l'Antiquité ...,op.cit* , p. 112-114.

38) *Ibid* , p. 117-118 .

39) Cagnat (R.) , *L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire d'Afrique sous les empereurs*, 1ére éd , Paris 1893 , p. 21, Note 1 .

40) Rachet (M.) , *Rome et les Berbères ... ,op.cit* , p. 117 -118 .

41) وقع تحديد جهات هذه القبائل بالنقوش التي عثر عليها في صلداي *CIL* , VIII, 8836 ؛ وفي توبوزكتو *CIL* , VIII , 8836 et 9010 .

42) Rachet (M.) , *Romes et les Berbères ... ,op.cit* , p. 201 , 248-249 .

وتخبرنا نقيشة « أوزية »(43) التي تعود الى الفترة المتراوحة بين 290 و 297 م عن انتفاضة كبرى للكينكجنتناي الذين استطاعوا مضايقة صلداي .
وتعلمنا ان منظمة الشبيبةاو « يوونتوس »(Iuventus) بصلداي انتصرت عليها بقيادة الحاكم الروماني بموريطانيا القيصرية « أوريليوس ليتـــوا » (Aurelius Litua).وكانت الغاية من اقامة هذه النقيشة تخليد هذا الانتصار
ورأى المؤرخــون « م. بينابــو » (M.Benabou) (44) و « ك. ليبلي » (Cl. Lepelley) (45) و « بـ. أ . فيفري » (P.A. Février) (46) ان المنطقة بقيت غير هادئة وان الرومنة بقيت محدودة بها .
و تشبثت الجهة التي تنتمي صلداي اليها دائمـا برفضها للحكم الروماني بشكل آخر ، وهو المعارضة الدينية ، اذ قويت بها الحركـــة «الدوناتية » (Le donatisme) الهادفة الى فصل « الكنيسة الافريقية » عن هيمنة رومة والبابا . فهي حركة استقلاليـة (47) .
وبرزت في سنة 365 م انتفاضة « فيرموس ابن نوبيل » (Firmus fils de Nubel) (48) من قبيلـــة « ماسينيســانساس (Masinissenses) البربرية في جهة اقبو الواقعة على وادي الصومـــام على بعد حوالي 60 كلم من صلــداي . وعمــت الانتفاضة كامل موريطانيا القيصرية . ولم تقدر رومة على اخمادها الا بعد عشر سنوات (49) .
كانت صلداي اذن قاعدة عسكرية هامة؛ فهل هذا يعني انها لم تلعب دورا اقتصاديا و لم تعرف اهمية عمرانية ؟

ب - لصلداي دورهـا الاقتصـادي واهميتهـا العمرانيــة :

هناك بعض المعطيات التي تساعدنا على الاجابة :
اولا ، كانت المدينة تحتوي على تجهيزات عمرانية مثل عديد المدن الرومانية . فقد ذكر فيرو الذي كتب كتابه عن مدن مقاطعة قسنطينة سنة 1868 انه لازال يشاهــد آنــذاك آثارا لبنـــاءات رومانيـة في بجايـــة

---

43) Leschi (L.) ," Les Juvenes de Saldae d'après une inscription métrique " , *Revue Africaine* , t.98, (1927) , p.393-419; Benabou (M.) , *La résistance africaine à la romanisation* , éd. F.Maspero , Paris 1976 , p. 234-235,313-315 ; Lepelley (Cl.) , *Les cités de l'Afrique Romaine ...,op.cit.*, t. I, p. 238 ,T.II, p. 506-508 ; Février (Paul Albert) , *Approches du Maghreb romain : Pouvoirs ,différences et conflits* , 2tomes ,éd. EDISUD ,Aix-en- Provence , t.I en 1989 , t.II en 1990 , T.II , p. 149-150.

44) Benabou (M.) , *Ibid.*, p. 233-235,312-316.

45) Lepelley (Cl.) , *Les cités de l'Afrique romaine ...,op.cit.*, t.I, p. 49-57 .

46) Février (P.A.) ,*Approches du Maghreb ..., op.cit.* ,t.II, p. 147-150.

47) لم تكن صلداي ممثلة في مؤتمر قرطاج لسنة 411 م الذي جمع ممثلين عن الكاتوليكية والدوناتية ، رغم اهمية الكنيستين هناك . لعل غيابها يفسر باضطراب جهتها .
Lancel (S) , *Actes de la Conférence de Carthage en 411*, 4 tomes ,éd. CERF 1992, t.I, p. 145

48) Lambert (J.N.) , *Saldae - Bougie ... op.cit* ., p. 13.

49) Gaid (M.) , *Histoire de Béjaia ... Op.Cit* p. 55 ;
Gaid(M.) , *Ibid* .

مثل المعابــــد والملاعب وتيجـــان الاعمدة وخزانـــــات تاتيها الميــــاه من عـــين توجــة على بعـــد 21 كلم.

يبلغ عرض احد الخزانات مثلا 1.5 متر وطولـــه 29.60 متر وعمقه 15.50 متر . وانتهت اشغال اقامة القناة الرابطة بين صلداي وهذه العين سنة 152 م في عهد الامبراطور« انطونان التقي » (Antonin le Pieux) (138 - 161 م) (50).

وتوجد اليوم النقيشة التي تخلد هذا العمل وسط مدينة بجاية مثبتة علـــى نصب امام مبنـــى البلديـــة وكانت قد عثر عليها في« لامباز». وهي تذكـــر ان نـــونيـــوس داتـــوس (Nonius Datus) من الفيلق الثالث المقدس هو الذي اشرف على الاشغال (51) . وتوجد في بجاية اليوم بقايا لحنايا رومانية كانت تمر عليها قناة الماء. ويثبت النقش الوارد في سجل النقوش اللاتينيـــة ، الجزء الثامـــن ،والذي اكتشف في لامباز، انها حنايا رومانية (52).

ثانيا ، هناك بعض الآثار قد تدل على بعض مظاهر الثراء وتتمثل في لوحة فسيفساء رومانية ونقيشة معروضتين حاليا في متحف بجاية ، ولوحة فسيفساء اخرى مثبتة في بهو مبنى البلدية . وتنص النقيشة على ان بعض الفرسان رمموا بعض التماثيل ثم وضعوها في المعبد لتجميله .

ثالثا ، كان للمدينة ميناء ، قد يعكس نشاطا تجاريا . وقد يكون موقعه في الجويـــن الذي ستشـــــرف عليه القصبة فيما بعـــد. وتدل عليه بعض البقايـــا الرومانية (53) .

رابعا ، تحفظ اليوم في متحف بجايــــة جــرة كبيرة رومانية سعتها مساوية لـ 1103 لتر عثر عليها اثناء حفر اسس فندق فرنسا ، قد تقوم دليلا على صناعة الفخار بالمدينة او على وجود حركة تجاريـــة والمهـــم على وجود نشاط اقتصادي.

تعكس كل هذه المعطيات وجود حركة اقتصادية في مدينــــة صلداي . فلم تكن مجرد قلعـة حصينـــة بل جمعت بين الوظائف المدنية والعسكرية . ولكن نظرا لحدة الاضطرابات ووجودها وسط قبائل افريقية ثائرة، فالمرجح ان يكون النشاط الاقتصادي محدودا رغم وجـــوده وان الصبـــغة العسكرية هي التي كانت غالبـــة .

(50 Gaid (M.) , *Histoire de Béjaia ... ,op.cit.*, p. 52; Février (P.A.) ,*Approches du Maghreb ...,op.cit.*, p. 162.

(51)عاينت هذه النقيشة شخصيا . راجع ص 26 و 27 من البحث وانظر ايضا حول دور نونيوس داتوس في بناء هذه القناة :
Février (P.A.) ,*Ibid.* , p. 162 .

(52 *CIL* , VIII , 2720 = 18122 ;
وزارة الاخبار الجزائرية ، *بجاية* ، سلسلة الفن والثقافة ، ديسمبر 1970 ، ص 17 .

(53 Gaid (M.) , *Histoire de Béjaia ... ,op.cit* . , p. 51 .

3 - صلداي تغيب :

استولى الوندال على صلداي سنة 430 م . وقد يكون « جنسريق » اراد ان يجعل منها قاعدة يتراجع اليها في حالة اخفاقه (54) .ومكث بها المدة التي كانت تستوجبها استراتيجيتها ثم اصبحت هيبونة (Hippone) (عنابة حاليا) هدفه . وسميت صلداي في عهد الوندال بـ « غور» (Gour) اي الموقع الصخري (55) .

يذهب البعض الى الاعتقاد بانها اصبحت مقرا لحكومة جهوية (56) ؛ بينما يرى كريستيان كورتوا (Christian Courtois) في كتابه عن الوندال بافريقيا ان صلداي اصبحت في عهدهم تنتمي الى افريقيا «المنسية» لانهم اهتموا بافريقيا التي رأوها تقليديا نافعة ، لا سيما فيما يخص القموح (57) .

تفجرت الثورات وعمت الاضطرابات في بداية القرن السادس ميلادي حتى عجزت الحكومة المركزية عن السيطرة عليها . فاستغل البيزنطيون ضعفهم وانتصبوا في شمال افريقيا بالاستيلاء على قرطاج سنة 533 م . ولا يمكن ان نتحدث عن صلداي في هذا العهد لان المعطيات عنها اصبحت غائبة ، ولربما يرجع ذلك الى تدهورها شيئا فشيئا ؛ حتى ان العرب الذين شرعوا في فتح شمال افريقيا منذ 27 / 647 سكتوا عنها طويلا .

(54 Gaid (M.) , *Histoire de Béjaia ..., Op.Cit .* , p. 56 .

(55 *Ibid* .

(56 *Ibid* .

(57 Courtois (Christian) , *les vandales et l'Afrique* ,Paris 1955, p.326, N° 8; Lambert (J.N.) , *Saldae -Bougie ..., op.cit* , p. 13-14 .

الباب الثاني

بناء بجاية «الناصريّة» :
استحداث أم منعرج ؟

يلاحظ الدارس للتطور التاريخي لبجاية انها لم تكتسب الا اهمية ثانوية على مدى الاربعة قرون الاسلامية الاولى في شمال افريقيا .ثم برزت فجاة في عهد الناصر بن علناس (1062/454 - 1088/481) فتحولت الى مدينة كبرى . فلماذا بقيت اهميتها محدودة طوال تلك الفترة ؟وما هي عوامل بروزها بعد ذلك؟ وهل يمكن اعتبارها مدينة مستحدثة من قبل الناصر ؟ ام هل نتحدث عن منعرج في حياتها ؟

I - بماذا نفسّر النموّ المحدود لبجاية قبل مجوء الناصر بن علناس ؟

1 - بجاية ميناء صغير قبل الناصر :

كاد الحديث عنها يغيب تماما من المصادر ماعدا إشارات قصيرة لكنها هامة من حيث مدلولها .

أوّل من ذكرها ابن حوقل الذي توفي حوالي سنة 981/371 ؛ فعددها بين المراسي التي تقع بين بونة وجزائر بني مزغناي [1] دون أن يميّزها بل جعلها أقلّ مرتبة من بونة ، ممّا يدلّ على أنها كانت ذات مرتبة ثانويّة بل قرية بحريّة صغيرة.

ثم تحدّث عنها البكري الذي أنهى كتابه سنة 1068/460 أي بعد حوالي القرن من ابن حوقل وقبيل تأسيسها من جديد من قبل الناصر ابن علناس الحمادي [2] تحدّث عنها كمرسى مامون حتى في فصل الشتاء وكمدينة آهلة وعامرة باهل الاندلس وتستقبل السّفن المحمّلة ، عن طريق نهرها الكبير [3] . واعتبرها البكري ميناء قلعة بني حمّاد ، مثلما كانت وهران ميناء لتلمسان حين قال : « ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي طويل » [4]فالحركة التجارية الحثيثة للقلعة مع مصر والمغرب وخاصة مع "بلادالسودان" عبر

1) يقول ابن حوقل في سياق حديثه عن بونة : « ... وبينها (اي بونة) وبين جزائر مزغناي مراس فمنها جيجل مرسى ومنه إلى بجاية (مرسى) ومنه إلى مرسى بني جناد ومنه إلى مرسى الدجاج ... » ، *كتاب صورة الارض* ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 77 .

2) برنشفيك ، *تاريخ إفريقيّة* ،ج 1 ، ص 410 .

3) يقول البكري : « ... ثم مرسى مدينة بجاية ازلية آهلة عامرة باهل الأندلس بشرقيها نهر كبير تدخله السّفن محمّلة : وهو مرسى مامون مشتى قد خرج عن محاذاة جزيرة الاندلس » ،البكري (ابو عبيد)، *كتاب المسالك والممالك* ، حققه ادريان فان ليوفن واندري فيري ، بيت الحكمة ، قرطاج ، الدار العربية للكتاب ،تونس 1992 ، جزءان ،الجزء الثاني ، ص 757 الفقرة 1269 .

4) المصدر نفسه والصفحة نفسُها .

ورجلان [5] كانت بحاجة لميناء يربطها مع تجار المتوسّط لاسيما في ما يتعلّق ببضاعتين أساسيّتين : الذهب والعبيد.[6] وبجاية ، حسب البكري ، بدأت تلعب هذا الدور قبل بنائها من قبل الناصر بن علناس ، فحجمها بدأ ينمو نموّا طبيعيا تدريجيا متفاعلا مع الحركة التجارية البريّة والبحريّة . فيتضح إذن ، أن مكانتها تغيّرت عمّا كانت عليه في عهد ابن حوقل .

إن هناك إشارات في مصادر لاحقة تدلّ على وجودها قبل ابن حوقل . يذكر التجاني في رحلته التي قام بها بين 1306/706-1307 و 1308/708-1309 أن طائفة من أتباع أبي يزيد صاحب الحمار [7] سكنت بـ « جبال بجاية وقسنطينة » . ولم يتعرّض إلى بجاية ذاتها . وقد تكون هذه الجبال نُسِبَت إلى بجاية كقرية أو مدينة لأنها ذكرت مرتبطة بواو العطف مع قسنطينة . وبالتالي نفهم أنها كانت موطنا عمرانيا .

ويشير ابن خلدون في العبر إلى أن أبايزيد صاحب الحمار رحل إلى بجاية بعد حصار أنصاره لتوزر سنة 944/333-945 ودخوله صلحا إلى تبسة [8] . ولم يحدّد إن كانت بجاية قرية أم مدينة ، ولكن يفهم من سياق كلامه أنها كانت موطنا عمرانيا ، ولم يكن المقصود موضعا أو جبلا أو قبيلة لأنه تحدث عنها في سياق ذكره للمدن والقرى التي دخلها أبويزيد : توزر وتبسّة وبجاية ومرماجنة .

يتبيّن إذن أن بجاية كانت موجودة من بداية القرن10/4 ولربّما قبله إلى منتصف القرن 11/5 . ولم تكن غائبة . وكانت قرية نشيطة بفضل مينائها الصغير . وقد تكون نشأت حول بقايا صلداي . واكتسبت أهمية نسبية في منتصف القرن 11/5 بفضل استيطان الأندلسيين دون أن تصبح مركزا عمرانيا

---

5) ذكر البكري أن بين تادمكة (في " بلاد السودان ") وورجلان مسيرة خمسين يوما في الصحراء . و« بين ورجلان وقلعة بني حماد وقلعة ابي طويل مسيرة 13 يوما » ، المصدر نفسه ، ص 881 ، الفقرة 1473 .

6) انظر لاحقا ص 195-215 من البحث .

7) هو ابويزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار من بني يفرن من قبائل زناتة ، استقر بتوزر وتقيوس (في بلاد الجريد حاليا) . تتلمذ خاصة على عمّار الأعمى الصّفري النكّار من المذهب الخارجي . واعتنق نفس المذهب . وهو الذي أخذ له البيعة سنة 942/331-943 من الخوارج لقتال الشيعة الفاطميين . وبذلك بدأت ثورته . ومسح إفريقية بداية من باغاية سنة 943/332-944 . وتمكّن خلال 333 و334 / 944-5 و 945-6 من السيطرة على أغلب المدن : توزر وتبسة وبجاية وباجة وقسنطينة وتونس وسوسة والقيروان ، وحاصر المهدية سنة 945/334-946 . وهدّد الخلافة الفاطمية . وعجز الخليفة القائم عن القضاء عليه . وخلفه ابنه المنصور بالله ، فانتصر عليه وصلبه على أحد أبواب المهدية سنة 947/336 . ابن خلدون ، *العبر* ج VI، ص 210 : ج VII ، ص 26-35 .

8) يقول ابن خلدون : « وكاتَبَ ابويزيد البربر الذين حول قسطيلة من بني واسين وغيرهم فحاصروا توزر سنة 333 هـ ورحل إلى تبسة فدخلها صلحا ، ثم إلى بجاية كذلك ثم مرماجنة واهدوا له حمارا أشهب فلزم ركوبه حتى اشتهر به ... » ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 28 .

كبيـــرا . [9]

2 - نموها المحدود مرتبط بالطابع القاري لاستراتيجية بناء المدن عند المسلمين قبل قدوم بني هلال :

ويفسّر نموّها المحدود بطبيعة حركة التعمير عند المسلمين قبل قدوم بني هلال . إذ ركزوا على داخل البلاد عند بنائهم للمدن الجديدة التي بنيت في أغلب الأحيان لتكون عواصم لدول جديدة ، وفي نفس الوقت حافظوا على المدن الساحلية الموجودة قبلهم ، بل جعلوا منها مراكز اشعاع للحضارة العربية الإسلامية مثل قرطاج وسوسة وبونة وطنجة .

أ - الاعتبار الاستراتيجي الدفاعي والسياسي من أهم أسس اختيار مواقع العواصم :

ننطلق من الاعتبارات الأساسية التي اعتمدوها في اختيار مواقع مدنهم الجديدة لشرح هذه الظاهرة . ولعلّ في مقدمتها الاعتبارين الاستراتيجي الدفاعي والاستراتيجي السياسي . ونتبيّن ذلك من أمثلة مختلفة منها :

* **القيروان**: وهي أول مدينة أسّسها المسلمون في إفريقيا الشماليّة . كانت قاريّة . بنيت على يد عقبة بن نافع سنة 670/50 في وسط البلاد . وكان الاعتبار الاستراتيجي العسكري والسياسي هو الفاعل في اختيار الموقع ، إذ يمكّن وجودها في الوسط من مسك أهل البلاد ومواصلة الفتح من ناحية ، إذ قال عقبة بن نافع لما عزم على بنائها : «إن أهل هذه البلاد قوم لاخلاق لهم ، إذا عضّهم السيف أسلموا وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عادتهم ودينهم ، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا وقد رأيت أن أبني ههنا

9) أورد ابن فرحون وبعده مخلوف ترجمة لعالم أندلسي اسمه أبوعثمان سعيد ابن فحلون أصيل البيرة في الأندلس ، توفي في 957/346 ؛ قالا إنه عاش ببجاية . ويجرنا هذا القول إلى الاعتقاد بان بجاية قد أصبحت بعدُ منذ المنتصف الأول للقرن 10/4 قادرة على احتواء العلماء . غير انه يبدو أنها كانت قراءة خاطئة من ابن فرحون (الذي أتمّ تاليفه سنة 1360/761) نقلها عنه مخلوف (الذي اتمّ كتابه ونشره سنة 1932/1351) ، لان ابن الفرضي قال إنه سكن بجّانة بالأندلس وليس بجاية . ونعتبرهذا الاخير المصدر الأصلي الذي يمكن الاعتماد عليه إذ عاش في القرن 10/4 وتوفي سنة 1012/403-1013 : ابن الفرضي (ابوالوليد عبدالله) ، *تاريخ علماء الأندلس* ، سلسة تراثنا ، المكتبة الأندلسية ، الدار المصرية للتاليف والترجمة 1966 ، ص 168-169 ؛ ابن فرحون ، *كتاب الديباج المذهب* ... ، ص 124 ؛ مخلوف ، *شجرة النور الزكية* ... ، ص 89 .

مـدينة يسكنها المسلمون ... »[10] ومن ناحية أخرى ، بُعْدُ المدينة عن الساحل يؤمنها من خطر البيزنطيين الذين مازالوا متفوّقين في مياه البحر المتوسط إذ واصل عقبة قائلا : « إنما اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها ... »[11]

* **ومدينة فاس** قاريّة أيضا بنيت سنة 192-193/807-808 وسط الدولة الإدريسية لتكون عاصمتها . ولربّما اعتبرت هنا الاستراتيجية السياسية حتى تسهل مراقبة البلاد . ويضيف ياقوت الحموي الاعتبار الدفاعي إذ يقول : « وكلتا عدوتي فاس في سفح جبل ... »[12]

* **وقلعة بني حمّاد** بُنيت سنة 398/1007-1008 في الوسط للسيطرة على زناتة المتمرّدة ، ثم تحوّلت إلى عاصمة الحمّاديين المنفصلين عن بني زيري .

إذن روعيت الاستراتيجية السياسية . وأيضا الاستراتيجية الدفاعيّة كما يذكر ياقوت الحموي الذي يقول : « وليس لهذه القلعة منظر ولارواء حُسن إنما اختطّها حمّاد للتحصّن والامتناع ... »[13]

ويتبيّن من الأمثلة الثلاث أن اختيار العاصمة وسط البلاد يندرج بين مكوّنات الاستراتيجية العسكرية - السياسية سواءً لتحاشي البيزنطيين والهجومات البحرية عامة[14] أو لتدعيم حضور السلطة بين السكان ؛ ويندرج أيضا بين مكوّنات الاستراتيجية الدفاعية اختيار المواقع المرتفعة المتوفرة خاصة في داخل البلاد .

وهكذا رأى المسلمون قبل الزحف الهلالي أن ظروف الأمن وسهولة التحكّم في البلاد تتوفر في المواقع الداخليّة .

ب - هل اختيار المواقع الداخليّة لبناء المدن مرتبط بتقاليد الترحال عند العرب ؟

ربط جورج مارسي اختيار موقع القيروان بتقاليد الترحال عند العرب فجعلها محطة للرحل وسط السباسب .[15] وبذلك ربط هذه الظاهرة بنمط عيشهم .

10) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج VI ، ص 420-421 : ابن عذاري المراكشي ، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* ، جزءان ، تحقيق ج . س . كولان و إ . ليفي بروفنسال . ليدن - بريل : ج 1 : 1948 ج 2 : 1951 . الجزء الأول : تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري ، ص 19-20 .

11) المصدران نفسهما والصفحات نفسها .

12) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج VI ، ص 330 .

13) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 390 .

14) Chapoutot - Remadi (Mounira) , << Dans la région de l'Islam front saharien et front méditerranéen >> , *Hinterland* , Année 3 , n° 15-16 ,Luglio Dicembre (1980) , p 15 .

15) Marçais (G.) , " L'urbanisme musulman ..." ,*op.cit.* , p. 220.

ونحن لانرى ما رآه، إذ لاننسى أن العرب الفاتحين كانوا صورة لمدنيّة الدولة الأموية . فهم الذين مسكوا البلاد ونظموا الحكم والادارة والاقتصاد والجيش . ومن الطبيعي أن تكون القيروان صورة لمدنيتهم .

وقد غذّت هذه الموجة مجموعات أخرى تاتي فرادى إلى شمال إفريقيا بصفة سلميّة قصد التجارة والاستقرار . وإذا تعرّفنا على القبائل نجد أن الكثير أصيل قريش صاحبة مكة العريقة في الاستقرار .

فابن عذاري يورد في « البيان المغرب » خبرا عن ثورة القبائل الصفرية سنة 758/140 يتبيّن من خلاله أن أصيلي قريش كانوا من عناصر سكان القيروان [16] ولانستطيع تقدير عددهم . ثم كيف تكون مدينة وفي نفس الوقت محطة للرحل ؟ المدينة لا تكون إلا مركزا عمرانيا للمستقرين .

وقد قال عقبة عن القيروان بوضوح إنه يبني « مدينة يسكنها المسلمون » [17] ولم يقل مخيّما وقتيّا . وفي نفس الوقت تكون صالحة كمنطلق للفتوحات .

ويبيّن محمد الطالبي أن موقع القيروان لم يكن تماما سباسبيا بدليل أن عقبة أمر بقطع الشجر عند تاسيسها وأن غابة زيتونها كانت كافية وحدها لتزويد المدينة من الخشب دون أن يلحقها أي ضرر . [18]

إن العرب المستقرين سواء قبل الاسلام أو أيام الفتوحات الاسلامية التي امتدت إلى الاندلس لم يكونوا بحريين لأن البحر المتوسط سيطرت عليه قوى أخرى لاسيما البيزنطيون . فالرومان والبيزنطيون بعدهم كانوا يملكون السواحل المتوسطية . وحتى بعد الفتوحات الإسلامية ، بقي البيزنطيون يجولون في البحر . بينما لعب العرب تجاريا دور الوساطة عن طريق البرّ . فنشطت المسالك التجارية بين الحجاز واليمن والعراق والشام والهند والصين وفارس . وتواصل دور الوساطة أيام العباسيين رغم ما اكتسبه العرب آنذاك من خبرة في البحر لاسيما عسكريا . ولكن اختصّوا بعدُ بدور الوساطة وتركزت الهياكل وتكوّنت طبقة تجارية مرتبطة بهذا النوع من التجارة .

ولذلك نشطت مدنهم الكبرى في الداخل مثل مكة والمدينة والكوفة وبغداد وسامراء وواسط ودمشق والفسطاط والقيروان ، التي أصبحت عبارة عن « موانى بريّة » ، مرتبطة بالموانى البحرية التى كانت تستقبل التجار الأجانب .

وعسكريا ، اعتمد المسلمون على القوة البريّة للقيام بفتوحاتهم ، فزحفوا عن طريق البرّ رغم أن البلاد التي فتحوها بعد فارس كانت واقعة على السّواحل الجنوبية للبحر المتوسّط . وحتى بالنسبة إلى فتح الأندلس ، فقد حوّلوا الهجوم سريعا إلى

---

16) يقول ابن عذاري : « ثم تغلب على إفريقية بعض القبائل الصفرية بعد قتل حبيب وعاصم ، فدخلوا القيروان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان من قريش وعذبوا اهلها ... » ابن عذاري ، *البيان المغرب* ،ج 1 ، ص 70 .

17) ياقوت الحموي ، معجم *البلدان* ، ج VI، ص 420-421 .

18) Talbi (M) ,AL-KAYRAWAN , *Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle éd (1978), t IV , p 859

مواجهة بريّة بعد أن دخلت قواتهم من الجنوب عن طريق مضيق جبل طارق.[19]
أما البربر، فإنهم تعوّدوا بدورهم على الصحراء والجبال داخل البلاد. عوّدهم على ذلك الرومان والبيزنطيون الذين احتكروا السواحل وأقاموا حصونا دفاعيّة مثل لامباز وأوزيا وسطيف على طول « الخطوط الدفاعية » المسماة بـ « الليماس » (Limes). فلم يجد البربر بدّا من الاحتماء بالصحراء والمرتفعات.[20] فالبربر أنفسهم، حتى المستقرين أو الذين استقروا بعد البيزنطيين، لم يتمكنوا من كسب خبرة في البحر أو الدخول إليه.

ج - مكانة المدن الساحلية قبل بني هلال : الاهتمام بالمدن السابقة فقط.:

ولا يعني ذلك أن مسلمي شمال إفريقيا قبل مجيء الهلاليين قضوا على المدن الساحلية، بل حافظوا عليها ودعّموها وطوّروها مثل سوسة وبونة وطنجة. ولكن تحاشوا أن تكون عواصم لهم. ولم يخططوا لبناء غيرها إلا بعد ما خبروا البحر. وجعلوا منها استراتيجيا دروعا بفضل الرباطات التي أقيمت بها، وحضاريا مراكز إشعاع. واكتسبت هذه المدن أهمية عندما أصبحت للمسلمين أساطيل بحرية حربية واكتسبوا خبرة بالبحر لاسيما أن السواحل امتدت على كامل الضفة الجنوبية والشرقية للمتوسط بالاضافة إلى الأندلس منذ 710/92 - 711.

فقد خرج أسد بن الفرات في عهد الأغالبة سنة 827/212 على رأس أسطول بحري حربي من ميناء سوسة قاصدا صقلية لفتحها. وتمكّن من ذلك.

وفي إفريقيّة بنوا لأول مرّة عاصمة ساحلية : المهديّة[21] التي انتقل إليها الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي سنة 920/308. وهذا دليل على أن المسلمين اكتسبوا قدرة كافية على ممارسة البحر، دعّمها الفاطميون بدافع إيديولوجي إذ تزعّموا المواجهة الاسلامية ضد البيزنطيين لكسب شوط على حساب الخلافة العبّاسية التي تبنّت سياسة التعايش السلمي.

ولذلك فإن الذين جاؤوا بعد الفاطميين في شمال إفريقيا عادوا إلى مبدإ تركيز عواصمهم في الداخل، إذ زال الدافع الإيديولوجي، وبقوا يرون أن الداخل أفضل استراتيجيا ودفاعيا : استقر الزيريّون بالقيروان منذ سنة 973/362 اثر رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى القاهرة وأسّس الحماديون القلعة سنة 1007/398-1008 ونتيجة لهذا التوزع العمراني،

---

19) كان اختيار المواجهة البرية واضحا عند طارق بن زياد قائد الحملة عندما أحرق السّفن، او لربّما اوهم الجنود بذلك، وخطب فيهم قائلا : « البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم ». كما يتبيّن أن البحر مازال مخيفا عند المسلمين بعد قرن من ظهور الاسلام إذ كان ذلك سنة 710/92.

20) Rachet (M), *Rome et les Berbères. Un problème militaire d'Auguste à Dioclétien*, coll Latomus, vol. 110, Bruxelles - 1970, p. 231-253.

21) التجاني، *الرحلة*، ص 320-324.

تركزت مراكز تجارية حيوية في الداخل : القيروان وفاس ومراكش وقلعة بني حمّاد . وتشكلت حركة تجارية نشيطة مركّزة على البرّ .

وهكذا أفرزت هذه العوامل مجتمعة ومتداخلة بنية عمرانية قوامها نسيج داخلي .

ولم يكن من السهل أن تتغيّر هذه البنية العمرانية بسرعة رغم ما حصل من تغيّر في حضارة المسلمين . فبقيت بجاية قرية صغيرة مدى القرون الأربعة الإسلامية الأولى . ولم تشكل طول هذه المدة حلقة هامة من حلقاتها لأنها لم تستجب لكل أسس الحركة التمدينية آنذاك .

II -بروز بجاية في العهد الحمّادي مرتبط بتغيّر البنية الجغرافية العمرانيــــة :

ولكن حدث ما أدّى إلى انقلاب في هذه البنية العمرانية في إفريقية والجزء الشرقي للمغرب الأوسط نتج عنه تحوّل سريع وحاسم في نموّ بجاية . وهذا الحدث هو زحف بني هلال .

فكيف تغيّرت البنية العمرانية ، وكيف حصل التحوّل الكبير في نموّ بجاية ؟

1 - الزحف الهلالي غيّر بنية المجتمع الداخلي :

لابدّ من فهم مراحل الزحف الهلالي وطبيعته وانعكاساته لنجيب عن هذا السؤال .

أ - اقتطاع إفريقية وبداية الزحف :

أعلن المعز بن باديس الصّنهاجي استقلاله عن الفاطميين وتأييده للخليفة العباسي الذي بدوره اعترف به .

وفكّر الوزير الفاطمي أبوالحسن علي اليازوري في تهجير القبائل العربية بني هلال وبني سليم الرّحل [22] من صعيد مصر إلى إفريقية لتاديب المعز بن باديس ، لأنه كان واعيا بقدرتهم على الزحف والهجوم والحرب . وعرض الفكرة علـى المستنصر بالله الفاطمي ، ثم تمّ الاتفاق مع هؤلاء الهلاليين والسليميين على

---

22) للتعرّف على أصل الهلاليين والسليميين ومراحل تنقلهم انظر خاصة :

ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص27-174 :

Daghfous (R) , << De l'origine des banū Hilāl et des Banū Sulaym >> , *Cahiers de Tunisie* , t XXVI, n° 91-92 , (1975) , p 41-68 .

انظر ايضا :

Idris (H R) , << HILAL>>,*Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle édition (1969) ,t. III,p. 398.

كحالة (عمر رضا) ، *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة* ، دار العلم للملايين ، بيروت 1968/1388 ، ج III ، ص 1221 .

ذلك سنة 441/ 1049 - 1050 و «أقطعهم إفريقية »[23] اعتبارا منه أنها مازالت تحت النفوذ الفاطمي . وبذلك اكتسبوا الشرعيّة .

ووصلوا إلى جهة برقة سنة 442 / 1050 -1051 وبقي السليميون هناك إلى بداية القرن 13/7 ، بينما تقدّم الهلاليون إلى إفريقية سنة 443/1051-1052 . ولم يدرك المعزّ بن باديس خطورة زحفهم عليه في البداية بل أراد استعمالهم ضدّ بني حمّاد فدعا مؤنس بن يحي أمير قبائل رياح ، وعرض عليه أن تنضوي رياح هذه تحت راية بني زيري . ولكنّ مؤنس حذّره من عدم انصياعهم وعدم انضباطهم .[24]

وتبيّنت صحّة قوله . فقد وافقوا على عرض المعز وبعثوا مجموعة منهم مع مؤنس . ولكن هؤلاء سطوا على أول قرية اعترضتهم في الجنوب اعتقادا منهم أنها القيروان .[25]

ب - هزيمة بني زيري في حيدران 1052/443 مكنت الهلاليين من السيطرة على إفريقية ومهّدت الطريق إلى القلعة :

ومن هنا بدأت المواجهة حتّى احتدت في معركة حيدران[26] سنة 1052/443 حين شعر المعز بن باديس بخطرهم . وتشكّلت قوّته من ثلاثين ألف فارس وثلاثين الف من المشاة واستعان بالف فارس من بني حمّاد وألف أخرى من زناتة . وتالفت قوّة الهلاليين من ثلاثة آلاف رجل فقط .[27] والتحما في حيدران . وكانت الهزيمة الكبرى للمعز في « يوم العين »[28]

---

23) يقول ابن خلدون : « وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية عقد لرجالاتهم على امصارها وثغورها وقلّدهم اعمالها ، فعقد لمؤنس بن يحي المرداسي على القيروان وباجة ، وعقد لزغبة على طرابلس وقابس ، وعقد لحسان بن سرحان على قسطنطينة ... » ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 41-42 .

انظر ايضا :

Marçais (G) , *Les Arabes en Berbérie du XI e au XIV e s* ,Paris - Constantine 1973 , p 82-84; Idris (H R) ,*La Berbérie Orientale ... op cit* , t I , p 210 ;

الشريف (محمد الهادي) ، *تاريخ تونس*، دار سيريس للنشر ، تونس 1980 ، ص 49 .

24) ابن عذاري ، *البيان المغرب ...* ، ج I ، ص 288 .

25) المصدر نفسه ، ج I ، ص 289 ؛

Idris (H . R) , *La Berbérie Orientale ... op cit* p 211-212 .

26) يقول ابن خلدون إن حيدران بجهة قابس : ابن خلدون ، *العبر* ، ج 6 ، ص 32 . ويقول هـ . ر . ادريس ان حيدران تسمية قديمة في الجنوب التونسي وتقع بنواحي قابس على الطريق المؤدية الى القيروان .

Idris (H.R.) , " Haydaran " , *Encyclopédie de l'Islam* , Nlle éd. ,t.III, p. 334

وعن معركة حيدران انظر : ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج I، ص 289-290 ؛ ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج IX، ص 568 ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 31-32 ؛

Idris (H.R.) , *La Berbérie Orientale..., op.cit.* ,t.I , p. 213-223 .

27) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج 1 ص 290 ؛ ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج 9 ، ص 568 .

28) يقول ابن الأثير عن « يوم العين » :

« ... فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز وكانوا ثلاثين الف فارس ومثلها رجاله . هالهم ذلك وعظم عليهم . فقال لهم مؤنس بن يحي : « ماهذا يوم فرار . فقالوا أين نطعن هؤلاء ، وقد لبسوا الكناغندات والمغاصر ؟ قال : في اعينهم . فسمّي ذلك اليوم بيوم العين ... » ؛ابن الاثير ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

في 11 ذي الحجة 14/443 أفريل 1052 أي ثاني يوم عيد الاضحى . وغنم العرب الهلاليون الكثير من مخيمات الفارين من جيش المعز كالذهب والفضّة والاثاث والخيام والخيول والإبل .[29] « ودخل المعز القيروان مهزوما »[30] وانتشر الرعب بين أهاليها الذين رأوا شبح الهجوم المنتظر لاسيما أنهم أحاطوا بها[31].

وفُتحت إفريقية بانتصارهم على مصراعيها في وجوههم وبقوا يجولون حول القيروان منذ 1052/443 ، ولكن لم يحن وقت دخولها بعدُ عملا بنصيحة المؤنس بن يحيي بالتركيز أوّلا على مسح البوادي والاستيلاء على قرى ومدن أخرى مثل الابة والاربس وباجة . وهي استراتيجية هدفت إلى عزل القيروان تماما. وخططها المؤنس منذ أن كان في طرابلس .[32]

وحلّت ساعة دخول الهلاليين إلى القيروان في 1 رمضان 449/1 نوفمبر 1057 . وقبلها بيومين انتقل المعز إلى المهدية في 27 شعبان449 / 29 اكتوبر 1057 .

---

29) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ... ، ج 1 ، ص 290 : ابن الاثير ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

30) يقول ابن الاثير : « ودخل المعز القيروان مهزوما على كثرة من معه واخذت العرب الخيلّ والخيام وما فيها من مال وغيره ... » ابن الاثير ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

انظر أيضا : Idris (H . R) , *La Berbérie Orientale...* , *op cit*, p 217 .

31) يقول ابن عذاري : « ... وبات الناس ليلتين بالقيروان تحت ما لا يعلمه إلا الله تعالى من الخوف ، لايدرون ما ينزل بساحتهم . واقام الناس يومين لايدخل إليهم داخل ولايخرج منهم خارج ، وخيل العرب تسرح حول القيروان في كل جهة ومكان ، والناس يرونهم عيانا بيانا ... » ، ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج ا ، ص291 .

32) ينقل ابن الاثير ما يلي : « قال مؤنس بن يحى المرداسي : ليست المبادرة عندي براي ، فقالوا : كيف تحب ان نصنع ؟ فاخذ بساطا فبسطه ثم قال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه ؟ قالوا لا نقدر على ذلك . قال : فهكذا القيروان . خذوا شيئا فشيئا حتى لايبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ . » ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج IX ، ص 567 .

وانهارت مدينة القيروان [33] وبسقوطها فتحت منطقة قسنطينة في وجوههم ،فسيطروا عليها إذ يقــول ابن خلدون بعد ذكره لدخول مؤنس بن يحي القيروان : « ثمّ ملكوا بلاد قسنطينة كلها . وغزا عامل ابن أبي الغيث منهم زناتة ومغراوة فاستباحهم ورجع . » [34]وهكذا أصبحوا على طريق قلعة بني حمّاد .

ج - هزيمة الحماديين في سبيبة 1065/457، « حيدران ثانية » :

*** للنزاع الزيري الحمادي دور في واقعة سبيبة :**

وكانت الواقعة الثانية ، واقعة سبيبة [35] التي أدّت تقريبا إلى نفس نتائج واقعة حيدران . ولكـــن تحملتها هذه المرّة دولة بني حمّاد ، ولـــعب الهلاليون فيها

33) يقول ابن عذاري : « وفي 449 خرج المعز بن باديس من المنصورية متنقلا إلى المهدية لليلتين بقيتا من شعبان . وفي أول يوم من رمضان انتهبت العرب مدينة القيروان وخربتها . » *البيان المغرب* ، ج 1 ، ص 294 .

Talbi (M) , << Al-KAYRAWAN>>, *Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle édition , p. 863 .

ولا يجب ان نذهب إلى الاعتقاد بأن « تخريب القيروان » يعني انها مُسحت تماما كما اننا نعتقد أن الزيريين بعد هزيمتهم في حيدران سنة 1052/443 ساهموا في ما شاعت تسميته بـ « تخريب القيروان » وضواحيها لاسيما « صبرة » أو « المنصورية » لانهم عملوا على اطلاق العنان للسكان لنهب المزروعات المحيطة بالقيروان بهدف عدم التفريط فيها للهلاليين . كما أن حالة الفوضى أعطت الفرصة للعساكر الصنهاجيين والعبيد لتجاوز الأوامر . فابن عذاري يقول على إثر هزيمة حيدران واقتراب الهلاليين من القيروان : « وأمر السلطان كافة الناس بانتهاب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة وهي المنصورية ، فسُرّ المسلمون بذلك وحسبوها أرزاقهم ، وكان مصيرها إلى ماقدّر الله من فسادها واكل البهائم لها . » ، *البيان المغرب* ، ج ا ، ص 291 ؛ ويواصل قائلا عمّا وقع لصبرة نتيجة تصرفات عساكر الصنهاجيين والعبيد : « وأمر السلطان المعز أن ينتقل عامّة اهل صبرة وسوقتها إلى القيروان ، ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة ، وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها واسواقها ؛ فارتجّ البلد لذلك ، وعظم الخطب واشتدّ الكرب ، ومدّ العبيد ورجال صنهاجة ايديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها واقتلعوها وخرّبت العمارة العظيمة في ساعة واحدة . » ، *البيان المغرب*، المصدر نفسه والصفحة نفسها . مع اننا نشير إلى المبالغة التي اكتست الخبر رغم أهمية مدلوله .

34) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 33 .

35) عرف ياقوت الحموي سبيبة بما يلي : « وسبيبة : ناحية من اعمال إفريقية ثم من أعمال القيروان .» ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج III ، ص 186 ؛ وعرّفها هـ . ر . إدريس بانها واقعة بين القيروان وتبسة .

Idris (H.R),<< Hammadides >>*Encyclopédie de l'Islam* , t III , p 140

وعن واقعة سبيبة انظر : ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج ا ، ص299 ؛ ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ؛ ج X، ص 44-46 ؛ رشيد بورويبة ، *الدولة الحمادية ، تاريخها وحضارتها*، ديوان المطبوعات الجامعية والمركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر 1977، ص 61-66 ؛

Idris (H.R), *La Berbérie Orientale ... op cit* , t I , p 249-261 ; Du même, <<Hammadides>>, *Encyclopédie de L'Islam*, Nouvelle édition,t III ,p. 140.

دورا في النزاعات الداخلية ، إذ جاءت هذه الواقعة نتيجة للخلاف القائم بين بني زيري في إفريقية وبني حمّاد في القلعة . هذا الخلاف الذي بدأ بانفصال حمّاد بن بلكّين في المغرب الأوسط عن ابن أخيه باديس بن المنصور سنة 1015/405 .[36]

وفي الواقع، حتى وإن كانت تلك هي جذور الخلاف ،فإنه تحوّل إلى صراع « تفوّق » فكلاهما لايريد أن يرى الآخر متفوقا ؛[37] إذ بعد سقوط القيروان بيد مؤنس بن يحي المرداسي شيخ رياح سنة 1057/449 تفوّقت الدولة الحمّادية بعدما خسرت الدولة الزيرية وحدتها وانحصرت في شريط ساحلي حول المهدية .

فاستفادت عمرانيا وديمغرافيا من هجرة أهل إفريقية واقتصاديا من حالة الأمن النسبيّة [38] وسياسيا اعترف بنوخراسان في تونس وبنومليل في صفاقس ومقدّم قسطيليّة أي توزر يحي بن وطاس وأهل القيروان بالتفوّق للناصر بن علناس .[39]

36) لم يكن الوضع هادئا في المغرب الأوسط في عهد باديس بن المنصور الصنهاجي نتيجة لتحركات زناتة وخروج ابناء عمّه من بني زيري سنة 1000/390 ماكس وزاوي ثم المعز بن زيري بن عطية المغراوي من زناتة سنة 1004/395-1005 الذي ملك ابوه فاس وصار امير زناتة ، فكلف باديس عمّه حمّاد بن بلكين لمحاربتهم وولاه المغرب الأوسط والمناطق التي يسترجعها . وتمكن حماد من السيطرة على المنطقة واسس قلعة بني حمّاد سنة 1007/398-1008 . ولكن باديس طلب منه تسليم قسنطينة وتجيس ، فرفض واعلن تمرده عليه والخروج عن طاعة العبيديين والاعتراف بآل العباس . وناصره اخوه إبراهيم . وفي 1018/408 اعترف المعزبن باديس بن المنصور باستقلال الدولة الحمادية ؛ ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج 1 ، ص 249-253 ، 261-262 ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ج 6 ، ص 324، 349-351 ؛

Idris (H.R) , *La Berbérie Orientale ... op cit* ,tl , p 90-98 ; Du même , << Hammadides >>, *Encyclopédie de l'Islam*, N[lle] édition, t III,p. 139 .

رشيد بورويبة ، الدولة الحمادية ... ، مرجع سابق ، ص 17-34 ؛ اسماعيل العربي ، *دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية* ، سلسلة الدراسات الكبرى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 ، ص 89-118.

37)و لأن الصراع صراع تفوّق فإنه لم يهدأ ، رغم محاولات التقارب . فمن أولى دلائل الصّلح اعتراف المعز بن باديس باستقلال الحماديين في المغرب الأوسط بعد أن تنازل حمّاد عن قسنطينة وتجيس ، وكذلك زواج أم العلو اخت المعز بعبدالله بن حمّاد في 1024/415 ، والإعانة التي بعثها القائد بن حمّاد بـ 1000 فارس إلى المعز في معركة حيدران . ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 32 ، 324؛ ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج I ، ص 272 ؛ رشيد بورويبة ، *الدولة الحمادية* ... مرجع سابق ، ص 33، 34 ، 38 ، 50 .

38) يقول ابن الأثير : «فلمّا رحل المعز من القيروان وصبرة إلى المهدية تمكنت العرب ونهبت الناس وخربت البلاد وانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حمّاد بكونها جبالا وعرة يمكن الامتناع بها من العرب فعمّرت بلادهم وكثرت أموالهم وفي نفوسهم الضغائن والحقود من باديس ... » ، *الكامل في التاريخ* ، ج X ، ص 44-45 .

39) يربط ابن خلدون بين تفكك دولة بني زيري وتفوّق الدولة الحمادية قائلا :

« لمّا تغلب العرب على القيروان وأسلم المعز وتحوّل إلى المهدية اضطرمت إفريقية نارا . واقتسمت العرب البلاد عمالات ، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس ، وصارت صاغية أهل إفريقية إلى بني حمّاد وملوك القلعة . » ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 334 .

* **التحالف الهشّ حول الناصر بن علناس أدّى إلى هزيمته :**

شعر تميم بن المعزبن باديس بأن تفوّق الناصر أصبح خطرا عليه إذ اصطبغ بنزعة توسّعية [40] فجاءت المبادرة منه . وبما أنه لم يعد يتمتّع بالقوة الكافية ، اعتمد على رياح من القبائل الهلالية . وبذلك يستطيع أن يضرب الحماديين أولا ، ويدّخر جنوده ثانيا . وفي حالة الهزيمة تكون هزيمة لرياح قبل كل شيء . وأقنعهم بأن قوّة الناصر تشكّل خطرا عليهم [41] وزوّدهم بالمال والسلاح . وظهر تحالفان [42] :

تحالف أوّل بربري - هلالي حول النّاصر جمع صنهاجة وزناته والأثبج وعدي وكان جيش المعز بن زيري بن عطية الزناتي أمير فاس هو الذي يمثل زناته .

وتحالف ثان لصالح تميم بن المعز بن باديس جمع رياح وزغبة وسليم .

---

40) يقول ابن الأثير : « واتصل بتميم أن الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمّه وانه عزم على السير إليه ليحاصره بالمهدية وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناته وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية . » ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج X ، ص 44 . وحسب رواية ابن خلدون لا ترجع أسباب معركة سبيبة إلى الصراع القائم بين بني زيري بالمهدية وبني حمّاد بالقلعة بل إلى صراع نشأ بين القبائل العربية الهلالية نفسها وبالتحديد بين رياح والأثبج . ويذكر أن الناصر دخل المعركة في سبيبة إلى جانب الأثبج بطلب منهم ثمّ استعان بزناته : ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 42-43 ، 355 . ويفسّر أن مساندة الناصر للأثبج تدخل في سياسة التفريق بين الهلاليين إذ يقول : « ولما استقر لهم الغلب (بعد معركة حيدران) وضعَت الحرب أوزارها ، وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم ، وصاروا إلى التفريق بينهم وظاهروا الأثبج على رياح وزغبة وحشد الناصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم وجمع زناتة ... » ابن خلدون ، *العبر* ، ج 6 ، ص 42 .

بينما يرجع ابن عذاري وابن الأثير سبب المعركة إلى الصراع بين تميم والناصر ويذكران أنّ المبادرة جاءت من تميم . ابن عذاري ،*البيان المغرب* ، ج I ، ص 299 ؛ ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج X ، ص 44-46 .

ونحن نميل إلى روايتي ابن عذاري وابن الأثير ، ولكن في نفس الوقت لانفنّد وجود صراع بين رياح والأثبج . فهذا الصراع لم يكن هو سبب المعركة حتى قام الأثبج بالهجوم على رياح : وإنما استُغلّ من قبل تميم ابن المعز لدفع رياح وحلفائها في معركة ضد الناصر . ومن الدلائل التي تجعلنا لانميل إلى رواية ابن خلدون هي أولا : ما نلاحظه بها من خلل إذ يذكر أن الناصر نزل بالأربس قبل معركة سبيبة ، بينما جاءت واقعة الأربس بعد ثلاث سنوات أي 1068/460 ، دخل الناصر على إثرها إلى القيروان ثم تخلّى عنها . ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج I ، ص 299 ؛ ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج X ، ص 58 . وكان فتح الأربس هجوما مضادا لهجوم تميم على تونس « الخراسانية » سنة 459-1067/460-1068 بهدف عرقلته وتشتيت مجهوداته .

Idris (H.R) , << HAMMADIDES >>*Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle édition , t III, p 140 .

وثانيا لاينفي ابن خلدون مسؤولية تميم في هزيمة الناصر بسبيبة . وكان تميم حشر نفسه خلال المعركة . ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 ، 354 . ونعتبر أن التوضيح جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير عندما جعل تميما يخطط للهجوم على الناصر مع رياح ، ج IX ، ص 45 .

41) ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج X ، ص 45 .

42) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج I ، ص 299 ؛ ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ،ج IX ، ص 45 ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 42 ، 355 .

والتقى الجمعان في سبيبة ، بين القيروان وتبسّة سنة 1065/457 . وانهزم الناصر نتيجة لاختلال التحالف حوله . ويخبرنا ابن عذاري وابن الاثير وابن خلدون أنه وقعت مؤامرة ضدّه شارك فيها تميم بن المعز. ويقول ابن الاثير أنه تمّ الاتفاق بين تميم ورياح من جهة والاثبج من جهة أخرى على خيانة الناصر . كما عزمت زناتة باتفاق مع أميرهم المعز بن زيري على خيانته ، واتفقت في ذلك مع رياح والمعز ولا يتعرّض ابن خلدون إلى خيانة الأثبج بل تعرّض إلى خيانة زناته فحسب .[43]

وفي الحقيقة كانت لكل طرف من أطراف المؤامرة مصلحة في إضعاف الناصر. فتميم بن المعز كما بيّنا يخيفه تفوّق الناصر ومن مصلحته إضعافه ، والمعز بن زيري بن عطية الزناتي أمير فاس شارك بجيش زناته مرغما لانه كان تحت وطأة الأمير الحمّادي منذ عهد بلكين بن محمد بن حمّاد عندما فتح فاس ، ومن صالحه أن يضعف الناصر ليتمكّن من استقلاله .[44]

أما الهلاليّون ،فكانوا واعين أيضا بهدفهم وهو السيطرة على المغرب الأوسط. وكان ذلك واضحا في ما نقله ابن الاثير عنهم . فقد بيّن بنورياح للهلاليين المتحالفين مع الناصر أي الأثبج أن الناصر « يهلكهم » إن قوي وأنه « إنما يستمرّ لهم المقام والاستيلاء على البلاد إذا تمّ الخلف وضعف السلطان »[45]

* نتائج مشابهة لنتائج حيدران :

وفعلا ، فإن النتيجة الكبرى لهزيمة سبيبة كانت سيطرة الهلاليين على المغرب الأوسط ، لاسيما رياح [46]فقد حدث للناصر ما حدث للمعز بن باديس بعد واقعة حيدران ، إذ استولى الهلاليون على مضاربه وخزائنه وما تحتويه من أموال وسلاح ؛ وفرّ الناصر إلى قسنطينة ثمّ دخل القلعة مهزوما .[47]
وبعدها انتشروا في البلاد وسيطروا على الارياف والمدن مثل طينة والمسيلة .[48]

---

43) ابن عذاري ، المصدر والصفحة نفسهما ؛ابن الاثير ، المصدر والصفحة نفسهما ؛ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 .

44) رشيد بورويبة ، *الدولة الحمادية* ، مرجع سابق ، ص 64 .

45) ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج IX ، ص 45 .

46) يوضح ابن خلدون أن رياح هي التي مكثت تلاحق الناصر وتزحف :«وقتل أخوه القاسم (أي أخو الناصر) ونجا (الناصر) إلى قسنطينة ورياح في اتباعه . ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخربوا جنباتها واحبطوا عروشها ... » ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 .

47) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج I ، ص 299 ؛ ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج IX ، ص 46 : ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 ؛ 355 .

48) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 .

وهدّدوا القلعة عاصمة الحمّاديين [49] وإن لم يدخلوها بل على قول ابن خلدون : « خربوا جنباتها وأحبطوا عروشها » [50] إذ كانت تتميّز بموقع جبلي حصين . والمهم أنها أصبحت محاصرة وأن الأمن انعدم في جهتها . وأصبحت للهلاليين اليد العليا ، لاسيما وأنهم أصبحوا ياخذون « الاتاوة » من الأمراء والملوك مقابل تصرّفهم في أوطانهم . [51]

وما لبثت سيطرة الهلاليين تثقل على المناطق الداخلية للدولة الحمادية بشهادة الإدريسي الذي أنهى كتابه في آخر عهدها سنة 1154/548 . [52] ويعبّر ابن الأثير عن هذه السيطرة بإيجاز بقوله : « وبهذه الوقعة تمّ للعرب ملك البلاد . » [53]

2 - نحو توزّع عمراني جديد بعد سبيبة : اختناق القلعة الداخلية وبروز بجاية الساحلية :

وهكذا كرّست هزيمة سبيبة تثبيت حياة الترحال والبداوة محلّ الاستقرار والمدَنيّة في المغرب الأوسط مثلما كان الشان في إفريقية وهكذا أيضا وفي مدة قصيرة من 1052/443 تاريخ وصول بني هلال إلى حدود إفريقية إلى 1065/457 تاريخ هزيمة سبيبة تغيرّت هياكل المجتمع في إفريقية والمغرب الأوسط . انقلاب كبير ، ترتّب عنه اختلال التوازن بين المدَنيّة والظعن وبين الساحل والداخل . وأصبحت السّواحل تستقطب المدن لاسيما العواصم . [54] فتغيّرت الجغرافية العمرانية . لذلك لم يعد من الممكن أن يتواصل وجود القلعة وسط مجتمع رُحّل غير قادر على هضم سلطة الحكومة ولا يتعامل مع المستقرين إلا بمنطق اليد العليا . ولم تعد السلطة الحمّادية نفسها قادرة على مراقبة الجهات

---

49) حول قلعة بني حمّاد انظر :

الإدريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، مصدر سابق ، ص 117 ؛ ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج IV ، ص 390 ؛

De Beylié (G L) , *La Kalaa des Beni Hammad , une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI e s* , éd . Ernest Leroux Paris 1909; Marçais (G) , *Manuel d'art musulman . L'architecture Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile du IX au XII* . éd A . Picard , Paris 1926, tI , p 104-106 ; Golvin (L) , *Le Maghreb central* .... op cit ; Idris (H.R) , *La Berbérie Orientale* ... *op cit* tII , p 491 s q ; Golvin (L) , *Recherches archéologiques à la Qala des Banu Hammad* , Paris 1965 ; Bourouiba (R) , *L'Art religieux en Algérie* SNED Alger 1973 , p 26-27 ; Golvin (L) ,<< KALAT BANU HAMMAD>>, *Encyclopedie de L'Islam* , Nouvelle édition (1978), p 499-502 .

50) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 .

51) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

52) يقول الإدريسي : « وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة . وربما اضرّ بعضهم ببعض ، غير أن ايدي الأجناد فيها مقبوضة ، وايدي العرب مطلقة في الأضرار . وموجب ذلك أن العرب لها ديّة مقتولها . وليس عليها ديّة فيمن تقتل . »الادريسي، *المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق* ... ، ص 118 .

53) ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج IX ، ص 46 .

54) Chapoutot - Remadi (M) , << *Dans la région de l'Islam* ...>>, *op cit.* , p 16 .

التابعة لهـــــا . وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية ؛ إذ أصبحت القلعة معزولة تجاريّا بعد أن اضطربت المسالك التجارية ، فاختلّ تموين أسواقها وتقهقرت صناعتها وتحوّلت مزارعها إلى مراعي وبذلك وقع تكسير الهياكل الأساسية التي يتكوّن منها بناؤها الاقتصادي ، فاختنقت شيئا فشيئا ممّا أدى بالحماديين إلى التفكير في عاصمة جديدة تكون ساحلية . ووقع الاختيار على بجاية تلك القرية البحرية الصغيرة . ويربط الإدريسي تعمير مدينة بجاية « بخراب القلعة » فيقول : « وأما مدينة بجاية في ذاتها ، فإنها عُمّرت بخراب القلعة التي بناها حمّاد بن بُلقين . » [55]

وفي الواقع ، لم يكن بروز بجاية مرتبطا بتدهور القلعة فحسب بل بذلك التغيّر البنيوي للمجتمع الداخلي وما تدهور القلعة إلا إحدى مظاهر هذا التغيّر . ويتدعّم قولنا بما ينقله ابن خلدون عندما ذكر أن الهلاليين خربوا جنبات القلعة و « عاجوا على الأمصار مثل طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجنّ وأوحش من جوف العير وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر ، وأظهروا في الأرض الفساد وهجروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاّة أعمالهم في الأمصار ... » [56]

ثم يربط ابن خلدون اختطاط بجاية بهذا الزحف الشامل فيقول :

« ولم يزل هذا دأبهم حتّى لقد هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة ، واختطّ بالساحل مدينة بجاية .» [57] وهو يبرز موقع بجاية الساحلي وكأنه يريد أن يقابل السواحل التي مازالت آمنة بالداخل حيث فُقِد الأمن فيه .

III - السلطة تبني مدينة «الناصرية» :

1 - بجاية المرسى الصغير تتحوّل بسرعة إلى عاصمة للحماديين :

إذن ، حصل لبجاية ، تلك القرية الساحلية الصغيرة تحوّل مفاجئ وسريع ، حتى أن المصادر تحدّثت عن اختطاط لمدينة كاملة مثلما ذكر ياقوت الحموي وابن خلدون . [58]

وتوحي كلمة اختطاط بان كل ما بُني جديد . وليس لدينا أخبار عن مصير مباني القريـــة السابقة . والمهم أننـا لانشك في أن الموقع هو نفس موقع بجاية

---

55) الإدريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 117 .

56) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 43 .

57) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

58)ياقوت الحموي : « كان أوّل من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد ابن بلكين ... » معجم *البلدان* ، ج I ، ص 339 ؛ ابن خلدون ، المصدر والصفحة نفسها .

القرية مادامت مصادرنا واضحة في هذا الأمر فياقوت الحموي واصل قائلا بانها : « كانت ميناء قديما » [59] بعد أن ذكر أن الناصر هو أول من اختطها ، وقال ابن الاثير إن ابن البعبع « ذكر له عمارة بجاية » ثم واصل: «وأنجز الناصر بناء المدينة بسرعة فائقة» . فياقوت الحموي ينقل أن الناصر « أمر من وقته بوضع الأساس وبناها ونزلها بعسكره » [60] ويقول ابن الأثير : « أمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل » [61] ونعتقد أن هذه السرعة مرتبطة بالفقدان المفاجئ للأمن في منطقة القلعة ودليل آخر على سرعة التحولات هنالك .

وقد أشرف على بنائها الناصر بذاته . وخطط موضع الدار السلطانية أي مقر الحكم صحبة ابن البعبع[62] ويذكر ابن خلدون أنه انتقل إليها سنة 1069/461 [63] أي أنها تحوّلت من قرية صغيرة إلى عاصمة دولة في مدة سنة فقط .

وسخر لها الناصر مجهودا استثنائيا لانجازها بسرعة ؛ إذ «نقل إليها الناس وأسقط الخراج عن ساكنيها » [64] ولاشك أن هذا الامتياز الجبائي شكل عاملا فريدا لتنشيط تعمير المدينة في أسرع وقت ، وجعل من بجاية قطبا للمهاجرين منذ البداية .

ويعني اسقاط الخراج عن ساكنيها أنها صارت مدينة مخزنية محظوظة تمارس فيها السلطة وتمارس بها وهي رمزها .

إذن انجاز سريع ، لأن غايته بناء مركز الحكم لانقاذ الدولة الحمادية وصيانتها بعد هزيمة سبيبة . وحرص بانيها على أن تكون صورة لقوة الدولة لتصبح مضاهية للمهدية عاصمة بني زيري بل متفوقة عليها .[65]

وأصبحت بجاية العاصمة الوحيدة لبني حمّاد منذ عهد الناصر . ويمكن أن يكون المنصور قد فكّر في البقاء بالقلعة لانه أمضى بها سنتين بعد وفاة أبيه من 1088/481 إلى 1090/483 لكنه لم ينجح في ذلك أمام ضغط الهلاليين ، [66] فتحوّل إلى بجاية ، وابن خلدون واضح في قوله : «اتخذ (المنصور) بجاية هذه معقلا وصيّرها دارا لملكه . » [67]

وبينما كانت بجاية تتسع وتزدهر كانت القلعة تتلاشى تدريجيا . فبعد أن استبدلهـا الناصر ثم المنصور من بعده تصاعـد ضغط الهلاليين حولها في عهد

---

59) المصدر والصفحة نفسهما .

60) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

61) ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج X ، ص 48 .

62) المصدر نفسه ، ج X، ص 47 -48 .

63) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص357 .

64) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

65) يقول ابن خلدون : « ... وانتقل إليها سنة إحدى وستّين (461 هـ) وفي أيام الناصرهذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس .» المصدر نفسه والصفحة نفسها .

66) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 358 .

67) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

العزيز بن المنصور ، فشهدت المدينة تدهورا ملحوظا [68] ، وخرج يحي بن العزيز في سنة 1148/543 لتفقدها ونقل ما بها إلى بجاية [69].وخربت بعد ان دخلها الموحدون عنوة سنة 1152/547 ('69)وتلاشت عند هجوم بني غانية عليها سنة 1185/581 .

2 - تاريخ التاسيس والتسمية : إشكاليتان .

أ - تاريخ التاسيس: 1065/457 أم 1068/460 ؟

يضع تاريخ التاسيس لامحالة مشكلا . فبينما يجعله ياقوت الحموي وابن الاثير ومحمد بن إبراهيم الكتبي سنة 1065/457 [70] يجعله ابن خلدون سنة 1068/460 . [71]والمرجح أن يكون تاريخ 1068/460 هو الصحيح [72] للأسباب التالية :

أولا ، لايهمنا إن كان ثلاثة قد اتفقوا على تاريخ واحد . فلربّما نقل ياقوت وابن الأثير الواحد عن الأخر لأنهما عاشا في نفس الفترة . توفي ياقوت سنة 1228/626 وابن الأثير في 1232/630 - 1233 . أما محمد بن إبراهيم الكتبي المتوفي سنة 1314/714 قد يكون أخذ عنهما

---

68) يقول ابن خلدون : « وكبس العرب في أيامه القلعة وهم غازون فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها وعظم عيثهم ، وقاتلتهم العامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد ... »، المصدرنفسه ، ج VI ، ص 363 .

69) يقول ابن خلدون : « ووصل سنة ثلاث واربعين (543 هـ) الى القلعة لافتقادها ونقل ما بها » ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 363 .

69) يقول ابن خلدون : « دخل الموحدون القلعة عنوة وقتل حوشن بن العزيز وابن الدحامس من الاشياع معه وخربت القلعة . » ، المصدر نفسه ، ج VI ، ص 364 .

70) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج I ، ص 339 ؛ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ*، ج X ، ص44 : محمد بن إبراهيم الكتبي ، نص ماخوذ من مباهج الفكر ومناهج العبر ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر ، الورقة 67 ، ورد في*الأصالة* عدد 19 ،(1974) ؛ نذكره لاحقا كما يلي : محمد بن إبراهيم الكتبي ، *الأصالة*،(1974) ، ص 65 .

71) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 357 .

72) يذكر اغلب المؤرخين 1067/460-1068 كتاريخ لتاسيس بجاية دون أن يناقشوا هذا الاختلاف بين المصادر . انظر :

De Beylié (Le G L) , *La Kala des Beni Hammad...*, *op cit* ,p 94 ; Brunschvig (R) , *La Berberie Orientale ...*, *op cit* , t1 , p 377; Golvin (L) , *Le Maghreb central ...* ,*op cit* ,p 115 ;Du même, *Recherches archéologiques à la Qala de Beni Hammad ...* ,*op cit* ,p32 ; Marçais (G) , BIDJAYA , *Encyclopédie de L'Islam* Nouvelle édition t I , p 1240 ; Cambuzat (P.L), *L'évolution des cités du Tell en Ifrikiya du VII e au XI e s* . 2 tomes , Alger 1971 , t II , p 249

رشيد بورويبة ، *الدولة الحمادية* ، مرجع سابق ، ص 68 ؛اسماعيل العربي ، *دولة بني حمّاد* ، مرجع سابق ، ص 189 .

ويعطينا إيفير تاريخ 1062/453-1063 ولايذكر على اي مصدر اعتمد في ذلك . ونعتقد انه اخطا فهو تاريخ يسبق حتى واقعة سبيبة .

Yver (G) ," Bougie "*Encyclopédie de l'Islam* , Ancienne édition , t I ,p. 785

ويتبنّى هـ . روجي إدريس تاريخ 1064/457-1065 دون مناقشة .

Idris (H.R),*La Berbérie orientale...* ,*op cit* , t II , p 500.

وثانيا فإن البكري الذي أنهى كتابه سنة 1068-1067/460 لم يذكر بجاية إلا كمرسى عامر بأهل الأندلس [73]. فإن كانت تأسست منذ 1065/457 لكان تعرّض لتأسيسها أو على الأقل لكان ذكرها على وضعها الجديد.

وثالثا، كان من غير الممكن أن يؤسس الناصر بجاية في نفس سنة الهزيمة، هزيمة سبيبة إذ مازال يعاني من تبعاتها. فقد حاول الناصر الحد من خطر رياح بعقد صلح معها. ولكنه في نفس الوقت تعرض لزحف بني عدي نحو المسيلة وأشير، وقد قدموا من طرابلس باتفاق مع المستنصر بن خزرون الزناتي. ثم تحالف بنو عدي هؤلاء مع بني توجين من زناتة على « الافساد وقطع الطرق » [74]. ولذلك كان الناصر منشغلا مرة بمحاولة صدّهم وأخرى بالتعاقد معهم على الصلح. ومن الممكن أن يكون هذا الوضع تواصل ثلاث سنوات على الأقل.

ورابعا، مازال بإمكان الناصر البقاء مدة ما بالقلعة حتى يرمّم الوضع شيئا ما لأن بني رياح لم يدخلوها مثلما فعلوا للقيروان.

ب - بجاية والناصرية إسمان للمدينة يطرحان إشكالية :

أطلق الناصر على مدينته الجديدة اسم « الناصرية ». ولكن اسم « بجاية» هو الذي بقي متداولا. وهو الذي كان يطلق على القرية قبل الناصر، فشمل المدينة الجديدة.

ويقول ابن خلدون عن أصل التسمية : « فلما افتتح الناصر هذا الجبل (أي جبل بجاية) اختطّ به المدينة وسمّاها الناصرية، وتسمّى عند الناس باسم القبيلة، وهي بجاية. » [75]

إذن نسبت المدينة منذ أن كانت قرية صغيرة إلى قبيلة بجاية وبقي الاسم إلى اليوم. [76]وقبيلة بجاية هي إحدى قبائل صنهاجة البربرية.

ويكشف لنا قول ابن خلدون عن موقفين : موقف السلطة الحاكمة ومن والاها وموقف « الناس ». ولربما تعني كلمة « الناس » هنا كلّ أولئك الذين هم من غير السلطة الحمادية ومن غير الموالين لها. فالناصر لم يعترف بتسمية «بجاية» رغم تداولها وجعل لها اسما رسميا لتكريس حضور السلطة في المنطقة أولا والتذكيـر باستمرار قوة الدولة ثانيا، داخليـا بعد أن اختلت في منطقة القلعة،

---

73) البكري، *المسالك والممالك*، ج II، ص 757، الفقرة 1269 .

74) ابن خلدون، *العبر*، ج VI، ص 355 .

75) ابن خلدون، *العبر*، ج VI، ص 357 .

76) اتخذ الاسم أشكالا عديدة عند الأوروبيين نجدها في مصادرهم أو في العقود والرسائل :

Buggia: L'Africain (L) , *Description de l'Afrique* ... op cit p 359 ;Bugie : Marmol , *Description de l'Afrique ..., op cit*, p 419

Bugia : Masia de Ros (Angeles) , *la Corona de Aragon y Los Estados del Norte de l'Africa Politica de Jaime II y Alfonso IV en Egipto , Ifriquia y Tremcen* , Barcelona 1951 , p 434,445, 457 etc... (Partie documents) .

Bougie : وهي التسمية الفرنسية اليوم

وخارجيا أمام بني زيري الأعداء التقليديين . لذلك لم يسجّل اسم بجاية على النقود الحمادية التي استحدثها الأمير يحيي بن العزيز سنة 1148/543-1149 بل سجل اسم الناصرية الرسمي في دائرة الوجه الخلفي للدينار : « بسم الله الرحمان الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة » [77]

وحين نتحدث عن تكريس حضور السلطة في المنطقة نعني أن اسم « الناصرية » شكل من أشكال ممارستها للهيمنة السياسية على القبائل البربرية المحيطة ببجاية لأنه يفرض اختيارها ويذكّر بوجودها هذه الهيمنة التي كانت توازيها هيمنة عسكرية .[78]

إن اسم « الناصرية » إذن ،رمز من رموز السلطة . ولذلك كان على شاعر مثل ابن حمديس [79] متميّز بشعره « الرسمي » أن يختار اسم "الناصرية" بل أن يُغَيّب اسم بجاية في أحد أبيات قصيدة موجّهة للمنصور بن علناس يصف فيها قصر النّجم أحد انجازاته فيقول :

عرّج بارض الناصريّة كي ترى * * شرف المكان وقدرة الإمكان [80]بينما اختارت « الرعيّة » اسم "بجاية" وسايرها في ذلك كل من هو غير موال للسلطة أو من يتصف بعدم الاكتراث بها . وتشبّثت بهذا الاسم لأنه انبعث منها .

لذلك كله فإن الإسمين يخفيان صراعا بين السلطة و " الرعيّة " التي تشبّثت باحد رموزها وهو اسم بجاية . ولم يكن من السّهل فرض اسم الناصريّة واقتصر استعماله على الفئة الحاكمة أو الموالية لها .

3 - لماذا اختارت السلطة الحمادية بجاية دون سواها من المواقع الساحلية ؟

ننطلق من روايتين لياقوت الحموي وابن الأثير [81] حول أسباب بناء بجاية للاجابة عن هذا السؤال. وتتضمّنان عديد النقاط المشتركة وتتلخصان في أن فكرة بنائها تعود إلى محمد بن البعبع وزير تميم بن المعز . فبعد النتائج الثقيلة لمعركة سبيبة تفطن الأميران إلى وجوب إعادة العلاقات . فبعث تميم رسولا عنه

---

77) ابن خلدون ، *العبر* ، ج IV ، ص 363 .

78) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 262 ، 361 .

79) ولد الشاعر عبدالجباربن حمديس الصقلي في مدينة سرقوسة بصقلية سنة 1054/447-1055 من أب عربي أزدي . وسافر إلى اشبيلية بالاندلس سنة 1078/475-1079 واستوطنها بعد سقوط سرقوسة في يد النورمان سنة 1085/478 . واستولى يوسف بن تاشفين على اشبيلية 1095/448 ، فغادرها ابن حمديس عن طريق البحر حيث أوشك على الغرق وبعدها انتقل بين سلا وسبتة والمهدية وبجاية وبونة وصفاقس وميورقة ايضا . وكانت له علاقات وثيقة بالمنصور بن الناصر بن علناس . اسماعيل العربي ، « عبدالجبار بن حمديس الصقلي ، شاعر بني حماد » ، *الأصالة* ، عدد 19 ، 1974 ، ص 317 .

80) ديوان عبدالجبار بن أبي بكر محمد بن حمديس الصقلي ، وقف على طبعه وتصحيحه جلستينو سكياباريللي ، رومة 1897 . القصيدة رقم 314 ، ص 494-496 .

81) ياقوت الحموي ، معجم *البلدان* ، ج 1 ، ص 339 ؛ ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ*، ج X ، ص 46-48 .

هو ابن البعبع الذي انحاز للناصر واتهم أبا بكر بن الفتوح وزير الناصر بالتآمر مع تميم ، ثم عرض عليه فكرة تاسيس عاصمة جديدة في موقع بجاية ، وبيّن له مزاياها ؛ من ذلك أنها تمكنه من الاقتراب من إفريقية .

لقد تفاعلت مجموعة من العوامل أدّت بالسلطة إلى اختيار موقع بجاية . فالروايتان ترجعان ذلك إلى فكرة لابن البعبع . ولكن الأسباب البعيدة أعمق من ذلك . نستنتج بعضها من الروايتين .

أ - للموقع مزايا متعدّدة :

فقبل كل شيء، شكلت بجاية من الناحية الأمنية ملجا حصينا ضدّ الهلاليين . فجهتها بعيدة عن مجال تحركاتهم نظرا لأهمية الحواجز الجبليّة . وقد حدّد لنا الإدريسي هذا المجال في عهده ، أي في أواخر الدولة الحمّادية . فهم يقفون عند الجبال التي يخترقها « وادي الملح » أسفل مدينة سطيف نحو جنوبها الغربي . ويشكل هذا الوادي بين هذه الجبال حسب قوله مضيقا وموضعا مخيفا . وكان واضحا عندما قال : «هاهنا تصل غارات العرب وضررها » [82] ولذلك فهم اختاروا حوض الحضنة مجالهم لأن تضاريسها كانت ملائمة لهم . [83]

ومن الناحية الاستراتيجية استجاب الموقع لبعض الأسس التقليدية لاسيما عند الحماديين . فكما كانت القلعة واقعة على جبل عجيسة ومحمية به ، فإن الأمر كان كذلك بجبل أميسون ، غوراية حاليا ، بالنسبة لبجاية .

وتبدو بجاية في نفس الوقت أقرب القرى الساحلية آنذاك للقلعة ، لاسيما أن الناصر مازال في حاجة إلى عاصمته الأولى .

وهي الموقع الساحلي الذي كان ينتمي إلى صلب الدولة الحمادية ، أي أنه لم يكن في الأطراف المعرضة للمخاطر والتي لاتطمئن فيها السلطة ، لاسيما الأطراف الغربية فجزائر بني مزغناي أوتنس أو غيرهما معرضة لمخاطر الزناتيين ، لأن العلاقات معهم متارجحة وهيمنة الحماديين عليهم غير مستقرة .

وهناك مزيّة أخرى لوجودها في صلب الدولة تتمثل في مراقبة الشرق والغرب باكثر سهولة .

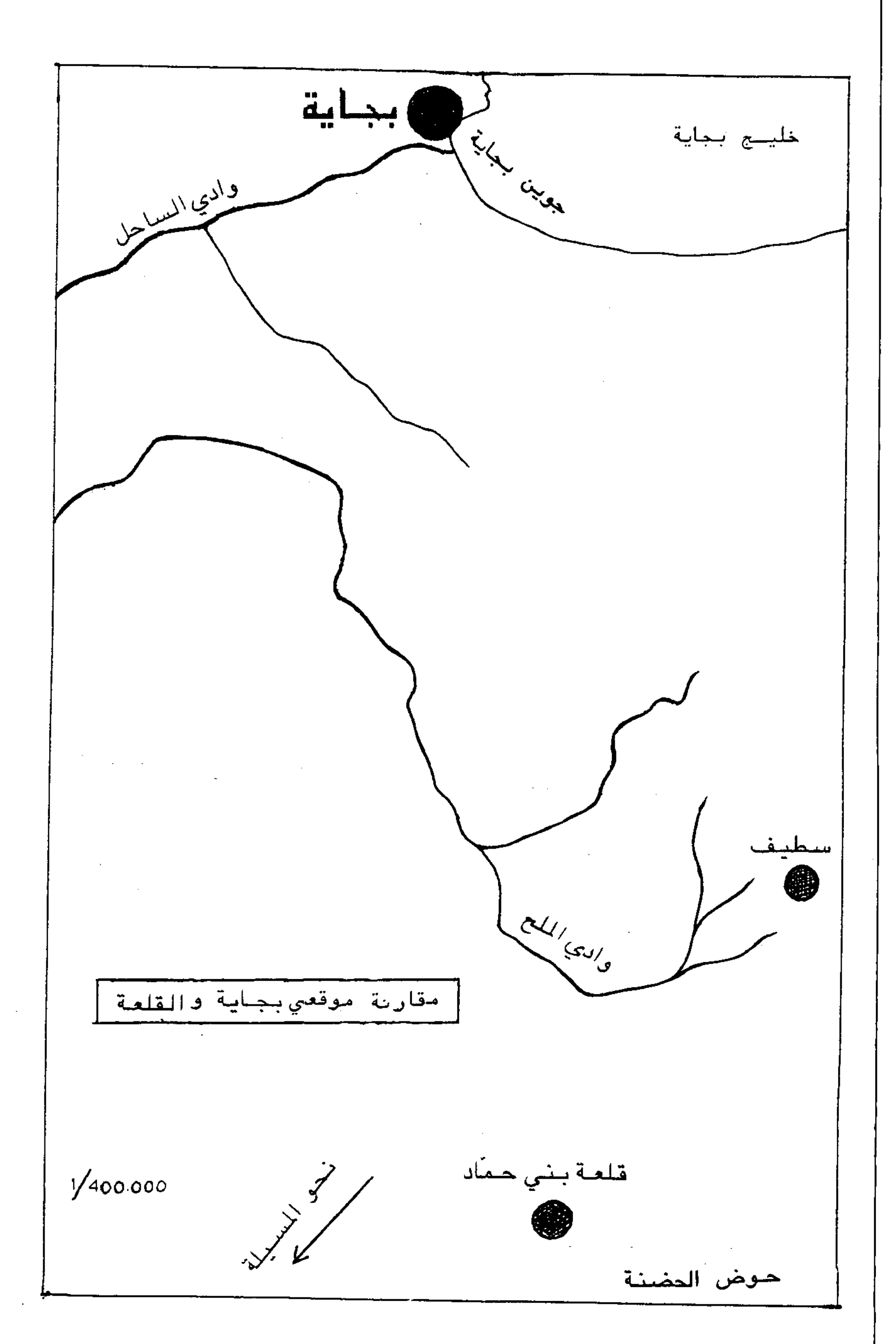
ومن الناحية البشرية - السياسية ، فهمنا مدى الاطمئنان الذي سيجده الحماديون إذا عرفنا أن بجاية تقع بين قبائل بربرية ذات استعداد للانصياع لهم وهضم نفوذهم ، أو أن السلطة قادرة على اخضاعها . فابن خلدون ،

---

82) ذكر ذلك في رسمه للطريق بين بجاية والقلعة : « ... ومن تاورت إلى الباب . وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح . وهناك مضيق وموضع مخيف . وإلى هاهنا تصل غارات العرب وضررها ... » *المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق* ... ص 118 .

83) يذكر دي بيلي أيضا ، وغولفان ، أنهم انتشروا في الحضنة .

De Beylié (G.L) , *La Kalaa des Beni Hammad . Une capitale Berbère de l'Afrique du nord au XI è S* . Ernest - Leroux Paris 1909 p 10;Golvin (L) , Kalat Bani Hammad . *Encyclopédie de l'Islam* Nouvelle édition Leiden , Paris 1978, TIV , p 501 .


بجاية
خليج بجاية
جوين بجاية
وادي الساحل
سطيف
وادي الملح
مقارنة موقعي بجاية و القلعة
قلعة بني حماد
1/400.000
نحو المسيلة
حوض الحضنة

يتحدث عن قبيلة بجاية وينسبها إلى صنهاجة .[84] ويذكر أيضا ملكانة بطن من بطون صنهاجة بنواحي مدينة بجاية .[85] وأهم القبائل انتشارا في نواحي بجاية زواوة وسدويكش من كتامة من البرانس[86] وهي قبائل استقرار ومدر .

وتمكّن الحماديون من السيطرة على هذه القبائل إلى آخر عهدهم [87].واعتبرت السلطة الحمادية في هذا الاختيار صراعها مع الزيريين ، إذ يظهر من روايتي ياقوت الحموي وابن الأثير أن موقعها الساحلي يقرّبها أكثر من أعدائها التقليديين بني زيري ،[88] إذ أن هؤلاء تحوّلوا قبلهم إلى عاصمة ساحلية . وبالتالي لابدّ من التربّص بهم عن طريق البحر بعد ما صعب ذلك عن طريق البرّ .وهناك غارة بحرية قام بها أسطول بجاية سنة 1135/530 ضد المهدية تبيّن أن هذا الهدف أصبح أمرا واقعا في مابعد .[89]

ب - ضرورة تحويل مركز ثقل الحركة التجارية نحو الساحل :

لقد كان للإنعكاسات الاقتصادية لزحف بني هلال الدور الهام ، إذ تدهورت التجارة في منطقة القلعة بسبب فقدان الأمن بها . وكان لابدّ من التوجّه نحو التجارة البحرية مع أوروبا وغيرها وتغيير المسالك التجارية البرية الموصلة إلى بلاد السودان والمشرق و المغرب ليكون منطلقها منطقة آمنة كبجاية ولتتحاشى المناطق غير الآمنة .

---

84) يقول ابن خلدون : « افتتح(الناصربن علناس)جبل بجاية ، وكان له قبيل من البربريسمّون بهذا الاسم ، إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هي بين الجيم والكاف . وهذا القبيل من صنهاجة . ... » ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 357.

85) المصدر نفسه ، ج VI ، ص312 .

86) يقول ابن خلدون عن سدويكش : « وإنما هم من بطون كتامة » ، ابن خلدون ، *العبر* ، ج IV ، ص 304 ؛ ويقول عن زواوة : « وزواوة التي بالواو في بطون كتامة وهو أظهر » ، ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 181 ؛ ويذكر كتامة من بين البرانس إذ يقول :« وأما شعوب البرانس فعند النسّابين انهم يجمعهم سبعة أجذام وهي ازداجة ومصمودة واوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة واوريغة »، ابن خلدون ، *العبر*، ج IV، ص 177 .

87) يقول ابن خلدون عن بعض بطون زواوة بنوا حي بجاية : « ثم اختطّ بنو حماد بعد ذلك بجاية بساحتهم وتمرسوا بهم فانتقادوا واذعنوا لهم إلى آخر الدولة ... » ابن خلدون ، *العبر* ، ج IV ، ص 262 . ويذكر أن المنصور بن الناصربن علناس ، بعد انتصاره على زناتة « رجع إلى بجاية واثخن في نواحيها ودوّخت عساكره قبائلها فساروا في جبالها المنيعة مثل بني عمران ، وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجم المعز ، وقد كان اسلافه يرومون كثيرا عنها فتمتنع عليهم ، فاستقام أمره واستفحل ملكه . » ابن خلدون ، *العبر* ، ج IV ، ص 361 .

88) يقول ياقوت الحموي : « ... وأراه (أي ابن البعبع للناصر) المصلحة في ذلك والفائدة التي تحصل له من الصناعة بها وكيد العدوّ ... » ، ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج 1 ، ص 339 ؛ والاحتمال الأقرب إلى الصحة انه يقصد بالعدوّ تميما بن المعز بن باديس ، إذ قال قبل ذلك في نفس الرواية أن ابن البعبع «دلّه (أي دلّ النّاصر) على عورة تميم وقرّر بينه وبين الناصر الهرب من تميم والرجوع إليه . » ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

ويقول ابن الأثير : « ثم ذكر له (أي ابن البعبع للناصر) عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية ... » ابن الأثير ، *الكامل في التاريخ* ... ، ج X ، ص 47 .

89) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ... ، ج 1 ، ص 312 .

وكما قالت الأستاذة منيرة شابوتو - رمادي : « وقع انتقال الطرقات نحو الشمال والسواحل . ولذلك هُجرت الطريق بين مصر والقلعة لفائدة طريق قريبة من الساحل في الجزائر . »[90]

ولكن الأهم والعاجل هو اللجوء إلى التجارة البحرية لتامين موارد الدولة بموارد الميناء وفسح مجالات أخرى للنشاط الاقتصادي . وبخلاصة فإن مركز الثقل للحركة التجارية والاقتصادية عامة ، كان لابد أن ينتقل إلى مدينة كبجاية بحرية وفي نفس الوقت بإمكانها أن ترتبط بمسالك تجارية بريّة . لذلك فإن بناء ميناء بجاية كان من المحاور الأساسية التي شغلت الناصر بن علناس ، أي أنه كان واعيا باهميته وبالوضع الاقتصادي الصعب في داخل البلاد ، لاسيما في القلعة . ويتبيّن ذلك من رواية ابن الأثير الذي قال : « فلما وصل الناصر والرسول إلى بجاية أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك . [91]

ولعلّ اهتمام الناصر بالميناء ارتكز أيضا على التقاليد البحرية لهذه القرية الصغيرة ، لاسيما عند سكانها الأندلسيين .فقد تحدّث ابن حوقل والبكري والحموي عن نشاطها التجاري البحري قبل مجئ الناصر [92] ويعني ذلك أن الأرضيّة الاقتصادية والبشريّة الملائمة متوفّرة إلى جانب عوامل أخرى لاسيما الموقع والموضع لإقامة ميناء هام قادر على أن يصبح مركز الثقل للحركة التجارية . مفتوحا على البحر وعلى البرّ أيضا .

الخـــــاتمة :

لم تكن بجاية « الناصرية » مدينة مستحدثة بعثت لأوّل مرة مثل العديد من المدن الاسلامية المستحدثة كالقيروان (670/50) وبغداد (762/145) وفـــاس (808/193) وقلعة بني حمّاد ذاتها (1007/398- 1008) ، بل كانت امتدادا لقرية ساحلية صغيرة ذات ماض روماني وقرطاجي وذات حركة تجارية بحرية وبريّة . ولذلك لايمكن أن نتحدث عن بنائها من قبل الناصر بمعنى الاستحداث .

فـ «الناصرية » هي انقلاب شامل لبجاية الصغيرة السابقة . ومثّل هذا الانقلاب المنعرج الحاسم في تاريخها . وعرفت بجاية هذا المنعرج الحاسم نتيجة ضغط التحولات المفاجئة المترتبة عن زحف بني هلال . فشعرت السلطة الحمادية بالخطر ، وغيّرت استراتيجية اختيار العواصم فبرزت الارادة السياسية لبناء عاصمة ساحلية ، واختيرت بجاية ، لما وفره موقعها ذاته من ميزات في خضم هذه

---

90) Chapoutot-Remadi (M),<< Dans la région de l'Islam...>>, *op cit* , p17 .

91) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

92) يقول ابن حوقل : « وبينها (أي بونة) وبين جزائر بني مزغنّاي مراس ، فمنها جيجل مرسى ومنه إلى بجاية مرسى ... » ابن حوقل ، *كتاب صورة الارض*، ص 77 . ويقول البكري : « ... ثم مرسى مدينة بجاية ازلية اهلة عامرة باهل الاندلس بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملّة ... » : البكري ، *المسالك والممالك* ... ، ص 82 .

ويقول ياقوت الحمــوي : « كانت (أي بجاية) قديمــا ميناء فقط ... »ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج 1 ، ص 339 .

التحـولات والغليان الكبير للمجتمع ، ميزات هيآت بجاية الصغيرة لتصبح حلقة هامة في التوزع العمراني الجديد الذي بدأ يتركز على السواحل . واستجابت لأهداف السلطة الحمادية التي أرادت أن تجعل منها معقل الحكم والمركز الحيوي للدولة ورمزا لها أمام الأخطار المحدقة بها داخليا وخارجيا . فاسقطت عنها الخراج واختارت لها اسما رسميا ودعمتها بشريا بتشجيع الهجرة نحوها ، واقتصاديا بتركيز الاهتمام على الميناء ؛ وأعدّت بها مقر الحكم : الدار السلطانية . وأصبحت العاصمة « بين عشية وضحاها » ، عاصمة متكاملة تدعمت فيها ، بإقامة الميناء، وظيفة اقتصادية حيوية دائمة ، أبعدتها عن نماذج المدن التي شكلت مقرا لإقامة الأمير مثل رقادة أو صبرة أو العباسيّة والتي لم تدم بعد رحيل مؤسسيها .

وهكذا نتيجة تحول بنيويّ سريع لمجتمع إفريقية وشرقي المغرب الأوسط برزت مدينة بجاية الميناء الكبير .غير انها بنيت على ايدي الحماديين واحتلت في عهدهم منذ السنوات الاولى موقعها المتميز بين مدن شمال إفريقيا. فهم الذين هياوها ووسعوها . ولما جاء الموحدون ورثوها عنهم وتسلمها الحفصيون منهم . فهي بالتالي ، شكلت إرثا حماديا قبل كل شيء مر بعد الموحدين الى الحفصيين .

وهذا يعني ان الرصيد الاهم الذي تركزت عليه بجاية الحفصية هو الرصيد الحمادي .

فكيف تحولت الى الحفصيين ؟ وما هي التطورات التاريخية والخصائص الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها في عهدهم ؟ .

الفصـــل الثانـي

الإطـار السياسي في العهد الحفصي

البـــاب الاول :

التطور التاريخي: بـجاية بين التبعية والاستقلال

*

تمهيـــد : بجاية تمر الى الحفصيين بعد فترة متقلبة في العهد الموحدي :

* فترة الموحدين في بجاية متميزة بالصراع مع بني غانية :

بقيت بجاية عاصمة للدولة الحمادية منذ ان انتقل اليها الناصر بن علناس 1269/461 . (1) واتسعت عمرانيا خاصـــة في عهد المنصور بن الناصر (1088/481 - 1104/498) الذي قال عنه ابن خلدون انه « شيُد جامعها »و« تانق في اختطاط المباني » (2) واكتسبت اهمية اقتصادية كبرى.

---

1) راجع ص 55 من البحث.

أنظر المراجع التالية حول تاريخ بجاية في العهد الحمادي :

De Beylié (G.L.) *la Kalaa des beni Hammed ...,op.cit.* p.93-114; Marçais (G.) , *Les poteries et faiences de Bougie ...,op.cit.* p. 15-19 ; Du même , *Manuel d'Arts musluman* t.1 p. 103-105 ; Bercher (L.) , " Le palais d'El Mansour de Bougie " , ...,*op.cit* *Revue Tunisienne* , (1922), p. 51-54 ; Golvin (L.) , *le Maghreb Central ,op.cit.* ,p.113-133 ; Idris (H.R.) , *La Berbérie Orientale ..., op.cit.*, t.1, p. 249-329 ; t.2,p.475-819;

مصطفاي (رشيد) ، « بجاية في عهد الحماديين » *الاصالة* ، (1391/1971) ، ص 83 - 91 ؛

Cambuzat (P.L.) , *l'évolution des cités du Tell en Ifrikîya du VII ème s au XI è.* , 2 tomes , Alger 1971 , t.1 p. 103-105 ; Vanacker (Cl.) , " Géographie économique del'Afrique du Nord selon les auteurs arabes IX - XII ème s" , *Annales E.S.C.* , (1973) , p.659-680; Yver (G.) , " Bougie " , *Encyclopédie de l'Islam* , Ancienne éd. ,t.1, p.786-787 ; Marçais (G.) , " BIDJĀYA *Encyclopédie de l'Islam* , nouvelle éd, p.1240-1241.

بلحميسي (مولاي) ، « دور بجاية في البحر الابيض المتوسط في عهد الحماديين والحفصيين » ، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي ببجاية* ، (1974) ، المجلد الثاني ، ص 561 - 576 ؛ ابن يوسف (سليمان داود) « مساهمة بجاية الحمادية وآل زيري في الحضارة الاسلامية » *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي ببجاية* ، (1974) ، المجلد الثاني ، 579 - 609؛ بورويبة (رشيد) ، « الحياة الاقتصادية والفنون في بجاية الحمادية » ، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي ببجاية* ، (1974) ، المجلد الثاني ص 489 - 502 ؛ العربي (اسماعيل) ، « بجاية العاصمة الثانية لبني حماد » *الثقافة* ، (1973) ، ص 23 - 38 ؛ المؤلف نفسه ، « سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهدية » ، *الاصالة* ، عدد 19 ، (1974) ، ص 19 - 30 ؛بورويبة (رشيد)، *الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها* ، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائـــر 1977 ؛ العربـــي (اسماعيل)، *دولة بني حماد* ...مرجع سابق ، ص 161 - 271 ؛ المؤلف نفسه ، *عواصم بني زيري ، ملوك اشير، القلعة ، بجاية ، غرناطة ،المهدية* بيروت 1984 ، ص 67 - 82 ، 185 - 200 .

2) ابن خلدون ، *العبر*، ج VI ، ص 358 .

انضـــوت بجاية تحت حكم الموحدين في 24 جمادى الاول 547 / 27 اوت 1152 (3) دون مقاومـــة إثر الانتصار الباهر لعبد المؤمن على جيوش صنهاجة في أم العـلو . وقد فرّ قبل ذلك آخر الأمراء الحماديين الى قسنطينة ثم اعترف بالموحدين فنقل الى مراكش . وخسرت بجاية مكانتها كعاصمة دولة مركزية ، واصبحت مركز ولاية تابعة لحكم مراكش ، غير ان حيويتها استمرت فميناؤها كتب لها الاستمرار . فقد اورد لنا مثـــلا دي ماس لاتري (De Mas Latrie) (4) واماري (Amari) (5)وثائق تجارية مؤرخة في العهد الموحدي. وكثيرا ما تعرض كروجر (H.C. Krueger) في مقاليه عن تجارة جنوة مع افريقيا الشمالية في القرن 12 م (6هـ) الى تجارتها مع بجاية (6) .

وبقيت نشيطة من الناحية الثقافية ، فان رؤوس الفقه الثلاث أبا مدين شعيب (توفي 1198/594) (7) وأبا علي المسيلي (ق 12/6)(8) وابـــا محمد عبد الحق الاشبيلي (عاش من 1116/510 الى 1186/582) (9) عاشوا ببجاية في العهد الموحدي . وقد نقل أبـــو العباس الغبريني عن الفقيه ابي علي المسيلي انه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا ...» (10) .

---

3) ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج XI، ص 158 - 159 ؛ ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 490؛ برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* .... مرجع سابق ، ج I، ص 32 .

4) De Mas Latrie ,éd. , *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen âge* , Ed . H.Plon , Paris 1866 , p. 106(date : 1155- 1164).

5) Amari (M.) , *éd., I Diplomi Arabi del R. Archivio fiorentino* , testo originale . con la traduzione letterale e illustrazioni , in firenze , 1863, Doc.XXV, p.75-77 ,date: 604H/1207Ap.J.C.

6) Krueger (H.C.), " Genoese Trade With North West Africa in the twelfth century " , *Speculum* ,VIII, Cambridge - Massachusetts , (1933) , p. 377- 395 ; du même, ; " The wares of exchange in the Genoese - African traffic of the twelfth century ", *Speculum* , XII (1937) , p.57-71.

7) الغبريني (ابو العباس احمد) ، *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية* ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1970 ص 55 - 65 .

8) المصدر نفسه ، ص 66 - 72 .

9) المصدر نفسه ، ص 73 - 76 .

10) المصدر نفسه ، ص 69 ، 85 .

لكن بجاية تعرضت ايضا الى هجوم بني غانية حلفاء المرابطين الباقين في جزر الباليار بعد انتصاب الموحدين في بلاد المغرب والاندلس. وقد اعترفوا في البداية بالموحدين لربما لانهم كانوا منشغلين بالحروب ضد البيزنطيين ، ثم انفجرت الخلافات فجاة اثر صعود على بن اسحاق من بني غانية على حساب أخيه محمد . وقرر غزو المغرب وكسب مساندة العباسيين (11).

بدأ الهجوم على المغرب الاوسط . وكانت بجاية هدفهم الاول التي هاجموها عن طريق البحر فجاة باسطول ضخم (12) . واستولوا عليها في 6 شعبان 580 / 12 نوفمبر 1184 . وأجبر قائدهم علي بن اسحاق اهلها على مبايعته ، وتمكن من السيطرة على المغرب الاوسط وجزء كبير من إفريقية واسترجع الموحدون بجاية في السنة الموالية 1186/581 (13) .

أعاد أخو علي يحيى بن غانية الكرة على بجاية سنة 1203/599 ، وبسط نفوذة عليها سنتين الى ان استردها منه الناصر الموحدي (1199/595 - 1213/610) سنة 1204/601 . ولكن خسرت بجاية اثر استرجاعها مكانتها كعاصمة ولاية وأصبحت تابعة لولاية تونس التي نصّب عليها ابو محمد عبد الواحد بن ابي حفص جد الحفصيين .

---

11) ابن خلدون : «وطلبوا من الخليفة ببغداد المستنصر تجديد العهد لهم لذلك ... فعقد لابن غانية واذن له في حرب الموحدين » ، *العبر* ، ج VI، ص 44 .

12) ابن جبير ، *رحلة* ، ص 310؛ ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، 13 جزءا ، بيروت 1967/1387 ، ج XI ،ص 507-508 ؛ الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 68 ، 76 - 77 ؛ ابن القنفذ القسنطيني ، *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية* ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، 1968 ، ص 103 ؛ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 44 ، ج VII، ص 160؛ الحميري (ابو عبد الله) ، *كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار* (معجم جغرافي) ، حققه احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، الطبعة الثانية ، 1980 ، ص 567 ؛ المؤلف نفسه ، *صفة جزيرة الاندلس* منتخبة من كتاب *الروض المعطار في خبر الاقطار*، دار الجيل ، بيروت ، دون تاريخ ، ص 190 ؛ الجيلاني (عبد الرحمان) ، « لمحة عن زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية »، *الاصالة*، السنة 4 ، العدد 9 - (1974/1394) ص 31-38 ؛ شيخة (جمعة) ، « ثورة الميورقيين بافريقية واثرها في توازن القوى بين الاسلام والنصرانية في المغرب والاندلس » ، *كراسات تونس* ، عدد خاص ، (1981) ، ص 91 - 122 .

13) يعطينا ابن الاثير هذين التاريخين 580 تاريخ الاستيلاء و 581 تاريخ الاسترجاع ، *الكامل في التاريخ* ، ج XI ،ص 507-509 ، ولكن ابن خلدون يجعل سنة 581 تاريخ الاستيلاء ، *العبر*، ج VI، ص 44 ؛ والمرجح ان يكون ابن الاثير هو الصحيح لان ابن جبير الذي عاصر الاحداث وقام برحلته بين 1182/578 و1185/581 يجعل تاريخ الهجوم في رمضان 580 / ديسمبر 1184 ؛ *رحلة ابن جبير* ، ص 310؛ وورد في *الفارسية* لابن القنفذ ، ص 103 : ان المنصور استرجع بجاية سنة 1187/583 ؛ وقد لا يكون هذا التاريخ صحيحا ، لان دي ماس لاتري (De Mas Latrie) نقل نص اتفاقية تجارية مؤرخة سنة 582/ 1186 بين ابي يوسف يعقوب الموحدي وبيزا ؛

De Mas Latrie,éd ., *Traites...op.cit.* ,*p.31* .

قد تكون بجاية تضررت كثيرا نتيجة لحروب الموحدين ضد بني غانية فهناك قرى ومدن أخرى أقل اهمية منها قد خربت مثل تاهرت ومتيجة وشلف ومرسي الدجاج وأرشكول وقصر عجيسة وحمزة . (14)

استرجعت بجاية حيويتها بعد ذلك ،والدليل هو ان بعض المصادر تذكرها كولاية قبيل ان يضمها الحفصيون الى نفوذهم في شعبان 626 / جويلية 1229 ، اذ تنقل لنا انهم قبضوا على آخر ولاتها من الموحدين وهو السيد أبو عمران بن السيد ابي عبد الله بن يعقوب المنصور ثم حملوه الى المهدية (15).

ابو زكرياء الحفصي يضم بجاية في ظروف سانحة : شعبان - رمضان 626 / جويلية 1229 :

بدأت الدولة الموحدية تضعف بعد هزيمة العقاب امام الاسبان سنة 1202/606 التي محت مكتسبات انتصار الزلاقة سنة 1086/479 وانتصار الارك سنة 1195/591 وانتصارات الناصر على بن غانية سنة 1204/601 . وعرفت الدولة بعد ذلك اضطرابات داخلية متواصلة تميزت بالتناحر بين ابناء الخليفة المنتصر (1213/610 - 1223/620) الى ان تسلم المامون (1227/624 - 1232/629) الحكم في ظروف فاسدة وبحد السيف . لكنه استفز الضمير الشعبي لما استعان بالنصارى ألاسبان للاستيلاء على الحكم ، فعمل على كسب اهل السنة بإلغاء الدعوة الموحدية بصفة رسمية واهلك عددا كبيرا من الموحدين من أصيلي هنتاتة وتنملال .

ولكنه لم يجد المساندة المنتظرة من السُنة ، والّب عليه الحزب الموحُدي (16) . فاغتنم بنو حفص بإفريقية هذه الظروف ليقيموا دولة تحافظ على المذهب الموحدي . فاعلن أبو زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن ابي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي والي إفريقية منذ 1228/625 عدم مساندته للمامون « وخطب بتونس لأبي زكرياء يحيى المعتصم بن الناصر وهو حينئذ المنازع للمامون في الخلافة » (17) ، ثم أسقط اسم ابي زكريا بن الناصر من الخطبة واقتصر على الدعاء للمهدي والخلفاء الراشدين .(18)

---

14) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 161 .

15) المصدر نفسه، ج VI، ص 161 .

16) المصدر نفسه ، جVI، ص 527 - 532 ، 594 .

17) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 23 .

18) ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 108؛ الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 23 - 24 .

وبويع البيعة الاولى في بداية سنة 1228/626 - 1229 (19). وبذلك ، يمكن ان نتحدث عن بداية الدولة الحفصية .

مر ابو زكرياء بسرعة الى الاستيلاءعلى جهات قسنطينة وبجاية منذ سنة 1229/626 (20)؛ ولعله كان يريد ألا يفوّت فرصة اضطراب الحكم في مراكش ، إذ مازال المامون منهمكا في مواجهة ابن اخيه أبي زكرياء يحيى المعتصم بن الناصر ، ولن يفرغ منه الا في السنة الموالية اي سنة 1230/627 .

ضم أبو زكرياء قسنطينة اولا في 26 شعبان 626 / 20 جويلية 1229 ، (21) ثم ضم بجاية (22). والمرجح ان يكون ذلك قد تم في آخر شعبان او أوائل رمضان / جويلية من نفس السنة 1229/626 اثر فتح قسنطينة مباشرة لان أبا زكرياء ارسل معا الى المهدية الواليين التابعين للموحدين ، هما ابنا الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (1184/580 - 1199/595) والي قسنطينة السيد أبو عبد الله ووالي بجاية السيد ابو عمران (23).

دخل أبو زكرياء المدينتين دون عناء . فقد لعبت ظروف الصراع على الحكم في الدولة الموحدية دورها لفائدته . وقد كان الشيخ أبو عبد الله اللحياني شقيق ابي زكرياء ذاته يساعد أبا عمران لانه كان صاحب الأشغال (24) . ولا شك ان هذه القرابة قد سهلت ايضا الاستيلاء على بجاية .(25)

دخلت بجاية اذن تحت السلطة الحفصية على يدي ابي زكرياء يحيى الاول منذ أواسط سنة 1229/626 فما هي خصائص التطور التاريخي و ما هي اهم المؤسسات السياسية بها ؟

---

19) ابن القنفذ ، المصدر نفسه ، ص 108 .

20) ابن القنفذ ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 595 ؛ الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 25. ينقل الزركشي الخبر عن ابن خلدون بكامل عناصره وبصفة مشابهة . ولكنه مع ذلك ذكر ان سنة 628 هي تاريخ الاستيلاء على قسنطينة وبجاية ؛ المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

21) ابن القنفذ هو الذي أعطانا هذا التاريخ باليوم والشهر ، *الفارسية* ، ص108 .

22) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

23) ابن القنفذ ، المصدر نفسه والصفحة نفسها ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 595 ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 25 .

24) ابن خلدون ، المصدر نفسه ،والصفحة نفسها ؛ الزركشي ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

25) برنشفيك . *تاريخ افريقية*، ج I ، ص 52، الهامش رقم 5 .

ويقترن التطور التاريخي لمدينة بجاية بعلاقتها مع السلطة المركزية اساسا ، وبقية بلاد المغرب : دولتي بني عبد الواد وبني مرين وقوى الحوض الغربي للبحر المتوسط ، لا سيما الاسبان . ولاحظنا في هذا الاطار انها مرت بثلاثة اطوار كبرى تبعها الاحتلال الاسباني ونهاية العهد الحفصي .

ا - ولاء للسلطة المركزية (1229/626 - 1277/675):

تميز الطور الأول بالولاء للسلطة المركزية . وقد تواصل من 1229/626 الى 1277/675 .

عرف الحكم الحفصي في هذه الفترة القوة والاستقرار .فقد استطاع الامير أبو زكرياء (1228/625 - 1249/647) وبعده ابنه ابو عبد الله المستنصر (1249/647 - 1279/675) مسك البلاد . وكان الوضع في الداخل والخارج ملائما (26) .

في الداخل ، قضى على بني غانية في 1234/631 . واصبحت العلاقة مع الاعراب هادئة ، وامتلأت خزائن الاموال . وفي الخارج بدت الدولة الحفصية بين الدول الاسلامية أكثرها استقرارا وهيبة . ففي المغرب الاقصى كانت الخلافة الموحدية في طريق الانقراض ، الى ان سيطر المرينيون على تنملل آخر معاقلهم سنة 1275/674 . وفي المغرب الأوسط ما زالت دولة بني عبد الواد (27) هشة . وفي الاندلس ، تعددت انتصارات الاسبان ، وفي المشرق اصبح المغول يهددون الخلافة العباسية . رغم ذلك ، كانت هذه القوة نسبية . فقد استطاعت الحملة الصليبية للويس التاسع دخول إفريقية

---

26) برنشفيك ، المرجع نفسه، ج ا، ص 50 - 100 ؛ الدولاتلي (عبد العزيز) ، *مدينة تونس في العهد الحفصي* ، دار سيريس للنشر ، تونس 1981 ، ص 60 - 61 .

27) تسمى دولة بني زيان ايضا . انظر الهامش رقم 65 من نفس هذا الباب .

سنة 1270/668 .لكنها لم تنل من سلطة الحكم المركـزي في الداخل لانها انتهـت بانسحاب جيـوش الصليبيين بعد مـوت لويس التاسع بالوباء وعقد الصلـح بين المستنصر وشارل ملك صقلية الذي اصبح قائد الحملة .

لذلك فان علاقة بجاية بالسلطة المركزية كانت علاقة ولاء وتبعية . وقد توالى عليها في هذه الفترة ولاة من العائلة الحفصية او من مشيخة الموحدين، برهنوا كلهم عن وفائهم :

اولهم ابو عبد الله محمد اللحياني أخو ابي زكرياء (28) . عين منـذ 1230/627 . ولا ندري متى انتهت فترته . شارك في فتح بجاية .

ثم ابن ابي زكرياء ، ابو يحيى زكرياء (29) . عمل مع ابيه علـى مقاومة بني غانية سنة 1234/631 ، وضمُ الجزائر سنة 1235/632 وقد بقي علـى راس ولايـة بجاية من 1235/633- 1236 الى سنـة وفاتـه 1249-1248/646 .

ثم تعرفنـا على ابي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي (30) الذي عين على ولاية بجاية من 1262/660 الى 1275/673 . وبرهن عن اخلاصه حتى انه قتل اثناء معاركه ضد تمرد قام به اهل الجزائر . وكان العين الساهرة على الجزء الغربي للدولة الحفصية .

وشغل ابنه محمد (31) (اي محمد بن ابي هلال) المنصب بعده الى سنة 1279/678 . وكان منسجما مع السلطة المركزية الى ان مات المستنصر وخلفه ابنه الواثق(1277/675 - 1279/678) . ومثل عهد الواثق منعرجا اذ بدأت الصراعات على السلطة تطفو (32) سواء بين أفراد العائلة المالكة او اصحاب المناصب أوالكتل . وانعكس ذلك مباشرة على بجايـة .

---

28) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 531، 595، 596 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 108 .

29) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 596 ، 623 ؛ ابن القنفذ ، المصدر نفسه ، ص 109 - 110.

30) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 656 ، 674 ، 678 .

31) المصدر نفسه ، ج VI، ص 678 ، 679 .

32) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، مرجع سابق جI، ص 103 - 106 ؛الدولاتلي ، مدينة تونس ، مرجع سابق ، ص 61 - 62 .

اا - تارجح بين التبعية والإستقلال وأخطار خارجية (675/1277-772/1370) :

1 - إضطرابات عامة وانفصالان ببجاية (675/1277 - 718/1318) :

أ - محاولة تمردية أولى لم تفض الى الانفصال (675/1277 - 681/1282) :

عرفت تونس في عهد الواثق استئثار ابي الحسن بن الحببر بشؤون الدولة . وفتح ذلك صراعا بينه وبين شيوخ الموحدين خاصة . وحول القصر الى دسائس وفتن وانتقلت هذه الصراعات مباشرة الى بجاية اذ نصَّب ابن الحببر أخاه ادريس أبا العلاء في ولاية الاشغال الى جانب واليها محمد بن أبي هلال لتضييق الخناق عليه وعلى شيوخ الموحدين ببجاية (33) . فأحسوا ان نفوذهم السياسي في خطر ، فدبروا له مكيدة وقتلوه سنة 677/1278. (34)

فتحت هذه الاضطرابات الطريق الى محاولة تمردية اولى لبجاية على السلطة المركزية . فقد كان على محمد بن ابي هلال ان ينقذ نفسه من بطش ابن الحببر ، فعمد بمساندة « اعيان بجاية » الى مبايعة ابي اسحاق الذي سبق أن تمرد على اخيه المستنصر سنة 651/1253 ، والتجا الى غرناطة ، ثم تحول عند وفاة هذا الخليفة الى تلمسان سنة 675/1277 . وأجابهم الى ذلك ودخل الى بجاية سنة 677/1278 . ولكن هذه الاحداث لم تؤد هذه المرة الى الانفصال بل كانت مرحلة لابي اسحاق لغزو السلطة في تونس التي دخلها في 5 ربيع الثاني سنة 678 / 15 اوت 1279 (35) ، فازاح بذلك ابن أخيه الواثق ، وعين محمدا بن أبي هلال شيخا للموحدين (36) ثم تخلص منه باعدامه سنة 679/1280 (37)

---

33) يقول ابن خلدون : « ثم قلد ابو الحسن بن الحببر القائم بالدولة أخاه ادريس ولاية الاشغال ببجاية ، فقام بها واقتنى الاموال ، وتحكم في المشيخة » ، ابن خلدون ، *العبر* ،جVI، ص 679 .

34) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 679 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 135 - 136 ؛ الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 42 ؛ برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ...، مرجع سابق ، ج I، ص :105

35) الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 43 ، 165 .

36) ابن خلدون ، *العبر*، جVI، 681 .

37) ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 139 .

يبدو ان أبا اسحـاق لم يكن مطمئنا على بجاية اذ عيَّن عليها خلال مدته الوجيزة (1279/678 - 1283/681) واليـين : عبد الحق بن تافراكين (38) من مشيخة الموحدين سنة 1279/678 ، الذي عوضه بابنه ابي فارس (39) سنة 1280/679 .

ب -فوضى سنوات 1282-83/681 -1284-85/ 683)
تفضى الى انفصال بجاية الاول (684-1285 - 1309/709):

لم يدم حكم ابي اسحاق طويلا ، اذ افتك الدعي أحمد بن مرزوق ابن ابي عمارة السلطة منه في شوال 681 / جانفـي 1283 (40) . وفتحـت فترة فوضى تسربت بسرعة الى بجاية لان ابا اسحاق فرَّ اليها . لكن ابنه ابا فارس لم يحسن استقباله وطمع في الحكم وتلقَّب بالمعتمد بالله وخرج الى محاربة ابن ابي عمارة تاركا أخاه زكرياء في بجاية . لكنه انهزم في واقعة مرماجنة قرب قلعة السنان في 3 ربيع الاول سنة 682 / 1 جوان 1283 ، وقتل في المعركة كما قتل ثلاثة من اخوته : عبد الواحد وعمر وخالد وابن اخيه محمد عبد الواحد .(41)

كـان وقع الهزيمة على بجاية كبيرا . احتلها ابن ابي عمارة وقتل ابا اسحاق ، غيران ابا زكرياء ابن ابي اسحاق استطاع النجاة والاحتماء بصهره عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان .

في نفس الوقت اضطرب أمر ابن ابي عمارة نتيجة تضييقه على « الأعراب » خاصة بني علاق الذين سجن منهم ثمانين شخصا من كبار المشايخ.

---

38) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 795 .

39) المصدر نفسه ، ص 683 - 685 .

40) ابن الشماع (ابو عبد الله) ، *الادلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية* ، تحقيق الطاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984 ، ص 79 .

41) ابن خلـدون ، *العبـر* ، جVI ،ص 693 ؛ ابن القنفـذ ، *الفارسية* ، ص 143 . قال ابن خلـدون : « ... انتهى (ابن ابي عمارة) الى مرماجنة ؛ وتراءى الجمعان ثالث ربيع الاول ، فاقتتلوا عليه يومهم ثم اختل مصاف الأمير ابي فارس وتخاذل انصاره ، فقتل في المعركة . وانتهب معسكره وقتل أخواته جميعا صبرا : عبد الواحد قتله الدعي بيده ، وعمر وخالد ومحمد بن عبد الواحد ...» ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

لذلك اسقطــوه ورفعوا ابا حفص عمر سنة 1284/683 (42) الذي قتله في نفس السنة .

لكن الوضع لم يستقر في افريقية . فقد غزا ملك أرغون وصقلية جربة سنة 1284/683 ، وفرض على ابي حفص ضريبـــة سنويـة سنة 1285/684 (43) .

اضعفت هذه الظروف من سيطرة السلطة المركزية في تونس وجعلت بعض القوى المحلية تبحث عن بديل لاعادة الأمن من ناحية وكسب النفوذ من ناحية اخرى . وكانت النتيجة أن قامت دولة منفصلة سنة 1285/684(44) . وقد تزعم الانفصال ابو زكرياء بن ابي اسحاق . لكن صانعه الحقيقي هو ابو الحسين بن ابي بكر بن سيد الناس (45) الذي لم يتحصل على منصب سياسي هام مع صعود ابي حفص عمر (1284/683 - 1295/694) ، فاستحثّ ابا زكرياء للانفصال ببجاية مغتنما الظروف الصُعبة لابي حفص . وقد لقي ابو زكرياء المساندة من قبائل الدواودة (46) وسدويكش (47) وتجاربجاية الذين اقرضوا ابن سيد الناس المال لاعداد العَدّة للملك (48) .

وبذلك انقسمت الدولة الحفصية الى دولتين : الأولى عاصمتها تونس والثانية عاصمتها بجاية . وتلقب ابو زكرياء منذ 1286/684 بـ « المنتخب لاحياء دين الله » (49) وكانه اعلن عن طموحه للاستحواذ على كرسي الدولة بتونس .

---

42)المصدر نفسه ، ج VI، ص 694 - 695 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 144 - 146 ؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج I، ص 118 - 120 ؛
Idris (H.R.) , " Hafsides " , *Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle éd.t.III p69

43) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج I ، ص 124 - 127 .

44) ابن خلدون ، *العبر*، ج VI، ص 699 - 700 ؛ برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج I ، ص 134 - 135 .

45) ابن خلدون ، المصدر نفسه والصفحة نفسها . انظر ص 406-412 من البحث للتعرف على هذه العائلة .

46) الدواودة قبيلة هلالية من رياح ، وقد أعانه منهم بنو يعقوب وبنو سباع ؛ ابن خلدون ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

47) سدويكش قبيلة بربرية تنتمي الى كتامة من البرانس . ويجعل ابن خلدون موطن كتامة ما بين قسنطينة وبجاية في البسائط منها ؛ *العبر* ج VI، ص 303.

48) المصدر نفسه ، ج VI ،ص 699 .

49) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها . وسجل ابو زكرياء هذا اللقب على العملة ، انظر ص270-271 من البحث

لقد تــوالى على هذه الدولة المنفصلة أميران ، هما أبو زكرياء ابن اسحاق من 1285/684 الى وفاته في 27رمضان 700/ 5 سبتمبر 1301 وابنــه ابو البقاء خالد من 1300/700-1301 تاريخ وفاة ابيه الي 1309/709 وعرفت الدولــة قوة نسبية حسبما ذكره ابن القنفذ (50) ، من مظاهرها الاهتمام بالبناء والتشيد والنجاح في حماية الحدود من الجهتين الغربية والشرقية ضد بني عبد الواد وبني مرين والحفصيين بتونس .

لذلك انطلقت منها عملية توحيد الدولة الحفصية لانها هي التي مثلت موطن القوة داخل المجال الحفصي . فقد احتل خالد تونس وتمت بيعته في 27 ربيع الثانــي 709 / 3 اكتوبر 1309 وتلقــب بالنّاصر لديــن الله (51)

ج - انفصــال ثان بعد ثلاث سنوات فقط : 1312/712 - 1318/718 :

لكن ابا البقاء واجه في تونس المشاكل التي اصبحت متواتـــــرة : الصراع على الحكم والنزاع مع الاعراب .

لقد تميزت سنة 1311/711 بصراعه مع ابي يحيى زكرياء ابن ابي العباس احمد بن اللحياني (52) الذي قدم من الحج بعد غياب ست سنــوات ولقي المساندة من طرابلس ، خاصة من قبائل كعوب . وتمكن من الاستحــواذ على الحكم في 8 جمادى الأولى 711 / 22 سبتمبر 1311 .

لكن اللحياني نفسه لم يستطع كامل مدته ان يمسـك الوضع نتيجــة تفوق الأعراب . فقــد رأى في آخر الامر انه غير قــادر على الحكم بسبب « اضطــراب الأحوال وافتتــان العربــان » حسب عبــارة الزركشي (53) ،

---

50) يقــول ابن القنفذ : « ملك الامير ابو زكرياء بجاية وقسنطينة واحسن فيهما السيرة بعقله » ، *الفارسية* ، ص 148 ، ويقول ايضا : « سمعت بعض المشايخ الصلحاء يقول : اشتغل اولاد الامير ابي اسحاق بالملك والدنيا ، واشتغل منهم الامير ابو زكرياء بابتناء المدارس واقتناء الكتب ... » ، المصدر نفسه ، ص 155 .

51) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 733 ، 734 ؛ ابن القنفذ ، المصدر نفسه ، ص 156 - 157؛ الزركشــي، *تاريـــخ الدولتين*، ص 58 - 59 ؛ ابن الشمــــاع ، *الادلة البينــة* ، ص 84 .

52) ابن خلــدون، المصــدر نفســه ، جVI ، ص 739 - 740 ؛ ابن القنفــذ ، المصدر نفسه ، ص 159 ؛ الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 61 ؛ برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج I، ص 156- 158 .

53) الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 63 .

فتخلى عن العرش وخرج الى قابس سنة 1317/717 .

لقد سمحت هذه الظروف بانفصال بجاية ثانية من 1312/712 الى 1318/718 (54) . وقام به ابو يحيى ابو بكر بن ابي زكرياء ابن ابي اسحاق وأخو ابي البقاء خالد ، الذي كان واليا على قسنطينة والتحق به الحاجب يعقوب بن غمر (55) بعدما طلب الاذن من ابي البقاء . وهناك تعاون معه على اخذ بجاية (56) .

شرع ابو بكر في حركته الانفصالية منذ سنة 1310/710-1311 فاستقلُ بقسنطينة اولا . وهاجم بجاية في السنة الموالية لكن واليها يعقوب ابن خلوف قاومه بشدة . فتراجع الى ميلة . ولما سمع ابن خلوف بمقتل ابي البقاء خالد طمع في حجابة ابي بكر ودخل ابو بكر بجاية في ربيع 1312/712 ولكنه امر بقتله .(57)

مرة اخرى ، مثلت الدولة الحفصية الثانية ببجاية موطن القوة في المجال الحفصي . ولذلك انطلقت منها عملية التوحيد على يدي ابي يحيى ابي بكر حين ترك ابو زكرياء اللحياني العرش متجها الى قابس . واحتل ابو بكر تونس في 7 ربيع الثاني 718 / 8 جوان 1318 (58)

2 - بجاية تعود الى ولائها لتونس وتصمد أمام بني عبد الواد : (1318/718 - 1347/748) :

أ- حجّاب ثلاث لمعوا في هذه الفترة :

نصّب على ولاية بجاية عبد الرحمن يعقوب بن غمر في نفس السنة . وتوفي سنة 1319/719 . وقبل وفاته وضع عليها ابن عمه عليا بن غمر . ولكن ابا بكر عيّن عليها منذ اوائل سنة 1320/720 ابنه ابا زكرياء الذي مكث بها الى ربيع الاول 747 / جوان وجويلية 1346 تاريخ وفاته . لكنه

---

54) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج ا، ص 159 - 163 .

55) انظر ص 414-417 من البحث للتعرف على عائلة ابن غمر .

56) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 736 - 737 ؛ برنشفيك ، المرجع نفسه ، ص 156 .

57) ابن خلدون ؛ المصدر نفسه ، جVI، ص 738 - 741 ؛ برنشفيك ، المرجع نفسه جا، ص 159 .

58) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 752 - 755 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 160 - 161 ؛ برنشفيك ، المرجع نفسه ، جا ص 163 - 164 .

لم يسيِّر الولاية بنفسه مدة 15 سنة الى 1335-1334/735 وكان حجابه خلال هذه المدة هم الولاة الفعليون . وهم ثلاثة :

أولهم ابو عبد الله محمد بن القالون . اصله من الاكراد (59) كان حاجبا للسلطان ابي يحيى ابي بكر (1318/718 - 1346/747) منذ 1318/718 (60) . ثم عيِّن في 1320/720 حاجبا في بجاية ومتكفلا بابنه هناك (61) ، حيث وقعت سعاية ضده عزله السلطان على اثرها في 1321/721 . وكانت نهايته الموت طعنا بالخناجر وسط شوارع قفصة(62).

عيِّن بعده أبو عبد الله محمد بن ابي الحسين بن سيد الناس الذي بقي ببجاية حاجبا من 1321/721 الى 1327/727 (63) وانتهت مهمته بها حين دعاه السلطان ليقلده حجابته في تونس . وقد قوي نفوذه ببجاية حتى ان ابن بطوطة سمَّاه بالامير (64) .

وضع السلطان مكانه في بجاية ابا عبد الله محمد بن فرحون من 1327/727 الى 1335/735 . وطلبه ابو زكرياء الوالي مرة أخرى لحجابته سنة 1341/741 .

ب- مواجهة بني عبد الواد ميزت الفترة :

تحمل هؤلاء الحجاب الثلاث القسط الاكبر من مهمة الدفاع عن بجاية خاصة والحدود الغربية عامة ضد خطر

---

59) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 770 .

60) المصدر نفسه ، ج VI، ص 752 .

61) المصدر نفسه ، جVI، ص 757 - 758 .

62) المصدر نفسه ، جVI، ص 772 .

63) المصدر نفسه ، جVI، ص 758 - 759 .

64) ابن بطوطة ، *تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار* ، الدار العالمية للكتاب - دار الكتاب العالمي ، بيروت 1991 ، ص 19 .

بني عبد الواد (65) الذي اشتد بين 1319/719 و 1332/732 .

ينقل ابن خلدون وصية تركها السلطان يغمراسن (1236/633 - 1283/681) لابنه عثمان سنة 1283/681 ، جاء فيها خاصة : « ... يابني ان بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الاعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش ، لا طاقة لنا بلقائهم ... فاياك واعتماد لقائهم ... وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين (يقصد الحفصيين) وممالكهم ... ولعلك تصير بعض الثغور معقلا لذخيرتك ... »(66) .

لذا، فان استراتيجية بني عبد الواد مع جيرانها تمثلت في موقف دفاعي ومسالم امام المرينيين وموقف هجومي توسعي تجاه الحفصيين .

بدأت اول هجوماتهم في عهد انفصال بجاية الاول (1285/684 - 1309/709) لكنها لم تدم طويلا ، اذ تراجعوا ليدافعوا عن تلمسان التي حاصرها المرينيون بين 1299/698 و 1306/706 . وعادوا في عهد ابي حمو موسى الاول (1308/707 - 1318/718) الى الهجوم على بجاية بين 1313/713 و 1315/715 . وتراجعت قواتهم نتيجة تمرد محمد بن يوسف بن يغمراسن (67) . واستعمل الطرفان في هذه الفترة سفنا حربية ارغونية وميورقية (68)

---

65) بنو عبد الواد ، يسمون ايضا بنو زيان هم قبيلة بربرية متفرعة من زناتة من البتر ، اسسوا بزعامة شيخهم يغمراسن دولتهم سنة 1235/633 التي عاشت الى منتصف القرن 16/10 : ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVII، ص 148 - 309 : ابن خلدون (ابو زكرياء يحيى) ، كتاب بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق الفريد بيل (Alfred Bel) ، الجزائر 1910/1328 ؛
Marçais (G.) ,*la Berbérie Muslumane et l'Orient au moyen âge* ,éd . Montaigne , Alger -Paris 1946 , p. 277 -284 ; du même " Abd Al- Wadides " ,*Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle éd. , tI .,p. 95-97 ; Dhina (A.) , *les Etats de l'Occident Musluman aux XIII ème , XIV ème et XVème s , Instructions gouvernementales et administratives* , ENAL , Alger 1984, p. 43-45,188-189,222-224,237-239,247-249,277-279,295-299,315-318,336-339,376-377, 434 .

66) ابن خلدون ، *العبر*، ج VII، ص 189 - 190 .

67) المصدر نفسه ، ج VI، ص 755 .

68) لنا ثلاث رسائل من خايم II (1291 - 1327) مؤرخة كلها في 20 نوفمبر 1315 وتتضمن معلومات عن مساعدة ارغون الحربية وموجهة بالتوالي الى ابي بكر والى رؤساء السفن والى قنصل ارغون ببجاية
Masia de Ros (A.) , *la corona de Aragon y los Estados del Norte de Africa . Politica de Jaime II y Alfonso IV en Egipto, Ifriquia y tremcen*. Instituto Espanol de Estudios Mediterrane , Barcelone 1951, doc. 139,140 ,141, p. 426-429 ;
ولنا رسالة اخرى مؤرخة في 26 ماي 1316 تحمل نفس المعلومات ، *Ibid* ; doc. 142,p. 429-431.

قضى ابو تاشفين عبد الرحمان الاول (1318/718 - 1337/737)
في نفس السنة التي خلف فيها اباه ابا حمو اي 1318/718 على التمرد . وكانت العوامل الظرفية لصالحه اذ انشغل المرينيون بمشاكل الاندلس من 1309/709 الى 1340/740 (69) لذلك فتحت فترة الصراع الكبرى بين بني عبد الواد وبجاية من 1319/719 الى 1332/732 . (70) وعرفت هذه الفترة مرحلتين :

- مرحلة اولى من 1319/719 الى 1326/725 : تميزت بهجومات زيانية مكثفة ولكنها غير منظمة . ففي 1319/719 ، حاصر بنو عبد الواد بجاية ثم تخلوا عنها واعادوا الكرة سنة 1321/720 . وحاصروا قسنطينة سنة 1321/721 ، وبنو حصن بكر على وادي الساحل ، وهاجموا نواحي بجاية سنة 1323/722 وتقابلوا مع ابي بكر ومعه بنو الليل سنة 1323/723 . وانهزم الحفصيون . كما تقابلوا مع الحاجب محمد بن سيد الناس سنة 1324/724 ، وهزموه . وأخيرا حاصروا قسنطينة سنة 1325/725 ثم تراجعوا عنها (71) .
- مرحلة ثانية : 1326/726 - 1332/732 : تميزت بتجميع القوى وتنظيم الهجومات وتصاعد الصراع . وتمثل اهم حدث من جهة بني عبد الواد في بناء قلعة حصينة على وادي الساحل استقر فيها 3000 جندي ، سميت « تيمرزدكت» (72)ويقول ابن خلدون :« أوعز السلطان (ابو تاشفين) الى جميع عماله ببلاد المغرب الاوسط بنقل الحبوب اليها حيث كانت ، والادم وسائر المرافق حتى الملح . وأخذوا الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم ، فثقلت وطاتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت اسعارها » (73) .

---

69) تدخل هذه المشاكل في اطار « حركة الاسترجاع » (La Reconquista) التي شرع فيها الاسبان منذ نهاية القرن 11/5 . ففي سنة 1309/709 . احتل الاسبان جبل طارق ، فاستنجد سلطان غرناطة بالمرينيين الذين استرجعوه سنة 1333/733 . ولكن انهزم السلطان ابو الحسن المريني هزيمة كبرى سنة 1340/740 امام الفونس XI. فكانت نهاية تدخلاتهم ضد المسيحيين الاسبان ؛
Encyclopédie de l'Islam , Anc. Ed. ,t . III , p. 528 .

70) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 755- 758 ، 767 ، 769 ، 776- 780 ؛ ج VII، ص 221-225؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج I، ص 178 - 179 .

71) ابن خلدون ، *العبر* ج VII، ص 221-225 .

72) المصدر نفسه ، ج VI، ص 768 .

73) المصدر نفسه ، ج VII، ص 223 .

وطلب بنو عبد الواد سنة 1327/727 سفنا حربية أرغونية (74) وتحصلوا على الموافقة في جمادى الثانية 728 / افريل 1328 (75) واتصلوا بها سنة 1330/730 (76) ، وهكذا وضع بنو عبد الواد في هذه المرحلة استراتيجية منظمة وسخروا امكانيات الدولة الاقتصادية واستعملوا الوسائل « الديبلوماسية » فاصبحت بجاية مهددة بالمجاعة ، وبلغ الخطر الى تونس بعد انهزام ابي يحيى ابي بكر في واقعة الرياس في نواحي هوارة سنة 1329/729 والتجا ابو بكر أخيرا الى التحالف مع بني مرين سنة 1329/729 عزّزه بـ « زواج سياسي» سنة 1331/731 بين ابنته فاطمة وابن ابي سعيد الأمير ابي الحسن (77) .

ويورد لنا القلقشندي رسالة هامة (78) تعبر عن هذا التحالف بعث بها ابو سعيد المريني (1310/709 - 1331/731) الى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون (1310/709 - 1341/741)يقول فيها ان ملك تلمسان (وينعته بالعاق) : « ... بغى وطغى ... واقام على بجاية عشرين سنة يشدُّ عليها الحصار ، ويشن على أحواز تونس الغار ... فادى ذلك صاحبها السلطان ابا يحيى في طلب النصرة رسولا وأوفد علينا ولده ابا زكرياء ... وأجمعنا ردُّه (اي ردُّ ملك تلمسان) وردعه ...» .

وفعلا ، فقد وقع هجوم مريني على تلمسان فتراجع بنو عبد الواد عن بجاية وتقدمت جيوش ابي بكر نحو قلعة تيمرزدكت ونسفتها سنة 1332/732 (79) .

---

74) Dufourcq (Ch.E.) , *l'Espagne catalane et le Maghrib de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du Sultan mérinide Aboul - Hasan(1331)* , P. U.F 1966, p. 41

75) حسب الرسالة التي ارسلها الفونس الرابع (1327 - 1336) الى سلطان تلمسان والمؤرخة في 26 افريل 1328 : .
Masia de Ros (A.) , *la Corona de Aragon* ..., *op.cit.* , doc .175 , p. 474-475 ;

76) حسب الرسالة التي ارسلها الفونس الرابع الى تلمسان والمؤرخة في 20 جوان 1330 :
Ibid ., doc. 179, p. 482-484.

77) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 776 ، 778 ،
Marçais (G.) , *la Berbérie Muslumane* ...,*op.cit*,p284.

78) القلقشندي (ابو العباس أحمد) ،*صبح الأعشى في صناعة الانشاء* ، 15 جزءا نشر المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، جVIII، ص 91 - 92 .

79) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 778 - 780 ؛ جVII، ص 225 .

وبعد هذا التاريخ لم يمثل بنو عبد الواد خطرا جديا رغم انهم أعادوا الكـرة سنة 1366/767 (80) . ولكنهم انهزموا وتراجعوا .
ان الخطر سيظهر من الدولة المرينيـة بداية من سنـة 1347/748 .

انتهت المشاكل الدفاعية العظمى اذن بـزوال خطـر بنـي عبد الواد واصبح الوالي أبو زكريا قادرا على الحكم . لذلك صار يعيّن حجابة بنفسـه بداية من 1335/735 الى تاريخ وفاته 1341/741 عددهـم سبعـة (81) في هذه المدة القصيرة التي تساوي ست سنوات فقـط . ولعلـه كان خائفـا من سيطرة حاجب من الحجاب عليه .

كانت ولاية بجاية في فترة صغره او كبره وفية للسلطة المركزية فـي تونس نتيجة لقوة النظام النسبية في عهد ابي بكر ونظرا لتفرغها للدفـاع ضدبني عبد الواد . وبالتالي اقتضت مصلحتها ان تـؤكد وفاءها لتونس .

عين ابو بكر اثر موت ابنه ابي زكرياء في ربيع الاول 747 / جوان - جويلية 1346 ابنه الآخر أبا حفص على ولاية بجاية . ولكن ولايته لم تدم أكثر من شهر لان « أهل بجاية » اختاروا واليا آخر هو ابو عبد الله محمـد حفيد ابي بكر وابن واليهم السابق ابي زكرياء وسيحتل المرينيون (82) بجاية فـي عهده في أوائل سنة 1347/748 قبل مرورهم الى تونس .

---

80) المصدر نفسه ، ج VI، ص 860 - 862 ؛ ج VII، ص 267 - 271 .

81) هم بالتوالي : ابو اسحاق بن غلان ، ابو العباس احمد الرندي ، أبو محمد بن تافراكين ، محمد بن فرحون ، ابن القشاش ، ابو القاسم بن علناس وعلي بن المنت : ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 803 - 807 .

82) ينتمي بنومرين مثل بني عبد الواد الى زناتة ايضا. وقد قاوموا الموحدين سنة 1145/540 ، ولم ينجحوا ، فلجاوا الى الصحراء بينما انضوى بنو عبد الواد تحت السلطة الموحدية . ولما ضعف الموحدون انتهزوا الفرصة وتمكنوا من الاستيلاء على مراكش سنة 1270/669 : ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 811 - 836 ؛ ج VII، ص 342 - 758 .
Marçais (G.) , *la Berbérie Musulmane ..., op.cit.*, p.277-284 ; du même , "Mérinides " ,*Encyclopédie de l'Islam* , t. III ; Nouvelle éd. ,p.527-530 .

3 - حكم مريني وانفصال ثالث : (1347/748 - 1370/772):

أ- الحكم المريني يطول ببجاية مقارنة بتونس (1347/748 - 1360/761) :

يعتبر المرينيون انفسهم ورثة « امبراطورية » الموحدين . فلم تكن غايتهم من ضرب تلمسان الوقوف عندها بل المرور الى الدولة الحفصية .

فرغ بنو مرين منذ 1340/740 من مشاكل الاندلس بعد انهزامهم أمام الاسبان . وبقي ابو الحسن (1331/731 - 1348/749) يتربص الفرصة لاحتلال الدولة الحفصية . وكان أبو بكر سلطان تونس قد طلب منه ان يكون ضامنا لانتقال السلطة الى ابنه ابي العباس أحمد بعد موته (83) . لكن أخاه ابا حفص اغتصب الحكم وقتل خصمه واخويه أبا فارس وأبا البقاء . عندئذ أثار الحسن وصية ابي بكر وزحف على تونس باسم الشرعية سنة 1347/748(84) .

لكن هذا الزحف استهدف بجاية قبل تونس . فدخلت في نفوذه في أوائل سنة 1347/748 ، واستسلم واليها ابو عبد الله بسهولة وصرف الى المغرب الأقصى (85) .

اعتبر الاستيلاء على بجاية انتصارا عظيما حتى انه برز على الساحة الدولية كحدث من اكبر الاحداث فقد ارسل ابن الأحمر سلطان غرناطة (1333/733-1354/755) رسالة الى ابي الحسن يهنؤه فيها قائلا : «قد اتصل بنا ما كان من دخول حضرة بجاية حرسها الله في طاعتكم ...» ثم يواصل القول :« بجاية وما بجاية الا دار الملك الاصيل العتيق وكرسي العز الوثيق . أماطكم السعد صهوتها وأحلّكم التوفيق ربوتها » .(86) كما بعث ابو الحسن نفسه الى سلطان مصر الناصر حسن (1347/748 - 1351/752) يخبره فيها بفتح بجاية والانتصار على تلمسان (87) .

---

83) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 811 .

84) المصدر نفسه ، جVI، ص 811 - 824 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 170 ؛ الزركشي : *تاريخ الدولتين* ، ص 83 ، ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 96 ؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج I، ص 196 - 201 .

85) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 812 ؛ ابن القنفذ ، المصدر نفسه ، ص 171 - 172 .

86) القلقشندي (أبو العباس احمد) ، *صبح الأعشى* ، ج VII ، ص 63 - 65 .

87) المصدر نفسه ، ج VII، ص 395 - 407 .

لكن ابا الحسن سرعان ما تالب عليه الأعراب لانه أراد منعهم من الجباية التي كانوا ياخذونها من الحضر (88) . وزاد وضعه تعكرا بسبب وباء منتصف القرن 8 / 14 (89) والتقى أبو الحسن بالاعراب في معركة ضدهم قريبا من القيروان انهزم فيها شر هزيمة في 2 محرم 749 / 2 افريل 1348 (90) . وقام بعدها بمحاولة يائسة للسيطرة على تونس لكنه وجد نفسه مجبرا أخيرا على مغادرتها سنة 1358/750 فرجعت الى النفوذ الحفصي .

تمردت بجاية وقسنطينة على المرينيين اثر هزيمة ابي الحسن ودخل أبو العباس الفضل بن ابي يحيى ابي بكر الذي كان واليا على بونة قسنطينة بدعوة منها ثم انتقل الى بجاية وفي نفس الوقت استحوذ ابو عنان على الملك في المغرب، وارسل ابا عبد الله محمد بن ابي زكرياء بن ابي بكر الى بجاية فاسترجعها لفائدة المرينيين في رمضان 749 / نوفمبر - ديسمبر 1348 . وبقي واليا عليها الى 1352/753 (91) نقل بعدها الى المغرب الاقصى .

بذلك تمكن أبو عنان من استرجاع بجاية وجهتها ويئس من إفريقية وبقيت بجاية تحت النفوذ المريني الى سنة 1360/761 .

ولّى أبو عنان عليها من 1352/753 الى 1360/761 شخصيات هامة في الدولة (92) بماضيهم السياسي ومناصبهم في السلطة لان بجاية كانت تمثل المدينة الكبرى التي قد تعود من حين لآخر الى النفوذ الحفصي .

---

88) قال احمد بن الشماع :« فلما استوثق له (لابي الحسن) ملك إفريقية أجلى العرب من الأراضي التي ملكوها بالاقطاعات ، وضرب على ايديهم في الاتاوات . فشنوا الغارات في افريقية ...» ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 96 .

89) ابن القنفذ (بو العباس أحمد) ، *كتاب الوفيات* ، تحقيق عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1983/1403 ، ص 354؛ ابن القاضي (ابو العباس أحمد) ، *درة الحجال في أسماء الرجال* ، تحقيق محمد الاحمدي ابو النور ، 3 أجزاء ، المكتبة العتيقة - تونس - دار التراث - القاهرة 1970 - 1971 ، جII، ص88؛ جIII، ص 295 .

Talbi (M.)"Effondrement démographique au Maghreb" , *Cahiers de Tunisie* N °97-98, (1977), p. 58 .

90) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 821 ؛ ابن القنفذ، *الفارسية* ، ص 170 ؛ الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ،ص 85 ؛ ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 96 ؛ برنشفيك ، تاريخ *إفريقية* ، جI، ص 199 .

91) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 821 - 824 .

92) المصدر نفسه ، جVI،ص 831 - 836 .

وهؤلاء الولاة هم عمر بن علي بن الوزير من بني وطاس الذين ينتسبون الى علي بن يوسف أمير لمتونة وموسى بن ابراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء من بني وطاس الذين ينتسبون الى علي بن يوسف أمير لمتونة وموسى بن ابراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء ومحمد بن ابي عمرو الحاجب الذي بلغ مرتبة عظيمة عند السلطان المريني (93)، ثم عبد الله بن علي بن سعيد الذي كان وزيرا وأخيرا يحيى بن ميمون من أقربائه.

ب- السلطان الحفصي يسترجع بجاية ويقيم بها من 1360/761 الى 1364/765.

توفي أبو عنان سنة 1358/759. فبرزت مشاكل سنة النزاع على الحكم. آنذاك تمكن ابو اسحاق ابراهيم الثاني (1350/750 - 1369/770) من استرجاع بجاية في بداية 761 / نهاية 1359 - بداية 1360 (94) فقدم ابو عبد الله محمد بن ابي زكرياء واليها السابق من المغرب الاقصى و حاول دون جدوى الاستيلاء عليها لان السلطان نفسه كان يقيم بها من 1360/761 الى 1364/765. فلعبت بجاية حينئذ دور العاصمة السياسية لكامل الدولة الحفصية لمدة خمس سنوات.

ولنا رسالة رسمية مؤرخة في 26 صفر 761 / 17 جانفي 1360 (95) وجهها السلطان ابو اسحاق ابراهيم من بجاية. اي منذ بداية اقامته بها، الى بيدرو IV (Pédro IV (737/ 1336 -789/ 1387).

كان الحاجب محمد بن تافركين هو الذي بقي بتونس لادارة شؤونها، ولكنه توفي سنة 1364/765، فترك ابو اسحاق بجاية وعاد الى تونس.

ج - بجاية تنفصل ثالثة: (1364/765 - 1370/772)

آنذاك تمكن ابو عبد الله من الانفصال ببجاية في شهر رمضان 765 / افريل 1364 بمساعدة «أهل بجاية» كما يقول ابن خلدون وقبائل الدواودة وسدويكش. ولعله يقصد باهل بجاية اعيانها: «بدا لعمّه المولى اسحاق رايه

---

93) يقول ابن خلدون، ان محمدا بن ابي عمرو بلغ مرتبة عظيمة عند ابي عنان فقد «جعل له العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته وخصوصيات داره ...» المصدر نفسه، ج VII، ص 607.

94) المصدر نفسه، ج VI، ص 846 - 847.

95) Dufourcq (Ch.E.) ,éd., " Catalogue chronologique et analytique du registre 1389 de la chancellerie de la Couronne d'Aragon , intitule ," Guerre sarracenorum 1367-1386 ", Miscelanea de textos Medievales 2, Barcelona, (1974) ,doc. n° 2 , p.67 .

في اللحـــاق بتونس ووقـــع لذلك في نفوس اهـــل بجاية انحـــراف عنـــه ومرج امرهم وراسلوا أميرهم الاقدام ابا عبد الله من مكانه بمقره ...»(96) ويقول عن مساعدة القبائل :«... ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سباع ، فغربوا في الوفاء بها واقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متقلبـــا في في طلب بجاية ... واقام على ذلك سنين خمســـا ينازل بجاية في كل سنـــة مرارا . وتحول في السنـــة الخامسة عنهم الى أولاد علي بن أحمد، ونـزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقره ...»(97)ويواصل: «...وأخذ (يعقوب بن علي) له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية ...» (98) .

اتبع أبو عبد الله سياسة الشدة حتى انه « ضرب أعناق خمسين منهم (من أهل بجاية) قبل ان يستكمل سنتين في ملكه » حسب ابن خلدون (99) . فالب على نفسه مسانديه سابقا . فقد استدعى أهل بجاية من قسنطينـة ابن عمّه ابا العباس احمد بن ابي عبد الله محمد بن السلطـان ابي بكـر ، (100) الذي استطاع ان يستولى على بجايـة باعانة اولاد سباع في 19 شعبان 767 / 2 ماي 1366 (101) .

بلغ في عهده مجـال الـدولـة الحفصية ببجايـة أقصى اتساعـه اذ قال ابن خلدون :« وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جدُه الأمير ابي زكرياء الأوسط حين قسُم الدعوة الحفصية » (102) . وتـواصل حكمه ببجاية الى 772 / 1370 .

---

96) ابن خلدون ، *العبر*، ج VI، ص 854 .

97) المصدر نفسه ، جVI،ص 853 .

ان أولاد سباع واولاد علي هم من الدواودة .

98) المصدر نفسه ، جVI، ص 854.

99) المصدر نفسه ، جVII، ص 268: ابن القنفذ والزركشي تحدثا ايضا عن سياسة الشدة لأبي عبد الله : *الفارسية* : ص 185 ؛ *تاريخ الدولتين* ، ص 102 .

100) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 857 - 859 .

101) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 102 - 103 .

102) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 862 .

ΙΙ - تبعيــة لسلطة مركزية يقظـــة رغم محاولات التمـرد والإنفصال : 1370/772 - نهاية القرن 9/15 :

1- بجاية تعود الى ولائها (1370/772 - 1435/839)

أ- توحيد الدولة الحفصية انطلاقا من بجاية : 1370/772 :

تغير الوضع في تونس بوفاة السلطان ابي اسحاق في رجب 770 / . فيفري - مارس 1369 وتنصيب ولي العهد ابنه ابي البقاء خالد في الخلافة الذي قال عنه ابن الشماع انه "« صبي صغيـر لم يناهز الحـلم » (103) . فمسك الحكم الفعلي مولاه منصور وخاصة حاجبه أحمد بن ابراهيم المالقـي الذي ظهر منه «سوء تدبير وجور على الناس وانتهاب لاموالهم » (104).

وفرت هذه الظروف الفرصة المناسبة لابي العباس أحمد للدخول الى تونس في ربيع الثاني 772 / نوفمبر 1370 (105) واعـادة توحيد الدولة الحفصية انطلاقا من بجايـة التـي مثلت مـرة أخرى موطن القوة في المجال الحفصـي .

عرف الحكم الحفصي فترة من القوة بدايـة من عهد ابي عباس احمد تواصلت من 1370/772 الـى 1488/893 ('105) ، وتميـزت بحكم ثلاثـة سلاطين مقتدرينهـم : أبو العبـاس أحمـد(1370/772 - 1394/796) وابـو فارس عبـد العزيـز (1394/796 - 1434/837) وابـو عمـرو عثمـان (1435/839 - 1488/893) ، ولم يكن الا حكم محمد المنتصر(1434/837 1435/839/) قصيرا .

ب- تبعية متواصلة من 1370/772 الى 1435/839 :

عين أبو العباس ابا عبد الله محمـد أكبر ابنائه على ولاية بجايـة (106) وقد هيـاه ماضيـه السيـاسي لتقلد هذا المنصب لانه كان ينوب أباه ببجاية قبل توحيد الدولة عندما يخرج الى قسنطينة . وكانت مدة ولايتـه

---

103) ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 106 .

104) المصدر نفسه ، ص 107 .

105) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 866 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ص 177 ؛ الزركشي، *تاريخ الدولتين*، ص 106 ؛ ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 109 .

'105) برنشفيك ،*تاريخ إفريقية* ، ج I، ص 218 - 310 .

106) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 874 - 895 .

هادئة وحكمه مستقيما (107). وتوفي سنة 1383/785 وهو مازال واليا عليها فخلفه ابنه ابو العباس أحمد وهو ما زال حدثا . فجعل له السلطان محمدا ابن ابي مهدي متكفلا به (108) . وبقي واليا على بجاية الى ما بعد 1396/798 (109) . وقد عين ثانية سنة 810 - 811 / 1407 - 1409 (109 ').

نستخلص حسب الزركشي ان شخصين على الاقل وليا بجاية قبل تعيين ابي العباس ثانية ، هما ابو النصر ظافر لربما بين 1402/805 و 1407/810(110) ، والمولى زكرياء ابن السلطان ابي العباس واخو ابي فارس سنة 1407/810 ثم رجع ابو العباس أحمد بن ابي عبد الله ، ولا ندري متى انتهت فترته الثانية .

ذكرت لنا المصادر دون تسلسل أسماء ولاة بعده الى نهاية عهد ابي فارس كانوا خاضعين للسلطة المركزية وهم (111) .

- ابو البقاء خالد ، لا نعرف ابن من يكون ، عزله ابو فارس سنة 1421/824
- المعتمد بن ابي فارس ، تواصلت ولايته من 1421/824 الى 1430/833 واعتقله ابوه لانه أظهر طموحات لولاية العهد .
- المملوك القائد ابو النعيم رضوان الذي لا نملك عنه معلومات أخرى . وقد تكون مدته تواصلت من 1430/833 الى 1433/837-1434 .

لقد كان كل الولاة السابقين بصفة عامة معترفين بتبعيتهم للسلطة المركزية . ولربما غير قادرين على التمرد ، فمثلا قضي على طموح المعتمد بن أبي فارس منذ ظهور بوادره .

2 - القضاء على تمرد ابي الحسن بن ابي فارس ببجاية (1435/839 - 1452/856) واجهاض محاولة انفصالية بها سنة 1455/858 :

عين السلطان المنتصر (1434/837 - 1435/839) عمه أبا الحسن بن ابي فارس عبد العزيز واليا على بجاية (112) .

---

107) المصدر نفسه ، ، ج VI، ص 896 .

108) انظر ص 85 ، 103 ، 229 ، 294 - 295 ، 300 ، 419 - 420 من البحث .

109) يذكر ابن القنفذ انه خرج ببيعةبجاية لابي فارس سنة 1398/800 ، ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 196 ؛ بينما يذكر الزركشي تاريخ 1396/798 ، الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 119 .

' 109) الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 124 .

110) نراه مازال واليا على قسنطينة سنة 1402/805 حسب ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 199 ؛ ثم يخبرنا الزركشي انه عزل عن ولاية بجاية سنة 1407/810 ، الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 124 .

111) الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 125 ، 128، 137 .

112) المصدر نفسه ، ص 137

توفي المنتصر في 21 صفر 839 / 15 سبتمبر 1435، وبويع أخــوه عمرو عثمان في اليوم الموالي .آنذاك انفصل أبو الحســن ببجايــة (113) ؛ واستطاع ان يحتفظ بنفوذه عليها مدة 4 ســنوات منذ أوائل 839 / أواخــر 1435 الى جمادى 843 / نوفمبر 1439. وتمكن ان يحكمها حكم السلاطــين وتلقب بالمتوكل على الله مضاهيا(113')سلطان تونس الذي حمل نفس اللقب

تكون تحالفان في المواجهة بين أبي الحسن والسلطان :

جمع الاول حول ابي الحسن اولاد ابي الليل الذين تمردوا على السلطان منذ اعتلائه العرش ، فهزمهم في رمضــان 839 / مــارس - أفريل 1436 ، وفريقا من الدواودة ، ثم سانده بنوسيلين وشيخهم عبد الله بن عمر بن صخر (114) .

جمع الثاني حول السلطان أولاد مهلهل الذين حاربــوا معه اولاد ابــي الليل ، وفــروعا من أولاد حكيــم وبقيــة الذواودة (115) .فقد اعتمــدت استراتيجيتــه اذن على كسب مساندة شــق قوي من الأعــراب يضــرب بــهالمعارضين من الأعراب الأخرين أو من العائلة الأميرية او غيرهم .

مــر الصراع بثلاث مراحل :

ففي مرحلة أولى عمل السلطان على إضعاف ابي الحسن بسدُ الطريــق في وجهه نحو التوسع وبضرب التحالف الذي تكون حوله فقد نجح القائــد نبيل في حماية قسنطينة التي حاصرها ابو الحسن مدة شهر في أواخر سنــة 839 / أواسط 1436 حتى « رحل خائبا قاصدا الحضــرة (بجايــة) » (116) وهزم السلطــان اولاد ابي الليل في معركة قرب تيفاش في 22 ربيع الاول سنة 840 / اكتوبــر 1436 وألقــى القبض علــى زعمائهــم من أحفاد حمــزة بــن عمــر واعتقلهــم في سجــن القصبــة بتــونس (117)

---

113) الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 137 - 145 ؛ برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ا، ص 273 - 275 ؛
Brunschvig(R.),éd., " Un dinar hafside inédit .",*Bulletin de la société historique et géographique de la région de sétif* , II (1941) , p. 179-182.

113') *Ibid* , p. 179.

114) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 137 - 139 .

115) المصدر نفسه ، ص 137.

116) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

117) المصدر نفسه ، ص 138 .

الشيء الذي جعل ابا الحسن يلتجئ الى بني سيلين وشيخها عبد الله بن عمر بن صخر . لكن السلطان بقي يتربص ببني سيلين حتى قتل شيخهم هذا في أوائل 843 / جوان 1439 وعلق رأسه بباب خالد بتونس (118)

وفي مرحلة ثانية ، أعد السلطان لاسترجاع بجاية ، فدخلها في 4 جمادى الثانية 843 / 12 نوفمبر 1439 بينما فرّ ابو الحسن ، واصبح مجرد متمرد يبحث عن الحماية من القبائل لكنه بقي يشكل خطرا (119) . وامّن السلطان أهل بجاية وعين عليها واليا هو أبو محمد عبد المؤمن بن ابي العباس أحمد اي ابن عمه (120) . لكن بنو سيلين انتظروا الفرصة للفتك بهذا الوالي ، فاغتالوه في أوائل 846 / أواسط 1438 ('120) . آنذاك عقد السلطان على بجاية لابي محمد عبد الملك ، وهو أخو عبد المؤمن (''120) .

وفي مرحلة ثالثة ، هدف السلطان الى المحافظة على بجاية وجهتها وفي نفس الوقت التربص بابي الحسن الذي احتل بجاية في 850 / 1446 ، ولكن أخرجه منها بعد عشرين يوما فقط ،(121) وعين عليها القائد محمد بن فرج (122) .

وعاد اليها ابو الحسن في أوائل رجب 856 / جويلية 1452 محاولا احتلالها . (123) . لكن اعدت له هذه المرة خطة للقبض عليه غدرا نفذها احد أقارب حليفه الراحل ابن صخر ، اي أحد الذين كان يثق فيهم ، بإيعاز من ابي علي منصور المزوار قائد قسنطينة الذي تسلمه منه ثم سلمه بدوره في يوم عيد الفطر 856 / 15 أكتوبر 1452 الى محمد بن ابي هلال من مشيخة الموحدين بتونس ، قدم خصيصا لهذا الغرض . وعاد به صحبة ابن قائد قسنطينة فقتلاه في طريق العودة خوفا من ان ينجده الاعراب (124) . وارسلا رأسه مع البريد الى السلطان . ونصبُ « على قناة بالسوق حتى رآه الناس وتحققوه » (125) .

---

118) المصدر نفسه ، ص 139.

119) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 274 .

120) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 140، 141 .

'120) المصدر نفسه ، ص 141.

''120) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

121) المصدر نفسه ،ص 142 .

122) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

123) المصدر نفسه ، ص 145 .

124) المصدر نفسه ، ص 146

125) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

استرجعت بجاية دورها كعاصمة جهوية بعد انهاء التمرد . فقد عين السلطان عليها أبا علي منصور المزوار ('125) الذي كان قاشدا لقسنطينة والذي يرهن عن وفائه له بينما عزل ابن عمه أبا محمد عبد الملك الذي لم يستقبله ببجاية حين قدم اليها ليطلب تجديد العهد الا بعد تلكؤ فقتله في 13 شوال 856 / 27 أكتوبر 1452 ("125) .

لكن ظهرت بعد سنتين فقط اي في اواخر 858 / أواخر 1454 محاولة انفصالية (126) لم يقدر هذا الوالي على محاصرتها ، بينما استطاع السلطان اجهاضها بسرعة قبل ان تولد . وقد توخت هذه المحاولة الاسلوب المعتاد اذ ضيق « اهل بجاية » على ابي علي منصور وراسلوا الامير ابي بكر ابن واليهم سابقا عبد المؤمن بن ابي العباس احمد (عين في 843 / 1439) لتقديمه على بجاية . لكن السلطان اسرع بالقبض عليه قرب مدينة ميلة . ثم عزل ابا علي منصور لما وصل الى بجاية ، وعوضه بابنه ابي فارس عبد العزيز في جمادى الثانية 859 / ماي 1455 (127) . وقد كلفه في اواسط 870 / بداية 1466 بان يعد هجوما على تلمسان اثر استغاثة بعض القبائل به ('127) .

برهنت السلطة المركزية بتونس عن يقظتها وقدرتها على التصدي للتمرد والمحاولات الانفصالية .

١٧ - نهاية العهد الحفصي في بجاية :

1 - انفصال آخر القرن 9 / 15 - بداية القرن 10 / 16:

توفي السلطان ابو عمرو عثمان بالطاعون في آخر رمضان 893 / اوائل سبتمبر 1488 ، وبدأت بعده فترة انحلال الدولة الحفصية .

اشتد الصراع على الحكم (128) . أبو زكرياء يحيى بن مسعود اعتلى العرش سنة 1488/893 فاعدم عمه ابا بكر بن عمرو عثمان وسمل عيني أخيه ابي الحسن ، ثم قتل هو نفسه مسموما على يدي أحد أقاربه عبد المؤمن بن علي الذي تولى السلطة سنة 1488/894 .

'125) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

"125) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

126) المصدر نفسه ص 148 .

127) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

'127) المصدر نفسه ، ص 157 .

128) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 306 - 310 .

ولكن نازعه احد ابناء سلفه أبــو يحيى زكرياء بن يحيــى لاخذ الثـار لابيه واستولى على الحكم في 28 ذي القعدة 895 / 13 أكتوبر 1490 . وسجن عبد المؤمن ولربما مات مسموما مع ابنيــه الاثنين . وتوفي ابو يحيــى هذا في 9 شعبان 899 / 15 ماي 1494 بوباء الطاعون . وخلفه ابو عبد الله محـمد الخامــس (1494/899 - 1526/932) الذي كان ضعيف الشخصية ومحبا للملذات . وقد بدأت معه فترة انحطاط ثانية لا رجعة فيه .(129)

انفصلت بجاية في خضم هذا الوضع ، اذ تحدثنا بعض مصادر القرن 16/10 عن « مملكة بجـاية ».

يشكـل نص ابي علي ابراهيم المريني « عنوان الاخبار فيــما مر على بجاية » الذي نشــره شارل فيــرو (Charles Feraud) بعد ان ترجمه الى الفرنسية المصــدر الرئيسي لتاريخ الاحتلال الاسبـاني لبجايــة فــي 915 / 1509 - 1510 والمدة التي سبقته مباشرة . (130)

نتبين منــه ان بجاية كانــت مملكة منفصلـة(131) يحكمها ابو العباس عبد العزيــز ابن السلطــان تونس آنــذاك ابي عبــد الله محمــد (1494/899 - 1526/932). ويقول المريني إن أخاه ابا بكر كان يملك قسنطينة ايضا وحاول التوسع على حساب ابي العباس سنة 1506/912 - 1507 ، فبعث له ابو العباس رسالة ينصحه فيها بالتخلي عن طموحاته نحو بجاية ويذكره بانه لن يترك له مملكة قد بناها (132) ، بل استطاع ان يفتك منه قسنطينة في آخر ذي الحجة 914 / أفريل 1509 (133) ويخرجــه منها فيفر الى مدينــة بلزمة (134) ثم سيطر ابو العباس على قبائل سدويكش ودريد مساندي أخيه ابي بكر (135) .

عاشت هذه الدولة الحفصية المنفصلة ببجاية في دوامة الصــراع على الحكم . فلم تمثل موطن قوة في المجال الحفصي قد تنطلق منه عملية توحيــد

---

129) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 310 .

130) Féraud (L.Ch.) ,éd., " Conquête de Bougie par les espagnols d'aprés un manuscrit arabe d'Abou Ali IBrahim el-Merini " *Revue Africaine* ,n° 70-71 , (1868) , p.248-256,337-349.

انظر ايضــا :

L'Africain (J.Léon) , *Description de l'Afrique* , traduit de l'Italien par A. Epaulard , 2 Tomes , Ed. Maisonneuve ,Paris 1956, t.I.,p.359.

131) Féraud (L.Ch.),éd. , *Ibid* ,p. 248-253 .

132) *Ibid* , p. 248-249.

133) *Ibid* , p. 251.

134) *Ibid*, p. 255.

135) *Ibid*.

مثلما كان الامر بالنسبة للانفصالات االثلاثـة الأولى . وما زالت كذلك حتى باغتها الاحتلال الاسباني .

2 - العهد الحفصي ببجاية ينتهي بالاحتلال الاسباني سنـة 1509/915 - 1510 .

اشتد الصراع على البحرالابيض المتوسط بين العثمانيين والاسبان ، لا سيما بعد سقـوط غرناطة بايديهم سنـة 1492/897 وكانت السلطـة الحفصيـة المركزيـة عاجزة عن المقاومـة . فقد احتل الاسبان بجاية وجربة وطرابلس سنة 1509/915 - 1510 (136) والسلطـان ابو عبـد الله راض بذلك وكان الامر لا يهمه ، غايته ان يضمن لنفسه البقاء في السلطة .(137)

في بجايـة ، بينما كان اميرهـا ابو العباس عبد العزيز يتصـدّى لقبائـل سدويكش ودريـد بعدما افتك قسنطينـة من أخيه ، أنزل الاسبان جيوشهم في الميناء القديم في بداية شهر محـرم 915 / نهاية أفريل 1509 (138) . ويقول ابو علي المرينـي انهم استطاعوا السيطـرة على المدينة في 5 صفر 915 / 25 ماي 1509 (139) . وقد يكـون الاسبان قد قضوا على كل مقاومة في أواخر رمضان 915 / بداية جانفـي 1510 لان محمدا ابن زكرياء

---

136) رسالة في استيلاء النصارى على مدينة وهران ، واخذهم مدينة بجاية ومدينة طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس سنة 915 هـ ، مخطوط رقم 15349 (جديد) او رقم 3858 (قديم) بالمكتبة الوطنية بتونس ، ورقة رقم 266 ؛ Féraud (L.Ch.),éd. ," Conquête de Bougie ..."*op.cit.* ,p.251
برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ا، ص 310.

137) برنشفيك ، المرجع نفسه والصفحة نفسها .

138) Féraud (L.Ch.) ,éd.," Conqquête de Bougie *op.cit.* p. 251
بقي الامير عبد العزيز في قسنطينة . ومن هناك ارسل ابنيه ابا فارس وابا عبد الله لمقاومة الاسبان باسم الجهاد ، *Ibid*., p. 251-253. ؛ وكانت مقاومة غير منظمة مات فيها كثير من المسلمين ، من بينهم هاذان الاميران Ibid . ,p. 254 ؛ وطغت الصراعات بين الاخوين حتى اثناء هذه المقاومة . فقد اسرع ابو بكر من بلزمة في آخر محرم 915 / ماي 1509 ليتصدى للاسبان . ولكن لم يحصل اي تعاون وانسجام مع قوات ابي العباس عبد العزيز ، *Ibid*., p. 255 ؛ بل ان ابا بكر لما سمع ان اخاه قادم من قسنطينة لتعزيز القوة التي تركها ابناه بعد ان قتلا في المعارك اعترضه وقتله . ودخل قسنطينة في بداية ربيع الاول 915 / جوان 1509 واعتقل كل الذين كانوا قد ساندوا اخاه سابقا . *Ibid* .p. 338

139) *Ibid* ., p. 337.

البروني يقول انهم اخذوا بجاية في هذا الشهر (140) . ويتفق معه ليون الافريقي بان جعل قدومهم في 5 جانفي 1510 (141) اي في رمضــان 915 ايضـــا في اليوم 24 منه . ويذكر ان قائد الحملـــة هو الكونت بيدرو نافارو (Navarro Pedro) .

والخلاصة ان بجاية خرجت من سلطة الحفصيين منذ 1509/915 - 1510 ، ولن تعود اليهم . فالاتراك هم الذين سيحتلون المدينة بعد الاسبـــان في منتصف 1555/962 (142) .

الخـــــــاتمة :

كانت بجاية تذهب من التبعية الى الاستقلال ومن الولاء الى التمرد حسب تطور السلطة المركزية في تونس . غير انها لم تخـــرج طوال العهـد الحفصي من نفوذ العائلة الحفصية ، ماعدا ايام الاحتلال المريني ، لان الامراء الحفصيين هم الذين كانوا ينفصلـون بها . فقد بقيـت مدينـــة حفصية رغم الانفصالات .

مثلت بجاية عند انفصالاتها موطن القــوة الذي منه يعاد نفس جديد للدولة ومنه تنطلق عملية إعادة الوحدة ، ماعدا انفصـال آخـر القرن 15/9. لذلك لم تدم فترات الانفصال طويلا .

ولكن هذه الانفصالات لم تكن الا مظهرا من مظاهر الصراع على الحكم وتدخل القبائل فيه ، لان بجاية لم تمثل بالنسبـة لامرائها المنفصلـين بها الا مرحلة يقفزون بعدها الى عرش الدولة الحفصية بتونس ، الذي بقي في نهاية الامر يشكل الغاية القصوى .

وبالتالي كانت بجاية موطنا من مواطن هذا الصراع الذي جعل الدولة لا تستمر في الاستقرار وتتارجح بين القوة والضعف . وجعل بجاية لا تستقر في ولائها وتبعيتها .

كـــان من الطبيعي ان يـؤول الامر الى الانحلال العام في آخر القرن 15/9 وبداية 16/10 الذي جـــرف بجاية ايضا فادى الى احتلالها من قبل الاسبان .

---

140) *رسالة في استيلاء النصارى* ... مصدر سابق ، ورقة 266.

141) L'Africain (L.) *Description de l'Afrique* ..., *op.cit.* t.I., p. 360 .

142) Féraud (L.Ch.) ,éd., "Conquête de Bougie ..." ,*op.cit* ., p. 348; Marmol y Carvajal (luis del) , *Description générale de l'Afrique* , traduit de l'espagnol par N.p. d'Ablancourt, 3 Vol , Paris 1867 , p. 418; Gaid (M.) *Histoire de Béjaia* ... *op.cit.* p. 136.

الباب الثاني

المؤسسات السياسية:صورة للنظام المركزي

كانت بجاية مركز ولاية حفصية . ماعدا في فترات انفصالها او ايام الاحتلال المريني .
فما هو مجالها وما هي المؤسسات السياسية المركزة بها ؟ .

ا - الولايــة وولاتهـــا :

1 -ولاية ذات اهمية خاصة ومجال متغيـر :

كانت ولاية هامة ، قد تفسـر اهميتها بمكانـة بجايـة المتميزة التي شهدت عليها المصادر .

ذكر ابن سعيد المغربي انها « قاعدة المغرب الاوسط (143) وأعاد ابو الفداء نفس القول (144) ، وقال العمري : « اما تونس فهي قاعدة الملـك ثم تليها بجاية قاعدة ملك ثانيـة » (145) وجاء في رسالة ابن الأحمـر سلطان غرناطـة (333/733، - 1354/755) الـى ابـي الحسـن المرينـي (1348/731 - 1358/749) يهنـؤه فيها بدخول بجايـة في طاعتـه ان « بجاية دار الملك الأصيل العتيق وكرسـي العزّ والوثيـق ... » (146) . وتطلق اغلب المصادر الاوروبية على السلطان الحفصي لقب « ملك تونس وبجاية »

وتدل هذه الاقوال على ان مجال نفوذها السياسي واشعاعها الحضاري شمل المغرب الأوسط الحفصي فشكل منطقة اشعاع متسعة استطاع المتمردون على السلطة المركزية ان يقتطعوها لانفسهم .

يبدو ان مجال ولاية بجاية بلغ أقصاه في عهدي مؤسس الدولة الأمير ابي زكرياء (1228/625 - 1249/647) وابنه المستنصر (1249/647 - 1277/675) وبداية عهد ابي يحيى ابي بكر (1318/718 - 1346/747) . وقد عدد ابن خلدون الاعمال التي ضمـها ابو زكريـاء الى ولاية بجايـة حين

---

143)ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض في الطول والعرض* ، تحقيق خوان قرنيط ،1958 ،ص 76

144) ابو الفداء (عماد الدين) ، *تقويم البلدان* ، المطبعة الملكية ، باريس 1840 ، ص 136 .

145) العمري (ابن فضل الله) ، *وصـف إفريقية والاندلس* ، مقتطف من *كتاب مسالك الابصار فـي ممالك الامصار* ، تحقيق حسـن حسني عبـدالوهاب ، مطبعة النهضة ، تونس ، دون تاريـخ ص 7 .

146) القلقشنـدي (ابو العباس احمد) ، *صبح الاعشى في صناعة الانشا* ، 15 جزءا ، سلسلة تراثنا المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، جVII ، ص 65 .

عين عليها ابنه فقال انه جعل له النظـــر في سائر اعمالهـا من الجزائر وقسنطينــة وبونة والـــزاب ، وذلك في سنة 1235/633 - 1236 (147) ونلاحظ ان والي بجاية أبا هلال عياد الهنتاتي هو الذي خــرج لضــرب تمرد بالجزائر (148) في عهد المستنصر وبقيت ولاية بجاية تضم ايضا كامل الجناح الغربي للدولة الحفصية في بداية عهد ابي بكر (1318/718 - 1346/747) حين عين عليها يعقــوب بن غمر سنـــة 1318/718 الذي تـــوفي سنــة 1319/719 ولكن بداية من 1320/720 نرى ابـا بكـر يفصل قسنطينة عن بجاية حين وضع ابنيه ابا عبد الله واليا على قسنطينة وابا زكرياء واليا على بجاية . ولكن مكثت بجاية فعليا تشرف على قسنطينة لان هذين الابنين كانا صغيرين ، لهذا جعل السلطان ابو بكر ابا عبد اللـه بن القالون حاجبا لهمـا ومتكفلا بهما وامره بالاقامة في بجاية فسيطر عليهما ولعب دورالوالي على بجاية وقسنطينة معا : نقل ابن خلدون الخبر كما يلي :« جعل حجابتهما لابي عبد الله بن القالون مستبدا عليهما لمكان صغرهما ، واكثف له الجند وامره بالمقام ببجاية » (149) .

ولكن لم يلبـث ان عزل ابن القالـــون سنة 1321/721 وعوض في بجاية بمحمد بن سيــد الناس وفي قسنطينــة بظافر الكبير (150) ، اي ان قسنطينة فصلت عن ولاية بجاية . وقد يكون السلطـان اراد ان يخلـق توازنا في الجهة بن المدينتين خشية ان تحدث الانفصالات انطلاقا من بجاية . وحتى وان وقع فلن تخرج المدينتان في نفس الوقت . فعلا ، فانه عندما انفصل ابو عبد الله محمد ببجاية سنة 1364/765 بقيت قسنطينة في حكم واليها ابي العباس احمد حفيد السلطان ابي يحيى ابي بكر . غير ان هذا استولى ايضا على بجاية في 1366/767 (151) .

---

147) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 597 .

148) المصدر نفسه، ج VI، ص 674 .

149) المصدر نفسه ، ج VI، ص 757 - 758 .

150) قد يكون ظافر الكبير من العلوج ، اي المماليك النصارى الذين اعتنقوا الاسلام لان ابن خلدون يذكر انه كان من موالي الامير ابي زكرياء صاحب بجاية (1285/684 - 1301/700) ثم برز في عهد ابي البقاء خالد (بجاية : 1301/700-1309/709 و بتونس 1309/709-1311/711) .

151) راجع ص 73-74من البحث .

لقد بقيت قسنطينة ولاية مستقلة عن بجاية الى آخر العهد الحفصي . فنحن نرى ان السلاطين اللاحقين كانوا يعينون عليها ولاة مستقلين عن بجاية (152) غير انه لا يمكن الحديث عن حدود فعلية لولاية معينة ،اذ يبدو ان كل وال كان يبذل جهودا للسيطرة على اوسع مجال محيط بالمدينة . ومقياس اعتراف قبائل الجهة بسلطته هو دفع الجباية له . فقد قال لنا ابن القنفذ ان القائد نبيل ، والي قسنطينة وقائدها في السنوات الاولى لعهد السلطان عثمان (1435/839 - 1488/899) استقل بها « داخلا وخارجا ، وتمهدت له في خمس سنين الجباية من قرب بونة الى قرب بجاية » (153) .

لذلك كان المجال الفعلي لكل ولاية ، بما في ذلك ولاية بجاية يتسع ويتقلص حسب قدرة الوالي وجهوده على اقتلاع الجباية .

وخلاصة القول ان المجال الراجع بالنظر الى والي بجاية ضم الى سنة 1321/721 كامل الجناح الغربي ثم تقلص لفائدة قسنطينة اساسا لاعتبارات سياسية ، اما المدينة في ذاتها فباقية على اهميتها واشعاعها .

غير ان هذا المجال متغير مهما كان اتساعه

2 - والــــي بجـــاية :

أ- مقـــر حكمـــه :

كانت القصبة ببجاية مقر الحكم ، سواء للولاة او الامراء الذين اعلنوا استقلالهم (154) تبين ذلك من خبرين : فلما دخل اسحاق بن غانية بجاية في 1184/580 من جهة باب اللوز غير المحصنة آنذاك وضع يده على القصبة قبل اي موقع آخر (155) لعلمه بانها كانت مقر الحكم .

---

152) امثلة : عين ابو العباس احمد (1370/772 - 1394/796) في 1377/779 واليا على قسنطينة ابنه الامير ابا اسحاق ابراهيم الذي بقي بها الى 1391/793 : ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 189 ؛ وزكي ابو فارس عبد العزيز (1394/796 - 1434/837) ولاية اخيه ابي بكر عليها سنة 1394/796 وعين عليها ابو عمرو عثمان (1435/839-1488/893) القائد نبيل ثم القائد ابي علي منصور المزوار اللذين دافعا عن قسنطينة ضد تمرد الامير ابي الحسن بن السلطان ابي فارس ، راجع ص 86-88 من البحث .

153) ابن القنفذ ، *الفارسية* : ص 194 .

154) راجع ص 71 - 74 ، 82 - 83 ، 88 - 90 من البحث .

155) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 77 .

وفي ذي الحجة 753 / جانفي 1353 تواعد أنصار فارح للفتك بعمر بن علي الوالي المريني « بمجلسه من القصبة » (156) ولما قضى الحاجب محمد بن ابي عمرو على الانتفاضة فاتح سنة 754 / بداية 1353 احتل القصبة اولا (157).

اقيمت القصبة من قبل الموحدين (158)، قد يكون ذلك منذ السنوات الاولى من حكمهم في بجاية التي احتلوها في 24 جمادى الاولى 547 / 27 اوت 1152 (159) لانها كانت تشكل عنصرا من نظام حكمهم.

وكانت تحتوي على أجهزة مستقلة وعلى جامع خطبة خاص يوجد داخلها يسمى جامع القصبة (160). وتقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة على مرتفع من الارض وتشرف مباشرة على الميناء والبحر.

ب - تعيينه :

السلطان هو الذي كان يعين الوالي. فلم يكن هذا المنصب وراثيا او خاضعا لوصية الوالي او الانتخاب.

من تولى ولاية بجاية ؟

استطعنا الكشف عن اربعة وعشرين واليا ادرجناهم في جدول مرفوق بجدول تلخيصي، فتبين لنا ان خمسة عشرة منهم هم من العائلة الحفصية، سبعة منهم من ابناء السلطان المباشر للحكم، والبقية كانوا خاصة من شيوخ الموحدين في الفترة الاولى وهي فترة ابي زكرياء (1229/626 - 1249/647) والمستنصر (1249/647 - 1277/675) ومن قادة عسكريين في فترة انتعاشة الدولة (1370/772 - 1488/894). وقد يكون هؤلاء القادة من العلوج (161).

وتوضح ان اطول الفترات قضتها بجاية تحت إمرة ولاة من العائلة الحفصية. خاصة ابناء السلطان الحاكم، فالتعيين اعتمد اذن على القرابة

---

156) هذه عبارة ابن خلدون، *العبر*، ج VII، ص 604.

157) المصدر نفسه، ج VII، ص 605.

158) برنشفيك، *تاريخ إفريقية*، ج1، ص 414.

159) راجع ص 64 من البحث.

160) الغبريني، *عنوان الدراية*، ص 140، 241؛ ابن القنفذ القسنطيني (ابو العباس)، *كتاب الوفيات*، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1403 / 1983، ص 345.

161) العلوج، هم قدماء الرقيق او المماليك النصارى الذين دخلوا الاسلام، برنشفيك، *تاريخ إفريقية*، ج I، ص 47.

المباشرة قبل كل شيء. فهل كان الاعتبار الاساسي هو الخوف من انفصال الجهة ؟ .

اذا عدنا الى الاحداث ، هل وجد من بين هؤلاء الولاة الامراء من تمرد على السلطان الذي عينه ؟

امير واحد تنكر لابيه هو ابو فارس ابن السلطان ابي اسحاق (الوالي من 1280/679 الى 1283/682) ، لكن بعدما تخلى عن عرشه لابن ابي عمارة (161) . اما ابو الحسن ابن ابي فارس الذي قام باطول تمرد من 1435/839 الى 1452/856 فلم يقم به ضد من عينه بل ضد ابي عمرو عثمان لما اعتلى العرش . فاعتقد انه أولى بالخلافة . ولم تحدث الانفصالات على ايدي ولاة مباشرين ضد من عينهم .

ابو زكرياء استقل ببجاية سنة 1285/684 ، ولم يكن واليا عليها كذلك ابو بكر سنة 1312/712 وابو عبد الله محمد سنة 1364/765

ونلاحظ من الجدول ان مجموع المدة التي قضاها الولاة الابناء كانت الاكثر طولا ، رغم ان عددهم كان أقل . قد يدل هذا على انهم فعلا كانوا اكثر وفاء من غيرهم .

قد يكون السلاطين رأوا ايضا في تعيين أمراء حفصيين ضمانا أكبر للسيطرة على المدينة وجهتها فحضور الامير الحفصي يمثل قبل كل شيء حضورا للعائلة المالكة الحفصية وتذكيرا بان الملك الشرعي لها . وحتى وإن حدث انفصال على يدي الامير فانفصاله يكون أخف الضررين .

اما تعيين غير الحفصيين ، فقد اعتمد على اختبار حازم لمدي الاخلاص والكفاءة مثل أبي هلال بن عياد الهنتاتي الذي أعان المستنصر ضد تمرد اهل الجزائر وثورة ابي علي الملياني سنتي 1261/659 و 1262/660 (162) ، او ابو علي منصور المزوار قائد قسنطينة الذي تمكن من القبض على المتمرد ابي الحسن بن ابي فارس (163) .

---

161) راجع ص 71 من البحث .

162) راجع ص69 من البحث

163) راجع ص 86-88 من البحث

ولم يكونوا أقل وفاء لمن عينهم ، فلم تبلغنا ايضا محاولات انفصالية منهم .
اجمالا لم يات خطر الانفصالات في بجاية من ولاتها نحو من عينهم ، بل من غيرهم من الامراء الحفصيين. فقد وفق السلاطين عامة في اختيارهم

ج - مهامه :

يعتبر الوالي ممثل السلطان لذلك فهو مطالب بالحرص على جعل الولاية في حالة ولاء وتبعية . ولكن في المقابل يستمد من دوره هذا كممثل للسلطان سلطة كبرى في جهته ، لا سيما اذا كان من العائلة الحفصية ، اذ تضاف الى نفوذه كوال نفوذه كفرد من العائلة المالكة .

يعبر الوالي عن ولائه بذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكة (164) وجمع الجباية والاداءات لفائدته (165) وضرب اية محاولة تمردية . فلم تكن مهمة الوالي مدنية فحسب بل كانت عسكرية ايضا .

لربما كان الجمع بين المهمتين دليلا واضحا على انه يتمتع بنفوذ واسع في ولايته حتى انه يتصرف في عديد المناسبات دون تقيد بالسلطان عندما يتطلب الامر السرعة والنجاعة . مثلا تصدى ابو فارس لثورة ابن الوزير والي قسنطينة سنة 1280/679 دون اي تدخل من السلطان ، الا انه ارسل يخبره بالانتصار.

---

164) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 756 .
165) ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 194 .

ولاة بجاية التابعين للدولة الحفصية بالتوالي (الذين استطعنا التعرف عليهم) (165')

	اسم الوالي	صلته بالسلطان	الفترة التي قضاها	المدة التقريبية	راجع البحث ص
1	ابو عبد الله محمد اللحياني اخو الامير ابي زكرياء	اخ	1236-35/633 - 1230/627	6 سنوات	69
2	ابو يحيى زكرياء ابن الامير ابي زكرياء يحيى	ابن	1249-48/646 - 1236-35/633	13 سنة	69
3	آبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي	من مشيخة الموحدين	1275/673 - 1262/660	13 سنة	69
4	محمد بن ابي هلال	من مشيخة الموحدين	1279/678 - 1275/673	5 سنوات	70-69
5	عبد الحق بن تافراكين	من مشيخة الموحدين	سنة 678 / 1279	اقل من سنة واحدة	71
6	ابو فارس ابن السلطان ابي اسحاق بن ابي زكرياء	ابن	1283/682 - 1280/679	3 سنوات	71
7	عبد الرحمان بن خلوف	صنهاجي ، شغل منصب مزوار القرابة في عهد الانفصال الاول .	1312/712 - 1309/709	3سنوات	74
8	يعقوب بن غمر	اندلسي - حاجب	سنة 1319/719	1 سنة	74
9	علي بن غمر	اندلسي ، ابن عم يعقوب بن غمر	1320/720 - 1319/719	4 اشهر	74
10	ابو زكرياء ابن السلطان ابي يحيى ابي بكر	ابن	1346/747 - 1320/720	27 سنة	79 ، 75-74
11	ابو حفص عمر بن السلطان ابي بكر	ابن	ربيع 1346/747	شهرواحد	79
12	ابو عبد الله محمد بن ابي زكرياء بن ابي بكر	حفيد	ربيع 1346/747بداية 1347/748	1 سنة	79

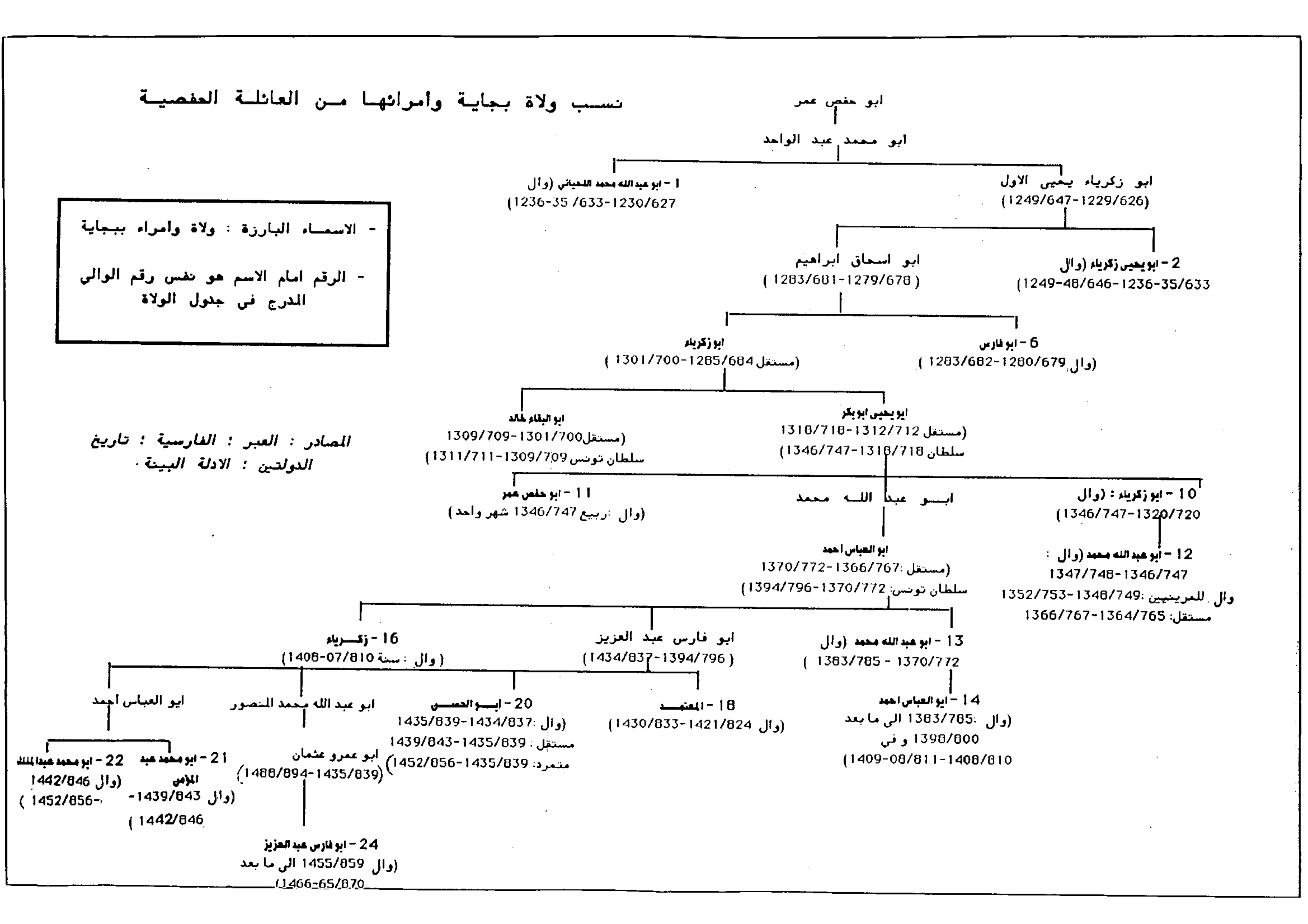
165') أنظر شجرة نسب ولاة وأمراء بجاية ص 100من البحث .

13	أبو عبد الله محمد ابن السلطان ابي العباس	ابن	1383/785 - 1370/772	13 سنة	85-84
14	ابو العباس احمد بن ابي عبد الاه محمد ابن ابي العباس	حفيـد	1383/785 - ما بعد 1398/800 1409-08/811 - 1408-07/810	16 سنة على الاقل	85
15	ابو النصر ظافر	قائد عسكري	بعد 805 - 1408-07/810	5 سنوات	85
16	زكرياء بن ابي العباس اخوالسلطان ابي فارس	أخ	سنة 810 / 07-1408	1 سنـة	85
17	ابو البقاء خالد	لا نعرف غير انه من العائلة الحفصية	قبل 1421/824	أكثر من سنة	85
18	المعتمد ابن السلطان ابي فـارس	ابـن	1430/833 - 1421/824	9 سنوات	85
19	ابو النعيم رضوان	قائد عسكري	1434-33/837-1430/833	4 سنوات	85
20	ابو الحسن ابن السلطان ابي فارس وعم السلطان المنتصـر	عم السلطان	1435/839-1434/837	2 سنتان	85
21	ابو محمد عبدالمؤمن ابن ابي العباس أحمد	ابن عـم	1442/846-1439/843	3 سنوات	87
22	ابو محمد عبد الملك ابن ابي العباس أحمد	ابن عـم	1452/856-1442/846	10سنوات	87
23	ابو علي منصور المزوار	قائد	1455/859-1452/856	3 سنوات	88
24	ابو فارس عبد العزيز ابن السلطان ابي عمرو عثمان	ابن	1455/859 ما بعد 1466-65/870	على الاقل 11 سنة	88

تلخيـص لجدول الولاة

انتماء الولاة		العدد		المجموع التقريبي للسنوات("165)	
ولاة من العائلة الحفصية	ابنـاء للسلطان الحاكم	7	المجمـوع 15	76	المجمـوع 116
	اقارب للسلطان الحاكم	8		40	
ولاة من غير العائلة الحفصيـــــــــة		9		35	
المجمــــــوع		24		151	

"165) لا يمكن ان نضبط ارقاما محددة لان المصادر لا تسعفنا دائما بتاريخ تعيين الوالي او نهاية ولايته .



نسب ولاة بجاية وامرائها من العائلة الحفصية
ابو حفص عمر
ابو محمد عبد الواحد
1 - ابو عبد الله محمد اللحياني (وال
1236-35 /633-1230/627)
ابو زكرياء يحيى الاول
(1249/647-1229/626)
- الاسماء البارزة : ولاة وامراء ببجاية
- الرقم امام الاسم هو نفس رقم الوالي المدرج في جدول الولاة
ابو اسحاق ابراهيم
(1283/681-1279/678)
2 - ابو يحيى زكرياء (وال
1249-48/646-1236-35/633)
ابو زكرياء
(1301/700-1285/684 مستقل)
6 - ابو فارس
(1283/682-1280/679 وال)
ابو البقاء خالد
(مستقل1309/709-1301/700
سلطان تونس 1311/711-1309/709)
ابو يحيى ابو بكر
(مستقل 1318/718-1312/712
سلطان 1346/747-1318/718)
المصادر : العبر : الفارسية : تاريخ الدولتين : الادلة البينة .
11 - ابو حفص عمر
(وال :ربيع 1346/747 شهر واحد)
ابو عبد الله محمد
10 - ابو زكرياء : (وال
1346/747-1320/720)
ابو العباس احمد
(مستقل :1370/772-1366/767
سلطان تونس: 1394/796-1370/772)
12 - ابو عبد الله محمد (وال :
1347/748-1346/747
وال للعرينيين :1352/753-1348/749
مستقل: 1366/767-1364/765
16 - زكرياء
(وال : سنة 1408-07/810)
ابو فارس عبد العزيز
(1434/837-1394/796)
13 - ابو عبد الله محمد (وال
1383/785 - 1370/772)
ابو العباس احمد
ابو عبد الله محمد المنصور
20 - ابو الحسن
(وال :1435/839-1434/837
مستقل : 1439/843-1435/839
متمرد: 1452/856-1435/839)
18 - المعتمد
(وال 1430/833-1421/824)
14 - ابو العباس احمد
(وال :1383/785 الى ما بعد
1398/800 و في
1409-08/811-1408/810)
22 - ابو محمد عبد الملك
(وال 1442/846
-1452/856)
21 - ابو محمد عبد المؤمن
(وال 1439/843-
1442/846)
ابو عمرو عثمان
(1488/894-1435/839)
24 - ابو فارس عبد العزيز
(وال 1455/859 الى ما بعد
1466-65/870)

II - جهاز الحكم المحيط بالوالي :

1 - الجيـــــش :

كان والي بجاية يتمتع بقوة عسكرية تدعم نفوذه موضوعة على ذمته يستعملها عند الحاجة ، ومتركبة من قوة برية واخرى بحرية .

أشار ابن خلدون الى الجيش البري حينما قال متحدثا عن ثـورة ابن الوزير :« وزحف اليه الامير ابـو فارس من بجاية في عساكـره واحتشد الاعراب وفرسان القبائل ...» (166) . ونفهم ان جيش بجاية كان متكونا من عساكر دائمة تنضم اليها فرق من المليشيا المسيحية (167) وبالنسبة للجيش البحري ، نذكر بالخصوص ان قائد البحر اعتبر في بجاية من اهم المناصـب (168) وانها شاركت بسفن في الاسطول الذي ارسله السلطان الحفصي ابو بكر (718/1318 - 747/1346) الى ابي الحسن المريني ، وبقائد بحرها زيد بن فرحون الذي ترأس كامل هذا الاسطول (169)

لكن السلطان اراد ان يجعل من سلطة الوالي العسكرية سلطة محدودة ، اذ هو الذي يعين بنفسه قادة الجيش البري اوالبحري ، اذ يخبرنا ابن القنفذ ان السلطان ابا العباس (772/1370 - 796/1394) عين بنفسه محمدا بن ابي مهدي رئيسا لبحر بجاية (170) سنة 772/1370 .

ويخبرنـا الزركشي ان السلطـان ابا عمرو عثمان (839/1435 - 894/1488) لما خرج الى بجاية في 850/1446 للتصدي لابي الحسـن الذي دخلها عزل عنها القائد أحمد بن بشير وعين مكانه القائد محمد بن فرج (171) وكان واليها آنذاك ابن عمه ابا محمد عبد الملك بن ابي العباس احمـد .

لا شك ان تعيين القادة العسكريين من قبل السلطان مباشـرة هدف لمزيد توفير عوامل الولاء والتبعية .

---

166) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 686 .

167) وجد في الدولة الحفصية منذ عهد ابي زكريـاء الاول(626/1229 - 647/1249) جنـود مسيحيون مرتزقة طلبهم السلطان ليكونوا في خدمته . ويبدو ان فرقا اخرى وزعت على بونة وبجاية Dufourcq (Ch. E.) ,*l'Espagne catalane ..., op.cit.* , p. 512-517.

168) انظر ص 228-230 من البحث

169) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VII، ص 543 - 544 ؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج I، ص 193 - 194.

170) ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 186 .

171) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 142 .

2 - مناصب الحكم :

أ- الحــــاجب :

تحــدث برنشفيك عن الحجابة في كتابه عن الدولــة الحفصية (172) وخصصت لها دائرة المعارف الاسلامية مقالا ضافيا .(173) .ونذكر فقط ببعض النقاط الواردة في هذين المرجعين ، وهي ان الحجابة في إفريقية تبدو اصيلة الاندلس ، وانها لم توجد ايام الحفصيين الا بداية من عهـد ابي اسحـــاق الاول (1279/678 - 1283/681) الذي زار الاندلس قبل صعوده الى العرش .

وكانت في البداية عبارة عن مهمة « عائلية » تمثلت في الوساطة بين الاميــر والاشخاص من اي نوع كان ، والقيام بحسابات القصر . ثم لم يعد الحاجب بعد ابي حفص عمر (1284/683 - 1295/694) مكلفا بهذه الحســابات فقــط وتزايــدت قيمتــه الـــى ان قــوي في عهــد ابـــي يحيـــى ابـــي بكـــر (1318/718 - 1346/747) لان هذا السلطان حسب برنشفيك (174) ، بما انه كان أميـــرا على بجاية وقسنطينـــة فقد جلب معه هذه التقاليــد التي تمثلت في منح الحاجب سلطة المساعد المباشر والرديــف . وتقلصت الحجابــة بداية من عهد السلطان ابي العباس أحمد (1370/772 - 1394/796) واصبح يكتســي صبغة شرفية (175) .

يبدو مما ورد في المرجعين ان الحجابة انتقلت من بجاية وقسنطينـــة الى تونس عن طريق ابي بكر . ولكن لا بد من التاكيد انه خلافا لهذا القول ، فان الحجابة في تونس كانت سابقة ، حيث قويت بصفة ملحوظــة منــذ عهد الواثق (1277/675 - 1279/678) اي حتى قبل ابي اسحاق الاول . ومثل هذه القوة الحاجب ابو الحسن بن الحببر بينما كانت بجايــة في نفس الفترة تحت سلطة اكبر شيوخ الموحدين بها الوالي محمد بـــن ابـــي هلال دون ان يوجد حاجب الى جانبه .(177)

---

172) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج II، ص 54 - 56 .

173) Lambton (A.K.S.) , Sourdel (D.) , " Hādjib " , *Encyclopédie de l'Islam* ,Nouvelle éd. t.II. , p. 47-51 .

174) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، جII، ص 55.

175) المرجع نفسه ، ج II، ص 56 .

176) ابن خلدون ، *العبر* ج VI، ص 670 - 679 ؛ برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج I، ص 104 -105

177) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI،ص 678 - 679 .

برز الحاجب ببجاية اذن في عهد متاخر عن تونــس وذلك فــي فترة الانفصال الاول (1285/684 - 1309/709) لان ابا زكرياء ابن ابي اسحاق حين استقل ببجاية نظم حكمه على غرار النظام بتونس ، فاعطى الحجابة لابي الحسين بن سيد الناس ، وقويت في بجاية منذ ذلك الوقت وتقلدتها بصفـة خاصة عائلات أندلسية : ابن سيد الناس ، ابن ابـي جبى ، ابن غمـر ، (178) الشي ء الذي يدل على تاثيرالجالية الاندلسية ، ولم يقو من العائلات الاخرى في الحجابة غير ابن فرحون (179) .

يلخص ابن خلدون قوتهم بعبارات متعددة منها « صار (ابو الحسن بن سيد الناس) الى الحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه » (180) و « حوّل (ابن غمر) المراتب بنظره واجرى الامور على غرضه » (181) .

يمكن القول بان قوة الحجابة في بجاية تواصلت الى تاريـخ الاحتلال المريني سنة 1347/748 . ولذلك نحدد فترة قوتها من 1285/684 تاريـخ الانفصال الاول الى 1347/748 ولم تعد المصادر تحدثنا عن حجاب في بجاية . وحتى محمد بن ابي مهدي الذي قوى نفوذه على حساب واليها ابي العباس أحمد بن ابي عبد الله الذي عيُن سنـــة 1383/785 لم يكن حاجبـا بل كان رئيسا للبحر وزعيما للبلد وكفيلا لهذا الأمير (182) .

كان الحاجب في فترة قوته المساعد المباشر سواء للامير المستقل او الوالي ، بل كثيرا ما كان المتصرف الوحيد في أمور الدولة .

ب - كاتب الحجابة ، صاحب الاشغال ، قهرمان القصـــر :

قد يعين الحاجب كاتب يسمُى « كاتب الحاجب » مثل عبد الله الرخامي الذي أعان ابن ابــي جبي (183) في عهد أمير بجايـة المستقل ابي البقاء (1301/700 - 1309/709)

ان المرتبة الموالية للحاجب هي مرتبة « صاحب الأشغــال » الذي كان

---

178) راجع ص 406-418 من البحث.

179) راجع ص 418-419 من البحث.

180) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 705 .

181) المصدر نفسه ، ج VI، ص 706 .

182) ابن خلدون ، *المصدر نفسه* ،ج VI، ص 896 - 897 ، جVII، ص 302 : ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 186 ، 199 : برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج I، ص 226 .

183) ابن خلدون ، المصدر نفسه ج VI، ص 723-724 .

مكلفا بالمالية . ويخبرنا ابن خلدون في المقدمة ان نفوذه تقلص في العهد الحفصي حين قوي نفوذ الحاجب .

قال عنه في العهد الموحدي انه « يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها » (184) ويواصل بالنسبة للعهد الحفصي قائلا : «ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شان من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوسا للحاجب واصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة » (185).

اذن ، كان صاحب الاشغال يرجع بالنظر الى الحاجب خلال فترة قوة الحجابة .

ونذكر من وظائف القصر « قهرمان القصر » او « قهرمان دار السلطان » (186) الذي تتمثل وظيفته في التصرف في حاجيات ونفقات عائلة الأمير المستقل او الأمير الوالي . وتعرفنا على الحاج فضل الذي ذكره ابن خلدون كقهرمان لقصر ابي زكرياء بن ابي أسحاق (187) (مستقل ببجاية 684/1285 - 700/1301) .

كانت مؤسسات الحكم في بجاية شبيهة بمؤسسات النظام المركزي وعرفت تطورا كاد يكون موازيا لو لم يكن هناك بعض الاختلاف .

---

184) ابن خلدون ، *المقدمة* ، دار احياء التراث العربي ، بيروت 1988 ، ص 245 .

185) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

186) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج II ، ص47

187) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 725 .

خـــاتمة الفصل الثاني :

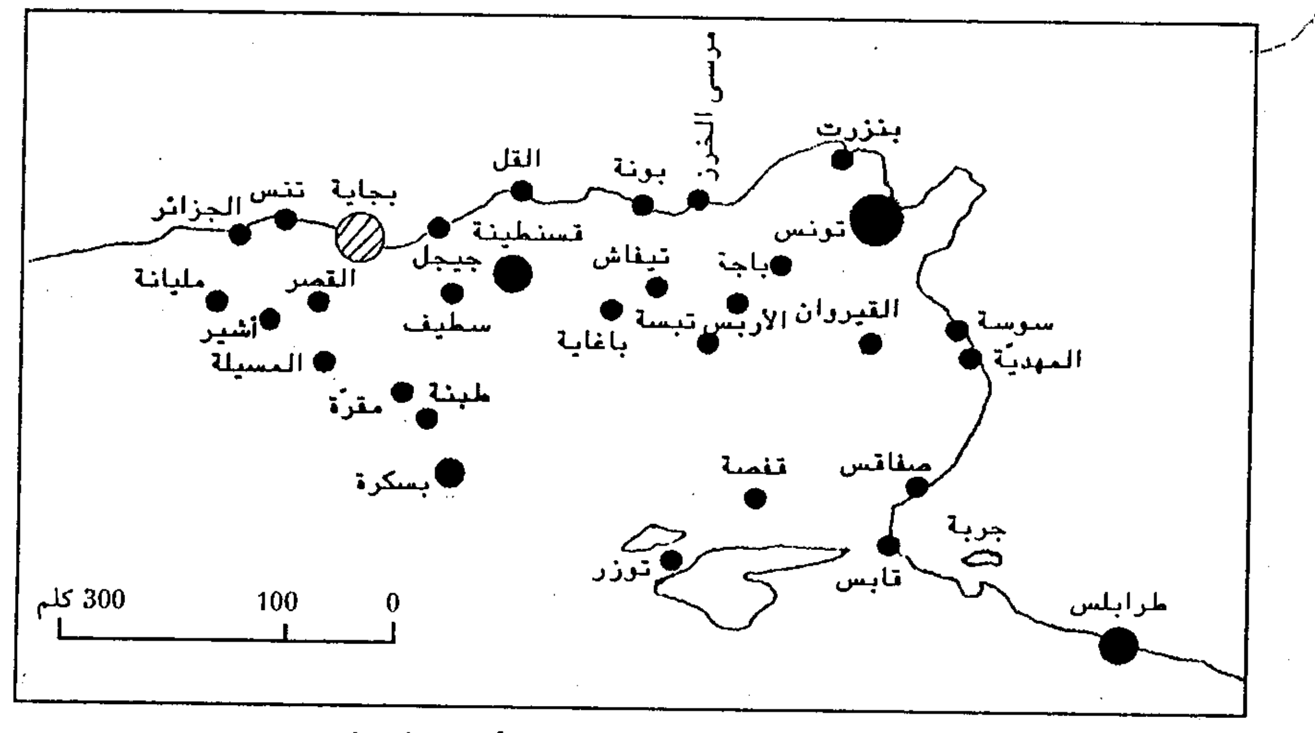
لقد تدعم من جديد مركز بجاية السياسي في العهد الحفصي نظرا للموقع الجغرافي - السياسي الذي اكتسبته في مجال الدولة الحفصية .

فلم تمثل بجاية في العهد الموحدي الا واحدة من سلسلة المدن الهامة داخل مجال دولة ممتدة الاطراف على كامل بلاد المغرب الاسلامي ومركزة على المغرب الاقصى . بينما اصبحت في العهد الحفصي مدينة تشرف على الجزء الثاني للدولة الذي يلي إفريقية الممتد في بلاد المغرب الاوسط ، والذي يلتحم مع جيرانها بني عبد الواد ذوي النوايا التوسعية . فشكلت بجاية داخليا مركز الثقل هناك والعين الساهرة ضد الخطر الخارجي .

ومثلت في نفس الوقت عاصمة جزء متميز عن مجال إفريقية قد يشكل منطقة نفوذها ، وقد تستقل به عن تونس . لذلك كانت تذهب من التبعية الى الاستقلال ، غير انها لم تخرج من ايدي الامراء الحفصيين لانهم هم الذين اكتسبوا شرعية الحكم ، فكانوا يقومون بالانفصال او تقع دعوتهم اليه .

ونظرا لكونها كانت طوال العهد الحفصي ، ما عدا أثناء الفترة المرينية القصيرة (13 سنة) ، عاصمة الحكم في الجزء الغربي اما تابعة او مستقلة ، فان نظامها جاء مطابقا لنظام الحكم المركزي بتونس حتى بالنسبة للجيش . فقد تكون بها جيش دائم منظم ايضا على غرار جيش السلطنة بتونس . وكانت له نفس التركيبة حتى فيما يخص الميليشيا الاجنبية .

وباجمال بينت دراسة التطور السياسي لبجاية في العهد الحفصي ونظام الحكم بها انها اكتسبت وزنا ملحوظا في حياة الدولة وعاشت حركية كبيرة متفاعلة مع السلطة المركزية ومع القوى الخارجية.



بجاية في المجال الحفصي في أقصى اتساعه

قائمة السلاطين الحفصيين بتونس
وتواريخ حكمهم (188)

- ابـو زكريــاء بن يحيــى الاول	1249/647-1229/626
- ابو عبـد الله محمـد المستنصـر	1277/675-1249/647
- ابـو زكريـاء يحيـى الواثـق	1279/678-1277/675
- ابـو اسحـاق ابراهيـم الاول	1283/681-1279/678
- الدعي احمد بن مرزوق بن ابي عمارة(*)	1284/683-1283/681
- ابـو حفـص عمـر	1295/694-1284/683
- ابـو عبـد اللـه ابو عصيـدة	1309/709-1295/694
-ابو يحيـى ابو بكـر الشهيـد	1305/709
- ابـو البقـاء خالـد الاول	1311/711-1309/709
- ابـو يحيى زكريـاء بن اللحياني	1317/717-1311/711
- ابـو عبـد اللـه ابو ضربـة	1318/718-1317/717
- ابـو يحيـى ابـو بكـر	1346/747-1318/718
- ابـو العبـاس احمـد الاول	1346/747
-ابـو حفـص عمـر الثانـي	1347/748-1376/747
- ابـو الحسـن المرينـي (*)	1350/750-1347/748
- ابـو العبـاس احمـد الفضـل	1350/751-1350/750
- ابو اسحـاق ابراهيـم الثانـي	1369/770-1350/750
- ابـو البقـاء خالـد الثانـي	1370/772-1369/770
- ابـو العبـاس احمـد الثانـي	1394/796-1370/772
- ابـو فـارس عبـد العزيـز	1434/837-1394/796
- ابو عبـد الله محمـد المنتصـر	1435/839-1434/837
- ابـو عمـرو عثمـان	1488/894-1435/839
- ابـو زكريـاء يحيـى الثالـث	1498/895-1488/894
- عبـد المؤمـن	1489/895
- ابـو يحيـى زكريـاء الثانـي	1494/899-1489/85
- ابو عبد اللـه محمـد الخـامس	1526/932-1494/899
- الحسـن	1543/950-1526-932
- احمـد الثالـث بـن الحسـن	1569/976-1543/950
- محمـد السـادس بـن الحسـن	1574/982-1572/980

188) وردت هذه القائمة في كتاب التاريخ لتلامذة السنة الثالثة ثانوي ، تاليف ل.التونسي و ط. بن محفوظ و ن . شبشوب . نشر المركز القومي البيداغوجي .تونس 1988 ، ص 69 .

*) لا ينتسب للاسرة الحفصية .

الفصل الثالث

السكان
إشكالية العدد

مقدمــــة :

ما زالت العقبات متعددة في ميدان الدراسات التاريخية السكانية خلال العصر الوسيط لسبب رئيسي متمثل في قلة المعطيات وعدم دقتها وتعدد نقائصها .

وظهرت محاولات لعدد من الباحثين نذكر منهم بعض الامثلة فقط :« ليوبولدو توريس بالباس » (Leopoldo Torres Balbas (1955 و 1956) الذي اهتم بدراسة سكان مدينة غرناطة (1) و « ألكسندر ليزين » (Alexandre Lezine) (1969-1971)الذي ركز على مدن افريقية واعتمد منهج الدراسات الاثرية (2) وبحث «شارل بلات » (Charles Pellat)(1971) في مسالة نسبة الولادات والنمو الديمغرافي في عهد الرسول (3)

---

(1) Balbás (L.T.) ," Extensión y demográfia de las ciudades hispanomusulmanas " , *Studia Islamica* ,III , (1955) , p35-59; Du même , " Esquema demográfia de la Ciudad de Granada " , *Al-Andalus* , XXI ,(1956) ,p.132-146.

(2) Lézine (A) ," Sur la population des villes africaines" ; *Antiquités Africaines* , t.3,(1969) ,p. 69-82 ; du même , *Deux villes d'Ifriquia : Sousse -Tunis*, Librairie Geuthner, Paris 1971 .

(3) Pellat (ch.) ," Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du prophète ? A la recherche d'une méthode ." , *Journal of the Economic and Social History of the Orient* , vol.XIV, part II. August (1971) ,p. 107-135.

وحاول محمد الطالبي رسم الحالة الديمغرافية لافريقية (1977) فيما بين القرنين 11/5 و 15/9 (4) وقام « دافيد آيالون »(David Ayalon) (1985) بمحاولة لتقدير السكان في الدول الاسلامية الوسيطة (5) ودرست « راشال آريي » (Rachel Arié) (1986) بدورهـا سكان غرناطـة في العصر الوسيط (6) .

واختار مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات (سيرمدي CEROMDI) الذي يوجد مركزه بزغوان تنظيم المؤتمر العالمي الخامس للدراسات العثمانية حول موضوع « المدن العربية والديمغرافيا التاريخية والبحر الاحمر خلال العهد العثماني » الذي التام بتونس من 25 الى 29 فيفري 1992 (6') .ونظم المعهد الاعلى للتربية والتكوين المستمر بتونس بالاشتراك مع صندوق الامم المتحدة للنشاطات السكانية ندوة بتونس حول « الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي » يومي 15 و 16 نوفمبر 1991 اهتمت بمختلف الفترات (7) .

نتطرق الى هذه المسالة بالنسبة لبجاية محاولين تقدير مجموع سكانها في العصر الوسيط ، مع الاشارة الى ان دراستنا لن تعدو ان تكون محاولة .

وقد توخينا تمشيا لافتراض عدد لمجموع السكان تمثل في اعتماد طريقتين : الاولى تنطلق من المصادر والثانية تنطلق من المساحة داخل سور بجاية الحمادي ثم متابعة تطور المجال العمراني . والطريقة الثانية اعتمدها بالباس (Balbás) وليزين (Lezine) سنحاول الاستفادة منها مع مراعاة نقائصها .

ونتساءل بعد ذلك عما اذا كانت قيمة بجاية ومجالها العمراني ووظائفها تقوم دليلا على امكانية افتراض الرقم وعما اذا كانت في تناسب معه .

---

4) Talbi (Mohamed.) , " Effondrement démographique au Maghreb du XIè au XVè s ", *Cahiers de Tunisie* , N° 97-98,(1977), p.51-60.

5) Ayalon (David) ," Regarding population estimates in the countries of medieval Islam," *Journal of the Economic and social history of the Orient* ,vol.XXVIII,(1985) , p. 1-19.

6) Arié (Rachel) ," Une métropole hispano-musulmane au bas moyen âge : Grenade Nasride" ,*Cahiers de Tunisie* ,N°137-138, (1986), p. 47-67.

6') نشرت اعمال هذا المؤتمر في مجلد خاص بعنوان : « اعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات العثمانية حول : المدن العربية والديمغرافيا التاريخية والبحر الاحمر خلال العهد العثماني » ، تقديم عبد الجليل التميمي ، منشورات سيرمدي ، زغوان 1994 .

7) نشرته دار سيراس سنة 1993 تحت نفس العنوان .

أ - محاولة لتقدير عدد سكان بجاية :

1 - محاولة لتقدير عدد السكان حسب المصادر :

أ - المعطيات التي تمدنا بها المصادر تدفعنا الى توخي الحذر :

لدينا اولا بعض المعطيات المرقمة وغير المرقمة التي يمكن ان تقوم مؤشرا على اهمية حجم السكان.

ذكر ابن خلدون رقما يرجع الى شهر محرم 754 فيفري 1353 اذ اخبرنا ان قائد المرينيين محمد بن ابي عمرو اعتقل ما يناهز مائتين من نقباء علي بن صالح الذي قاد ثورة الغاضبين من « العامة » في ذي الحجة 753 - محرم 754 / جانفي - فيفري 1353 (8).

زار ادورن (Adorne) تونس وسوسة في ذي القعدة وذي الحجة 874 / ماي -جوان 1470، ولم يزر بجاية ، ولكنه تحدث عنها . وقد يكون استقى معلوماته من اهل افريقية .فقال فيما يخص سكانها : « بجاية مدينة كبيرة جدا ،كثيرة السكان ...» (9).

اخبرنا ابو علي ابراهيم المريني بصفة غير مباشرة ان بجاية كانت مكتظة السكان في آخر القرن 15/9 وبداية القرن 16/10 حين قال عن المهاجرين الاندلسيين لتلك الفترة ان السلطان عبد العزيز (مستقل ببجاية آنذاك) (10) وضعهم في مكان في جهة قبر السبوكي لانه لم يَعد ممكنا ايجاد مكان لهم داخل المدينة (11).

لكن ابا علي ابراهيم اعطانا الى جانب ذلك رقما نعتبره مؤشرا هاما ذكره اثناء حديثه عن الاحتلال الاسباني سنة 1509/915 - 1510 يهم عدد الذين قبلوا العودة الى بجاية من بين سكانها الفارين امام الحملة الاسبانية ، وذلك بعد الاعلان عن منح الامان في نفس السنة وهو رقم 8000 شخص بين رجال ونساء واطفال وتعرف عليه من خلال رسالة كتبها قائد الاسبان . وقد نقل الخبر كما يلي : :« البعض من سكان المدينة سجن ، وآخرون قبلوا الامان المعروض عليهم فقرروا الرجوع اليها . وقد اطلعني ابو سعيد بن احمد بن

---

8) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 847 ؛ ج VII، ص 587 ، 602-605 .

9) Brunschvig (R.), éd. ,*Deux récits de voyage inédits* ...,*op.cit.* , p. 209.

10) راجع ص 379 من البحث

11) Féraud (L.Ch.) ," Conquête de Bougie ..." , *op.cit* ., p. 251-252.

طالب الزناتي كاتب الامير الموفق على رسالة يقول فيها قائد النصارى ان العائدين الى بجاية من سكانها بلغ عددهم حوالي ثمانية آلاف من الرجال والنساء والاطفال » (12).

تبرهن هذه المعطيات على اهمية ما تحتويه المدينة من سكان في فترات مختلفة دون ان تمكننا من القيام بمحاولة لاحتساب المجموع على الاقل بصفة تقريبية . بينما يقدم لنا ليون الافريقي رقمين يمكن استغلالهما لهذا الغرض .

تحدث ليون الافريقي في كتابه « وصف افريقيا » عن بجاية في بداية القرن 16/10 خلال الاحتلال الاسباني حوالي سنة 1515/921 فقال :« هذه المدينة (بجاية) المحاطة باسوار عالية ومتينة ، تعدّ حوالي 8000 اسرة اقصد في جزئها المسكون ، لانها ان امتلأت بالدور يمكن أن تعدّ 24000...» (13)

يرى ليون الافريقي ان طاقة استيعاب بجاية لا تساوي عدد اسرها في وقته اي 8000 بل 24000 اسرة . وكانه يشير الىَ فراغ احدثه تقلص النمو الحضري لبجاية اثر الاحتلال الاسباني مقارنة بالعهد الحفصي .

يجب ان ناخذ بعين الاعتبار ان رقم 8000 اسرة لايهم سكان بجاية في العهد الحفصي بل يهم سكانها اثر انتهاء عهدها الحفصي بعدما انعكست عليهم عمليات الاحتلال الاسباني . اما رقم 24000 اسرة الذي قد يشير الى فترة ما قبل الاحتلال اي الى اواخر العهد الحفصي ببجاية ، فانه رقم افتراضي وانطباعي من قبل المؤلف .

اعاد مارمول الرقمين ، لكن بتصرف ، اذ استعمل رقم 8000 ليقول بان اهالي بجاية كانوا يفرون الى الجبال لما سمعوا بقدوم الاسبان رغم ان بها 8000 ساكن ليدافعوا عنها (14) . وقد يكون اخطا في تغيير الوحدة من اسرة الى ساكن ثم يقول ،لا شك اعتمادا على رقم 24000 الذي اورده ليون، ان بجاية كانت تحتوي ايام « ازدهارها » على 20000 دار مسكونة .

ان اضافة مارمول تمثلت في الاشارة بوضوح الى ان الرقم المرتفع يهم « فترة ازدهارها » مقارنة بالفترة التي تهم رقم 8000 اي فترة تقهقرها ايام الاحتلال الاسباني .فالمقصود هو العهد السابق وهو العهد الحفصي .

---

12) ترجمنا هذه الفقرة عن النص الذي نشره فيرو بالفرنسية . *Ibid* , p. 341-342.

13) L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ...*, t. II ,p. 360.

14) Marmol y Carvajal (luis del) ,*Description générale de l'Afrique* , 3vol ,Paris 1867 , t .II,p.416.

اما غراماي ، فلا يضيف شيئا واكتفى باعادة رقم 24000 قائلا ان بجاية «يمكن ان تحتوي داخل سورها 24000 دار ...» (15)

تؤكد الوثائق فعلا ما ذهب اليه ليون الافريقي ومن بعده من ان عدد السكان عرف تراجعا كبيرا اثناء الاحتلال الاسباني .

اعترف بهذا التراجع الملك الاسباني نفسه فردينان الكاثوليكي (1452/856 - 1516/922) في رسالة بتاريخ 1511/10/23 (30 رجب 917) الى انطونيو دي رافندا (Antonio de Ravanda) احد رجال البيت الملكي الموجودين ببجاية آنذاك ، قال فيها بصريح العبارة :« ان عدد سكان بجاية ينخفض كل يوم » . وكان منشغلا لهذا الامر اذ واصل :« وعليك ان تضع ضمن مشاغلك الرئيسية اعادة سكان المدينة الاصليين الذين ابتعدوا عنها » ثم اضاف :« واذا طلبوا الا نجبرهم على اعتناق المسيحية ، ورغبوا في ضمانات فافعل ذلك ...» (16) .

ولكن الاسبان لم ينفكوا يخربونها في محاولة للقضاء على معالم الحضارة الاسلامية بها (17) ونقل نفائسها الى اسبانيا (18) ، وحتى السور الذي بنوه قد تقلص محيطة (19) .

والحقيقة التاريخية ان بجاية عرفت انهيارا ديمغرافيا وليس تراجعا فحسب منذ الاحتلال الاسباني ، اذ اخبرنا التمقروتي بعد حوالي ثلثي قرن انها اصبحت خرابا ويُرْجِعُ السبب الى التخريب الذي قام به الاسبان (20)

---

15) Gramaye(J.B.) ,*Description de l'Algérie* , Traduite de l'Africa Illustratae par Ch. Brosseland , 1839, p. 76.

الف غراماي كتاب « L'Africa illustratae» باللاتينية سنة 1031-1032/1622 انظر :

Dictionnaire de Michaud : Biographie Universelle ,t.17.

16) Gaid (M.) , *Histoire de Bejaia ..., op.cit* ., Annexe :Correspondance espagnole sur Bougie ,p. 180.

ترجمنا هذه المقتطفات عن النص الفرنسي الوارد في المرجع نفسه .

17) Féraud (L.ch.),éd. ," Conquéte de Bougie ..." *,op.cit.*,p. 347-348.

18) اخبرنا ابو علي ابراهيم المريني عن ذلك في ما يلي : « شحن النصارى على ثلاثين مركبا من مراكبهم كل ما أخذوه من بجاية سواء من قصور السلطان او مساجد المدينة .» (هذه الفقرة ترجمناها عن النص الفرنسي) *Ibid*,p.342 .

19) *Ibid* . p. 347; De Beylie (Général L.) ,*La Kalaa des Beni Hammad ,une capitale berbére de l'Afrique du Nord au XI ème s*, Paris 1909 ,Carte p.100.

20) قال التمقروتي :« وبجاية الى الان خراب هدمها النصاري ...» التمقروتي (ابو الحسن)، *النفحة المسكية في السفارة التركية* ، دار بوسلامة -تونس 1988 ، ص 19 .

اذن لا يمكن ان نعتمد رقم 8000 اسرة الذي يعود الى السنوات الاولى من الاحتلال ، الا من منطلق ان مجموع سكان بجاية في العهد الحفصي كان ارفع بكثير ، ومن منطلق الشك في دقة الرقم اي ان صحته تبقى نسبية ، اما الرقم الثاني الذي يبدو انه يهم الفترة الحفصية الاخيرة ، فلا يمكن ان نعتمده الا باحتراز ايضا نظرا لصبغته الافتراضية الانطباعية والمبالغ فيها .

وعلى اية حال ليس لنا من خيار الا ان ننطلق من هذين الرقمين لانهما الوحيدان بين ايدينا .

ب - المشكل الرئيسي : الضارب :

يكمن مشكل احتساب المجموع في اختيار الضارب المعبر عن متوسط الاسرة .

توصل البعض ، منهم روجي مولس (R. Mols) في كتابه « مدخل للديمغرافية التاريخية لمدن اوروبا من القرن XIV الى القرن XVIII» الى ضبط ضارب موحد يتراوح بين 4 و5 (21) . ورأى ان الضارب يرتفع بالنسبة لبعض المدن المتوسطية اذ يصل احيانا الى 6 .

هل يمكن استعمال ضارب 6 اعتبارا ان بجاية مدينة متوسطية ايضا؟ ليست بجاية مدينة متوسطية فحسب بل هي مدينة اسلامية ايضا ، تخضع اساسا فيما يتعلق بتنظيم الاسرة الى خصوصيات تختلف عن المدينة الاوروبية حتى المتوسطية . فالمجتمع الاسلامي الذي تنتمي اليه يتميز عموما بالزواج المبكر وتعدد الزوجات والانجاب من الاماء والجواري والرغبة في كثرة الانجاب الذي يرفع من شان المرأة ويدعم مركزها .

لذلك فامكانية ان تكون الاسرة متكونة من رجل وعدد من الزوجات (لا يفوق الاربعة طبعا) واردة . وقد تعيش في منزل واحد اكثر من اسرتين تحت السلطة الادبية ولربما حتى المادية للاب .

تطرح هذه الخصائص مشكلا شائكا متصلا باحتساب الضارب . وهو مشكل تكوين الاسرة التي قصدها ليون الافريقي.

(21 Mols (R.) ,*Introduction à la démographie historique des villes d'Europe du XIV è au XVIII ème s* , 3 tomes, Université de Louvain,1954 -1956,t.II, p. 101.

هل كانت متكونة من الاب وزوجته او زوجاته والابناء ام ان كل زوجة وابناءها مثلوا اسرة على حدة ؟

هل الاسرة هي كل الذين يسكنون تحت سلطة الاب حتى الابناء المتزوجين انفسهم ؟ .

اننا نستبعد ان تؤلف كل زوجة وابناؤها اسرة واحدة ، لان المجتمع ابوي والاسرة تنسج حوله سواء بزوجة او اكثر .

لكن الالتباس يبقى حول المشكل الثاني . فقد يكون ليون الافريقي قصد بالاسرة تلك التي تعيش في دار واحدة وبالتالي فانها تساوي عدد الدور . وهكذا نفهم لماذا قال مارمول فيما بعد 20.000 دارا وليس 20.000 اسرة .

ان هناك ما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان مفهوم الاسرة اندمج مع مفهوم الدار . فالسلطة الحفصية على ما يبدو كانت تتعامل مع الدار كوحدة جبائية واجتماعية ، ولم يكن يهمها ان كانت تضم اسرة ممتدة او متعددة الزوجات او بزوجة واحدة . المهم بالنسبة للسلطة اب واتباعه . لقد برهن على هذا المفهوم الخبر التالي الذي اورده ابن الشماع :«... وفي شهر جمادى الاولى من عام اثنين وسبعين (772 / ديسمبر 1370) وظف (السلطان ابو العباس) على اهل تونس كراء شهرين من كل دار (21) ، فجاءت الدور نحو سبعة آلاف دار ، واجتمع من ذلك ثلاثون الف دينار ...» (23)

ان بجاية مدينة يكثر بها التجار والاثرياء والفقهاء اي توجد بها شرائح اجتماعية هامة ترتفع فيها نسبة تعدد الزوجات نظرا لقدرتها المادية . وهي ايضا شرائح قادرة على احتضان ابنائها المتزوجين .

ان كل هذه العوامل ترفع معدل افراد الاسرة المقصودة وهذا يعني ان الضارب مرتفع . ولكن اي ضارب مرتفع ؟

ننطلق من معطيات وفرتها لنا دراسة قام بها « شارل بلات » (.Ch Pellat) الذي اراد الوصول الى احتساب نسبة الولادات لقبيلة قريش معتمدا اساسا على كتاب « نسب قريش » لمصعب الزبيري (24) وسنحاول استغلال بعض نتائجه ، ولكن في الاتجاه الذي نبحث

---

22) قال هنا « من كل دار » ولم يقل على كل دار ، فكانه قال دفعت كل دار للسلطان كراء شهرين . وهذا يدعم القول بانها وحدة اجتماعية يتم التعامل معها .

23) ابن الشماع ، *الادلة البينة النورانية* ، ص 105 .

24) Pellat (ch.) ," Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du prophète ? A la recherche d'une méthode ." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* , vol XIV, part II,August,(1971) ,p. 107-135.

فيه اي الوصول الى معدل تقريبي لافراد الاسرة الاسلامية ببجاية قياسا بافراد الاسرة بقريش في مكة والمدينة لاننا نعتقد ان خصوصياتها مشتركة بما انها خاضعة لنظام مشترك اقره الاسلام ، ولاننا نعتقد ان هناك استمرارية لهذه الخصوصيات نظرا لاستمرارية هذا النظام . لذلك فلا يعوقنا عدم التزامن في هذه المسالة .

ان كتاب « نسب قريش » يذكر ذرية الرجال والنساء ولكنه حريص على ذكر الذكور ومهمل للإناث . ولا يتعرض الى الوفيات عند الولادة او في فترة الرضاعة والطفولة ، اي انه يهتم بمن عاش . وهذه النقطة الاخيرة مهمة بالنسبة للبحث عن معدل الاسرة اذ يهمنا ان نحسب الاحياء فقط .

وهذه بعض نتائجه التي نحاول اعتمادها :

اولا ، قام « بلات » (Pellat) بجرد لـ 700 إمرأة من خلال كتاب « نسب قريش » فوجد انه ذكر لهن 1327 ولدا و 399 بنتا ، فالمجموع 1726 ، والمعدل للمرأة الواحدة 2,46 . ولكن « بلات » يفترض عددا مساويا من البنات قَدَرَهُ بـ 1300 بنتا ، الشيء الذي يفضي الى معدل عدد ابناء للمرأة الواحدة مساو لـ $\frac{1300+1327}{700}$ = 3,75 (25) (مع الملاحظ انه كان بالامكان افتراض نفس العدد 1327 فيتحصل على 3,79) .

ثانيا ، احصى بالنسبة لـ 350 رجلا 1178 ولد . وبما ان 700 امرأة لهن 1327 ولدا فانه استنتج ان لكل 1000 ولد كان هناك 527 امرأة و 297 رجل. وهذا يعني ان نسبة تعدد الزوجات كانت تساوي 1,77 (26)

نستطيع من هذه النتائج ان نحتسب معدل افراد الابناء لكل رجل كما يلي:

انطلاقا من المرأة : 1,77X 3,79 = 6,70

انطلاقا من الرجل : نفترض اولا ان عدد البنات مساو لعدد الاولاد فنتحصل على معدل ابناء للرجل بالطريقة التالية : $\frac{2X\ 1178}{350}$ = 6, 73

ونظرا لان الاسرة تتكون حول الرجل ، فاننا نضيف رجلا واحدا و 1,77 امرأة اي 2,77 لنحصل على معدل افراد اسرة مساو لـ : 9,47 .

---

25) *Ibid* p. 109-110, 129.

26) *Ibid* . p. 131.

واننا نميل الى تخفيض هذا المعدل اعتمادا على اعتبارين :

اولا ، ان نسبة تعدد الزوجات ترتفع داخل شرائح هامة من سكان بجاية ، ولكنها قد تنخفض داخل شرائح اخرى هامة ايضا ، تتكون من القراصنة والتجار المسافرين برا وبحرا الذين لا تمكنهم ظروفهم من الزواج باكثر من واحدة داخل بجاية . ونقترح من باب الافتراض معدل 1,6 إمرأة لكل رجل عوضا عن 1,77 وبالتالي يصبح الاحتساب كما يلي :

معدل عدد الأبناء : 6,06 = 1,6 X 3,79

معدل افراد الاسرة: 8,66 = 2,6+ 6,06

ثانيا ، اعتبارا الى ان كتاب « نسب قريش » تحدث عن انجاب قد اكتمل بالنسبة للذين ذكرهم ، اي ان الرقم 9,47 الذي وجدناه لو عممناه نكون قد سلمنا بان كل الاسر المكونة للسكان قد تجاوزت آخر مرحلة من الانجاب اي اننا نحسب افراد كل الاسر مهما كان طور تكوينها كأن كل الابناء قد ولدوا جميعهم من الاكبر الى الاصغر . ولكن من ناحية اخرى اعتبارا ايضا لسرعة نسق الانجاب ، فان الاسرة لا تتاخر كثيرا على ان تصبح متعددة الافراد . لذا فنحن من الممكن ان نعدل الرقم ثانية بعدد واحد حتى لا نجازف ثم نبسطه فيصبح 7,5 . وهو رقم يفوق الرقم 6 الذي اقترحه مولس Mols (27) للمدن المتوسطية بنسبة معقولة تعبر عن خصوصيات الاسرة في بجاية .

وسنعتمده كضارب رغم ان جانبا هاما من احتسابه بقي افتراضيا اذ ليس لنا من خيار آخر الى حد الآن .

هكذا ، يمكن ان نحتسب مجموع سكان بجاية اعتمادا على رقم ليون الافريقي في بداية القرن 16/10 خلال السنوات الاولى للاحتلال الاسباني كما يلي : 60.0000 = 7,5 X 8000 ساكـن .

اما رقم 24.000 اسرة الذي يشير به ليون الى العهد الحفصي (دون ان نستطيع تحديد الفترة) فانه يعطينا حين نستعمل الضارب 7,5 مجموع سكان مساويا لـ 180.000 الفا ساكن ، ويعطينا رقم 20.000 الذي قدمه لنا مارمول 150.000 . وواضح ان الرقمين 180.000و 150.000مبالغ فيهما فلا ننسى ان ليون الافريقي هو الحسن الوزان الفاسي الذي قد يكون موقفه مضادا للاسبان وبالتالي بالغ بالنسبة لهذا الرقم قصدا . اما مارمول فقد نقل عنه بتصرف لا غير .

(27 Mols (R.) ,*Introduction à la démographie ...,op.cit* , p. 101.

لذلك فان مجموع 60.000 حتى وان كنا لا نطمئن له اطمئنانا كاملا ، يمثل رقما اقرب للواقع . وقد لا يفوقه مجموع آخر العهد الحفصي بفارق شاسع

فهل بامكاننا ان نقدر النقص الذي تسبب فيه الهجوم الاسباني ؟

حصل هذا النقص نتيجة لفرار عدد هام من السكان الذي تحدثنا عنه وتحدثنا عن اعتراف الملك الاسباني نفسه باهميته ، ولربما كان نتيجة للخسائر البشرية ايضا .

لقد اعطانا ابو علي المريني مؤشرا عن اهمية عدد الفارين حين اخبرنا بان 8000 منهم عادوا الى بجاية بعد الاعلان عن الامان (28) . كما انه مدنا بمؤشر عن حجم الخسائر البشرية حين ذكر ان عدد القتلى بلغ خارج السور بين بابي السادات وامسيون 4500 (29) ، منهم مدنيون ، لان إمام الجامع الاعظم الذي روى الحادثة ذكر ان اباه قتل من بينهم (30) . ملاحظتان لا بد من اعتبارهما :

اولا : لم تقل رسالة الملك فردينان التي ذكرناها بان جميع السكان فروا بل قالت انهم يتناقصون يوما بعد يوم . لذلك فان المدينة احتفظت بجزء من سكانها .

ثانيا ، ولم يقل المريني ان جميع السكان الفارين عادوا فالخوف من الأَسْر والاضطهاد قد يجعل اغلبيتهم لا يعودون . ولذلك نرجح الا يمثل رقم 8000 الا الربع او الثلث . وقد يتزايد عدد العائدين ولكن في نفس الوقت يتزايد عدد الفارين من الحكم الاسباني .

ان رقم الذين خرجوا نهائيا قد يفوق ضعف العائدين ، اي حوالي 16000 نضيف اليهم القتلى والاسرى لنفترض نقصا مساويا لـ 20.000 في نفس الفترة التي تحدث عنها ليون الافريقي اي السنوات الاولى من الاحتلال الاسباني .

نحن اذا اضفنا هذا الرقم الى رقم 8000 اسرة الذي حولناه الى 60.000 ساكن ، نكون قد افترضنا رقما لمجموع سكان بجاية في آخر العهد الحفصي بـ 80.000 ساكنا .

لقد بقيت هذه النتائج نسبية وافتراضية فهل تساعدنا الوسيلة الثانية على التقدم في البحث في المسالة ؟

(28 Féraud , " Conquête de Bougie ..." ,*op.cit.*, p. 342 .

(29 *Ibid* . , p. 254.

(30 *Ibid.*

2 - محاولة لتقدير عدد السكان انطلاقا من المساحة داخل السور واعتمادا على تطور المجال العمراني :

1 - المساحة داخل السور الحمادي :

تتمثل الوسيلة الثانية في الاعتماد على السور الحمادي لاحتساب مساحة المدينة داخله ثم متابعة تطورها خارجه ، وبعدها محاولة التوصل الى تقدير جملي للسكان .

اورد لنا « الجينرال دي بيليي »(Général L .de Beylié) رسمـا للسور الحمادي مصحوبا برسم للسور الاسباني (31) وتوصلنا بالاعتماد على السلم الى احتساب مساحة المدينة الحمادية داخل السور فوجدنا 996.875 م2 اي 99,68 هكتار .

والسؤال : كم يمكن ان تحتوي هذه المساحة من دار وبالتالي عدد السكان ؟

انه تمشي اعتمده « ليوبولدو توريس بالباس »(Leopoldo Torres Balbás) في محاولة لتقدير مجموع سكان مدينة غرناطة (32) ، ثم اعتمده « الكسندر ليزين » بالنسبة لتونس ومدن اخرى في افريقية (33)

في البداية علينا ان نطرح من المساحة الجملية داخل السور الحمادي المساحات التي احتلتها الساحات والمباني العامة والانهج والازقة ...

قدر ليزين نسبة هذه المساحات بـ 15٪ بالنسبة لمدن افريقية في العصر الوسيط (34) .

سنستعمل هذه النسبة رغم اعتقادنا في نقائصها : اولا اعتمد ليزين على المدن الاسلامية داخل الاسوار ، كما وصلتنا ، وهذا في اعتقادنا يتضمن جانبا كبيرا من الخطإ .

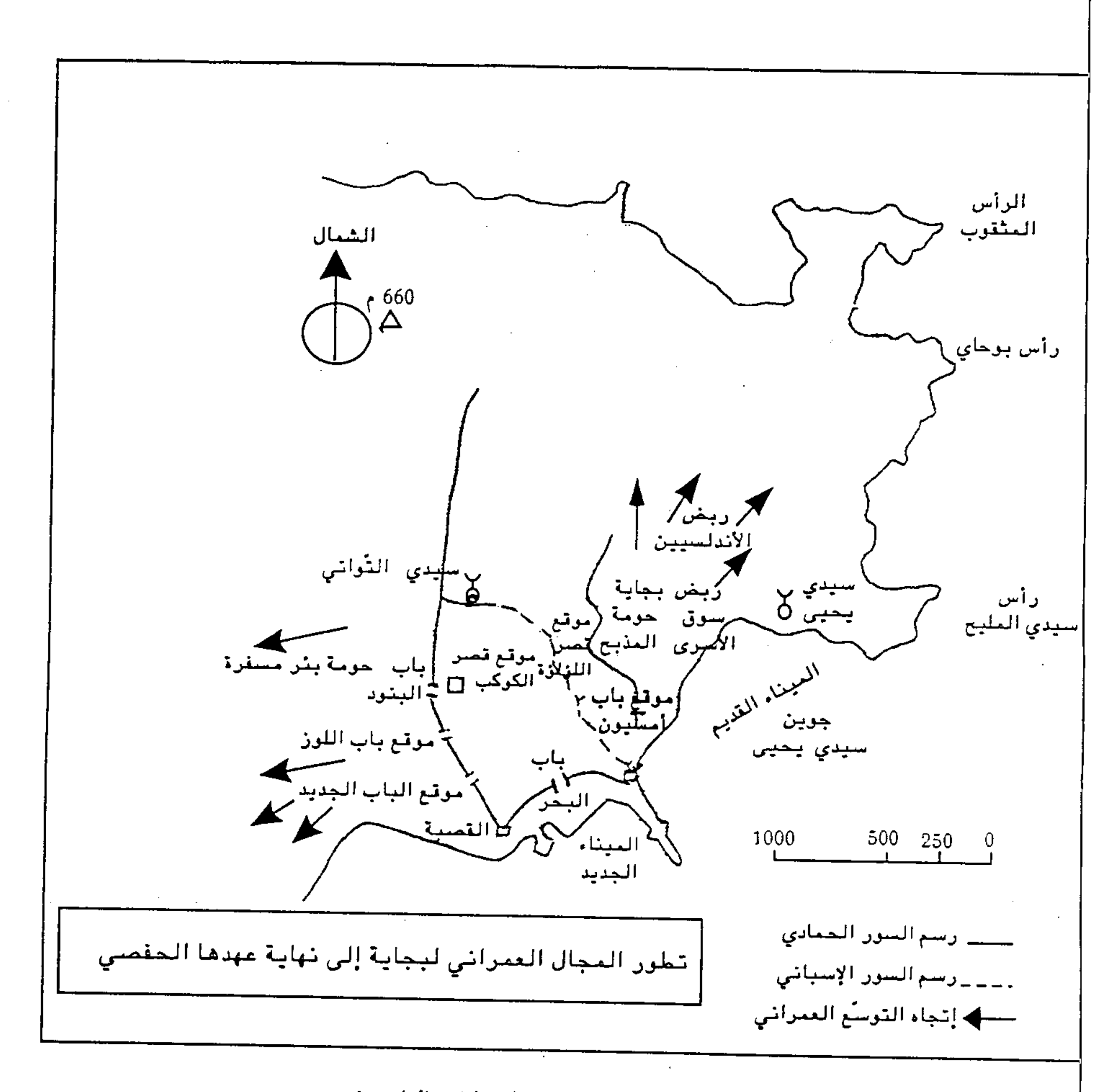
ثانيا ، قد لا تنطبق هذه النسبة على كل المدن آنذاك لان لها خصوصيات مختلفة . فبجاية تتعدد بها المباني الحكومية والاقتصادية خلافا للعديد من المدن الاخرى مثل القصبة والقصور الملكية والفنادق ومباني الجيش ...

(31 De Beylié (Général L.) *la kalaa des Beni Hammad ..., op.cit.*, p. 100.

(32 Balbás (leopoldo Torres) ," Extensión y demográfia de las ciudades hispanomusulmanas " , *Studia Islamica* , III , (1955) ,p. 35-59 ; Du même ," Esquema demográfico de la ciudad de Granada " ,*Al-Andalus XXI* , (1956) ,p. 132-146.

(33 Lézine (Alexandre) ," Sur la population des villes africaines " , *Antiquités Africaines* ,t.3, (1969), p. 69-82 ; Du même , Deux villes d'Ifriqiya : Sousse -Tunis Librairie Guethner ,Paris 1971 ,p. 164-171 .

(34 Du même ," Sur la pop. des villes ... " ,*Ibid*., p. 82.



انجزت الخريطة في حدود المعطيات الواردة في :

الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76 ، 81 ، 101 ، 182 ، 188 ؛ العمري ، *وصف إفريقيّة* ، ص 8 ؛
القلقشندي ، ، *صبح الأعشى* ، ج VII ؛ص 109 ؛
Féraud (ch), éd, " Conquête de Bougie", *op.cit* , p 251-252 ;
De Beylié (Gl.L.), *La Kalaa des Béni Hammad*, *op-cit*, p 100 ;
برنشفيك ، *تاريخ إفريقيّة* ، ج I ، ص 410-412 .

إننا سنستعمل هذه النسبة لاعتقادنا ايضا انها رغم نقائصها فهي لا يمكن ان تحتوي على نسبة مرتفعة من الخطأ .

ولذلك فاننا نتحصل على 149531 م2 كمساحات غير سكنية اي حوالي 15 هكتارا داخل السور ، وعلى 847344 م2 اي حوالي 85 هكتار كمساحة مغطاة بالمساكن .

ويعطينا « ليزين » 165 م2 كمعدل لمساحة المسكن الواحد واعتمادا على هذا المعدل يمكن للسور الحمادي ان يضم داخله 5135 مسكنا او دارا .

وبما ان الدار كانت تعتبر وحدة اجتماعية تحتوي اسرة عادية او ممتدة فاننا نستعمل الضارب 7,5 الذي توصلنا اليه كما يلي :

5135 X 7,5 = 38512 ساكنا .

ب - تطور المجال العمراني ('34) وتطور عدد السكان :

تفيدنا المصادر ان المدينة كانت قد تجاوزت السور الحمادي منذ العهد الموحدي . ولربما قبله اذ اخبرنا الغبريني ان الناس آنذاك كانوا ينزلون الى « حومة المذبح من جهة ربضها » لشراء الأسرى (35) ويذكر لنا ثلاثة ارباض على الاقل في القرن 13/7 خارج السور هي : ربض سماه بربض بجاية (36) وآخر سماه بحومة بئر مسفرة خارج باب البنود (37) و ثالث هو رابطة المتمني (38) .

ويخبرنا العمري خلال النصف الاول للقرن 14/8ان السور ضام لنطاق المدينة فتكون ربض خارجه ادير عليه سور ايضا (39) ويذكر ابو العباس القلقشندي انه كان في وطاة والمدينة في سفح الجبل (40) . ولكن لا نملك اليوم اية بقايا اثرية لسور ثان ، بينما بقيت بعض اجزاء من السور الحمادي قائمة .

ويفيدنا ابو علي المريني في اواخر القرن 15/9 ان الاكتظاظ بلغ درجة مرتفعة حتى انه لم يعد بالامكان ايجاد مكان للاندلسيين الفارين من اسبانيا إثر سقوط غرناطة سنة 1492/897 الا خارج المدينة حول قبر الشيخ السبوكي شمال الميناء القديم ، واستقر البعض منهم في البساتين حول الوادي الكبير (41)

'34) انظر : برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1 ، ص 410-418 .

35) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76

36) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

37) المصدر نفسه ، ص 182

38) المصدر نفسه ، ص176

39) العمري (شهاب الدين) ، *وصف إفريقية* ... ص 8

40) القلقشندي (ابو العباس) ، *صبح الاعشى* ، جVII، ص 109

41) Féraud (Ch.)éd., ," Conquête de Bougie ..." , p. 251-252.

يتضح لنا من خلال المصادر الثلاثة ان هناك خمسة ارباض او احياء على الاقل في آخر القرن 15/9 خارج السور الحمادي ، وهي ربض بجاية وحومة مسفرة وربض الاندلسيين قرب قبر السبوكي وحومة رابطة المتمني خارج بجاية وحومة سيدي عيسى ونضيف اليها السكان الاندلسيين حول البساتين .

تدل هذه المعطيات على ان المدينة توسعت خلال العهد الحفصي وان العدد الذي توصلنا اليه بالاعتماد على المساحة داخل السور (والمساوي لـ 38512 ساكنا) لربما يتضاعف ليبلغ حوالي 77.000 ساكن قبيل الاحتلال الاسباني . ويبقى هذا الرقم رغم كل شيء افتراضيا ، وهو يتفق مع النتيجة التي توصلنا اليها بالطريقة الاولى اي انطلاقا من المصادر . وقد تطور العدد من العهد الحمادي ليبلغ اقصاه في آخر العهد الحفصي بدليل ان الاندلسيين القادمين آنذاك لم يجدوا مكانا داخل المدينة .

II - مكونات المجال العمراني واهمية الوظائف الاقتصادية تدعم الرقم المقترح :

ان هناك من الدلائل ما يدعم القول باهمية عدد سكان بجاية . فالرقم الذي استنتجناه هام بالنسبة لمدينة وسيطية . ولكن اذا نظرنا في مكانة المدينة حسب اقوال المصادر ومكونات مجالها العمراني واهمية وظائفها الاقتصادية والثقافية وجدنا انه متناسب مع هذا المجموع البالغ حوالي 80.000 ساكن في آخر العهد الحفصي .

لقد وقع التاكيد على اهمية بجاية كمدينة ثانية بعد تونس او التاكيد على اهميتها من قبل المصادر والوثائق على مدى العهد الحفصي .
قال ابن سعيد انها :« قاعدة المغرب الاوسط » (42) واعاد قوله ابو الفداء (43) واكد الادريسي على انها« قطب لكثير من البلدان » (44) وعبر العبدري عن اعجابه بها رغم انه لم يعجب باغلب المدن التي مر منها ونعتها بالمدينة الكبيرة قائلا : « مدينة بجاية مبدأ الاتقان والنهاية ، وهي مدينة كبيرة ، حصينة منيعة ، شهيرة ، برية ، بحرية ، سنية ، سرية ، وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان ، رفيعة المباني ، غريبة المعاني ...» (45). وقال خالد البلوي انها « حاضرة البحر ونادرة الدهر » ('45) .

---

42) ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض* ، ص 76 .

43) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 136 .

44) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116

45) العبدري ، *الرحلة المغربية* ، ص 26 .

'45) البلوي (خالد بن عيسى) ، *تاج المفرق* ، ج1، ص 157 .

واعتبرها العمري «ثانية تونس في الرتبة والحال وجميع المعاملات والاحوال » وان تونس هي قاعدة الملك «تليها بجاية قاعدة ملك ثانية» (46) واورد ابو العباس القلقشندي رسالة يهنئ فيها ابن الاحمر (1354/755-1333/733) ابا الحسن المريني(1331/731 - 1348/749) عندما استولى على بجاية سنة 1347/748 معتبرا ذلك حدثا كبيرا ومبرزا قيمتها بقوله :« بجاية وما بجاية ! دار الملك الاصيل ، وكرسي العز الوثيق والعدة اذا توقعت الشدة ...» (47) . وجند فارديناند ملك اسبانيا في 1509/915 اربعة عشرسفينة كبيرة للهجوم على بجاية وحدها (48) واضافت له الكنيسة لقب ملك بجاية معتبرة ذلك مكسبا عظيما (49) .

ولبجاية في العهد الحفصي من الابواب التي استطعنا معرفتها 11 بابا(49') : باب البحر ، باب المرسى ، باب سادات ، باب امسيون، باب البنود ، باب باطنة ، باب إيلان ، باب الدباغين، الباب الجديد ، باب اللوز وباب البر ؛ ولتونس 13 بابا للمدينة والارباض في العهد الحفصي .

وكانت لبجاية 4 مقابر هي : المقبرة المعروفة بابي علي رسمية ومقبرة «زاد رخص» (49'') بحومة باب أمسيون ومقبرة ابي محمد عبد الله ابي حجاج خارج باب أمسيون ومقابر باب الدباغين (50) وكانت لتونس 3 مقابر (51) .

ولذلك فان عدد سكان بجاية يمكن الا يبتعد كثيرا عن عدد سكان تونس الذي قدره برنشفيك بـ 100.000 في عهد السلطان عثمان (1488-1435/893-839) (52) .

ومن الدلائل والمؤشرات ايضا نمو الوظائف المركزية ، بمعنى أن الوظيفة الاقتصادية أو السياسية او الادارية او الاجتماعية تكون مركزا منشطا لحركة شاملة في المدينة او جزء منها ، وبالتالي مستقطبة للسكان وفي آن واحد تنمو وتتسع كلما نما عددهم .

---

46) العمري ، *وصف إفريقية* ، ص 7 و 8

47) القلقشندي(ابو العباس) ، *صبح الاعشى* ، ج VII، ص 107

48) L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ...op.cit.* , T.II, p. 360 ; Marmol ,*Description générale de l'Afrique ... op.cit.*, t.I., p. 416.

49) Gaid (M.) ,*Histoire de Bejaia ... op.cit .*, p. 176.(Doc. p. 175-178)

49') الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 72 ، 75 ، 77 ، 81 ، 82 ، 88 ، 101 ، 122 ، 165، 172 ، 182 ، 188 ، 245 ، 254 ؛ ابن القنفذ ، *انس الفقير* ، ص 34 ؛ الورثيلاني ، *نزهة الانظار* ، ص 23 ؛ Féraud (Ch.) , éd. , " Conquête de Bougie ..." ,*op.cit.* , p. 254,341,348 .

49'') يقول الغبريني ان « زاد رخص » شجرة عظيمة ؛ *عنوان الدراية* ، ص 101 .

50) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 72 - 81 - 101 - 182 ، 188 .

51) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، مرجع سابق ، ج I ، ص 386 .

52) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

ولا ينطبق هذا الدور الاستقطابي على وسط المدينة فحسب بل ايضا على احيائها وارباضها حيث يكون للسوق والجامع والميناء والمركز الاداري وغيرها وظيفة مركزية ذات دور استقطابي .

وتتعدد « الوظائف المركزية » ببجاية الحفصية . فقد كانت عاصمة جهوية تارة وعاصمة دولة منفصلة تارة اخرى . واختصت بمعالم عمرانية للمدن والعواصم الاسلامية مثل القصبة والقصور الملكية كقصر الكوكب وقصر اللؤلؤة وقصر أميمون وقصر الربيع (53) .

وكانت ميناء نشيطا ذات حجم متوسطي . وتعددت بها الاسواق منها سوق باب البحر الذي لا شك كان باتصال مع الحركة النشيطة للميناء ، وسوق قيسارية الذي احتوى تجارة القماش والبضائع الثمينة مثل الحرير وسوق الصوافين وسوق الأسرى بحومة المذبح خاصة اسرى القرصنة (54) .

وكانت مركزا ثقافيا وفكريا ودينيا شهدت به اغلب المصادر . وقد ترجم الغبريني وحده في عنوان الدراية لـ 108 عالما استقروا ببجاية او مروا بها خلال القرن 13/7 .

وبجاية ضمت اكثر من جامع للخطبة . فبجانب الجامع الاعظم ذكر الغبريني في القرن 13/7 جامعين آخرين تقام فيهما الخطبة : جامع الموحدين وجامع القصبة (55) ويذكر المريني انها كانت تحتوي على 72 مسجدا وجامعا ايام الحفصيين دون ان يحدد الفترة .

باجمال ، تجمعت الدلائل لتؤكد قدرة بجاية في العهد الحفصي على استيعاب عدد هام من السكان وعلى امكانية احتوائها على عدد يساوي او يقارب 80.000 ساكن في آخر القرن 15/9 . وان هذا الرقم كان نتيجة تطور تصاعدي لم يعرف التراجع الا بحلول الاسبان في بداية القرن 16/10 .

ان النتائج التي توصلنا اليها لا يمكن ان تكون الا محاولة لدراسة مسالة مازالت في حاجة لكثير من المثابرة .

ورغم نقائص المعطيات ونسبية النتائج وصبغتها الافتراضية فانها تدل على ان مدينة بجاية كانت كثيفة السكان بما يتناسب مع تطور مجالها العمراني ونشاطها الاقتصادي ووزنها السياسي .

---

53) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 77 ، 140 ، 241 ، 281 ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 358.

54) الغبريني، المصدر نفسه ص 76، 161، 165، 177، 218.

55) المصدر نفسه ، ص 140 ، 215 ، 241 .

خاتمة الجزء الاول :

تبين من دراسة التطور التاريخي لبجاية والمعطيات السكانية والعمرانية ان الحفصيين ورثوا مدينة بناها الحماديون اساسا ثم عاشت في العهد الحفصي فترات كبرى حسب علاقاتها مع السلطة المركزية ، وعرفت الانفصالات ولكنها لم تخرج من نفوذ أمراء العائلة الحفصية ما عدا في فترة الاحتلال المريني ، ونمت عمرانيا وسكانيا نموا تلقائيا تصاعديا فامتدت خارج السور ، وكانت مدينة كثيفة السكان.

ففي هذا الاطار السياسي وبهذه المعطيات السكانية والعمرانية نمت المدينة اقتصاديا بل تجاريا ، واكتسبت خصوصياتها الاجتماعية .

باب البنود

(مأخوذة من كتاب :
Bejaïa, Publication Ministère de l'inforamation, Diffusion SNED, Alger 1970, p.46 .)



الجـــزء الثاني:

بجـاية مينـــاء نشيـــط

الفصـــــل الاول

الإنتاج الفلاحي والحرفي

الباب الاول :

الانتاج الفلاحي

*

هل الانتاج الفلاحي ببجاية قادر على مسايرة نشاطها التجاري ؟

نحن لا نملك اية معطيات مصدرية للقيام بدراسة كمية للاجابة عن هذا التساؤل . ولذلك سنعتمد على اشارات متفرقة وسننطلق من دراسة المجال الزراعي والعوامل الطبيعية والبشرية لمحاولة تقييم القدرة الانتاجية لهذه الفلاحة .

ا - ظروف الإنتاج :ضيق المجال الزراعي هو أكبر العوائق ،

1) موارد مائية هامة لكنها معرضة لتقلبات المناخ :

تمتعت بجاية بثروة مائية هامة متكونة من اودية وعيون وجداول اذ تذكر المصادر وادي الساحل او الوادي الكبير (1) الذي كان مصبه يبتعد عن المدينة ميلين (2) .

---

1) يسمى « الصومام » حاليا .

2) قال صاحب الاستبصار : « ولها نهر كبير يقرب منها بنحو ميلين »؛ نص من كتاب الاستبصار ، ورد في *الاصالة* ، عدد خاص ، العدد 19 ، (1974) ، ص 101 ؛ نذكره لاحقا كما يلي : الاستبصار - الاصالة ... ؛و ويقول العمري :« ولها نهرجار على نحو ميلين منها ...» ؛ العمري ، *مسالك الابصار*،ص 8 .

وقال عنه البكري : « بشرقيها (اي شرقي بجاية) نهر كبير تدخله السفن محملة » (3) ويصفه الادريسي بانه « نهر عظيم» (4) ، ويسميه صاحب الاستبصار والتمقروتي بـ « الوادي الكبير » (5) فهؤلاء أكدوا على اهميته . ولكن في الواقع كاننا امام مصدر واحد ، اذ كان اللاحق ينقل عن السابق (6) ويسمّي الغبريني وابن خلدون هذا الوادي بـ « وادي بجاية » (7) ولا ينعته باية صفة ، ووصفه خالد البلوي بـ « النهر الاعظم » ('7) .

ونعتقد ان نعته بالعظيم او الكبير هو تقدير نسبي وغير دقيق .فهو كبير بالنسبة لبجاية . والمهم ان هذا النهر كان يقوم بوظيفة اقتصادية فلاحية بالدرجة الأولى حسب ماورد في « كتاب بسط الأرض » لابن سعيد المغربي اذ يقول :« ولها نهر في نهاية من الحسن على شطيه البساتين والمنازه ويتفرج فيه أصحاب المراكب يصبُ في البحر بشرقيها ...» (8)

وإضافة الى مياه وادي الساحل هناك اودية صغيرة أخرى مثل واد الخميس الذي يذكره ابو علي المريني (9) . وتردد كذلك ذكر العيون عند الجغرافيين العرب، فصاحب الاستبصار يقول في نفس النص : « وهذا الجبل أمسيون الذي فيه بجاية جبل عظيم عال قد ذهب الى الجو وقد خرج في البحر وفيه مياه سائحة وعيون كثيرة ...» (10) ويذكر العمري ان « بها عينان اثنتان من الماء ، احداهما كبيرة منها شرب أهل البلد . » (11)

الى اي حد يمكن ان نتحدث عن وجود موارد مائية هامة صالحة للفلاحة ؟

ان هذه الموارد المائية هامة ولكنها متعرضة لتقلبات المناخ ، فابن الزيات التادلي يروي لنا خبرا عن مجاعة حدثت في العهد الحمادي ويربطها بالجفاف اذ يقوا : « حدثني أبو علي عمر بن يحيى الزناتي عن مخبر أخبره كنا ببجاية فاصابتنا مجاعة شديدة فمرُ ابو زكرياء الى العامل فاكترى منه

---

3) البكري (ابو عبيد) ، *المسالك والممالك* ، ج II، ص 757 ،الفقرة رقم 1269 .

4) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ... ص 116 .

5) الاستبصار ، *الاصالة* ، مرجع سابق ، ص 101 ؛ التمقروتي ، *النفحة المسكية* ...ص 19 .

6) Vanacker (Cl.) , " Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes IX ème -XII ème s," , *Annales E.S.C.* , 28ème Année , N° 3 (1973) , p. 659 .

7) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 221 - 225 ؛ الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 162

'7) البلوي (خالد) ، *تاج المفرق* ، جI، ص 153 .

8) ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض في الطول والعرض* ، تحقيق الدكتور خوان قرنيط ، 1958 ، ص 76 .

9) Féraud (Ch.) ,éd., " Conquête de Bougie ..."*op.cit.* p. 343 .

10) الاستبصار - *الاصالة* ، مرجع سابق ، ص 101 .

11) العمري ،*وصف افريقية* ، ص 8 .

فندقا كبيرا بنحو ثلاثمائة دينار ... ثم مشى بطرقات بجاية فكلما مرّ بمسكين قال له : « اذهب الى الفندق الفلاني ... وأغناهم عن السؤال الى ان أخصب الناس في العام الثاني فانصرفوا الى موضعهم » (11) . ويتبين بوضوح ارتباط المجاعة بالجفاف في قوله « وأخصب الناس » والمقصود عودة المطر .

ويحدثنا الغبريني عن معاناة بجاية لجفاف في بداية القرن 7 هـ/ 14 م قائلا :«... قال (الفقيه ابو عبد الله السُلاوي) كنت ببجاية فاصاب الناس جفوف عظيم ، وقلت المياه وجف أمسيون . وصل الزق الى أربعة دراهم ، وكان الناس يملؤون من الوادي الكبير . » (12) ويختصر المقري الرواية في نفح الطيب (13) .

اذن هي ثروة مائية هامة لكنها مهددة بالتقلبات المناخية . فهي موارد غير مضمونة لا سيما في غياب نظام لتخزين المياه الطبيعية . فلم نجد في مصادرنا اي مؤشر لوجود نظام لتخزين المياه الطبيعية ، الامطار أو غيرها ، الصالحة للزراعة في منطقة بجاية . فليس هناك ذكر لسدّ او صهاريج .

ان إقامة السدود وتخزين المياه كان أمرا ممكنا . ولكن يبدو ان التجارة في بجاية لم تنعكس ايجابيا على مستوى التجهيز الاساسي . ويرجع تفسير الظاهرة ، لا شك الى عدم الاعتماد على المنتوج الفلاحي المحلي في التجارة بالاعتماد على دور الوساطة في نطاق واسع يشمل التجارتين المتوسطية والصحراوية .

ولا شك ان من العوامل غير المشجعة لاقامة التجهيزات الاساسية الكبرى ضيق المساحة الزراعية .

لكن لا بد من التمييز بين نوعية هذه المشاكل فهناك عوائق ظرفية طبيعية متمثلة في الجفاف من حين الى آخر وعوائق بنيوية متمثلة في ضيق المساحة الزراعية .

2 - ضيق المساحة الزراعية يحد من منافع وفرة المياه :

ان تضاريس منطقة بجاية جبلية تتخللها منخفضات ومسالك اهمها

---

11) ابن الزيات التادلي ، *التشوف الى رجال التصوف* ، تصحيح أدولف فور ، الرباط 1958 ، ص 448 - 449 .

12) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 151 .

13) المقري (احمد بن محمد) ، *نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب* ، تحقيق احسان عباس ، 8 مجلدات ، بيروت 1388/1968 ، ج II، ص 189 .

مسلك وادي الساحل . وتلتقي بها ثلاثة سلاسل جبلية : سلسلة جرجرة التي تنحدر نحو البحر حتى تنتهي بجبل « أميسون » اي جبل غوراية حاليا في شمال بجاية، وسلسلتا« البابور »(les Babors) والبيبان (Les Bibans) في جنوب بجاية .ويمكن ان تفوق هذه السلاسل أحيانا 2000 متر من الارتفاع .

وبنيت بجاية في العصر الوسيط منذ العهد الحمادي على سفح جبل أمسيون بين الجبل والبحر . ويقول الادريسي عن ذلك « ومدينة بجاية على البحر لكنها على حرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون وهو جبل سامي العلوصعب المرتقى... » (14) ، ويقول ياقوت الحموي انها « مدينة على ساحل البحر » وانها بنيت « في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال » (15)

وينحدر الجبل نحو البحر من قمة 672م واقيمت المدينة على سفحه بداية من 200 م من الارتفاع . وتنخفض تدريجيا نحو البحر ويحمي ظهرها عرف هذا الجبل الذي يذهب من رأس بوحاي(Pointe Noire) شرقا الى جبل فرنو Farnouغربا على مسافة 8 كلم .

وتتمتع بجاية رغم سيطرة المرتفعات بسهل ضيق يمتد في جنوبها الغربي وجنوب جبل أميسون بفضل وجود وادي السُاحل وواد آخر يسمى الوادي الصغير شمال وادي الساحل . ويذكر صاحب الاستبصار انُ مدينة بجاية مطلة على البحر وعلى هذاالسهل قائلا : «مطلة على البحر وعلى فحص قد أحاطت به جبال دوره نحوعشرة أميال » (16) ، ويقول البلوي ان بجاية « يمتد امامها بسيط أخضر ...» (16') واذا اعتبرنا ان الميل يساوي 1609 متر فإن محيط هذا السهل يكون حسب صاحب الاستبصار 16090 مترا اي حوالي 16 كلم . وهو سهل خصب ، وتضاف الى هذا السهل أراضي ضفتي نهر الساحل الخصبة ايضا ، اذ يقول ابن سعيد المغربي عنها : « ولها نهر في نهاية من الحسن على شطيه البساتين والمنازه ...» . ان ضيق السهل وقلة المنخفضات ، يعني ضيق المساحة الزراعية . ويحد هذا الضيق طبعا من منافع وفرة المياه . فهل تتفاعل الهياكل الزراعية ايجابيا مع ضيق المساحة الزراعية ؟.

---

14) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ... ص 115 .

15) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج ا، ص 339 .

16) *الاستبصار - الاصالة*، ... مرجع سابق ص 101 .

16') البلوي (خالد) ، *تاج المفرق* ، جا، ص 153 .

3 - نظام عقاري فلاحي قوامه الملكية الخاصة والاملاك السلطانية والأحباس :

أ- الملكية الخاصة :

لا شك في وجود الملكية الخاصة غير المقيدة القابلة للبيع والشراء والرهن والاهداء ويبدو ان كتابة الرُسوم العقارية هي من أهم طرق اثبات الملكية الزراعية ، اذ يورد لنا الغبريني معلومة في هذا الشان فيقول : «وكانت عيشته (اي الفقيه ابو النجم هلال) من مستغلات ارض كانت له محررة بظهائر من قبل عبد المؤمن رحمهم الله وكان يصرف أكثرها في الصدقات » (17) .

ب - الملكيات السلطانية :

وهي بساتين تملكها في بجاية العائلة الحفصية. وقد تكون وظّفت لغايتين : الاستثمار والتنزه . ولكن لا نستطيع ان نقدر مساهمتها في الانتاج الفلاحي والحركة الاقتصادية للمدينة .وذكر العمري بستانين للسلطان على ضفتي نهر الساحل : الرفيع والبديع . واعتبرهما فقط « مكان فرجته ومحلُ نزهته » (18) .

ج - الاحباس (19)

ان الغبريني الذي عاش في القرن 7 / 13 هو اول من ذكر الاوقاف ببجاية حين تحدث عن الفقيه ابن يبكي من فقهاء نفس القرن قائلا :« عرف بابن يبكي ، من اهل قلعة حماد صاحب الرابطة المعروفة الآن برابطة ابن يبكي بداخل باب أمسيون من أعلى سند بجاية ، وبها قبره رحمه الله ، وهو الموقف لأوقافها المعروفة الآن بها » (20) . ويشير الونشريسي الذي عاش في القرن 9 / 15 الى قِدمها في بجاية دون تحديد الفترة قائلا : « ... إذ كان أصل العهود والاحباس قديما ببجاية ...» (21)

---

17) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 169 - 170 .

18) العمري ، وصف *افريقية* ، ص 8 .

19) الحبس والوقف مترادفان ، اذ يقول البرزلي :« والحبس والوقف واحد،وان كان الثاني عبر به ابن الحاجب والاول غالب استعمال اهل المذهب . وهما المترادفان . وان كان عياض فرق بينهما في بعض الاحكام ...» ، *نوازل البرزلي* ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس ، رقم 04851 ، ج II، ورقة رقم 108 ظهر .

20) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 188 - 189

21) الونشريسي ، *المعيار* ، ج VII، ص 92 .

وينقل ابو علي المريني ان الامير ابا بكر بن عبد الله (22) وزع اراضي أحباس المساجد ببجاية الواقعة في الوادي على جنوده سنة 1509/915 حين خرج لمقاومة الاسبان .(23)

الاحباس (أو الاوقاف) لا تورث ولا تباع ولا توهب ولا ترهن . والتحبيس شرعا حسب المذهب المالكي لا يتقيّد بالزمان ، اذ ورد في المعيار ان « التوقيت ينافي التحبيس » (24) . فليس هناك تحبيس مؤقت لزمن محدّد. كما ان التحبيس لا يزول مع الزمن . فشرعا حسب المذهب المالكي مقيد تقييدا باتا لا رجعة فيه ، اي ان حلّ الاحباس غير جائز .

هل يعني ذلك انعدام أية مرونة في هذا النظام ؟

أباح الشرع في المالكية الاجتهاد في التصرف في مداخيله . وأملى شروطا تتلخص في نوعية الغرض والمعاوضة حسب ما ورد في « المعيار » اذ طرح سؤال عن امكانية صرف مرتبات طلبة العلم من مداخيل أحباس مجهولة الاصل فاجيب بما يلي : « اذا كانت الاحباس المعلومة المصرف قد قيل فيها بجواز صرف فائدها في غير مصرفها مما هو داخل في باب الخير وسبل البر . فكيف بالاحباس التي لا يعلم مصرفها ...» (25) وواصل قائلا : « لا حرج في صرف فوائد الأحباس بعضها في بعض ، ولا باس بما هو الله ان يصرف فيما هو الله ...» (26) .

اما المعاوضة فقد ورد ذكرها في المعيار ايضا حين عرض مسألة وقعت ببجاية تخصّ رجلا أخذ « تراب أرض حبس وجعل منه طابية فافتى بعض الفقهاء بان ذلك قد فات ويلزم قيمته ، وآختار غيره التفصيل : ان فات التراب بفساد وكان كالحجر فيضمن قيمته فتصرف في الحبس ، ويعمر ذلك الموضع بتراب مثله ، مثل المعاوضة في الحبس ...» (27) فالمعاوضة تقتضي التعويض بالمثل . ومن هذه الرواية نلاحظ ان قيمة التراب الماخوذ لا بد ان ترجع الى الحبس .

ان الأمير ابا بكر بن ابي عبد الله لما وزع على جيشه أراضي الاحباس

---

22) راجع ص89 من البحث .

23) Féraud (Ch.),éd. , " Conquête de Bougie ..." , *op.cit.* , p. 337 .

24) الونشريسي ، *المعيار* ، ج VII، ص 337 .

25) المصدر نفسه ، ج VII، ص 92.

26) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

27) المصدر نفسه والصفحة نفسها

الموقوفة على مساجد بجاية الواقعة في الوادي (28) سنة 15096/915 لم يقتصر على التصرف في المداخيل بل تصرف في الأراضي المحبسة ذاتها .
ولعل غرض الجهاد في سبيل الله هو الذي مكنه من فسخ المحظور مهما كان هذا المحظور .

اذن لا يخلو نظام الاحباس من المرونة ، رغم ان الحبس مقيّد تقييدا باتا . هي مرونة تخصُ التصرف في المداخيل اذا كانت للمصاريف الخيرية او إذ كانت تخص المعاوضة في الحالات الاستثنائية .

يتبين من قول الغبريني بان ابن يبكي كان « الموقف لاوقافها » ان الاحباس كانت عديدة منذ القرن 7 / 14 (29) . وارتفع عددها بعد ذلك حتى أن الأمير أبا بكر وزع منها الكثير على جيشه في 915/09-1510 (30) ، ويبقى تقدير حجمها صعبا تاريخيا لقلة المعطيات .

II - الإنتاج الفلاحي :

نلاحظ من خلال ما توفره لنا المصادر وجود مساحتين فلاحيتين مختلفتين على مستوى ظروف الانتاج وأنواعه ونوعيته ، هما : مساحة البساتين ومساحة الحبوب والى جانبهما وجدت تربية الماشية وانتاج الغابات والصّيد البحري .

1 - فلاحة البساتين :

يتحدث ابن سعيد المغربي عن وجود البساتين على النهر الكبير اي وادي الساحل قائلا : « ولها نهر في نهاية من الحسن على شطيه البساتين والمنازه (31) ويؤكد عبد الواحد المراكشي على ذلك ايضا بقوله : «ونهر بجاية الذي يسمى بالوادي الكبير ، هو منتزهها وعليه بساتينها وقصورها » ('31) ويتبين من خلال بيتين للشاعر أبي علي بن الفكون في بداية القرن 7 / 13 ان هذه البساتين ، ويسميها الجنات ، واقعة على أراضي ضفتي

---

28) Féraud (Ch.) ,éd., "Conquête de Bougie ..." ,*op.cit.*, p. 337 .

29) الغبريني، *عنوان الدراية* ، ص 188 - 189 .

30) Féraud (Ch.) ,éd., " Conquête de Bougie ..." ,*op. cit.* p. 337

31) ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض* ، ص 76 .

'31) المراكشي (عبد الواحد) ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب من لدن الاندلس الى آخر عصر الموحدين ، تحقيق ممدوح حقي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1978 ، ص 511 .

ذلك النهر فقد قال في البيت الأوّل :

والنهر كالصل والجنات مشرفة
والنهر والبحر كالمرآة وهو يد (32)

وقال في البيت الثاني :

فنهر كالسجلجل قد تراءت
على شطيه جنات النعيم .33)

ورد في « عنوان الدراية » ايضا ما يفيد بامتداد البساتين (او الجنات)على ضفاف وادي الساحل اذ قال :« وقال أبو العباس ابن الخطيب حضرنا مع الشيخ بوادي بجاية في بعض الجنات فتكلم كثيرا » (34) . وذكر البلوي ان « الحدائق تنتظم بحافتيه » (اي بحافتي النهر) ('34). ويعطينا العمري معلومات أكثر دقة عن مدى امتدادها الجغرافي وكثافتها حين يقول :«ولها نهر جار على نحو ميلين منها تحف به البساتين والمناظر على ضفتيه طول الوادي تمتد على نحو اثني عشر ميلا متصلة بعضها ببعض انفصال بينهما الا ما يسلك عليه الى البساتين ليس الا الى ان ينصب في البحر الشامي ...» (35) .

ويفيدنا قوله انها كانت تمتد على الأقل خلال عصره اي القرن 8 هـ /14 م على طول الضفتين على مسافة 12 ميلا اي حوالي 20 كلم دون انقطاع الى ان تتصل بالبحر. ويدل هذا على كثافة البساتين في هذه المنطقة

يورد لنا أبو علي المريني خبرا يؤكد وجودها على هذا النهر في بداية القرن 16/10 اذ يقول عن الوافدين الأندلسيين « والبعض من هؤلاء اللاجئين أقاموا مساكنهم داخل البساتين الواقعة على الوادي الكبير » (36)

أما ليون الإفريقي ، ومارمول الذي نقل عنه نفس المعلومات ، فيذكر ان البساتين تمتد ايضا حول مدينة بجاية خاصة من الجهة الشرقية خارج الباب الذي يفتح على الشرق وبعدها تبدأ الغابات اذ يقول ليون الافريقي : « توجد حول المدينة بساتين لا تحصى مملوءة أشجارا مثمرة ،

---

32) الغبريني *عنوان الدراية* ، ص 280 .

33) المصدر نفسه ، ص 283 .

34) ضمن ترجمة ابي الفضل قاسم بن محمد القرشي المتوفى سنة 1225/622 - المصدر نفسه ، ص 162 .

'34) البلوي ، *تاج المفرق* ، ج1، ص 153 .

35) العمري ، *مسالك الابصار* ، ص 8 .

36) Féraud (Ch.) ,éd., " *Conquête de Bougie* ..." , *op.cit.* p. 252.

وهي كثيرة من جهة الباب الذي يطل على الشرق .» (37) . وتوجـد الغابات في الشرق حيث تبدأ المرتفعات بعد ان نبتعد عن المدينة في اتجـاه الشمـال الشرقـي ، وفي الغرب كلما اتجهنا نحو الشمال ، وفي الشمال حيث تبـدأ مباشرة بعد المدينة (38) . اما في الجنوب فيحدهـا البحـر . ولذلك تحتل البساتـين الأراضي الشرقية والغربية الجنوبية القريبـة من المدينـة ثـم تتصل بساتـين الجهـة الغربية ببساتين الوادي الكبير التي تمتد على طول الضفتين .

واذا كـان اختيار الأراضي المحيطة بالمدينـة يسهُل العناية بالبساتين يوميا ، فان اختيـار أراضي الوادي الكبير يمكن من الاعتماد على الريُ . وفعلا ، فان ما أورده ابن خلـدون يدل على إقامة شبكـة للريُ منذ عهد المنصور بن الناصر بن علناس ، اذ يقول :« وتأنق المنصور في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجـراء الميـاه في الرياض والبساتـين » (39) ولا يقصر هنا اجراء المياه على بساتـين الـوادي . والمهم ان فلاحة البساتـين اعتمدت على نظام الريُ وامتدت على احسن الأراضي الخصبة والمنخفضة ذات المسالك السهلـة .

ومن المؤشـرات الدالة على تميـز هذه البساتـين وازدهارها وجـود بستانين للسلطان ابي بكر(718/1318 - 747/1346) (40) على ضفتـي النهر تحدث عنهما العمري بقوله :« وبضفتيه (اي النهر) للسلطان بستانان متقابلان شرقا وغربا : الشرقي يسمى «الرفيع » والغربي يسمـى « البديع » هما مكان فرجته ومحل نزهته وفيهما يقول محمد الاكودي الفاسي بديها حين رآهـــا :

هذا البديع كما رأيت بديع
وكذا الرفيع كما عهدت رفيع » (41)

---

37) L'Africain (léon) , *Description de l'Afrique ...op.cit.*t .II.p.360

ويقول مارمول : « انها (اي بجاية) محاطة بالبساتين خاصة من الجهة الشرقية ، ثم بعيدا عنها نجد الغابات حيث تعيش الأسود والقردة » Marmol , *Description de l'Afrique , op.cit.* t.II p. 415

38) Carte topographique de Béjaia (Bougie) au 1/50000 feuille n° 26, Type 1922 . Levés stéréotopographiques aériens de 1259 Dessinée et publiée par l'institut géo-Nat . 1965

39) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 358 .

40) استقل ببجاية من 712/1312 الى 718/1318 ثم اصبح سلطانا بتونس لكامل الدولة الحفصية . راجع ص73-74 من البحث .

41) العمري ، وصف *افريقية* ، ص 8 . مما لا شك فيه ان العمري تحدث عن السلطان ابي يحيى ابي بكر لانه عاش من سنة 700/1301 الى 748/1347 .

ماذا تنتج هذه البساتين ؟

لا تعطينا مصادرنا معلومات دقيقة عن انتاج البساتين . أشار الإدريسي منذ القرن 6 هـ / 12 م الى ان بجاية تنتج التين (42) ، ويخبرنا ليون الافريقي انه من انتاج جبال زواوة القريبة من بجاية (43) . كما يشير الى ان البساتين مملوءة أشجارا مثمرة دون ان يعطينا تفاصيل عن أنواع الثمار (44) . وهناك من الثمار الخروب (45) واللوز (46) والزبيب الذي يدل على وجود غراسة الكروم (47)

ومن منتوجات البساتين ولربما الجبال أيضا العسل والمادة الصالحة لصناعة الشمع في وثيقة من وثائق دي ماس لاتري (48) وهي مادة اشتهرت بها بجاية . ويدل ذلك على ازدهار تربية النحل داخل البساتين والجبال .

2 - زراعة الحبوب:

ليست لنا معطيات لتقدير مستوى كميات الانتاج .

تبين ان البساتين انتشرت حيث توجد امكانيات الريُ والعناية المستمرة . اما الحبوب ، فقد احتلت اراضي السهل الضيق ، اذ لا يتوفر به الريُ .

أخبرنا الإدريسي عن زراعة الحبوب في جهة بجاية بقوله :« لها بواد

---

42) الادريسي ، *المغرب العربي نزهة المشتاق* ، ص 116

43) L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ..., op.cit.* t.II, p. 360 .

44) *Ibid.*

45) Primaudaie (M.F. Elie de la) , *Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française* , Paris 1861 , p. 164.

46) Busquet (R.) , Pernoud (R.) , *Histoire du commerce de Marseille* t.I ,Paris 1951,p. 171 .

47) De Mas Latrie ,éd., *Traités ..., op.cit.* ,p. 379 ; Dufourcq (Ch.E.), " Les activités politiques et économiques des catalans en Tunisie et en Algérie Orientale de 1262 à 1337 " *Boletin de la Real Academia de Buenas letras de Barcelona* , XIX , (1946) ,p.37.

بلحميسي (مولاي) ، « دور بجاية في البحر الابيض المتوسط في عهد الحماديين والحفصيين »، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي* ، منشورات وزارة التعليم الأصلي قسنطينة ، 1976 ، ص 570 .

48) De Mas Latrie , *éd., Traités.* doc VIII (Marseille) , p. 99.

ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيــرا » (49) . لكن بينت لنـا رسالة مؤرخة في 20 صفر 759 / 1 فيفري 1358 مبعوثة من سلطـان فـاس الى نائب ميورقة (50) .ان بجاية كانت تشكو نقصا في الحبوب . ورأى ليـون الإفريقي « ان الأراضي الزراعية (في بجاية) غير صالحة لانتاج الحبوب الا انها مثقلة بالثمار » ويؤكد مارمول ذلك بقوله: « لا تنتج البلاد (اي منطقـة بجاية) كثيرا من القموح ...» (52)

نحن أمام أمرين : اما ان الإدريسي كان يبالغ ، او ان زراعة الحبوب تدهورت . ويرى ر. فرنـي (R. Vernet) ان مساحات الحبوب تقلصت خلال العصر الوسيط في بجاية بعد القرن 6 / 12 .(53)

نستنتج ان انتاج الحبوب كان غير مستقر . ولعله المتضرر أكثر من غيره في سنوات الجفاف لارتباطه الكلي بالامطار .بينما اتفقت المصادر في المقابل على ازدهار البستنــة حتـى مصادر بداية القــرن 16/10 . ولعل البساتين توسعت شيئا فشيئا على حساب مساحة الحبـوب استجابـة لطلب الاسواق الداخلية والخارجية ، ولكن يبقى القاسم المشترك هو قلة المساحة .

3 - منتوجات الغــابة :

تواجدت أنشطة فلاحيـة أخـرى ، اذ احتوت منطقة الغابـات المحيطة ببجاية على موارد طبيعية هامة وأنواعا من الغراسات .

لعل الزياتين تمتـد بين السهـل وسفـح الجبل ولا نستطيـع ان نقدر كميات الانتاج . قد تكون هامة إذ يذكرها دي ماس لا تري كمادة للتصدير(54).

كانت هناك ايضا انواع من الأشجــار المثمرة فـي منطقــة الغابات ، يذكر منهـا ابن سعيد المغربي ، ثم ليون الإفريقي التين ، وينسبه الاول الــى بني زلدوي من البربر بجبال الرحمة شرقي بجايـــة (55) وينسبه الثانــي

49) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص116 .

50) Alarcón y santon (M.A) ,éd., *Los documentos Árabes diplomáticos del Archivio de la Corona de Aragón*, Madrid 1940 , doc. 140 , p. 310-311.

51) L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ...,op.cit.* t.II p. 360.

52) Marmol ,*Description de l'Afrique ..., op.cit* , p.415.

53) Vernet (R.) ," Recherches sur la production et la civilisation des céréales dans le Maghreb médiéval ", *R.H.C.M.* n° 13,(1976) ,p. 43 et 54 .

54) De Mas Latrie , éd.,*Traités ..., op.cit.* , p. 377.

55) ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض* ، ص 76 .

الى قبائل جبال زواوة قرب بجاية ايضا (56) كما ذكر ليون الإفريقي الجوز (57) وتبعه في ذلك غرامـــاي (58).

تنتج الغابات النباتات الطبية ايضا في جبل أمسيون حسب الادريسي الذي ذكر منها « شجر الحضض و القولوفندوريون والافسنتين وغير ذلك من الحشائـش ...» (59).

يذكر ليـون الافريقي ان الكتان والقنب ينموان بجبال جهة بجايـة وهمـا صالحان لصناعة القماش الخشـن (60) . وتوفر الغابـات ما يسمـى بقشور بجاية المحتوية على مادة صالحة لدباغـة الجلـود ، ومطلوبة خاصة من قبـل التجـار الايطاليـين (61) ، توازيها مادة أخرى صالحـة للصباغـة والدباغـة ايضا مستخرجة من حشرة المغافير (62) .

4 - تربية الماشية والصيد البحري :

لا شك ان تربية الماشية تحتل المرتفعات القريبة من بجاية لان السهل والوادي كانا ميداني الحبوب والبساتين . ولكـن لا نستطيع أن نقدر مجالها الجغرافي .

اشـارت وثيقة واردة في كتـاب دي ماس لاتـري « معاهدات سلـم وتجارة »الى تربية الماعز ، وهي تحمل تاريخ 19 ماي 1181 (3 محرم 577) وتتحدث عن شكوى تجار بيزة الذين لاقوا صعوبات للحصول على « الجـلود وجلود الماعز من مملكة بجاية » (63) .

وتشير وثيقة أخرى في نفس الكتاب الى تربية الأغنام اندرجت ضمن الوثائق المتعلقة بفلاندرا وتعود الى أواخر القرن 13/7 « ومن مملكة بجاية

(56 L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ...op.cit.*, t.II, p. 406.

(57 *Ibid.*

(58 Grameye (J.B.) , *Description de l'Algérie* , traduite de " L'Africa Illustratae " par Ch. Brosseland , 1839.p. 80.

59) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 115 .

(60 L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ...,op.cit.*,t.II,p. 406.

61) يقول بيقولوتي « Scorza di Buggiea »

Pegolotti (F.B.) , *la pratica della mercatura* , edited by A. Evans , Cambridge Massachusetts 1936 , p. 70 ; Dufourcq (Ch.E.) , " Activités des Catalans ..."*op.cit.* p.38 ;

بلحميسي (مولاي) ، « دور بجاية في البحر المتوسط ...» مرجع سابق ، ص 570.

(62 Bona (Salvatore) , " le relazioni commerciali fra i paesi del Maghreb e l'italia nel medioevo " ,*Quaderni dell ' istituto italiano di cultura di Tripoli* , (1965) , p. 375 .

(63 De Mas Latrie ,éd., *Traités ...*, *op.cit.*, doc III, p.27.

تاتي فروة الاغنام والجلد والشمع وشب الريش » (64) . ولكن هاتين الوثيقتين لا تؤكدان وجود هذا النشاط في منطقة بجاية بالذات ، فقد تستجلب بجاية هذه المنتوجات من بقاع أخرى ، وقد تنتج جزءا منها فقط .
ولم يورد خبرا صريحا حول وجودها في جبال جهة بجاية الا ليون الإفريقي الذي قال :« وتسكن هذه الجبال قبائل غنية ، ذات شهامة وكرم ، وهي تملك عددا هاما من الماعز والبقر والخيول » (65).

لعل تربيتي الاغنام والماعز تصدرتا قطاع تربية الماشية لعلاقتهما بالأسواق الخارجية . فجلد الماعز او الاغنام كان بضاعة مطلوبة من قبل الاوروبيين كما بينت الوثيقتان السابقتان. وتعود أهمية تربية الاغنام لا الى انتاج الجلود فحسب بل ايضا الى انتاج الصوف والفروة حتى اصبحت الفروة السوداء الرقيقة الجيدة لاغنام بجاية « علامة مميزة » تشير في الشمال الغربي لأوروبا بداية من القرن 14/8 الى صنف معين من أصناف الفروة يسمى صنف « بجاية » حتى وان لم يات من بجاية (66) .

ان ما ذكرناه من معطيات يبين لا محالة ان تربية الماشية كانت تمثل قطاعا حيويا في النشاط الفلاحي . ومارس البجائيون الصيد البحري ايضا . وليست لنا اية معطيات عن هذا النشاط ما عدا الاشارة التي أوردها ليون الإفريقي حين قال :« لم يتعود صيادو بجاية ان يصطادوا في النهر الكبير لانهم يجاورون البحر (67) ولا تكفينا هذه المعلومة لدراسة حصوصيات هذا القطاع ومكانته في النشاط الفلاحي .

وفي نهاية عرضنا لمختلف قطاعات الانتاج الفلاحي نلاحظ انه كان يتركب أساسا من منتوجات تصديرية موجهة نحو البحر الابيض المتوسط : فنشاط البساتين يرتكز على انتاج الثمار القابلة للتجفيف : اللوز والعنب الصالح للزبيب والتين وتربية النحل التي قد تكون وجدت ايضا في منطقة الغابات . ووقع البحث في الغابات عن مواد أوّلية صالحة للدباغة والصباغة وممارسة غراسة الثمار الجافة : الجوز والتين وانتاج الكتان والقنب ، وتركز الاهتمام في تربية الماشية على المواشي المنتجة للجلود والفروة والصوف اي

(64 *Ibid*, doc. VIII, p. 99.

(65 L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ..., op.cit* ., t.II, p. 406 .

(66 Delort (R.) , *Le commerce des Fourrures en Occident à la fin du moyen âge (1300-1450)*, 2 tomes , Rome 1978 , t. I, 23 ,224 .

(67 L'Africain(L.) , *Description de l'Afrique ..., op.cit* . , t. II p. 548 .

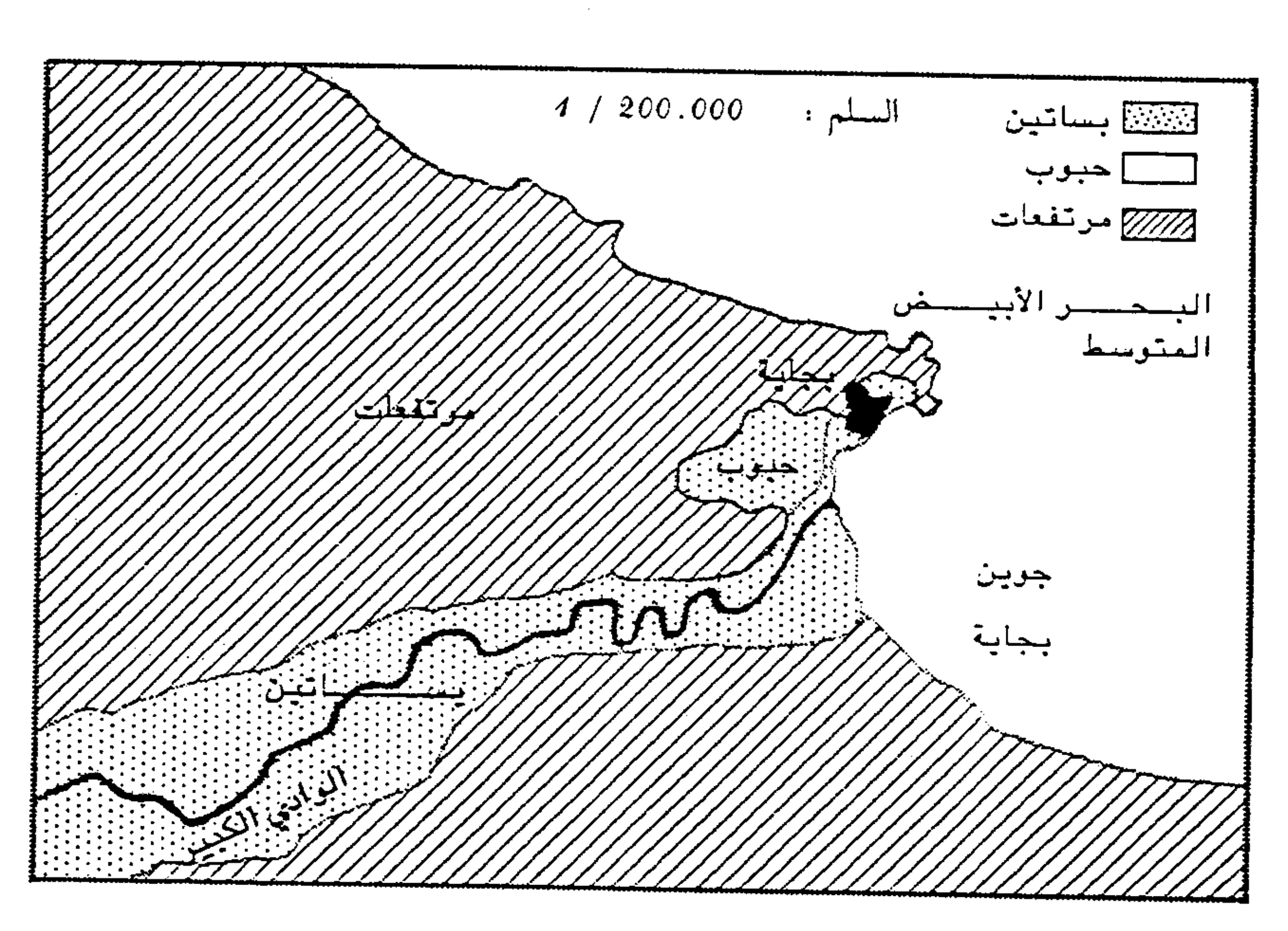
الماعز والاغنام . وهنا نلاحظ ان فلاحي بجاية عملوا على توفير مواد أولية متسلسلة لصناعة الجلد .

نفهم أن التجارة الخارجية شكلت عاملا أساسيا لنمو بعض القطاعات دون الآخرى . تفاعل هذا العامل مع عوامل أخرى : أساسا الطبيعة المحيطة ببجاية الغابات وتوفر الريّ .

لم تكن فلاحة بجاية فلاحة معيشية ، بل كانت استثمارية تسويقية . ولذلك فان اعتماد الريّ كان من علامات توظيف الأموال لزيادة الانتاج ولكنها بقيت فلاحة مرتبطة بما تجود به الطبيعة من مياه . ويدلنا هذا على ان انتاجها لا يشكل العمود الفقري للتبادل التجاري حتى يؤثر على مسار التجارة . وبالتالي لم تؤثر التجارة في دفع التمويلات لإقامة تجهيزات خزن المياه كالسدود .

ومهما يكن من أمر مثل ضيق الارض الزراعية عائقا ملازما للفلاحة من جهة ، ومثلت التقلبات الطبيعية عنصرا مهددا للانتاج من جهة أخرى ، وبقي شبح الجفاف مخيفا للزراعة والغراسة وتربية الماشية . وبالتالي ،كان الانتاج غير كاف وغير مستقر .

فهي فلاحة تطمح ان تتكامل مع النشاط التجاري والصناعي ونمط الحياة الحضرية في بجاية . وفي نفس الوقت ، هي فلاحة تعاني من مشاكل بنيوية وطبيعية تحد من مردودها وانتاجها . وبالتالي تحد من قدرتها على مسايرة هذا النشاط التجاري .



المساحات الفلاحيّة حول بجاية في العهد الحفصي

الباب الثاني :

الإنتاج الحرفي

*

سنتحدث عن بعض الصناعات التي نملك عنها معطيات مصدرية مكتوبة أو أثرية ، وهي صناعات السفن والنسيج والملابس والفخار والخزف وتهيئة المواد الفلاحية : الجلود والشمع والشب .

قد تكون ببجاية صناعات أخرى متعددة ومتنوعة . لكن مصادرنا لا تعرفنا بها ، والادريسي هو الذي أشار الى هذا التنوع . ولكنه اكتفى بذلك في قوله :« ولها (أي لبجاية) من الصناعات كل غريبة ولطيفة ...» (1) .

أ - صناعة السفن ، متكاملة :

اعتبرت صناعة السفن من الصناعات الكبرى والاستراتيجية في العصر الوسيط . ولذلك فالسلطة هي التي تقيم دور صناعة السفن .

1) المواد الأولية متوفرة :

ربط الادريسي نمو هذه الصناعة في بجاية بالمواد الأولية المتوفرة بقوله : « وبها دار صناعة لانشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لان الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود . ويجلب اليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ، وبها معادن الحديد الطيب موجود ة وممكنة ...» (2)

---

1) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116 .

2) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

وذكر ليــون الإفريقي ان جبال جهــة بجاية مغطاة بالغابات (3) وان أرضها تحتوي على معادن الحديد (4) .
لذلك فان المواد الاولية لهذه الصناعة كانت متوفرة سواء حول بجاية او في أقاليمها .

2 - دار لصناعة السفن أم داران ؟

كانت بجاية تضم « دار صناعة لانشاء الأساطيل والمراكــب والسفــن والحـرابي » ، حسب قول الادريسي (5) في منتصــف القرن 11/5 . ووجدت بها حسب صاحب الاستبصـــار الذي عــاش في القرن 12/6 داران لصناعــة السفن إذ قال : « ولها داران لصناعة المراكب وانشاء السفن » (6) .
غير اننا لا نستطيع ان نسلم بقوله كما اننا لا نستطيع ان نفنده لانه لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه (7) .
اما ابن خلدون فقد قال في القــرن 14/8 ان البجائيــين كانــوا « يصنعون الأسطول » (8) ولم يذكــر ان كان ذلك فــي دار أم دارين . وتحــدث ليــون الافريقي في بدايــة القرن 16/10 عن دار لصناعــة وصيانــة السفن الحربية حيث ذكر ان الكونت « بيـــار دي نافارو » (Pierre de Navarro) حصــن قرب هذه الدار قلعة قديمة محاذية للبحر (9) .
نفهم من هذا القول ايضا انها كانت تقع مباشرة على البحر .

3 - السفن المصنوعة حربية وتجارية :

يظهر جليا من المعطيات السابقة ان بجاية كانت تنتج السفن الحربية . بينما لا نملك معطيات صريحة عن انتاج السفن التجارية . ولــعل الادريســي يقصد المراكب والسفــن ما هو تجــاري . وهنــاك بعض المعطيــات تدل على ان التجار البجائيين كانوا يملكون سفنا تجاريــة (10) وان صنعهــا من قبــل

---

3) L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ..., op.cit.* , t.II, p. 360,406 .
4) Ibid , p. 406.
5) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116 .
6) الاستبصار ، *الاصالة* ... ص 101 .
7) Idris (H.R.) , *La Berbérie Orientale ... op.cit.* , t.II, p. 640 ,659 .
8) ابن خلدون ، *العبر* ج VI، ص 903 .
9) L'Africain (L.), *Description de l'Afrique ... , op.cit.* t II, p.360 .
10) انظـر ص 235-237 من البحث .

البجائيين ممكن ما دامت لهم قدرات تقنية لصناعة السفن بصفة عامة ، وما دامت المواد الأولية متوفرة .

ذكرت المصادر بعض انواع السفن المستعملة من قبل البجائيين التي يمكن ان تكون كلها من انتاجهم .

ذكر الادريسي كما رأينا ، المراكب والسفن والحرابي وذكر ابن عذاري المراكشي الغراب . ففي سنة 530 / 1135-1136 تحدث عن مهاجمة العزيز بن المنصور الحمادي (1105/498 - 1124/518) للمهدية ، واخبرنا ان صاحب المهدية أخرج أسطوله الذي أخذ « من اسطول بجاية غرابين وأمر بسجن قائدهما » (11) .

واورد الغبريني عبارة أجفان (12) . واستعملت الوثيقة رقم 119 من الوثائق التي نشرها ألاركون (Alarcon) مؤرخة في 707 / سبتمبر 1307 ، كلمة جفن ايضا لتعبر عن سفينة تجارية بجائية اقتنصها القراصنة الميورقيون .(13) كما حدثنا عن نوع من السفن الحربية الصغيرة : الطريدة (13') واخبرنا ابن الشماع عن نوع كبير منها يسمى المحرقات (13'')

وبالتالي فان المركب والسفينة والجفن عبارات تطلق على سفن تجارية كبيرة أو صغيرة . فقد اطلقت هذه الوثيقة رقم 119 كلمة جفن على سفينة بجائية كبيرة احتوت بدنا وبرانس قيمتها 40 الف دينارا وعلى سفينة بونية صغيرة قيمة سلعها 5 آلاف دينار . بينما تطلق الحرابي والطرائد والاغربة والمحرقات على السفن الحربية .

II - صناعة النسيج والملابس ، جميع المراحل :

تمر صناعة النسيج ببجاية بجميع مراحلها من تهيئة المواد الأولية الى صنع الملابس .

1 - من تهيئة المواد الأولية الى صنع القماش :

تختص بجاية بتهيئة الصوف والكتان والقنّب ، وهي مواد أولية محلية أو جهوية .

أشير الى تجارة الصوف الجاهز للاستعمال في كتاب عنوان الدراية للغبريني

---

11) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج ا، ص 312 .

12) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 77 .

13) Alarcon,éd., *Los Documentos ..., op.cit.*, doc. 119, p. 259.

13') الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 77 .

13'') ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 111 .

حين تعرض الى ذكر سوق الصوافين او سوق الصوف (14) وذكر دي ماس لاتري الصوف كبضاعة تصدرها كل من تونس وبجاية (15) كما أكد ذلك دي فورك (16) وتحدث ليون الافريقي عن الكتان والقنّب كمادتين أوليتين لصناعة القماش من انتاج بجاية وجهتها (17) ، وبالتالي فمرحلة صناعة القماش موجودة . ولا نستطيع ان نعطي تفاصيل عن هذه الصناعة .

2 - صناعة الملابس : من العادي الى الراقي :

أما عن مرحلة صناعة الملابس ، فلا نملك عنها ايضا الا بعض الإشارات لبعض الملابس ، اذ ورد ذكر البرنس في كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » حين نقل لنا شعرا قاله ابو العباس أحمد ابن الغماز في بداية العهد الحفصي يمدح فيه جليسه للشهادة في بجاية عبد الحق بن ربيع منشدا :

لبس البرنس الفقيه فباهى * ورأى انه المليح فتاها
لو زليخا راته حين تبدى * لتمنته ان يكون فتاها (18)

وكان البرنس من أهم السلع التي غمرت جفنا من اجفان بجاية الواصلة الى بنزرت حسب وثيقة اوردها الاركون مؤرخة في صفر 707 / سبتمبر 1307 (19) .

وكانت بجاية تصنع العمائم . وقد أشار اليها أبو بكر البيذق حين تحدث عن نزول المهدي بن تومرت في بجاية قائلا : « وكان (اي ابن تومرت) ينهى الناس عن الاقراق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات (20) للرجال ، يقول " لا تتزينوا بزي النساء لانه حرام ...» وذكر صاحب الاستبصار العمائم « المذهبة للوك صنهاجة » و قال ان العمامة كانت تساوي الخمسمائة دينار

---

14) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 161 ، 177 .

15) De Mas Latrie ,éd., *Traités ... op.cit.*, p. 380.

16) Dufourcq (Ch.E.) , " Méditerranée et Maghreb du XIII ème au XIV ème s ." *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, Alger , N°3 ,(1967) , p. 82.

17) L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ... op.cit.* , t.II., p. 406.

18) ابن الخطيب (لسان الدين) ، *الإحاطة في اخبار غرناطة* ، جزءان ، مقدمة وتحقيق محمد عبد الله عنان ، ط .2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1973 ، جII، ص 223 .

19) Alarcon ,éd., *Los Documentos Arabes ...*, *op.cit.* , doc.119, p. 259.

20) البيذق (ابو بكر) ، *اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين* ، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1975 ، ص 36 .

والستمائة دينار» واكد على انها من صنع بلادهم (21) لا سيما العاصمة بجاية .

وتبين مما سبق ان هذه الصناعة تمر ببجاية من العادي الى أرقى الانواع وأغلاها ، وان طابع الزركشة يغلب عليها على ما يبدو اذ نعتها البيذق بعمائم الجاهلية .

ووصف صاحب الاستبصار باقتضاب تقنيات صنعها اذ كانت للصناع « قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤوس تعمم عليها تلك العمائم » (22) . اما تذهيب العمائم الفاخرة فهو من عمل الصائغ .

وان كنا لا نملك عن هذه الصناعة الا هذه الاشارات الراجعة الى أواخر العهد الحمادي فان ذلك لا يعني انقراضها في العهد الحفصي .

ويدلنا وجود حرفة الخياطة على ان صناعة انواع أخرى من الملابس كانت لا شك موجودة . وقد اشتغل بها الدعي أحمد بن مرزوق بن ابي عمارة الذي تحدث عنه ابن خلدون بقوله :« ونشا ببجاية وسيما محترفا بصناعة الخياطة غرًا غمرا...» (23) .

تعطينا الامثلة السابقة الدليل على ان صناعة الملابس تجاوزت حسب تصنيف ابن خلدون « الضروري البسيط » الى « المركب والمعقد »منذ العهد الحمادي حتى بالنسبة لصناعة البرانس فمن ناحية كانت البرانس مطلوبة في السوق الخارجية ، ومن ناحية اخرى تميزت بالحسن والجودة اي ذات نوعية رفيعة ويظهر ذلك من اشادة ابن الغماز بحسنها .

وتدلنا الامثلة ايضا على ان هذه الصناعة مركزه على انتاج الانماط المغاربية .

III - تهيئة المواد الفلاحية الصالحة للتصنيع :

تفيدنا مصادرنابوجود انواع أخرى من المواد الفلاحية غير الصوف والكتان ، تقع تهيئتها فقط دون ان تمر الى صنع البضاعة النهائية تتمثل أساسا في تحضير الجلود والشمع .

---

21) ورد هذا النص في مقال رشيد بورويبة ، « الحياة الاقتصادية في بجاية العمادية »، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي* ، 3 مجلدات ، قسنطينة (1976) ، المجلد II ، ص 493 .

22) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

23) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ص 689 .

1 - تهيئة الجلود والفروة ومواد الصباغة :

ونشطت صناعة اعدادالجلود المخدومة والخام والصناعات المرتبطة بها مثل تحضير مواد الصباغة والدباغة ، نظرا لتزايد طلبات التجار الاوروبيين وتدلنا على ذلك وثيقتان وردتا في كتاب دي ماس لاتري (24) وبعض وثائق مقاطعة كلايي (Calai)وبعض وثائق الملك ريني الاول دانجو التابعة للارشيف الوطني بباريس (25) وأرشيف مدينة تورينو (26) .

وإذا كانت بجاية تنتج جميع أنواع الجلود : جلود الأغنام والماعز والبقر والجمال حسب ما يفهم من دي ماس لاتري (27) فانها اشتهرت اولا بانتاج جلود وفروة الاغنام وثانيا جلود الماعز . فالوثيقة رقم VIIIالمؤرخة في أواخر القرن 13/7 ضمن الوثائق المتعلقة بفلاندرة الواردة في كتاب دي ماس لاتري (28) تذكر أن فلاندرا تجلب فروة الاغنام والجلود من بجاية .

وتذكر الوثيقة رقم IIIبتاريخ 19ماي 1181 (3 محرم 577) ضمن وثائق بيزة « الجلد وجلود الماعز المخدومة لملكة بجاية »(29)

ويبين روبار ديلور في كتابه « تجارة الفروة في الغرب في أواخر العصر الوسيط » الاهمية الكبرى لفروة الأغنام السوداء البجائية المتميزة بجودتها والتي اصبحت مشهورة في أروبا حتى صار كل نوع شبيهها يعرف بمصطلح « فروة بجاية) (30) » ومما يدل على جودة فروة بجاية هو تصنيفها الاجتماعي في اروبا . فاولا ، كانت جلود بجاية السوداء ضمن 68 جلدا من جلود الحيوانات المستعملة في قصر « الملك الطيب » ريني الاول دانجو حسب تعداد يغطي 1447/851 - 1454/858 (31)وثانيا ، يستنتج من قوانين وضعها في لندن سنة 1363 برلمان واستمانستر(Westminster) للضغط على المصاريف ان فروة بجاية تندرج ضمن الفروات الثمينة التي قصرت على فئات اجتماعية ثرية او ارستقراطية

---

24) De Mas Latrie,éd., *Traités ..., op.cit.*, doc. III du 19/5/1181 concernant Pise , p. 27; doc VIII . fin XIII ème s , concernant la Flandre , p. 99.

25) Delort (R.) , *Le commerce des fourrures ..., op.cit* . ,t. I, p. 224,445 .

26) *Ibid.*, p. 445.

27) De Mas Latrie ,*Traités ..., op.cit.* ,t.I, Introduction historique , p. 374 .

28) *Ibid*, p. 99.

29) *Ibid* ., p. 27.

30) Delort (R.) , *le commerce des fourrures. ..,op.cit* , t.I. , p. 23,219-224.

31) *Ibid* ., t.I. , p. 425 .

حسب مداخيلها السنوية . وفرض على البورجوازي ان يكون مدخوله الأدنى مساويا على الاقل خمس مرات للمدخول الأدنى المحدود للنبلاء والاقساس (32)

وتُعدُّ بجاية المواد المرتبطة بصناعة الجلود والفروة، و هي مواد الصباغة والدباغة اذ تستخرج من قشور الأشجار المسماة « قشور بجاية » مادة صالحة للدباغة تباع الى « مدن ايطالية » (33) . وتستخرج من دودة القرمز مادة الصباغة ذات اللون القرمزي الشبيه باللون الأرجواني ، ومن نبات النيلة الزرقاء الصباغ الأزرق (34).

2 - تحضير الشمع :

أعد حرفيو بجاية مادة الشمع للتجار الاوروبيين وقد ذكرتها الوثيقة رقم VIII المؤرخة في أواخر القرن 13/7 المتعلقة بالمواد المستوردة من بجاية الى فلاندرا الواردة في كتاب « معاهدات سلم وتجارة » لدي ماس لاتري (35) وليس لنا ما يدل على انهم كانوا يصنعون الشموع . ولكن الأكيد انهم كانوا يعدون الشمع الذي كان من بين المواد التي اشتهرت بها بجاية في العصر الوسيط حتى ذهب البعض الى القول بان اسمها أطلق في أوروبا على الشمعة (36) .

(32 *Ibid.* , t . I , p.550-552 .

(33 Pegolotti (F.B.) , *La Pratica della mercatura* ..., *op.cit.* , p. 70. Dufourcq (Ch.E.) , " "Activités des Catalans,*op.cit.* p. 38 ; Bona (S.) , " le relazioni Commerciali fra I Paesi del Maghreb e l'Italia nel medioevo " *Quaderni dell' istituo italiano di cultura di Tripoli* (1967) ,p. 15;

بلحميسي (مولاي) ، « *دور بجاية في البحر الابيض المتوسط* ...» مرجع سابق ، ص 570 .

(34 Bona (S.) , Ibid .

(35 De Mas Latrie ,éd., *Traités* ..., *op.cit.* , p. 99 .

(36 De capmany (Antonio) ,éd., Memorias historicas sobre la marina , commercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona , 2 tomes (2ème tome en 2 vol.), Barcelona , 1961 -1963 ,t.I , p. 82 ; Dufourcq (Ch.E.) , " Activités des catalans ...*op.cit.*, p. 38 .

١٧ - صناعة الفخار والخشب : الأصل من القلعة والتاثيرات أوروبيـــة .

تتوفر الوثائق الاثريـــة المحفوظـــة في متحفـــي بجايـــة و « قيرتـــا» بقسنطينة حول صناعة الفخار والخزف ، وهي اكثر عددا واهمية في متحف «قيرتـــا». وقد خصص لها جـــورج مارســـي (G.Marçais) دراســـة كاملـــة وضافية لا سيما من الناحية الفنية (37) .

نفضل من جهتنا ان نصنف القطع المتوفرة تصنيفا يعتمد على مـــواد الانتاج حتى يتماشى مع متطلبات دراستنا ، ونحاول ان نتعرف على انعكاس المؤثرات الخارجية على مدى تطور هذه الصناعة .

1 - الاصناف : تنوع وتاثيرات خارجية :

لاحظنا ان مجموعتي قسنطينـــة وبجايـــة تحتويان على مصنوعـــات فخاريـــة وأخرى خزفيـــة :

أ- المصنوعات الفخارية :

تحتوي عـــلى :

- المصنوعات العادية : غير ملونة منقوشة أو غير منقوشة . وتحتوى على قطع لأواني مختلفة للاكل وأوعية للشرب وقصاع وجرار ومزهريات .
- المصنوعات الملونة بالأسود والمنقوشة ، وتحتوي على قطع لاوعيـــة وقلال ذات بطون ومزهريات .
- المصنوعـــات الفخارية الملونـــة بالاخضر والمنقوشة : منها قطع جرار ومزهريات وقاعدة مصباح صغير للانارة (بمجموعة قسنطينة) .

(37 Marçais (G.) , *Les poteries et faiences de Bougie (collection Débruge) , contribution à l'étude de la céramique musulmane*, D. Braham éditeur , Constantine 1916 .

ب- المصنوعات الخزفية : تتفرع الى :

- مصنوعات من الخزف العادي من العهد الحمادي حيث يلاحظ التشابه الكبير مع الصناعة الخزفية بقلعة بني حماد بالنسبة للمظهر والطابع والنماذج . وهي مزخرفة ببقاع خضراء وخطوط بنية . وتحتوي على قطع من الاواني والقصاع .

- مصنوعات من الخزف الملون بالازرق والمنقوشة بالاشكال الهندسية ومادة طينية وردية وارضيتها بيضاء تميل الى اللون الوردي ولكن الازرق هوالمسيطر . ويرى جورج مرسي ان استعمال اللون الازرق وأشكال النقائش متاثر بالطابع المرسيلي ولذلك أطلق عليها عائلة « الفترة المرسيلية » يؤرخها بما بعد القرن 14/8 (38) .

- مصنوعات من الخزف ذي اللون الأزرق ولكنها مختلفة عن النمط المرسيلي باشكال رسومها ، اذ يلاحظ رسم الزهرات المصحوبة بثلاث سعفات نخيل ، ومثال ذلك قطعة من قارورة مرسوم على بطنها زهرات وسعفات محفوظة في متحف « قيرتا» بقسنطينة.ويلاحظ استعمال رسوم نواشين متداخلة مكونة لطابقين من أشكال « المعين » رسمت على قطعة من آنية محفوظة ايضا في متحف « قيرتا» . ودرس ج . مرسي القطعتين . وصنفهما ضمن النمط الفلنسي (فرنسا) الذي وصل تاثيره الى بجاية حسب دراسته خلال القرن 15/9 أو القرن 16/10 .(39) ويلاحظ استعمال اللون الأزرق على الابيض ذي التاثير الفلنسي ايضا ، وذلك على مصباح بدون رأس محفوظ بمتحف بجاية .

- مصنوعات من الخزف ذي الانعكاس المعدني : تستعمل فيها الزخرفة بالخطوط العمودية والأفقية الزرقاء والخطوط البنية والحمراء والبقاع الزرقاء. ولنا منها في متحف قسنطينة وعاء

(38 *Ibid*., p. 15 .

(39 *Ibid*., p. 19 .

ذو اذن و 3 قطـع من اقداح ، أرخهـا جورج مرسي بالقـرن 14/8 . وهـي اختصاص بجائي منذ بداية العهد الحمادي . (40)

وحسب التواريخ التي قدمهـا جورج مرسـي لهذه القطع فان صناعة الفخار والخزف تكون قد امتدت في بجاية على كامل العصر الوسيط . واقدم هذه المجموعات هي ما سماها بالمجموعة الحمادية التي أرخها بنهاية القـرن 11/5 الى منتصـف القرن 12/6 ، وآخرها مجموعة « النمـوذج الفلنسي ذات الزخرفة الزرقاء » التي يرجعها الى الـقرن 15/9 او 16/10 .

ويتساءل ج . مرسي عمًا اذا كانت هذه « المجموعة الحمادية » قادمة من قلعة بن حماد ام مصنوعة في بجاية من قبل حرفيين اصيلي القلعة (41) .

ودفعه الى هذا التساؤل انها كانت مماثلة لما وجد من قطع في القلعة .

وهذا يجرنا الى تساؤل تاريخي :

فهل بدأت صناعة الفخار ببجاية فعلا منذ بداية عهد الحماديين بها ام لا ؟

سبق ان بينا ان الهجرة الى بجايـة كانت نشيطـة منذ نشاتهـا . ومن بين المهاجرين استقبلت بجاية عددا كبيرا من أصيلي القلعة من مختلف الفئات للاستيطان (42) .

وبينـا اجمالا ان بجاية عوضـت القلعـة لا بشريـا فقط بل ايضا سياسيا واقتصاديا (43) .

ولذلك فنحن نعتقد ان بجاية جمعت من أصحاب الحرف كل الاصناف التي كانت موجودة بالقلعة . ومن بينهم صانعو الفخار والخزف الذين هجروا القلعة للاستيطان ببجاية في نطاق هجـرة شاملـة وسريعة الى ان تخربت القلعة كما ذكر الادريسي (44).

ولهذه الاسباب ، فاننا نعتقد ان صناعة الفخار قد بدأت منذ تحول الحماديين اليها .

---

40) *Ibid* . p. 20.

41) *Ibid* .p.15 .

42) راجع ص 362-363 من البحث

43) راجع ص 53-54 من البحث .

44) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 117 .

2 - التقنيات ايضا تلقت التاثير الخارجي :

بينت لنا دراسة جورج مرسي ومعاينتنا المباشرة للقطع الفخارية والزخرفية ان النماذج كانت متنوعة وان تقنيات صنعها كانت مختلفة .

اعتمد الحرفي بالنسبة للتلوين على3 ألوان رئيسية :الاسود والاخضر بالنسبة للفخار والازرق بالنسبة للخزف . كما استعمل أحيانا في الخزف أو الخزف ذي الانعكاس المعدني اللون الوردي والابيض والاخضر والبني والبنفسجي والاحمر . ويفهم من خلال دراسة جورج مارسي ان اللون الازرق اصبح يستعمل في الخزف العادي ببجاية عن طريق التاثيرات المرسيلية اولا خلال القرنين 13/7 و 14/8 والفلنسية ثانيا إما خلال القرن 15/9 أو القرن 16/10.

ولكن بالنسبة للخزف ذي الانعكاس المعدني لربما يرجع استعمال اللون الأزرق الى بداية العهد الحمادي ببجاية دون ان نكون متاكدين ؛ رغم ان جورج مرسي رأى أنهاأصبحت مبكرا اختصاصا بجائيا موروثا عن القلعة .(45)

ويؤرخ القطع التي بين ايدينا الى ما قبل القرن 14/8وليس بعده ، ما عدا قطعة واحدة يغيب فيها اللون الأزرق يذهب بها الى ما بعد سنة 1500 . ويقول ان وجودها ناتج عن التاثير الاسباني (46) .

يدل تطور التقنيات على مستوى الاشكال او الالوان على تاثيرات أوروبية الى جانب التاثيرات المحلية .

لم يقع العثور الى حد الآن على نماذج أوروبية في بجاية حتى نذهب الى القول إن هذا التاثير ناتج عن قدومها في شكل بضائع . بينما اخبر دي ماس لاتري في كتابه ان هناك أوعية من الخزف المذهب البجائي أدرجت في قائمة جرد لصيدلية بجنوة سنة 1312/712 (47) فهل كان الحرفيون البجائيون يعملون على صنع انماط تستجيب لطلبات السوق الأوروبية فادخلوا عليها التغييرات المناسبة لتتلائم مع أذواق الأوروبيين ؟

(45 Marçais (G.) *Poteries et faïences ..., op.cit.*, p. 15-20 .

(46 *Ibid* ., p. 20.

(47 De Mas Latrie , *éd., Traités ...op.cit.*, p. 223 .

بإجمـال يبدو ان صناعة الفخار دخلت مدينة بجاية على ايدي حرفيين مهاجرين من القلعة ، ثم تطورت نتيجة تفاعلها مع السوق الخارجية وتاثرها بالنماذج الأوروبية ، خاصة المرسيلية والفلنسيـة . وكانـت صناعة متنوعة من حيث الاصناف والنماذج والفنيات .

تبقى الصناعات التي استعرضناهـا نماذج من نشـاط صناعـي اكد الادريسـي على تنوعـه .الا انها نماذج كافية للبرهنـة على تفرع قطاعاتـه وتفاعلها مع الاسواق وتقبلها للتاثيرات الداخلية والخارجيـة وقدرتهـا على التطور .

الفصل الثاني

بجاية ميناء لتجارة القوافل

يتاكد ارتباط بجاية بتجارة القوافل من قولة الادريسي : « والسفن اليها (اي الى بجاية) مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة » (1) وتكتمل هذه اللوحة بتوضيح فروعها حين واصل قائلا : » وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصّحراء وتجار المشرق ».ولكنة لا يعطينا اية تفاصيل . على اننا نعتبر هذه العبارات الواضحة الدّالة على ربط بجاية بتجارات القوافل خاصة التجارة الصحراوية بعيدة المسافات الخطيرة والمربحة في نفس الوقت مكسبا هاما بالنسبة للباحث ، اذ لن ننطلق في حديثنا من افتراضات بل سنبني استنتاجاتنا من معطى مصدري أساسي ، وسنتابع المعطيات الواردة في مصادرنا الاخرى محاولين الكشف عن جوانب هذه التجارة وأهميتها و البحث عن علاقتها بالتجارة المتوسطية لكنها معطيات قليلة اذ لا نملك نصوصا صريحة أو رسائل أو عقود ا .

يمكن تقسيم تجارة القوافل الى تجارة غير عابرة للصحراء في نطاق المغرب العربي ونحو بلاد المشرق ؛ وتجارة عابرة للصحراء نحو« بلاد السودان » ذات خصوصيات وبضائع مختلفة عن الأولى .

وسنحاول ان نتعرف عن موقع بجاية ودورها في هذين المجالين التجاريين الواسعين .

---

1) الادريسي، *المغرب العربي من نزهة المشتاق*، ص 116 .

البـــاب الاول :

شبكـة طرقات ممتدة ومترابطة

قال الادريسي : « ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد » (1) ثم حدد المسافات الفاصلة بينها وبين عدد من مدن إفريقية والمغرب الأوسط ليوضح قوله .ونعتقد انه لم يفعل ذلك اعتباطا بل بالاعتماد على وجود مسالك مؤدية الى هذه المواقع ، لا سيما وأن قياس المسافة هو قياس زمني ، وهو المدة التي تقضيها القافلة من نقطة الى أخرى باتباعها لمسلك معـين ؛ وتقـاس بالمرحلة المساوية لليوم او لخمسة وعشرين ميلا (2) .

ولهذا فتحديد المسافات هو كشف في نفس الوقت عن شبكة طرقات برية مؤدية الى بجاية .

اما عبد الواحد المراكشي فواضح فيما يخص رسم طرقات السفر . فهو يقول مثلا : « وها انا أذكر طريق السّفار من بجاية الى مراكش » (3) . وعندما ذكر منجم « ابسنتار » للحديد بين سلا ومراكش لفت نظرنا الى انه لا يقع على طريق السفر بقوله :« وليس هذا الموضع على طريق السفّار انما يقصده من أراد حمل الحديد منه » (4)

وتعيننا المعلومات الواردة في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ورحلة العبدري (5) والمعلومات الواردة في تقويم البلدان » لأبـي الفـداء (6) وفي رحلة ابن بطوطة (7) على رسم هذه الشبكة وتتبع تطورها .

نستنتج انها كانت تتكون من :

أولا ، شبكة داخل المغرب تتفرع اعتبارا بان بجاية هي المقصد والمنطلق الى :

1 - طريقين شرقيين : الأول ساحلي والثاني داخلي يربطـان بجايـة بإفريقية وبالمشرق .

2 - طريقين غربيين يربطانها بتلمسان وفاس ومراكش : الأول ساحلي والثانـي داخلي .

---

1) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

2) بالنسبة للمعادلة بين وحدات قيس المسافات يقول الادريسي في نفس المصدر ص 123 : « من قسنطينة الى مدينة بجاية ستة ايام ، اربعة منها الى جيجل . ومن جيجل الى مدينة بجاية خمسون ميلا » ، وهذا يعني ان بين بجاية وجيجل يومان وفي نفس الوقت 50 ميلا . ولذلك ، فاليوم يساوي 25 ميلا ويقول في ص 116 :« من بجاية الى سطيف يومان » ، وفي ص 125 يذكر ان بينهما مرحلتان . فالرحلة تساوي اذن يوما ، وهكذا نتحصل على المعادلة التالية : مرحلة = يوما = 25 ميلا . المصدر نفسه .

3) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب*... ، ص503 .

4) المصدر نفسه ، ص 510 .

5) العبدري (محمد) ، *الرحلة المغربية* ، تحقيق محمد الفاسي ، الرباط 1968 ؛ ص 37 - 39 ، 276 .

6) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 130 - 149 .

7) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 19 - 20 ، 289 - 290 ،

3 - طريقـــان جنوبيين : يربطهـــا الأول ببسكرة ثم ورجلان والثانـــي بباغاية وتبسة وتوزر.

ثانيا ، شبكة صحراوية تتصل بالأولى عبر محطات واقعة بين الصحراء وبلاد المغرب ، وسنبين انها كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا ببجايـــة .

ا بجـــاية قطب في الشبكـــة المغربيـــة :

1 - طريقــــان شرقيـــــان :

أ - الطريق الشرقية الساحلية تربط بجاية بتونس وتصلها بالإسكندرية :

ونحن اذا تتبعنا الطريـق الساحلـي ، لاحظنا انها الطريـق البريـــة الرابطة بين بجايـــة والمرافـــئ سواء الصغيـــرة او الكبيرة الى ان تصل الى الاسكندرية . واعتبرت في بعض المصادر العربية أسرع طريق برّية اذ وصفت بالطريق « الجادّة» اي السريعـــة . (8)

وقد عرفت تطورات ادت بها الى اكتمال رسمها في العهد الحفصـي . ويهمنا ان نعرفها مع بداية بجاية في العهد الحمّادي بتتبع مصادرنا المتحدثة عنها التي مثل كل مصدر منها فترة معينة : فالادريسي في الفترة الحمادية الأخيرة ثم عبد الواحد المراكشي في العهـــد الموحدي ، وابن بطوطـة وابـو العباس القلقشندي في العهد الحفصي (9).

يذكر الادريسي المحطات الرئيسية التي تمر منها هذه الطريق : بجاية - جيجــل - القل - بونة - ومرسى الخرز (10) . ولكنه لا يذكر المحطات الموالية ؛ وحتـى عند حديثه عن تونس لم يربطها بهذه الطريق بل ربطها بالقيروان .

---

8) ابن حوقل ، *صورة الارض* ، ص 6 ؛البكري ، *المسالك والممالك*، ج II،ص 739 ؛ ابن ابي زرع ، *روض القرطاس* ، ص 6 ؛ موسى (عزالدين عمر) ، « طريق الصحراء الليبية من المغرب الأقصى الى مصر في القرن 6 م » *مجلة البحوث التاريخية* ، عدد 1 ، 1983 .

9) الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص 116 - 154 ؛ عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 490 - 497 ؛ ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 19 - 21 ؛ القلقشندي ، *صبح الأعشى* ، ج ٧، ص 490 - 497 .

10) الادريسي ، المصدر نفسه ، ص 123 - 125 ، 133 ، 153 - 154 .

وقد يفسر ذلك بان الحركة التجارية البرية لم تكن حثيثة بين بجاية و تونس في عهده اي المنتصف الأول للقرن 6 هـ / 12 م .

وهذا راجع الى التجزئة السياسية واختلال الأمن في إفريقية إثر زحف بني هلال منذ منتصف القرن 5 هـ / 11 م .

ولكن تطورت هذه الطريق البرية الساحلية لتكوّن شريطا متواصلا الى مدينة طرابلس مع الموحدين حين أصبحت كامل بلاد المغرب تحت نفوذ سلطة مركزية واحدة .

وقد مكننا عبد الواحد المراكشي الذي عاش مع الموحدين من يوم ولادته سنة 581 هـ 1185/ م الى ان غادر المغرب الى المشرق نهائيا سنة 613 هـ1217/ م ، وأنهى كتابه المعجب سنة 621 هـ/ 1224 م ، من تتبع هذه الطريق .

ونستنتج منه اولا ان الطريق الآمنة والعامرة من جهة الشرق تبدأ من مدينة طرابلس نحو افريقية اي بداية من مجال الدولة الموحدية ؛ فقد قال : « وأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة الى هذا الوقت ، وهي اول مملكة المصامدة » (12) وثانيا ان الطريق بين الاسكندرية وطرابلس قد اضطربت وخربت منذ زحف بني هلال وبني سليم في حدود 440 هـ / 1048 - 1049 م .وان الامن لم يعد اليها حى بداية القرن 7 هـ/ 13 م عندما كان يملي كتابه سنة 621هـ 1224/ وقد قال في ذلك : « فاستولى الخراب عليها الى وقتنا هذا (13) . وقد نوّه بازدهار هذه الطريق قبل ذلك التاريخ حتى ان القوافل كانت تمشي فيها ليلا ونهارا (14) .

ولذلك تمكنا اعتمادا على مأورده عبد الواحد المراكشي (15) من رسم مراحل هذه الطريق في العهد الموحدي كما يلي :« طرابلس ، قابس ، صفاقس ، المهدية ، سوسة ، تونس ، بني زرت ، (بنزرت) ، بونة ، قسنطينة وبجاية .

---

11) راجع ص 46-54 من البحث .

12) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص492 .

13) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

14) المصدر نفسه ، ص 491 .

15) يقول عبد الواحد المراكشي : « فحد بلاد افريقية مما يلي الشرق مدينة انطابلس المذكورة ، وحدّها مما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسنطينة الهواء ... » المصدر نفسه ، ص 493 ، وعرّف مدينة انطابلس بانها برقة بقوله : « واول حدّ بلاد افريقية والمغرب مدينة انطابلس المذكورة المدعوة ببرقة ...» المصدر نفسه ص 490 - 491 .

ونلاحظ انه ابتعد عن الشريط حين ذكر قسنطينة وعلل ذلك بقربها من الساحل اذ قال : « هذا ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن أفريقية (16) .

وأضاف ابو الفداء طبرقة الى هذه السلسلة من المدن حين أخبرنا بانها تبتعد عن بنزرت سبعون ميلا (17) وأفادنا بان هذه الطريق الساحلية مرتبطة بداخل إفريقية انطلاقا من طبرقة نحو باجة ومنها الى القيروان اذ قال :« وبين باجة وطبرقة مرحلة وبعض أخرى ...وبين باجة والقيروان خمس مراحل » (18) .

ولا شك ان الربط مع باجة كان يسمح بالمرور الى تونس عبر المسلك الطبيعي لوادي مجردة . فالعبدري مرّ بباجة للوصول الى تونس بعد زيارته لبجاية في طريق الذهاب وكذلك في طريق العودة (19) .

وأفادنا القلقشندي بان الطريق قد اكتملت لتصل الى الاسكندرية وقد رسمها لنا اعتمادا على رحلة قام بها رسولان من الشرق الى الغرب سنة 706 هـ/ 1306 - 1307 م هما « ايدغدي التليلي وايدغدي الخوارزمي » (20) فكانت كما يلي :

الاسكندرية ، طلميثا (21) ، سرت، سراتة ، طهجورة ، طرابلس ثم ترتبط بنفس الطريق الذي رسمه عبد الواحد المراكشي في بداية القرن 7 هـ / 13 م .

وسلك ابن بطوطة نفس الطريق خلال سنتي 725 و 726 هـ / 1325 - 1326 م ، وسماها بنفسه « طريق الساحل » حين قال :« وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة (سنة 725 هـ/ 1325 م) سالكين طريق الساحل » (22) وتتبعنا طريقه بداية من بجاية الى الاسكندرية فتبين ان الجزء الواقع بين طرابلس والاسكندرية قد عادت اليه الحياة فعلا ، ولكنه ما زال يتعرض

---

16) المصدر نفسه ، ص 497 .

17) ابو الفداء ، تقويم *البلدان* ، ص 143 .

18) المصدر نفسه ص 141 .

19) العبدري ، *الرحلة المغربية* ، ص 37 - 39 ؛ 276 .

20)القلقشندي ، *صبح الاعشى* ج VI، ص 112 .

21) عرّف عبد الواحد المراكشي طلميثا قائلا : « وفيما بين برقة وطرابلس حصن يسمى طلميثا ، منه معدن الكبريت » ، عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 492 ؛ وعرفها ابو الفداء بانها « فرضة » مشهورة من إقليم برقة بها 200 يهودي وتحمل المراكب منها الشعير والعسل ، ابو الفداء ، تقويم *البلدان* ، ص 149 .

22) ابن بطوطة ، تحفة *النظار* ، ص20 .

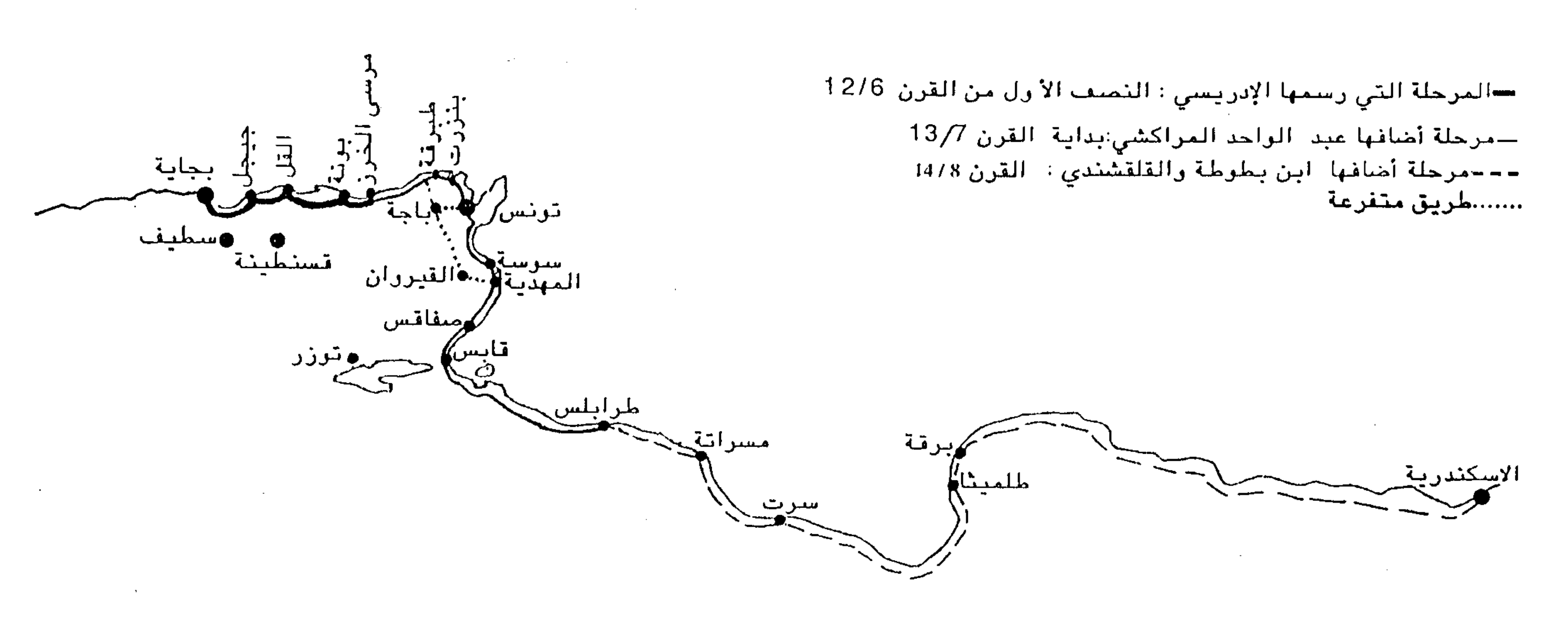
لمخاطـر العـرب الهلاليين والسليميين رغم ذلك فقـد قال بعد ان خـرج من طرابلس في أواخر محرم 726 هـ/ 1326م صحبة أهله وجماعة من المصامدة : « وتجاوزنا مسلاته ومسراته وقصور سرت ، وهناك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون مـا راموه من أذيتنـا » (23)

ويبـدو ان ضـرورة الرحلة التجاريـة ووجوب القيام برحلات الحج اقتضيا التعامل مع الأمر الواقع رغم المخاطر وبالتالي عودة الحركة لهذه الطريق .

والمهـم ان طريق الساحل أصبـح في العهد الحفصي يربط بجايـة وتـونس والاسكندرية ، محطات ثلاث كبرى ، وتشكل رسمها كما يلي : بجاية ، جيجل، القل، بونة ، مرسى الخرز ، بنزرت ، تونس ، سوسة ، المهدية ، صفاقس ، قابس ، طرابلس ، طهجـورة ، مسراتة ، سرت ، طلميثا ، برقـة والاسكندريـة .

---

23) المصدر نفسه ، ص 21 .



اعتمدنا على المسالك و الممالك ؛ نزهة المشتاق ؛ المعجب ؛ رحلة العبدري ؛ تقويم البلدان ؛ رحلة ابن بطوطة ؛ صبح الأعشى.

الطريق الشرقية الساحلية

ب - طريق شرقية داخلية تربطها بوسط إفريقية :

يمكن رسمها اعتمادا على ذكر المسافات من قبل الادريسي بين بجاية وغيرها او بين المدن الاخرى . وهي تصل بنا الى مدينة القصرين (24) .

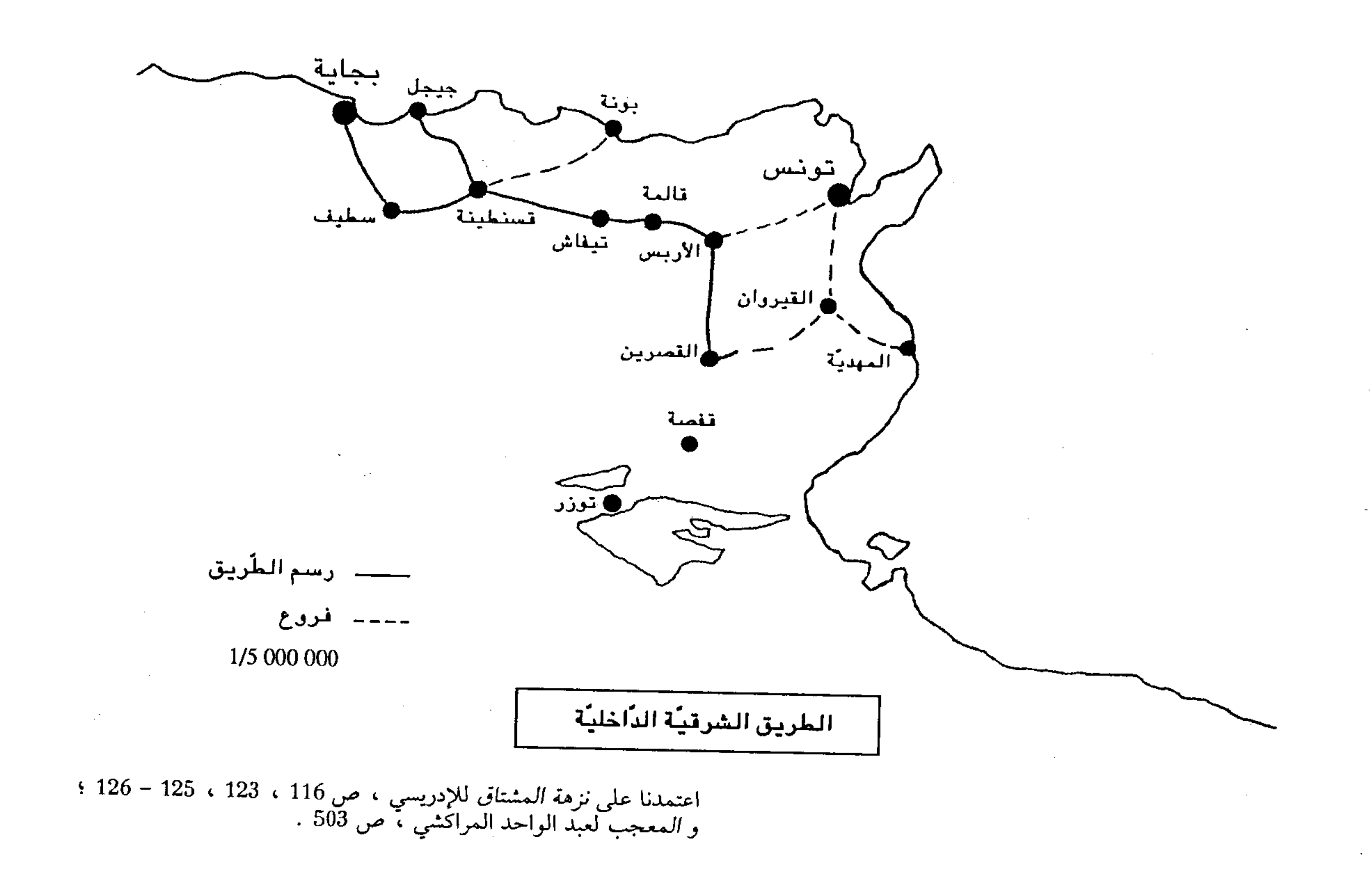
ولكن يصعب علينا تتبع تطورها لان المعطيات تنقصنا في مصادر العهدين الموحدي والحفصي ، واستنتجنا انها تنطلق من بجاية الى إيكجان (25) الى سطيف ، الى ميلة (26) الى قسنطينة ، الى تيفاش ، الى قالمة الى أربس ، الى القصرين . وقد تؤدي هذه الطريق الى تونس عبر وادي مجردة لتلتئم بعد ذلك بالطريق الساحلية ، لان الاربس ، لم تكن بعيدة عن وادي مجردة .

---

24) الادريسي ،*المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116 ، 123 ، 125 ، 126 .

25) ايكجان : جبل قرب سطيف و « بينه وبين بجاية مرحلة ونصف » المصدر نفسه ، ص 126 .

26) انظر ايضا عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 503 .



الطريق الشرقيّة الدّاخليّة

اعتمدنا على *نزهة المشتاق* للإدريسي ، ص 116 ، 123 ، 125 - 126 ؛ و *المعجب* لعبد الواحد المراكشي ، ص 503 .

3 - طريقـــان غربيـــان :

وترتبط بجاية بالغرب ايضا بطريقين : طريق ساحلية وأخرى داخلية ، تؤمنان الاتصال بسواحل المغرب ووسطه وجنوبه .

أ - الطريق الغربية الساحلية تتفرع الى طنجة وتلمسان وفاس وما بعدها:

والطريق الساحلية الغربية امتداد نحو الغرب للطريـــق الساحليـــة الشرقية .

يرسم الادريسي جزءا قصيرا منها فقط يصل الى «مرسى الدجاج» مرورا بدلس قبيل الجزائر (27) . ويتقدم ياقوت الحموي حتى « جزيـرة مزغنـاي » (الجزائر حاليا) (28) . بينما يعطينـا عبد الواحـد المراكشي أكمل رسم اذ ينتهي بنا الى مدينة طنجة ويلتزم باتباع الساحـل .

وهذه هي المراحل التي رسمها لنا ، فمن بجاية الى الجزائر الي تنس الى وهران الى سبتة الى طنجة .

ويتبين اعتمادا على المسلكين اللذين سلكهما ابن بطوطة عند الذهاب سنة 725 هـ / 1325 م ثم الاياب سنـة 750هـ / 1349 م ان هذه الطريـــق ترتبط بتلمسـان انطلاقا من الجزائر عبر مليانـة (29) أو انطلاقا من مستغانم (30) .

ونستنتج من خبر اورده عبد الباسط بن خليل وقع في 29 صفر 871 / 10 أكتوبر 1466 ان وهـــران ترتبـط ايضا بتلمســـان ، بـل هي الميناء المتوسطي لها ؛ اذ أعلمنا ان تجارا من تلمسان عزموا على السفر في البحـر من ميناء وهران على مراكب جنوية (31) .

وكانـت تلمسان مرتبطة بفاس وما بعدها وسجلماسة وما بعـــدها . ولذلك فان المسافر عبر الطريق الساحلية يمكن ان يغيُّر وجهته عبر تلمسـان

---

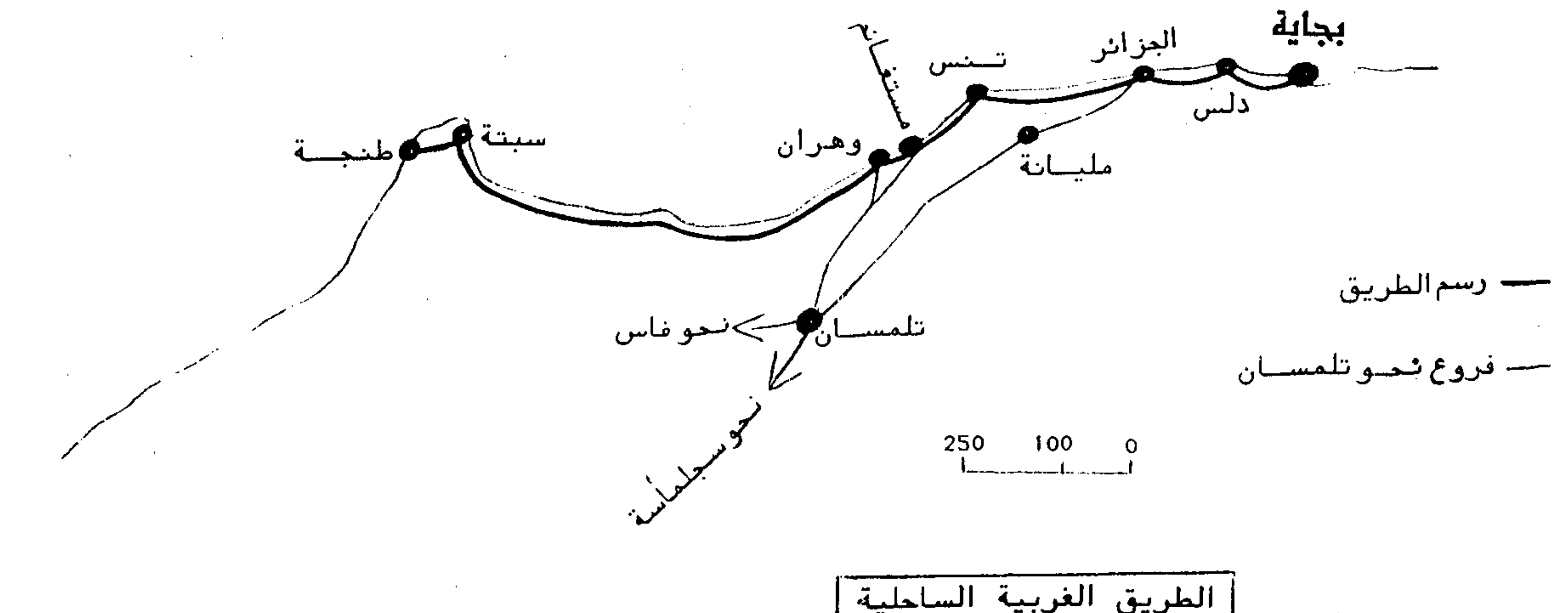
27) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 115 .

28) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج1، ص 339.

29) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ...، ص19 - 20 .

30) المصدر نفسه ، ص 290 .

31) Brunschvig (R.) , éd., *Deux récits inédits ...op.cit.*, p. 67 - 68 .



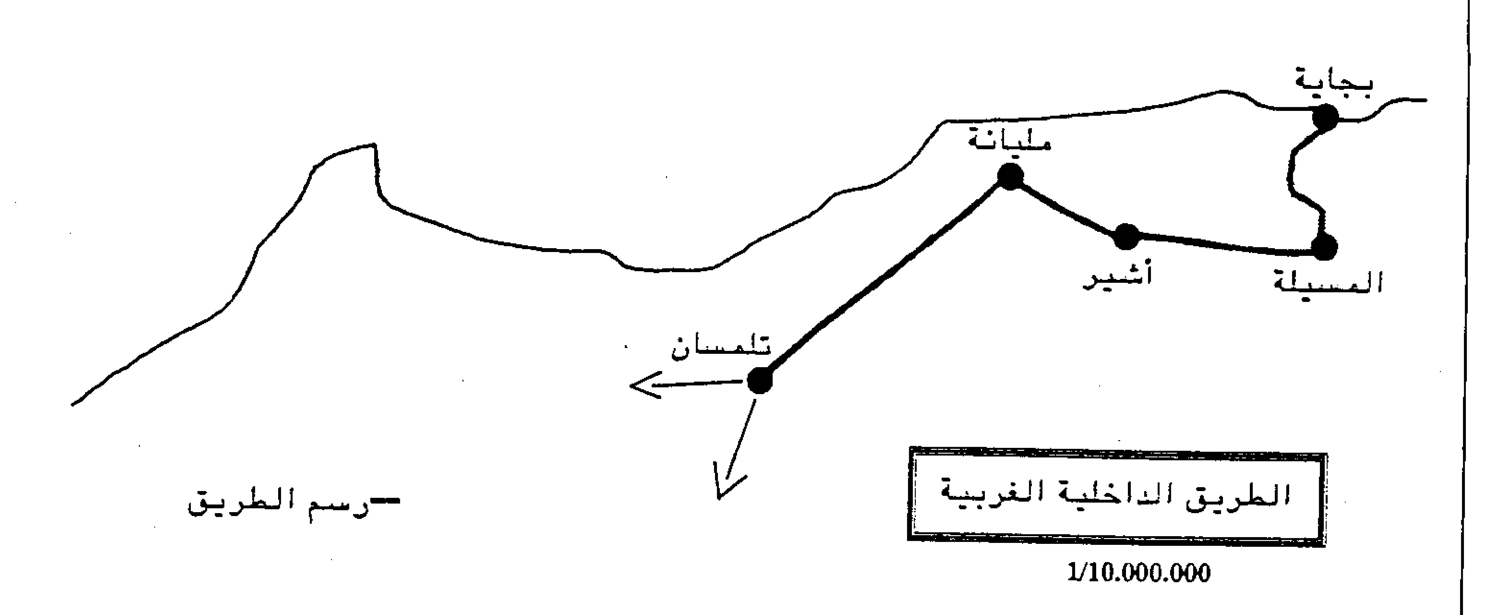
الطريق الغربية الساحلية

الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ...ص 115؛ ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج ا ، ص 339 ؛ ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 19-20 ؛

Brunschvig (R.)éd., *Deux récits de voyage* ..., *Op.Cit* . p.67-68.

ب - الطريق الداخلية الغربية تربطها بتلمسان والمغرب الاقصى :

اما الطريق الداخلية نحو المغرب الاقصى ، فتربط بجاية بتلمسان مرورا بالمسيلة وأشير ومليانة . وفي تلمسان تتعدد الاتجاهات كما ذكرنا . ويساير المسلك بداية من أشير ثم مليانة وادي الشلف لربما لاربعة أسباب : أولها انه ممر طبيعي سهل ، ،ثانيها تتوفر به المياه ، وثالثها من المحتمل انه كان مسلكا رومانيا قديما حسب ما ذهبت اليه كلودات فنكار (Claudette Vanacker) (32) ، ورابعها أهمية مليانة كمحطة استراحة ذات مرافق تميزها عن غيرها ، رواها لنا زكرياء القزويني (33) ، خاصة ان قربها وجدت « حمامات لا يوقد عليها ولا يستقى ماؤها بنيت على عين حارة غذبة الماء يستحم فيها من شاء ». (34)



أنجزت هذه الخريطة بالرجوع إلى : زكرياء القزويني ، *آثار البلاد* ص 273؛
Vanacker (Cl), «Géog. éco ....», *op.cit.*, p.662 - 663 . carte n°3.

---

32) Vanacker (Cl .) , "*Géog . éco. ...*", *op.cit.*, p. 664-665 .

33) زكرياء القزويني ، *اثار البلاد واخبار العباد* ، دار صادر دار بيروت 1960 ، ص 273 .

34) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

2 - طريقـــان جنوبيـــان :

ويمكن تتبـع طريقـين أخريـين : الاولى جنوبية - شرقية والثانية جنوبية . وذلك انطلاقا من المعطيـات التـي أوردتهـا نفس المصادر التـي استعملناها : نزهة المشتاق ، المعجب ، تقويم البلدان ، رحلة ابن بطوطـة ، صبح الأعشى (35) .

أ -الطريق الجنوبية -الشرقية تربطها بجنوب إفريقية وغدامس :

وتشترك الطريق الجنوبية - الشرقية مع الطريق الداخلية الشرقية في الجزء الرابط بين بجاية وقسنطينة سواء مرورا بسطيف أو جيجل . فقد كانت قسنطينة مفترق الطريقين .

وتتوضح لنا المحطات الرئيسية لهذه الطريق داخل المغرب الأوسط من خلال نزهة المشتـاق حيث يذكر الإدريسـي المسافات بينها وبين بجاية ، او بينها وبين قسنطينة (36) .

وتنطلق حسب الإدريسـي من بجاية الى قسنطينة مرورا بسطيف او جيجل (37) ثم من قسنطينة الى باغاية . ويذكـر الادريسـي المسـافة بين بجاية وتبسة (38) وبين بجاية والقصرين (39) دون ان يعرفنا بمراحل الوصول اليها ، بينما ربط توزر بباغاية وربط باغاية بقسنطينـة حين قال : « ومن مدينة باغاي الى قسنطينة ثلاثة مراحـل ... ومن باغاي الى مدينة قسطيلية اربع مراحل ، وهي تسمى توزر ... (40) .

---

35) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116 - 140 ؛ عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 489 - 510 ؛ ابو الفداء ، تقويم *البلدان* ، ص 122 - 149 ؛ ابن بطوطة ، تحفة *النظار* ، ص 37 - 39 276؛ ابو العباس القلقشندي ، *صبح الاعشى* ، ج ٧، ص 109 - 112 .

36) الادريسي ، المصدر نفسه ، ص 116 - 140 .

37) المصدر نفسه ، ص 116 ، 123 .

38) جعل الادريسي المسافة بين بجاية وتبسة ستة ايام ، المصدر نفسه ص 116 ؛ ولكن يبدو وانه أخطا لانه أعطى نفس المسافة بين بجاية وقسنطينة ، المصدر نفسه ، ص 123 ؛ انظر الخريطة ص169 .

39) يبدو ان الادريسي اخطا مرّة أخرى عندما جعل المسافة بين بجاية والقصرين ستة ايام ، المصـدر نفسه ، ص 116 .

40) المصدر نفسه ، ص 138 .

فهل تتفرع الطريق في باغاية اولا نحو تبسة ومنها الى القصرين وثانيا نحو توزر ام أن هناك خط واحد من باغاية يمر بتبسة ثم القصرين للوصول الى توزر ؟

ان مسافة اربعة مراحل التي قدمها الادريسي بين باغاية وتوزر القليلة تجعلنا نفترض ان الطريق بينهما مباشرة فالمرجح ان باغاية ملتقى فرعين للطريق الجنوبية - الشرقية ويمكننا عبد الواحد المراكشي من ربط هذه الطريق بالطريق الساحلية حيث يمكن الوصول من توزر الى قابس مرورا بقفصة ، فقد قال : « من مدينة قابس المتقدم ذكرها الى مدينة تسمى قفصة ثلاث مراحل ، ومن قفصة الى مدينة توزر أربع مراحل » (41) .

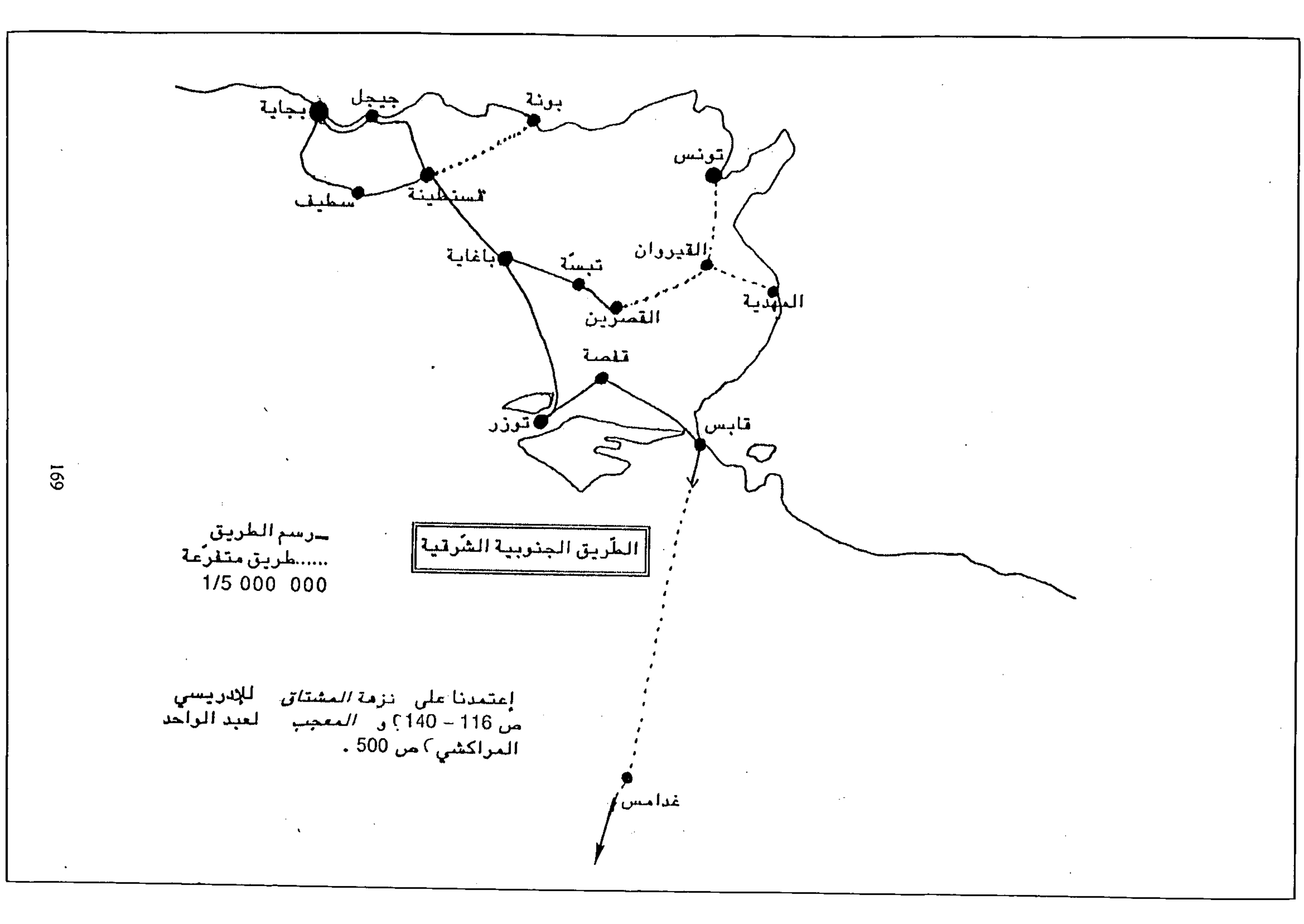
ولذلك يتبين ان المحطة الرئيسية لهذه الطريق هي باغاية التي من الممكن ان تكون نهاية رحلة الجنوب الشرقي بالنسبة للبعض . ويتبين لنا رسم الطريق كما يلي :

اذا كانت الغاية الوصول الى توزر وما بعدها ، يكون المسار على النحو التالي : بجاية ، قسنطينة ، باغاية - توزر - قفصة - قابس ، واذا كانت الغاية الوصول الى تبسة ثم القصرين فان الذهاب ينطلق من بجاية ثم قسنطينة ، باغاية ، تبسة ، القصرين . وقد ترتبط الطريق انطلاقا من القصرين بالقيروان ثم المهدية . (42)

---

41) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* .. ، ص 500 .

42) Vanacker (Cl.) , " Géog. économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes du IX ème s au milieu du XII ème s " , *Annales ESC*, mai-Juin (1973), p. 659-680, Carte N°3 .


الطّريق الجنوبية الشّرقية
بجاية
جيجل
بونة
تونس
سطيف
قسنطينة
باغاية
تبسّة
القيروان
المهدية
القصرين
قفصة
توزر
قابس
غدامس
ـرسم الطريق
......طريق متفرّعة
1/5 000 000
إعتمدنا على نزهة المشتاق للإدريسي
ص 116 – 140؛ و المعجب لعبد الواحد
المراكشي، ص 500 .

ب - الطريق الجنوبية تربطها ببسكرة وورجلان :

وترتبط بجاية بالجنوب عن طريق محور مستقل عن محور بجاية - قسنطينة يمر بالقلعة والمسيلة . فما هو رسمه ؟ وهل مثلت القلعة محطة هامة حتى في العهد الحفصي ؟

يتبين حسب الادريسي ان القلعة مازالت محطة هامة في عهده اي في النصف الأول من القرن 6 هـ/ 12 م . ووضح رسم الطريق بين بجاية والقلعة متتبعا الاسواق والحصون الواقعة عليه . وتبين انها تساير الوادي الكبير او وادي بجاية اي السومام حاليا ، ثم وادي الملح (43) اذ ذكر ان حصن تاكلات « منيع على شرف مطلّ على وادي بجاية . وبه سوق دائمة ...» (44) ثم ذكر حصن بكر الذي يقول عنه ان «الوادي الكبير يجرى مع اصله وبجنوبه » (45) . وتنعرج الطريق تاركة وادي بجاية غربا عند الوصول الى قرية « القصر» اي قرية بني منصور حاليا (46) لتتبع مسلك وادي الملح اذ يقول الادريسي « وهناك (اي في «القصر ») تترك وادي بجاية غربا »('46) ثم يعرف من بين المواقع المتتالية قرية« تاورت » فيقول انها « قرية كبيرة على نهر الملح ...» (47).

طريق بجاية – القلعة – المسيلة
من العهد الحمادي إلى بداية القرن 7/ 13

1/2 500 000

Vanacker (Cl.) , *Ibid.*, p. 670 .

43) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 118 .

44) الادريسي ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها

45) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

46) Vanacker (Cl.) ," Géographie éco..." , *op.cit.* p. 670 .

'46) الادريسي ، *نزهة المشتاق* ... ص 118 .

47) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ولكن هذه الطريق بين بجاية والقلعة ليست كلها آمنة اذ يذكر الادريسي ان بعد مضيق في جبال « البـــاب » التي يخترقهـا وادي الملـح تبدأ غـارات الهلاليـين (48) اي تبدأ في مدخل حوض الحضنة . ولكن السكان تعاملوا مع الامر الواقع باسلوبين « الحراسة » (49) و« المهادنة » مع « العرب » الذين كانوا متفوقين (50) رغـم ذلك .

هل هــذه هي الطريق الوحيدة المؤديـة الى القلعـة ؟

لقــد ربـط ياقوت الحمـوي المتوفي سنـة 616 / 1219 القلـعة بسطيف هندما حدد المسافة بينهما بـ 3 مراحل (51) ، وبالتالي يمكن القدوم اليها من بجاية مرورا بسطيف أيضــا .

ويضيف ياقوت الحموي ان بينها وبين قسنطينة أيام (52) وهذا يعني أن طريـق الجنوب كانت مرتبطة بقسنطينة عبر سطيــف . وهي امكانيـة متوفرة لتجار الجنوب المتعاملين مع قسنطينة وبجاية في نفس الوقت . كما انها متصلة بباغاية أيضا ، اذ أعطانا المسافة بينها وبين طبنة : 4 مراحل (53) .

وبدت القلعة محطة هامة على طريق الجنوب رغم ان الادريسي أخبرنا بقوله : « واما مدينة بجاية في ذاتها فانها عمرت بخراب القلعة (54) ويبدو ان هذا الخراب الذي قصده نسبيّ ، وليس كليا ، حيث انها بقيت موجـودة كمركز عمراني أهم من غيره في منطقتنا ؛ ومازالت محطة تستحق الذكـر

---

48) قال الادريسي : « ،من تاورت الى الباب ، وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح . وهناك مضيق وموضع مخيف . والى هاهنا تصل غارات العرب وضررها .» المصدر نفسه والصفحة نفسها .

49) قال الادريسي عن حصن سوق الخميس : « العرب محدقة بارضه وفيه رجال يحرسونة » المصدر نفسه والصفحة نفسها .

50) قال الادريسي عن حصون على طريق القلعة : « وجميع هذه الحصون اهلها مع العرب في مهادنة . وربما اضر بعضهم ببعض غير ان ايدي الاجناد فيها مقبوضة وايدي العرب مطلقة في الاضرار » ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

51) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ص 390.

52) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

53) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 119 .

54) المصدر نفسه ، ص 117 .

في العهد الموحدي حسب المراكشي رغم ان الموحديـن ساهمـوا هم ايضا في تدهورها سواء بالعمليات العسكرية عندما فتحها سنة 547 هـ/ 1152 م او عدم الاكتراث بها عندما كانت في نفوذهم (55) فقد اهتم بتحديد المسافة بينها وبين بجاية « ومن قلعة بني حماد أربع مراحل » (56) .

ذكرنا ان ياقوت الحموي الذي توفي 616 هـ/ 1219 م اهتم بها ايضا (57) .

ودعم الغبريني ما جاء في المعجب ومعجم البلـدان اذ جـاء في كتابه عنوان الدراية ان بعض علماء الثلث الاول للقرن 7 هـ/ 13 م في بجاية درسوا في القلعة (58) .

غير ان القلعة فقدت كل اهمية قبل نهاية القرن 7 هـ/ 13 م فهؤلاء العلماء ، حتـى وان درسوا بها هاجروا الى بجاية . ثم ان الغبريني المتوفي سنة 704 / 1304 م والـذي كتب كتابه عن علماء القرن 7 هـ/ 13 م ، بين بوضوح انها لم تعد ذات اهمية حين قال عنها انها « كانت حاضرة علم » (59) ، يعني هذا انها لم تعد كذلك في عهده .

وعدهـا ابن خلدون في القرن 8 / 14 م من بين المـدن الـتي تدهـورت او تخربت بانقراض الدولة المؤسسة لها (60) .

وغابت القلعة في العهد الحفصي من مؤلفات الرحالة والجغرافيين وغيرهم . وان تحدثوا عنهـا ، فعلى ماضيها ولذلك فان طريق الجنـوب تركها جانبا ، بينما بقيت المسيلة محطة هامة ، ذكرهـا ابو الفـداء المتوفي سنة 732 هـ / 1332 م في كتابة تقويم البلدان وحدد المسافة بينها وبين طينـة بمرحلتين .

وتعرض ابن خلدون الى طريق مؤدية من بجاية الى المسيلة حين تحدث عن معسكر أقامه ابو العباس أمير بجاية (767/1366-772/1370) سنـة

---

55) قال ابن خلدون :« دخل الموحدون القلعة عنوة وقتل حوشن بن العزيز وآبن الدحامس من الاشياع معه وخربت القلعة » ، ابن خلدون ، *العبر* ،VI، ص 364 .

56) عبد الواحد المراكشي ، *المعجـب* ...، ص 503 .

57) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ...، ص 390 .

58) ابو العباس الغبريني ، *عنوان الدراية* ص 140 ، 192 ، 193 .

59) المصدر نفسه ،ص 192

60) ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 619 .

769 / 1368 للتصدى لهجوم السلطان الزياني ابي حمو (760/1359-791/1389) اذ قال عن ابي العباس انه « عسكر بطرف ثنية القصاب المفضية الى المسيلة » (61)

فما هو المسلك بعد المسيلة ؟

يرسمه لنا الادريسي كما يلي : « وتخرج من المسيلة الى مقرة مرحلة ... ومن مقرة الى طبنة مرحلة ... » (62) ويربط طبنة بباغاية : « من طبنة الى باغاي أربعة مراحل » (63) وبذلك تربط طريق الجنوب بالطريق الجنوبية الشرقية والمدن المؤدية اليها خاصة قسنطينة ويضيف المراكشي مدينة نقاوس التي تاتي بعد بسكرة في اتجاه الشمال " « وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس » (64) .

اما بسكرة ، فهي محطة رئيسية على طريق الجنوب ، ونهاية الخط بالنسبة لبعض تجار بجاية او غيرهم .

واكد ابو الفداء وابو العباس القلقشندي اللذان عاصرا الدولة الحفصية (65) على ارتباطها ببجاية بتجارة التمر اذ قالا : « من بسكرة يجلب التمر الطيب الى تونس وبجاية » (66) ونقل الاثنان هذه المعلومات من مصدر واحد وهو كتاب بسط الارض في الطول والعرض لابن سعيد المغربي .

ويوضح ابن خلدون ، ان الطريق من المسيلة يفضى الى بلاد الزاب التي كانت بسكرة قاعدته ؛ فقد روي ضمن أخباره انه انتقل الى المسيلة ثم الى الزاب : « وتاخرنا الى المسيلة ، ثم الى الزاب ... » (67) .

وكانت بسكرة مفترق طرقات ، اذ تتفرع بها الطريق الجنوبية نحو توزر ووارجلان (ورقلة حاليا) .

فقد اورد المراكشي ان « من مدينة توزر الى مدينة بسكرة اربع مراحل » (68) .

---

61) ابن خلدون ، *التعريف بابن خلدون* ... ،ص 131.

62) الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص 119 .

63) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

64) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ...، ص 501 .

65) توفي ابو الفداء سنة 732 /1332 ، وتوفي القلقشندي سنة 821هـ/ 1418 م

66) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 139 ؛ ابو العباس القلقشندي ، *صبح الاعشى* ... ، ج7، ص 107 .

67) ابن خلدون ، *التعريف بابن خلدون* ... ،ص 131 .

68) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 501 .

اما ورجلان ، فقد أخبرنا البكري في القرن 5 هـ/ 11 م انها كانت مرتبطة بالقلعة (69) ، واخبرنا الادريسي في القرن 6 هـ/ 12 م انها مرتبطة بالمسيلة (70).

والاهم هو ان ورجلان كانت بوابة الصحراء ترتبط بطريق توات نحو تادمكة وتمبكتو من « بلاد السودان » (71)

وهكذا يتبين لنا رسم طريق الجنوب في العهد الحفصي كما يلي :

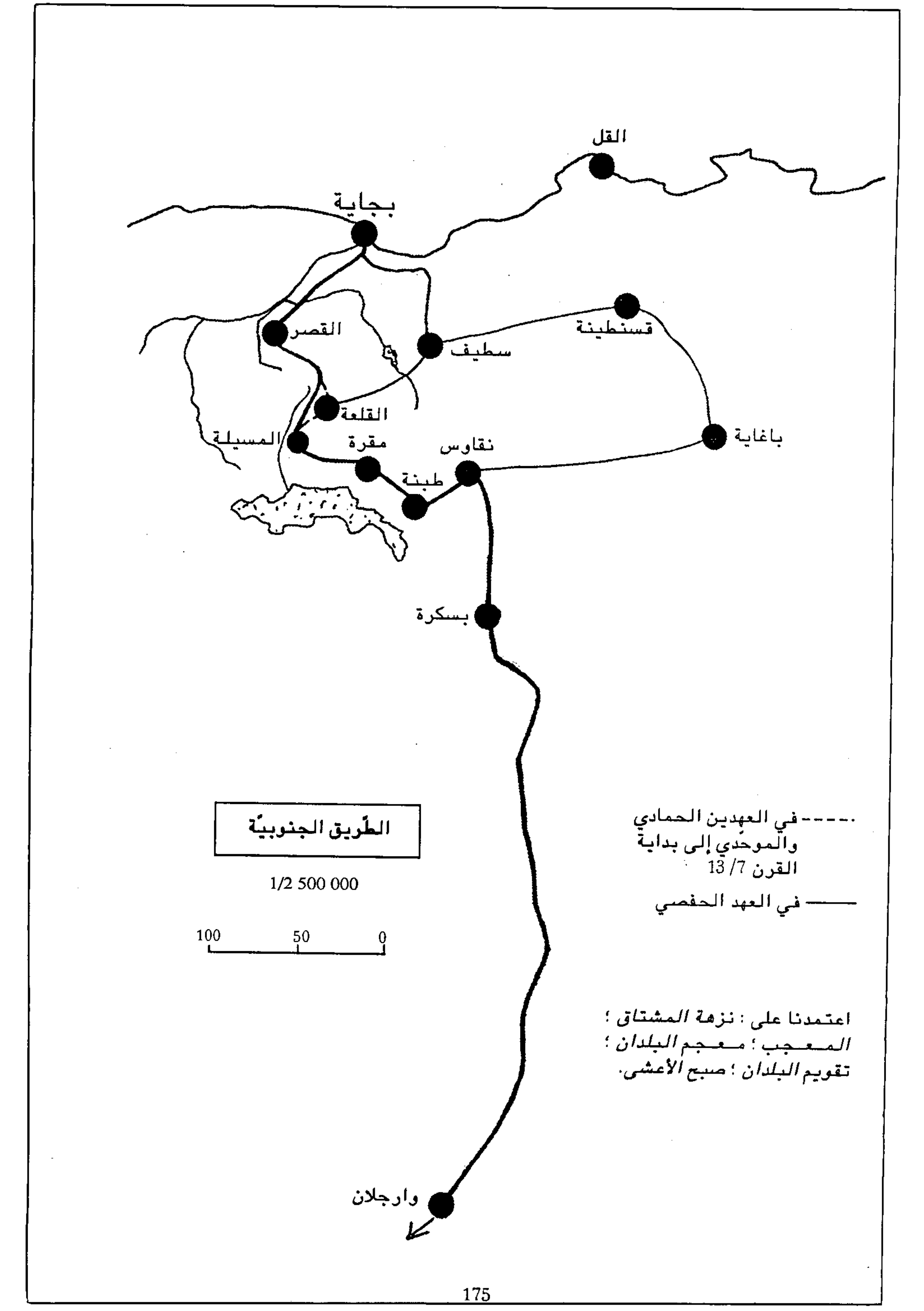
المسلك الرئيسي : بجاية ، القصر ، المسيلة مسايرة لوادي بجاية والملح ، او مسلك فرعي : بجاية ، سطيف ، المسيلة ؛ ثم تلي المسيلة مقرة ، طبنة ، نقاوس ، بسكرة التي تتفرع الطريق منها نحو توزر وورجلان .

---

69) البكري ، *المسالك والممالك* ، ج II ،الفقرة 1473 ، ص 881 .

70) الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص46 .

71) البكري ، *المسالك والممالك* ، ج II، الفقرة 1473 ، ص 881 .


القل
بجاية
القصر
سطيف
قسنطينة
القلعة
المسيلة
مقرة
نقاوس
باغاية
طبنة
بسكرة
الطّريق الجنوبيّة
1/2 500 000
100 50 0
في العهدين الحمادي والموحّدي إلى بداية القرن 7/ 13
في العهد الحفصي
اعتمدنا على : نزهة المشتاق ؛ المعجب ؛ معجم البلدان ؛ تقويم البلدان ؛ صبح الأعشى.
وارجلان

تؤمن شبكة الطرقات داخل بلاد المغرب اتصال بجاية بكامل مناطقه وتربطها بالطرقات الصحراوية . وهي أكثر كثافة في الجزء الشرقي ، وهامة ايضا في الجزء الغربي . وهي ذات فروع متعددة تضع امام المسافر امكانيات واختيارات مختلفة .

وتتوضح داخلها محاور رئيسه للوصول الى بجاية ومحطات متميزة :

أولها محور شمالي من الشرق الى الغرب . فقد لاحظنا ان عبد الواحد المراكشي لم يبق وفيا لتتبع المدن الساحلية اذ عرج بعد بونة نحو قسنطينة . ولم يلتزم مرة أخرى بطريق الساحل حين أراد ذكر « طريق السفار من بجاية الى مراكش » (72) بل نزل الى مدينة مليانة غير الساحلية ، وبعدها ذكر وهران ومنها الى تلمسان . (73) .

ومر ابن بطوطة في 725 هـ 1325/ م بعد ان غادر تلمسان بمدينة مليانة ثم اختار طريق الساحل بداية من الجزائر للوصول الى بجاية ، ومنها ذهب الى بونة عبر قسنطينة (74) .

واكد المراكشي على محورين ينطلقان من تلمسان : الاول نحو سجلماسة ، والثاني نحو مراكش عبر فاس -مكناسة الزيتون (مكناس حاليا) - سلا .

واختار السلطان المريني أبو عنان هذه الطريق سنة 753 هـ/ 1352 م للعودة من مراكش الى فاس . وصاحبه ابن بطوطة الذي نقل الخبر (75) .

ولذلك تندمج في هذا المحور الشمالي من الشرق الى الغرب أجزاء من طريق الساحل والطريق الداخلية ، لانه يركز على محطتين متميزتين : قسنطينة ومليانة .

وثانيها ، محور جنوبي - شرقي ، يمر بقسنطينة دائما ليربط ببجاية باغاية المركز الرئيسي المتصل بتوزر اي ببلاد الجريد وما بعدها : قفصة وقابس ومنها الى غدامس احدى مداخل الصحراء ، ويمكن من الدخول الى وسط إفريقية عبر تبسة .

---

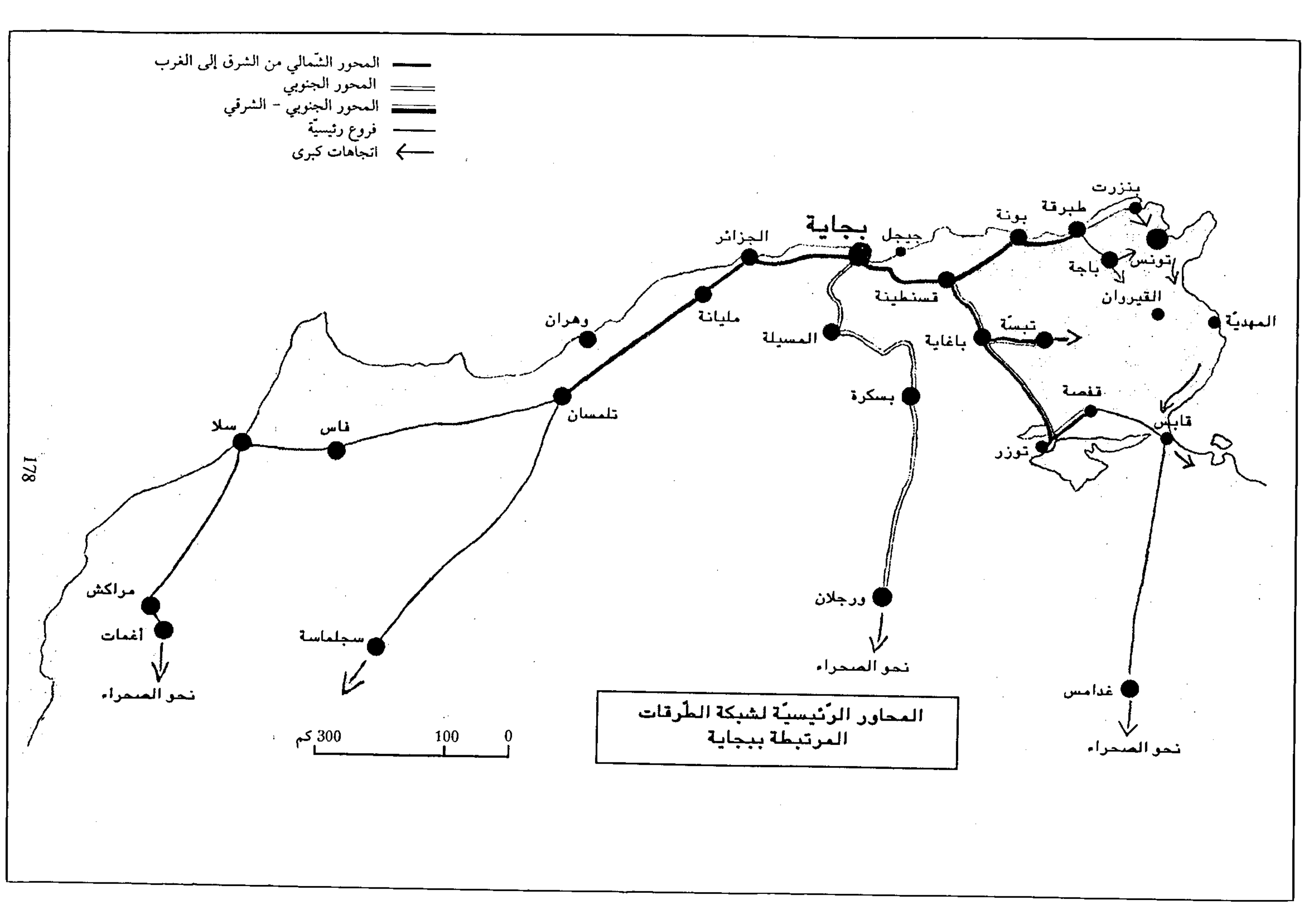
72) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 503 .

73) المصدر نفسه ، ص 504 .

74) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 19.

75) المصدر نفسه ، ص 297

وثالثها محور جنوبي ، لا تمثل هذه المرة قسنطينة فيه محطة ضرورية ، بل المسيلة ويربط بجاية وبسكرة المركز الرئيسي المتصل بورجلان (ورقلة) المفضية الى بلاد السودان .



المحاور الرّئيسيّة لشبكة الطّرقات المرتبطة ببجاية

اا بجـــاية تتصل ببلاد السودان عبر اربعة مداخل صحراوية ،

توضحت لنا في حديثنا عن شبكة الطرقات ثلاثة محاور رئيسية مؤدية الى اربعة محطات كبرى في مدخل الصحراء وهي غدامس وورجلان (76) وسجلماسة وأغمات . ويمكن اعتبار هذه المحطات مداخل رئيسية للصحراء .

ان موقع بجاية متميز بالنسبة لهذه المداخل لأنه موقع ساحلي وسط . فهي ليست في أقصى الشرق المغربي مثل تونس والقيروان وقابس التي لا يمكن ان يتركز اتصالها بالصحراء إلا على مداخل الشرق : فزان وغدامس وورجلان .

وليست في أقصى الغرب مثل فاس وسلا وطنجة وسبتة التي تتصل بالصحراء عن طريق سجلماسة او مراكش - أغمات وحتى مدينة مثل وهران موقعها غربي اكثر منه وسط ، يتركز اتصالها بالصحراء على مدخلي الجنوب الغربي اي سجلماسة وأغمات مرورا بتلمسان ، رغم ان دخولها عن طريق ورجلان كان ممكنا عندما كانت تجارة تاهرت الصحراوية نشيطة ايام الدولة الرستمية (909/296-761/144) .

اما بالنسبة لبجاية فالامر مختلف لعاملين :

أولهما ان موقعها بين الشرق والغرب ، رغم انه ليس وسطا تماما ، وفر لها امكانيات الاتصال بجميع المداخل .

وثانيها ان بجاية كانت تقع على المحور الرئيسي العابر لبلاد المغرب الذي كان يربط مراكش ، فاس ، تلمسان ، مليانة ، بجاية ، قسنطينة ، بونة ، تونس . وكان يرتبط مرورا بتلمسان بالمدخلين الغربيين للصحراء : سجلماسة وأغمات .

ان موقعها هذا يمكن ان يجعل منها نقطة انطلاق ووصول لتجار بلاد السودان عبر الاربعة مداخل الصحراوية التي ذكرناها : غدامس ، وورجلان ، سجلماسة وأغمات .

أ - الطريق عبر غدامس :

كانت بجاية متصلة بغدامس بالطريقين الجنوبية والجنوبية الشرقية التين كانتا تفضيان الى قابس ومنها الى غدامس وقد ربط ابو الفداء بين قابس وغدامس حين قال : « ومنها (اي من قابس) في سمت الجنوب الى

---

76) ورقلة حاليا .

غدامس أربع عشرة مرحلة ...» (77) .

لغدامس ميزة طبيعية ساعدتها لتكون محطة لتجار بلاد السودان تمثلت في وجود عين هامة للمياه قال عنها ابو الفداء : « في وسطها (اي وسط غدامس) عين أزلية عليها أثر بنيان رومي عجيب ، يفيض الماء منها ويقسمه أهل المدينة باقساط معلومة وعليه يزرعون » (78) .

ربط البكري منذ القرن 5 / 11 غدامس ببلاد السودان حينما ذكر المسافة بينها وبين تادمكة فحددها ب « أربعين مرحلة في الصحراء » (79) واكدها أبو الفداء مرة أخرى في القرن 14/8 بقوله : « وبغدامس الجلود المفضلة ، وهي على طريق السودان المعروفين بالكانم » (80) وأعاد ابو العباس القلقشندي نفس المعلومة مع تحديد ادق لموقعها كما يلي : « مدينة في الصحراء جنوبي بلاد الجريد على طريق السودان المعروفين بالكانم » (81) وساق لنا ابن بطوطة دليلا آخر على ارتباطها ببلاد السودان واذا اخبرنا انه سافر من مدينة « كوكو » الى « تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين ...» (82) .

يتم الوصول الى كوكو وتكدا والكانم مرورا بمدينة غات . فابن بطوطة اعلمنا ان العائد من كوكو نحو بلاد المغرب يمر بتكدا ثم يسير الى ان يصل الى مفترق طرق يتفرع الطريق فيه الى طريقين : طريق نحو غات وأخرى نحو توات اذ قال : « ... وصلنا الى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ الى ديارمصر وطريق توات ...» (83) .

---

77) أبو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 143 .

78) المصدر نفسه ، ص 147 ؛ وأعاد ابو العباس القلقشندي نفس المعلومة في صبح الاعشى ، مصدر سابق ، ج ٧، ص 108 .

79) البكري ، *المسالك والممالك* ، ج II ، الفقرة رقم 1474 ؛ ص 881 .

80) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 147 .

81) ابو العباس القلقشندي ، *صبح الاعشى* ، ج7، ص 108 .

82) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 305 .

83) المصدر نفسه ، ص 306 . نلاحظ ان تركيز ابن بطوطة على ربط غات بمصر لا يعني انها غير مرتبطة بغدامس . وقد استنتج ج . ديفيس (J. Devisse) ايضا ان غدامس كانت مرتبطة ببلاد السودان عن طريق غات .

Devisse (J.) " Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée . Un essai sur le commerce africain médieval du XI ème au XVI èmeS. " , *Revue d'Histoire Economique et Sociale* , n° 1 et 3 , (1972) , p. 389.

ولكنه لا يعطينا اسم هذا المفترق وقد يكون مدينة تادمكة التي ذكرها البكري منذ القرن 11/5

تتوضح لنا الطريق هكذا : فمن غدامس تمر القوافل بغات ثم تتوجه نحو تادمكة وتمر بتكدا ومنها الى كوكو آو الكانم .والعكس عند العودة الى بلاد المغرب .

يبدو ان الغدامسيين بقوا يمارسون هذه التجارة الصحراوية الى بداية القرن 16/10 رغم تمركز البرتغاليين على سواحل غينيا ووصولهم الى ذهب إفريقيا الغربية ورغم اكتشاف مصادر جديدة للذهب في أمريكا ، لان ليون الإفريقي أخبرنا ان اهل غدامس مازالوا يثرون بتجارة الجنوب .(84)

2 - الطريق عبر وارجلان :

ترتبط بجاية بوارجلان بالطريق الجنوبية مرورا ببسكرة تاركة جانبا بلاد إفريقية وتوزر . ومن ورجلان يتم الوصول الى تمبكتو الواقعة في الحوض الأعلى لنهر النيجر عن طريق توات .

يبدو ان وارجلان كانت قلعة من القلاع الحصينة حسب البكري الذي ذكر انها «سبعة حصون للبرابر » .

حدثنا ابو عبيد البكري عن ارتباط وارجلان (85) ببلاد السودان حيث جعلها محطة ضرورية بين تادمكة والقيروان فقال : « فان أردت من تادمكة الى القيروان فانك تسير في الصحراء خمسين يوما الى وارجلان (86) وربط ايضا وارجلان بقلعة بني حماد قائلا « وبين وارجلان وقلعة ابى طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما » (87) واعتبر بجاية الميناء البحري للقلعة وكان ذلك قبل بنائها من قبل الناصر بن علناس ، فقد قال : « ومرسى بجاية هو ساحل قلعة ابى طويل » (88) .

وبالتالي ، فان ارتباط بجاية بالتجارة الصحراوية عن طريق وارجلان بدأ يتوضح ، اعتمادا على البكري ، منذ ان كانت ميناء صغيرا غداة منتصف القرن 11/5 .

---

84) l'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ... ,op.cit* .,T.II, p. 446.

85) يبدو ان ورجلان كانت قلعة من القلاع الحصينة حسب البكري الذي ذكر انها «سبعة حصون للبربر» .
البكري ، المسالك والممالك ، ج II، الفقرة رقم 1473 ، ص 881 .

86) المصدر نفسه والفقرة والصفحة نفسهما .

87) المصدر نفسه والفقرة والصفحة نفسهما .

88) المصدر نفسه ، ج II، الفقرة 1269 ، ص 757 .

أخبرنا الرحالة الاروبي « كادا موستو » (Ca Da Mosto) في منتصف القرن 15/9 بان هناك قافلة تقوم برحلة سنوية بين إفريقية وتمبكتو عبر توات (89) . لذلك نستنتج ان طريق توات تفضي الى وارجلان .

كانت طريق توات تتفرع ايضا نحو سجلماسة .فهو المسلك الذي سار فيه ابن بطوطة للعودة الى المغرب الاقصى سنة 1353/754 (90) .

لنا مؤشرهام على ارتباط طريق توات بمدينة بجاية يضاف الى ما بيناه فقد برز فيها الوالي الصالح الشيخ سيدي التواتي في القرن 15/9 (91) ، وهذا يعني ان الاتصال المستمر بين المدينتين بجاية وتوات ولد تنقلا بشريا أفضى الى استقرار بعض التواتيين .

توصل ج . ديفيس (J. Devisse) الى القول بان الفرع الذي كان يتجه نحو وارجلان ارتبط ببجاية عن طريق قسنطينة ، وبتونس مرورا بالجريد(92) وهذا ممكن . ولكن هناك امكانية أخرى ، وهي الوصول الى بجاية عن طريق المسيلة .(93) .

لذا ، فان ارتباط بجاية عبر وارجلان ثم توات كان يتم مع الحوض الاعلى لنهر النيجر حيث وجدت مدينتا تمبكتو وجوا . وقد ترتبط ايضا عن طريق توات بتكدا والكانم .

3 - الطريق عبر سجلماسة

كان الاتصال بين بجاية وبلاد السودان يتم ايضا عبر سجلماسة (94)

(89 Devisse (J.) ," Routes de commerce ..." , *op.cit.*, p. 389.

90) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 306 - 307 .

91) قال الورثيلاني (الحسين بن محمد) : « واما الشيخ سيدي التواتي فهو من القرن التاسع ايضا ولي صالح كبيرالشان عالم على الاطلاق وله مؤلفات كما كنا نسمع . وهو عند اهل بجاية من اهل التصريف » ،

الورثيلاني ، *نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية* ، تحقيق محمد بن ابي شنب ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1974/1394 ، ص 27 .

(92 Devisse(j.) ," Routes de commerce ... " , *op.cit.* , p. 389.

93) راجع ص 172-173 من البحث .

94) لابد ان نشير الى اهمية المقال الذي نشره جان ميشال لسّار (Jean Michel Lessard) حول سجلماسة : المدينة وعلاقاتها التجارية في القرن XI حسب البكري » للتعريف بها وتوضيح مكانتها ودورها في التجارة الصحراوية .

Lessard (J.M.) " Sijilmassa : la ville et ses relations commerciales du XI éme d'aprés El Bekri " , Hesperistamuda , vol X , 1969 , p. 5-36.

مرورا بتلمسان المفضية اليها والمتصلة ببجاية بأهم محور في شبكة الطرقات المغربية ، وهو المحور الشمالي .

تميز موقع سجلماسة (95) بوجوده بين أقصى جنوب بلاد المغرب ومدخل الصحراء . ففيها يستعد التجار الى بداية الرحلة الصحراوية الشاقة وفيها يتنفسون الصعداء في طريق العودة من بلاد السودان . كما تميز بوجوده في سهل لا يعطل دخول المسافرين يمر به نهران يوفران الكميات الدنيا من الماء ، قال عنهما البكري « وهي (اي سجلماسة) على نهرين ، وعنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة . »

أ - رسم الطريق في المصادر :

يتوضح من حديث ابن حوقل ان سجلماسة كانت مرتبطة بمدينة أودغشت في الوقت الذي كتب فيه كتابه « صورة الارض » في حدود 977/367 ('95) ولكنه لم يتتبع الطريق بينهما .

اما البكري فقد رسمها كما يلي (96) : من سجلماسة الى وادي درعة ، الى موضع تحفر فيه الآبار يسمى « تندفس » « يحتفرها المسافرون ، فلا تلبث ان تنهار وتندفن » (97) ، ثم تبدأ الرحلة الصحراوية الصعبة ، الى موضع آبار آخر يسمى« وانزميرن»«وهو اصعب موضع بطريق أوغدشت » (98) ، ثم موضع ماء آخر يقال له « أقرتندي » الى ان يشرف المسافر على أودغشت . وكان طريق الاياب هو نفسه .(99) وقد حدد البكري المسافة بين أودغشت وسجلماسة بـ 51 مرحلة .

---

95) Lessard (J.M) , *Ibid*., p. 8 .

'95) ابن حوقل ، *كتاب صورة الارض* ، ص 65، 143 - 144 ؛ موسى (عزالدين عمر) ، « طريق عبر الصحراء « الليبية » من الغرب الاقصى الى مصر في القرن السادس / الثاني عشر » ، *مجلة البحوث التاريخية* مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ، السنة 5 العدد 1 ، (1983) ،ص 109 .

96) البكري ، *المسالك والممالك* ، جاا، الفقرة رقم 1413 ص 845 - 846 ، الفقرة 1414 ص 846 - 847
Lessard (J.M.) ," Sijelmassa ..." , *op.cit.* ,p. 26.

97) البكري ، المصدر نفسه ، جاا، الفقرة 1414 ، ص 847

98) المصدر نفسه ، جاا، الفقرة 1415 ص 847.

99) المصدر نفسه ، جاا، الفقرة 1421 ، ص 851 .

100) المصدر نفسه ، جاا، الفقرة 1430 ص 857 ، الفقرة 1447 ص 866 - 867 .

101) المصدر نفسه ، الفقرة 1396 ص 837 .

رسم البكري ايضا الطريق بينها وبين بلاد غانة (100) وقال ان بينهما مسيرة شهرين .(101) . فمن سجلماسة يتوجه المسافرون الى تاتنتال وهي منجم للملح ثم يعبرون صحراء المجابة الكبرى الى ان يصلوا الى غانة . وتبعد تاتنتال عن سجلماسة مسافة عشرين يوما (102) .

قال ياقوت الحموي عن سجلماسة في القرن 13/7 انها على طريق غانة . ووضح ابو الفداء في بداية القرن 13/7 ان سجلماسة « مدينة تلي الصحراء الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان » ('102)

تمكننا رحلة ابن بطوطة سنة 1352/753 من رسم المراحل الكبرى الى بلاد السودان (103) فمن سجلماسة قصد ابن بطوطة تغازة منجم الملح الذي سماه البكري في القرن 11/5 « تاتنتال » (104) ، منها الى تاسرهلا التي كانت عبارة عن محطة للاستراحة في قلب الصحراء اذ وجد بها ماء ، وبعدها توجه الى مدينة إيوالاتن . وكانت المسافة الفاصلة بين تغازة وإيوالاتن صحراوية صعبة المرور . وهي لا شك المجابة الكبرى التي تحدث عنها البكري وسماها ابو الفداء « صحراء يسر » (105) . ومر بعد ايوالاتن بعدد من المدن : زاغري ، كارسخو ، مالي ، منسا ، تنبكتو . كوكو التي عاد منها الى سجلماسة مارا بتكداو توات .

ب - تطورها:

تمثل شهادات البكري (القرن 11/5) ، ياقوت الحموي (بداية القرن 13/7 وابن بطوطة (النصف الاول للقرن 14/8) تطور الطريق عبر سجلماسة . فالبكري كان يتحدث عن أودغشت وغانة كمقصدين رئيسيين لتجار بلاد السودان القادمين من سجلماسة ، بينما لم يذكرهما ابن بطوطة ولم يزرهما بل ركز على مالي وتنبكتو وكوكو في طريق الذهاب . وبين الفترتين تحدث ياقوت الحموي عن غانة .

---

102) المصدر نفسه ، الفقرة 1447 ص 866 .

'102) ابو الفداء ، تقويم *البلدان* ، ص 137 .

103) ابن بطوطة ، تحفة *النظار* ، ص 297 - 307 .

104) Lessard (J.M.) , " Sijelmassa ..." *op.cit.* , carte p. 24.

105) قال ابو الفداء : « وغربي هذه المدينة (اودغشت) صحراء يسر التي يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة ...» ، ابو الفداء ، تقويم *البلدان* ، ص 137 .

فعلا ، لقد تقهقرت أودغشت منذ احتلالها سنة 1054/446 (106) من قبل المرابطين الذين آلحقوا بها أكبر الاضرار عند هجومهم عليها . ثم تقهقرت غانة بعد ان احتلوها سنة 1076/469 - 1077 .

لكن غانة استطاعت ان تحيا قرنين آخرين (107) رغم تراجع مكانتها . وكان تدهـورها الحقيقي منذ سنة 1235/633 حين ضمهـا ملك مالـي (108) وعوضتها مدينة مالي كما نشطت كوكو وتنبكتو لهذا نفهم لماذا مازال ياقوت الحموي يتحدث عن غانة .

ان العمري ، الذي كان معاصرا لابن بطوطة ، اذ توفي في 1348/748 اهتـم بمملكة مـالي ايضا التي كانت تضم حسب تعبيره « بلاد مفازة التبر » (109) .

اما ليون الافريقي فمازال في بداية القرن 16/10 يركز على مدينة كوكو (GOA) كمحطة لمبادلة الذهب ، رغم ان مملكة مالي انهارت وعوضتها مملكة صونغاي خلال القرن 15/9 (110) .

خلاصة القـول ان الطريـق من وادي درعة الى أودغشت انعدمـت في العهد الحفصي . وان غانة وأودغشت اندثرتا . بينما ربطت الطريق القادمة من سجلماسـة او الذاهبة اليها المحطـات الكبـرى التاليـة : ملاحة تغازة ، أيوالاتن ، تنبكتو ، كوكو ومالي . ولكن مدينة مالي قد تكون تدهـورت بعد قيام إمبراطورية صونغـــاي .

4 - الطريق عبر مراكش - اغمات :

قد نذهب الى القول الى ان ارتباط بجاية بمراكش واغمـات ضعيفا نظرا لبعدها عنهما ، غير ان الامر اختلف عن ذلك مرة أخرى يمكـن المحور الرئيسي الشمالـي من الربط بين بجايـة

---

106) البكري ، *المسالك والممالك* ، الفقرة 1439 ص 862 .

107) Mauny (Raymond) , *les Siècles obscurs de l'Afrique Noire , Histoire et archéologie* , Fayard 1970 , p149.

108) *Ibid* , p. 155.

109) Cuoq (J.M.),éd., *Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII au XVI è s* ,Paris 1975 , p. 264 .

110) L'Africain (L.), *Description de l'Afrique ... , op.cit* . , p. 464-465 .

ومراكش مرورا بفـــاس (111) . فهذا المحور عرف الحركة الدائمة بين المغرب الاقصى وبجاية .

أخبـرنا عبد الواحـد المراكشي سنـــة 1224/621 انه كان « طريق السفار من بجاية الى مراكـــش » (112) . ومر منـــه محمد العبـــدري في 1289/688 (113) وبعده ابــــن بطوطة سنة 1325/725 (114) ولقيا في طريقهما جماعات من المسافرين سواء التجار او القاصدين الحج .

ينقل الادريسي ان أهل أغمات يسافرون الى بلاد السودان بعدد كبير من الجمال وانه لم يكن هناك أغنى منهم ايام المرابطين (115) .

ويرسم الطريق الساحلية للوصول الى أوليل المنجم الساحلـي للملـح الواقع على مشارف نهر السينغال فمن أغمات الى تـــارودنت الى نول لمطـــة . الي أوليل ، وبعد شحن الملح منها يتوجه التجار الى بريسة وغانة وكوكو (116) .

لكن منجم اوليل فقد مكانته منذ الثلث الأخير للقرن 11/5 بينمـا اكتسب ملاحة تغازة أهمية كبرى . وبالتالي فان طريق الساحل الاطلسي عبر أوليل آصبح ثانويا لصالح طريق تغازة .

ولعل التجار القاصديـــن بجاية أو القادمين منها اصبحوا يخيـــرون طريق سجلماسة ان لم تكن لهم مصالح أخرى في مراكش .

ان شبكة الطرقات ممتدة ومترابطة في الشرق والغرب ، ومن الشمال الى جنوب الصحراء ، وتمثل بجايـــة فيها رأس النسيـــج ، تنتهـي عندهـا الطرقات وتبدأ منها و تتصل بها البقاع القريبـة والنائيـــة عبر محطـات رئيسية وثانوية . وهي شبكة تخطها القوافل التجارية فما هي مكانة بجاية ودورها في آليات التبادل؟

---

111) راجـع ص176-177 من البحث .

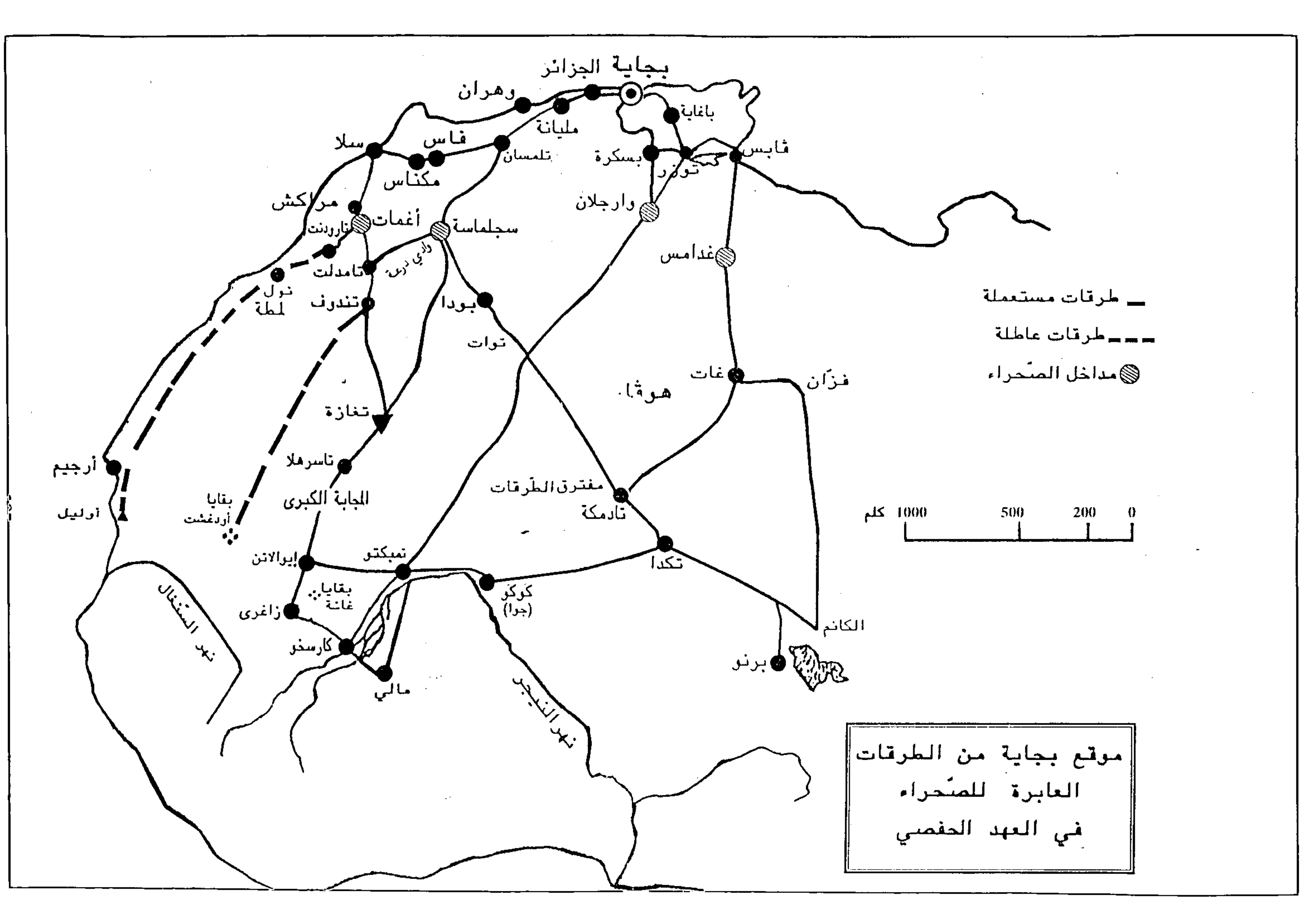
112) عبد الواحد المراكشي ، *المعجب* ، ص 503 - 507

113) العبدري (محمد) ، *الرحلة المغربية* ، ص 7 - 39 ، 276 - 279 .

114) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 19 - 20 .

115) Cuoq (J.M.) ,*Recueil des sources ...op.cit* ., p . 108 .

116) Du même , *Ibid* , p . 109 ; Vanacker (cl.) , " Géographie de l'Afrique du Nord ..." *op.cit.* , p . 666-667 ; Malowist (M)," Quelques observations sur le commerce de l'or dans le soudan occidental au moyen âge*Annales E.S.C.* , n° 6 (1970) . Abakar (A) , *le commerce caravanier du sudan occidental et central avec le nord à l'époque médievale* , CAR dirigé par chapoutot Mounira , Tunis 1982-1983 ; p. 124.


موقع بجاية من الطرقات
العابرة للصّحراء
في العهد الحفصي
طرقات مستعملة
طرقات عاطلة
مداخل الصّحراء
كلم 1000 500 200 0
بجاية
الجزائر
وهران
مليانة
تلمسان
فاس
مكناس
سلا
مراكش
أغمات
تارودنت
تامدلت
وادي درعة
تندوف
نول لمطة
سجلماسة
بودا
توات
تغازة
تاسرهلا
أرجيم
أوليل
بقايا أودغشت
المجابة الكبرى
إيوالاتن
تمبكتو
بقايا غانة
زاغرى
كارسخو
مالي
كوكو (جوا)
تكدا
تادمكة
مفترق الطرقات
هوقار
غات
فزّان
الكانم
برنو
غدامس
وارجلان
بسكرة
توزر
باغاية
قابس
نهر السنغال
نهر النيجر

الباب الثاني :

بجاية ميناء لتجارةالقوافل غيرالعابرة للصحراء

من البديهي ان تكون لشبكة الطرقات التي درسناها في الفصل السابق وظيفة اقتصادية أساسا . فهي تكون البنية الاساسية للحركة التجارية البرية ، لانها تضمن الاتصال بين مواطن الانتاج والاسواق الداخلية والبحرية .

لقد بدت بجاية في هذه الشبكة المؤدية لها كرأس لهرم من الطرقات . ولكن برزت محاور اتصال رئيسية . الا يعني ذلك ان هناك محطات تجارية كبرى خلقت حركة تجارية متميزة في ما بينها فنشات هذه المحاور؟ وهي المحاور الرئيسية التي كانت في علاقة مع بجاية . وبالتالي ، بنيناها باعتبار ان بجاية تمثل النقطة المركزية .

ولهذا فهي مرآة للحركة البشرية والتجارية المركزة على بجاية وهي لا تنفي وجود حركة تجارية نشيطة عبر بقية الطرقات ، بل لربما تتميز بربط بجاية بالتجارة بعيدة المسافات الى جانب التجارة المحلية والمغربية.

وقد بدا لنا وجود تجارتين بريتين تجارة غير عابرة للصحراء تهم بلاد المغرب والمشرق ، واخرى عابرة للصحراء تصل الى « بلاد السودان » .

ويقوم هذا التقسيم على الاعتبار الجغرافي ونوعية البضائع وخصوصيات كل تجارة .

وسنبدأ حديثنا عن دور بجاية وموقعها في التجارة غير العابرة للصحراء . وهي ايضا عبارة واسعة تشمل اتجاهات مختلفة .

هل توفر لنا مصادرنا معطيات كافية ؟

قد تعدد لنا كتب الجغرافية والرحلات او حتى غيرها مثل صبح الاعشى للقلقشندي منتوجات مدينة او أخرى ولكن من النادر ان تربطها بالتبادل التجاري ، او تكشف عن البضائع التي تستوردها من بقاع اخرى .

وتقوم عبارات الادريسي دليلا على استقبال بجاية لبضائع متنوعة بحجم ضخم دون اي توضيح لمصادرها الجغرافية فقد قال : « الامتعة اليها برا وبحرا والسلع اليها مجلوبة والبضائع نافقة ... وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ... » (1)

---

1) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116 .

ولا شك ان التجارة البرية تواصلت كثيفة في العهد الحفصي . فابو الفداء وابن خلدون وابو العباس القلقشندي أعطونا اشارات عن وجودها.

ا بجـــاية قطب تجاري لجهتهـــا ،

تعني عبارة الادريسي : « بجاية قطب لكثير من البلدان » انها المركز التجاري المرتبطة به ، لا سيما وانه حدد مباشرة المسافات التي تفصلها عنها (2) وانتشر أغلبها في الجزء الغربي للدولة الحفصية ، وابـرزها قسنطينة وسطيف وطبنة وتبسة وتيفاش وقالمة .

لا تحصر المعطيات الواردة في المصادر السلع المنقولة الى بجايـــة أو المصدرة منها . لذلك نكتفي بالكشف عن بعض أصنافها .

1 - مواد فلاحية غذائيـــة :

ترد على بجاية منتوجات الواحـــات اذ ينقل ابـــو الفداء المتوفي في 1331/732 ان « التمر الطيب » يجلب من بسكرة الى تونس وبجاية (3) . وأعاد أحمد القلقشندي المتوفي في 1418/821 نفس القول (4) . وقد لا تكون بسكرة هي المزود الوحيد للتمور في الجهات المحيطـة ببجايـة ونفتـرض ان باغاية كانت ترسل نفس البضاعة لان طريقـا رئيسية كانـت تربطهابها (5) ولان الادريسي اكد على انتاج التمور بها حين قال انها « اول بلاد التمور » ،

وقـد تتزود بجـاية ببـعض المـواد الفلاحيـــة الغذائية التـــي تنقصها وتكثر في أكبر المدن القريبة منها وتختـص بها ، وهي سطيـــف وقسنطينة فقد اكد الادريس على تميز سطيف بانتاج الجوز ، وقـال :« يحمل الجوز لكثرته بها الى سائر الاقطار (6) . وقد تكون بجاية القريبة منها من بين هذه الاقطـار ، لا سيما وانهـا السوق والميناء المتوسطي الكبير ، ولا سيما وان ثمنـه منخفض اذ واصـل القول : «و يباع بهارخيصا»(7)،ويخص الادريسي قسنطينة ببيع السمن حيث ذكر انه «يتجهز

---

2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

3) ابو الفداء ، تقويم *البلدان* ، ص 139.

4) القلقشندي (ابو العباس) ، *صبح الاعشى* ، ج 1 ، ص 107

5) راجع ص 167-169 من البحث .

6) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 126 .

7) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

به منها الى سائر البلاد » (8) .

ولاحظنا في دراستنا للانتاج الفلاحي ان انتاج الحبوب لم يكن كافيـــا في بجاية ، بينما يذكر فيما يخص قسنطينة ان « الحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد » (9) .

2 - مواد أولية أو مصنوعات:

تستقبل بجاية مواد أولية أو بعض المصنوعات :

أولها مواد أولية ثقيلة كالزفت والقطران الصالح لصناعة السفن ، والجص الصالح للبناء . قال الادريسي : « يجلب اليـها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران » (10) لصناعة السفن ويحمل اليها من متوسة على بعد 12 ميلا معادن الجص . ثم ذكر التمقروتي : « وبناؤهم انما هو بالجص وحده لا يبنون بالتراب ولا بجيـــار » (11) وهي الأولى بان تستجلب من الاماكن القريبة التي وصفها الادريسي باقاليم بجاية (12) .

ولنا مؤشرات تدلنا على ان بجاية كانت في حاجة للصوف والجلود ، ومن المرجح انها كانت تتزود منه بقسط كبير من جهتها . وتدعونا الى هذا الافتراض بعض المعطيات :

لقد كانت صناعة الجلود والصناعات الصوفية نشيطة كما سبق ان رأينا(13) .وكانت سوق الصوف من اهم الاسواق في بجاية (14) . وكانت طلبات أوروبا من الجلود والصوف والفروة عالية ،وكانت الاسواق متعددة (15) : بيزة ، جنوة ، مرسيليا ، أرغون ، فنلندا ، انجلترا ، باريس ، كولونيا ، لوباك (Lübeck) والبلطيق الالمانـــي .

لذلك نعتقد ان الحجم الكبيـــر لتجارة الصوف جعل من بجاية سوقا تنصب فيه الجلود غير المخدومة او الصوف من مدن المغرب الاوسط خاصـــة

---

8) المصدر نفسه ، ص 121 .

9) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

10) المصدر نفسه ، ص 116 .

11) التمقروتي (ابو الحسن) ، *النفحة المسكية في السفارة التركية* ، دار بوسلامة ، تونس 1988 ، ص 19 .

12) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116.

13) راجع ص 147-148 من البحث.

14) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 161 ، 177 ؛ برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 416 .

لينقل أغلبه بعد ذلك في شكل جلود مخدومة أو فروة او صوف الى العديد من بلدان اوروبا لا سيما المدن الايطالية ومرسيليا .

وقد ذكر الادريسي (16) ان « الغنم والبقر موجودة كثيرا » بتدلس القريبة من بجاية و « تباع جملتها بالاثمان اليسيرة ويخرج من ارضها الى كثير الأفاق » لذلك نرجح ان بجاية تتزود منها بالماشية وجلودها وصوفها .

ولاحظ روبار برنشفيك ان منطقة قسنطينة كانت تربي الخرفان ذات الآلية النحيفة وان المناطق الشرقية وفرت الخرفان ذات الآلية الغليظة (17) . وقد تتجاوز بجاية المناطق القريبة لتجلب الجلود من مدينة على أبواب الصحراء ، هي مدينة غدامس التي اشتهرت بجلودها « المفضلة » حسب ابي الفداء (18) وأبي العباس القلقشندي (19) والتي كانت تربطها ببجاية طريق جنوبية .

هناك بضاعة أخرى سميت بقشور بجاية ، كانت المدن الايطالية تقتنيها لدباغة الجلود (20) . ويبدو ان بجاية كانت تجلبها من جبال جهة القل بين خليج بجاية وسكيكدة (21) .

وتاتيها منتوجات مصنوعة كالحرير والحنابل . فقد أخبرنا أحمد الونشريسي المتوفي في 1508/914 في إحدى النوازل المطروحة عن تاجر أصيل مازونة (22) قدم الى بجاية لبيع الحرير والحنابل وعرضها في سوق « القيسارية » . وكان يرغب في « شراء سلعة بجاية » وحملها معه برا على ما يبدو الى الجزائر . وكان ينوي في البداية ارسالها عن طريق البحر . ولكنه لم يعرفنا بهذه السلعة . والمهم ان هناك بضاعة وردت وأخرى خرجت الى مكان غير بعيد تابع للجزء الغربي للدولة الحفصية . والمرجح ان مازونة كانت محطة عبور وان

---

15) راجع ص 348-350 من البحث

16) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 115 .

17) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج‌II،ص 234

18) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 147 .

19) القلقشندي (ابو العباس) ، *صبح الاعشى* ، جV، ص 108 .

20) Pegolotti (F.B.) , *La pratica della mercatura ...*, *op.cit* . , p. 70 .

21) بلحميسي ، « *دور بجاية في البحر الابيض المتوسط* ...» مرجع سابق ، ص 570 .

22) الونشريسي (أحمد) ، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والاندلس والمغرب* ، 13 جزءا ، نشر دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1981/1401 ، جV ، ص 107 - 110

البضاعة كانت أندلسية او مغربية .

لا نعتقد ان البضائع الواردة على بجاية من جهاتها تقتصر على ما ذكرناه ، بل نقول ان هذا ما سمحت به المصادر التي لم تمكنا من ناحية أخرى من التعرف على البضائع الصادرة من بجاية نحو جهاتها .

II - بجاية تتعامل براً مع المغرب وتونس والمشرق .

اتسعت علاقات بجاية التجارية البرية غير العابرة للصحراء لتشمل المغرب الاقصى تونس والمشرق . ولخصها الادريسي في قوله : « وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق » (23)

1 - التجارة البرية مع تونس وبلاد المغرب :

صحب ابن بطوطة في رحلته عند الذهاب تجارا من تونس لقيهم في مليانة ، وكانت بجاية محطة من محطاتهم (23')ولكن ابن بطوطة او غيره لم يذكروا انواع البضائع .

اما ابن خلدون ، فقد ذكربعض اصناف البضائع عندما روى ان « الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته » (24) ببجاية يتردد الى تونس لانتقاء الثياب الجيدة منها دون ان يذكر ان كان ذهابه عن طريق البر ام البحر .والمهم هنا هو نوعية البضاعة . فهي مثال للبضائع المصنوعة الجيدة لاستهلاك الطبقة العليا من « الخاصة » ولا يعني هذا ان بجاية لا تستجلب من تونس الا هذا النوع .

ومن السلع الواردة من بجاية الى بنزرت عن طريق البحر البدن والبرنس . فهي ايضا سلعة ممكنة عن طريق البرّ . فقد أخبرتنا عنها وثيقة مؤرخة في 1302/702 - 1303 نشرها الاركون Alarcon (25) .

وقد تجلب بجاية مثل غيرها الفستق ودهن البنفسج وخل العنصل من قفصة ، لان ابا الفداء قال « لا يكون الفستق بالمغرب الا بقفصة » و « منها يجلب دهن البنفسج وخل العنصل » (26) .

---

23) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116.

23') ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 19-20 .

24)ابن خلدون ، *العبر*، ج VI، ص 725.

25) Alarcon (M.A.) ,éd., los documentos Arabes ... ,*op.cit.*, p. 259

26) أبو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 143 .

ونذكر ان قفصة كانـت مرتبطة ببجاية بالطريق الجنوبية الشرقيـة المارة بتوزر (27) . فانفراد قفصـة بالفستق وعبارة ابي الفداء « ومنها يجلب » يجعلاننا نميل الى هذا الافتراض .
هناك مدن حفصيـة اخرى تتميـز بنـوع من الانتاج يكثر بها دون ان تنفرد به ، مثل التمور في توزر (28) والموز والحناء في قابس (29) . ولكن ليس لنا اي دليل على خروج هذه البضائع نحو بجايـة ، ما عدا ما لاحظـناه سابقا بان توزر وقابس ترتبطان بها بالطريق الجنوبية الشرقية (30) .

2 - التجارة البرية مع المشـرق :

اما التجارة البرية مع المشـرق ، فقد تكـون وجدت مع بجاية رغم ان المعطيـات المصدرية لم تكن صريحة بالنسبة للاتصالات التجارية البحرية ، ورغم ان الطريق بين طرابلس وبرقة مازالت غير آمنة (31) .
لقد كانت لبجاية تقاليد تجارية مع المشـرق اكدهـا الادريسـي منذ القرن12/6 بقوله إنهم كانوا يجالسون تجار المشـرق (32) وأكدتهـا بعض المصادر بالنسبة للروابط التجارية البحرية . ففي سنة 1148/543 - 1149 قدم الى بجايةحسب محمد بن الآبار « مركب للروم » قصد بعدها الاسكندرية (33) . وفي 12 جمادى 580 / 20 سبتمبر 1184 ذهب ابن جبير الى ميناء صور لانـه اراد ان يلتحـق بمركب « يتوجـه الى بجايـة » (34) . وفي 1388/788 ، ركب السلطان المخلوع ابو حمو حسـب ابـن خلدون في ميناء وهران « السفين ذاهبا الى الاسكندرية » ونزل ببجاية لما وصلها (35) .
نرجح ان تكون التجارة البرية نشطت بالتوازي للاسبـاب التاليـة :
أولا،ليس من المسلم دائما ان يقع الاختيار على النقل البحري بحجة اضطراب

---

27) راجع ص 167-169 من البحث .
28) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 145
29) المصدر نفسه ،ص 143.
30) راجع ص 167-169 من البحث .
31) راجع ص158 من البحث.
32) الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص 116 .
33) ابن الآبار (محمد) ، *المعجم في اصحاب القاضي الامام على الصدفي* ، مجريط 1885 ، ص 167 .
34) ابن جبير ، *رحلة* ، دار صادر ، دار بيروت 1384/1964 ص 277
35) ابن خلدون ، *العبـر* ، ج VII، ص 301 - 303 ، 754 - 757 .

الامن على الطريق البرية ، فالرحلة البحرية كانت هي ايضا معرضة للقرصنة واللصوصية والمخاطر الطبيعية مثل العواصف وهيجان البحر .

ثانيا ، للرحلة البرية بعض الخاصيات التي تفتقدها الرحلة البحرية منها المرور بمحطات قد لا تتوقف فيها السفينة او محطات بعيدة عن ساحل البحر، ومنها التحكم في اوقات انطلاق القافلة بالنسبة للتجار الذين لهم مصلحة ما في التوقف لان السفن كانت معظمها أوروبية وخاصة إيطالية . فاصحابها يقررون مدة التوقف .

ثالثا ،كانت القاهرة محطة تجارية برية ضرورية بدليل ان وكيل التجار المغاربة كان يوجد بها (36)

رابعا ، كان الحج عاملا منشطا ، اذ كان من الممكن ان تصحب قوافل الحج قوافل تجارية . وقد مثلت بعض المحطات بعد طرابلس أهمية خاصة : طلميثا والاسكندرية والقاهرة . لقد كانت طلميثا هي ايضا محطة متميزة (37) اذ احتوت على التجار اليهود الذين بلغ عددهم في وقت ابي الفداء المتوفي سنة 1331/732 - 1332 ما يزيد عن 200 يهودي (38) وقد وصفها بالفرضة المشهورة ، قال ان « المراكب ترسي قبالة قصر اليهود بالقرب منه وتحضر العرب وتبايعهم بالبضائع مقايضة » (39) .

نعتقد اعتمادا على هذه العوامل ان بجاية كانت مرتبطة تجاريا بالمشرق عن طريق البر مثلما بينته بعض المصادر بالنسبة للبحر . ولكننا نبقى غير قادرين على ضبط نوعية المبادلات والبضائع وتواتر الرحلات .

ان المعطيات القليلة التي لدينا تدلنا على الأقل على ان حركة تجارية برية كانت موجودة بين بجاية وبلاد المغرب والمشرق .

---

36) Goiten (S.d.) , " Le commerce méditerranéen avant les croisades " , *Diogène* , N° 59, (1967) , p. 66-68; Abitol (M.) "Juifs maghrebins et commerce Transsaharien du VIII ème au XIV ème s ", *Revue Française d'Histoire d'outre -Mer* , t. LXVI(1979) p. 179.

37) ابو الفداء ، *تقويم البلدان* ، ص 149.

38) قال ابو الفداء : « وعدة اليهود الذين بها (اي بطلميثا) الى يومنا هذا ما يزيد على ما يتي يهودي » ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

39) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

الباب الثالث :

بجاية ميناء يربط تجارة الصحراء بالمتوسط

*

يجرنا الحديث عن ارتباط بجاية بالطرقات الصحراوية حتما الى التساؤل عن دورها في هذه التجارة،ولنفهم دورها هذا ، علينا ان نتعرف أولا على آلية التبادل بين التجار المغاربة عامة وبلاد السودان لان بجاية كانت جزءا من هذه الحركة العامة .

ا - آلية التبادل بين التجار المغاربة وبلاد السودان :

امتد المجال الجغرافي الذي كان يمثل مقصد التجار المغاربة على افريقيا الغربية والوسطى ، لعامل أساسي وهو الثروات التي كانت تحتويها : الذهب اولا والعبيد ثانيا .

ولقد اختلفت آلية التبادل من بضاعة الذهب الى بضاعة العبيد والى بضاعات اخرى . والهدف الأسمى: الربح الذي كان المبرر للاقدام على عناءالرحلة الصحراوية التي أصبحت تخضع لتقاليد ونظام ومسالك ومحطات خففت من خطورتها .

واتفقت جميع المصادر على انها تجارة مربحة بل مصدر اثراء ، وانها اتصفت بضخامة رؤوس الأموال .

يخبرنا ابن حوقل ان نصف مداخيل خزينة الدولة الفاطمية كان

ياتي من مدينة سجلماسة وحدها بفضل التجارة الصحراوية (1) . وقـال : «لقد رايت باودغشت صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغشت ، وهو من اهـل سجلماسة بإثنين وأربعين الف دينـار ، ما رأيـت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكايـة شبهـا ولا نظيـرا . ولقد حكيتهـا بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت » (2) .

ويقول المؤرخ ادريس صالح الحرير ان مؤلف كتاب سير المشايخ من القرن 12/6 روى ان تاجرا من بلدة القصور بجنوب البلاد التونسية حاليا اسمه « تاملي الوسياني » الذي كان فقيرا في بداية حياته اصبـح من كبـار الاثرياء بعد ان ذهب الى تادمكة . ومن هناك بعث 16 صرة من الذهب تحتوي كل واحدة على 500 دينار الى بلده لتوزيعها على الفقراء (3) .

وقدر ابن بطوطة حجم المعاملات في تغازة اهم ملاحة على طريق بلاد السودان في وقته (النصف الاول للقرن 14/8) بقوله : « وقرية تغازاعلى حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر » (4) .

لنلاحظ انه حتى وان كان هناك شـيء من المبالغة في هذه الاقوال ، فانها تبقى دائما دليلا على أهمية رؤوس الاموال المستخدمة في هذه التجارة والأرباح المتاتية منها خلال العصر الوسيط .

ويعطينا ابن خلدون في نفس الوقت تفسيرا ودليلا آخر فيقول :«تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس واكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا في اماكن معلومة يهتدي اليها أدلاء الركبـان فلا يرتكـب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس ، فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء ،وكذلك سلعنا لديهم ، فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع الغنى والثروة من اجل ذلك ...» (5)

---

1) ابن حوقل (ابو القاسم) ، *كتاب صورة الارض* ، ص 99 ؛ الحرير (ادريس صالح) ، « العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشرالاسلام هناك .» ، *مجلة البحوث التاريخية* ، العدد 1 ، يناير (1983) ص 82 .

2) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص 96.

3) كتاب سير المشايخ لمؤلف مجهول ، ص 78 ، يذكر ادريس الحرير في الهامش انه في حوزته ، الحرير (ادريس صالح) ، المرجع نفسه ، ص 84

4) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 297 .

5) ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 391 - 392 .

وهنا يطرح ابن خلدون امامنا آلية للتبادل مؤدية الى الربح الوافر وتراكم رؤوس الاموال ؛ سنحاول استكمالها وتوضيح خصوصياتها .

1 - آلية التبادل بالذهب :

استطاع التجار المغاربة انشاء آلية تمكنهم من الانتفاع من الاسواق السودانية لانهم فهموا متطلباتها وحاجياتها وربطوها بالاسواق المغاربية .

فيم تمثلت آلية التبادل بالذهب ؟

كانت بلاد السودان مصدر الذهب بمقابل رخيص ، الشيء الذي ادّى الى نمو حركة نشيطة تنطلق من بلاد المغرب يمكن ان توصف بـ « الجري نحو ذهب السودان »

أ - مصادر الذهب :

وجدت مناجم الذهب في افريقيا الغربية حول المجرى الاعلى لنهر السينغال : منجم بامبوك (Bambouk) ، والمجرى الاسفل لنهر النيجر : منجما مالي (Mali) وبوري (Bouré) وحول بحيرة فولتا(Volta) : لوبي (Lobé) وساحل الذهب .(6)

لم يكن مصدر اقتناء الذهب المنجم ذاته بالنسبة للتجار المغاربة او المصريين .

كانت مدينة غانة مصدره الرئيسي الى ان احتلها المرابطون سنة 1077-1076/469 ،حتى وصفهاالمسعودي منذ القرن10/4بانها بلاد الذهب(7)

(6 Lessard (J.M.) , " Sijilmasse ..." , *op.cit.*, p.24,38; Malowist (M), " Quelque observations sur le commerce de l'or dans le soudan occidental au moyen âge ", *Annales E.S.C.* , n° 6,25 è Année (1970) , p. 1631 ; Abitol (M.), " Juifs maghrebins et commerce transsaharien du VIII è au XVème s" , *Revue Française d'Histoire d'outre -Mer* ,t. LXVI ,Paris (1979) p. 184.

7) المسعودي (ابو الحسن) ، *مروج الذهب* ، ترجمة وتحقيق دي مينارد ، باريس 1861 ، النص العربي ص 39 : الحرير (ادريس صالح) « *العلاقات الاقتصادية ...* » ، مرجع سابق ، ص 81 .

ورغم ان اهميتها تقلصت بعد الاحتلال المرابطي (8) ، فان ياقوت الحموي تحدث عن « غانة معدن الذهب » (9) . فاما انه نقل معلوماته عن سابقيه او ان الجغرافيين استمروا يطلقون اسم غانة على مناطق الذهب في إفريقيا الغربية دون اعتبار لمصير المدينة بالذات أو ان المدينة تمكنت من الصمود الى عهد ياقوت الحموي (بداية القرن 13/7) كما اشار الى ذلك المؤرخ « موني » (R. Mauny) . وفي كل الحالات ، ذلك دليل على انها اكتسبت أهمية كبرى قبل تدهورها .

وبداية من القرن 13/7 الى الثلث الاخير من القرن 15/9 اصبحت مملكة مالي مصدر الذهب . وتغيرت الاسواق المزودة لهذه المادة الثمينة ، خاصة إيوالاتن ، مالي ، تنبكتو وكوكو (جوا) (10) اما غانة فلم تعد مقصد تجار الذهب ، وتحولت الى مملكة تابعة للملك مالي منذ سنة 1240/638 (11) .

ودلتنا رحلة ابن بطوطة على اهمية الذهب في مالي (12) وعلى اكبر الاسواق . فقد ركز حديثه على ايوالاتن ومالي وتنبكتو وكوكو ولم يذكر غانة بتاتا (13) .

---

8) تقلص دور غانة كسوق للذهب منذ ان سيطر عليها المرابطون . ولما انهارت ممتلكاتهم الجنوبية في افريقيا بعد عشر سنوات فقط سيطرت عليها مملكة سوسو التي انهزم اصحابها بدورهم امام ملك مالي الذي مد نفوذه على غانة سنة 1240/638 ،

Mauny (R) , *les siécles obscurs ..., op.cit* , p. 117; Abakar (A) , *Le commerce Caravanier ..., op.cit.* , p. 118-119 .

9) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج III ، ص 192 .

Mauny (R.) , *les siecles obscurs ... op.cit.* ,p.147; Abitol (M) . " Juifs magrebins...", *op.cit* . p. 184 .

(11 Mauny , *Ibid* .

12) مؤشرات عديدة ذكرها ابن بطوطة : في قصر سلطان مالي ، للقبة طبقات ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب ؛ سيف دوغا الترجمان غمده من ذهب ، وفي يده رمحان احدهما من ذهب ، وفي احد مجالس السلطان هناك « طائر من ذهب على قدر البازي » ، ويلبس عند خروجه من القصر شاشية ذهب مشدودة بعصابة من ذهب ؛ ويغنى امامه المغنون ماسكين قنابر ذهب وفضة ؛ وفي مجلسه تحمل «السلحدارية » سيوفا محلاة بالذهب وأغمادها منه ورماحا من ذهب وفضة ....، ابن بطوطة ، تحفة *النظار* ص 300 - 301 .

13) المصدر نفسه ، ص 299-305.

امتدت مملكة مالي على مجال اوسع من مجال سابقتها مملكة غانا ، من كوكو الى مصب نهر غامبيا ، ومن ايوالاتن الى منطقة كانكان (14) وبذلك استحوذت على أهم مناجم الذهب ، واصبحت ثروتها من هذا المعدن «لا تقارن » ، وهي عبارة المؤرخ رايمون موني (R. Mauny) (15)

وخلفتها في الثلث الاخير للقرن 15/9 امبراطورية صونغاي (Songai) في حوض النيجر . وكان مؤسسها الحقيقي هو صني على أو علي بار(Sonni Ali ou Ali Ber) (869/1464 - 897/1492) (16) . وكانت كوكو وتنبكتو تمثلان اهم مراكز تجارة الذهب رغم ان عاصمتهم كانت كوكيا (Koukia) .

لذلك فان مملكة مالي هي التي عاصرت اطول فترة من حياة بجاية الحفصية .

ب- صعوبة الرحلة وتقاليدها :

من أجل ذهب غانة اذن في فترة اولى ثم مالي بعد ذلك ، واخيرا صونغاي ، هانت مشقة عبور الصحراء بل تكونت شيئا فشيئا تقاليد للرحلة الصحراوية وتركزت وسائل مقاومة أخطارها : محطات الاستراحة ورجال يقومون بمهمة الدليل في الصحراء الذي سماه ابن بطوطة « التكشيف » .

جعلت محطات الاستراحة للانطلاق من جديد واعداد العدة لمرحلة موالية ،وقد حدثنا ابن بطوطة عن مثال تاسرهلا قائلا :« ثم وصلنا الى تاسرهلا ، واحساء ماء تنزل القوافل عليها ، ويقيمون ثلاثة ايام فيستريحون، ويصلحون اسقيتهم ويملؤونها بالماء ، ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح . ومن هنالك يبعث التكشيف » (17) و « التكشيف » هورجل ضروري يقوم بمهمة الدليل في مرحلة صعبة من الرحلة الصحراوية (18) . واصبحت هذه المهمة من تخصص قبائل مسوفة . وكانت بالنسبة اليهم مهمة رابحة . قال ابن

---

14) Mauny (R.) ,*Les siecles obscurs ... , op.cit* ., p. 157 .

15) *Ibid .*

16) Mauny (R.) , *Ibid* , p. 169 ; Devisse (J.) , " Routes de commerce ..., *op.cit.* p. 392

17) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 297 .

18) يعرف ابن بطوطة التكشيف كما يلي : « ... التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه اهل القافلة ، فيتقدم الى ايوالاتن يكتب الناس الى اصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة اربع ، ومن لم يكن له صاحب بإيوالاتن كتب من شهر بالفضل من التجار بها ، فيشاركه في ذلك ولربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم اهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها او الكثير منهم . » المصدر نفسه والصفحة نفسها .

بطوطة « واكترينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة » (19) .

ج - آليـــة اقتناء الذهـــب

كان الملح هـو البضاعة الرئيسية التي تقع مبادلتها بالذهب . فالملح ثمين في بلاد السودان ، لانهم في حاجة ماسة اليه (20) ، ولانه غير متوفـــر في مناطقهم بالذات. وتبينت قيمة الملح باوجه متعددة ، فقد كان يشكل ذخيرة اذ ذكر ياقوت الحموي ان اثمن شـــيء في خزينة ملك كوكـــو هو الملح (21) . وكان عملة صـــرف وتعامـــل . فقد نقل ابن بطوطـــة ما يلي : « وبالملح يتصارف السودان كما نتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعـــا ويتبايعون به» (22) واضاف ان « المسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا أداما ولا دينارا ولا درهما ، وانما يحمل قطع الملح وحلي الزجـــاج ، وبعض السلع العطرية » (23) . اما الذهب فمتوفر كما بينا . لذلك فهم التجار المعادلة . وعملوا على نقل الملح الى بلاد الذهب ، لا من بلاد المغرب ، ولكن من ملاحات على طريق السفر .

كانت « أوليل » على ساحل المحيط شمال مصـــب السينغال الملاحـة الرئيسية الى بداية القرن 11/5 ، وخلفتها « تغازا » الى نهاية القرن 15/9 . ولم تكن تغازا بايدي السودان ، بل كانـــت بايدي قبائـــل مسوفـــة ، وهي قبائل بربرية من صنهاجة تجوب الصحراء . قال ابن بطوطة عن تغازا في هذا

---

19) المصدر نفسه والصفحة نفسهـــا .

20) حسب الرحالة الفيس كادا موستا (Alvice Cada Mosta) (1480/885-1432/836) يستهلك سكان غربي افريقيا كميات كبيرة من الملح ليتجنبوا جفاف اجسامهم .

Masta (A.C.D) , Relations des voyages à la côte occidentale d'Afrique , Trans . by M. Schefer ,Paris E . Leroux , 1895, p. 56.

ذكر صالح العرير وذكر المصدر في الهامش في مقاله « العلاقات التجارية ...» مرجع سابق ، ص 80 : وحسب الرحالة فلانتين فرنندس (Valintine Fernandes) هم يستعملونه لعلاج العديد من الامراض

Fernandes (V.) , Description de la Côte d'afrique et ceuta au général , Trans . by p. de Cenival et T. Mond , Paris - Larose , 1938 ,p. 87.

اورده صالح العرير في نفس المقال ونفس الصفحة .

21) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج IV، ص 495 .

22) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 297

الامر : « ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال » (23) . ويبدو ان سيطرة مسوفة كانت تصل الى مدينة إيوالاتن لانهم هم الذين كانوا يقومون بمهمة «التكشيف» عبر الصحراء الرابطة بينها وبين تغازا (24) ، بل حتى بين إيوالاتن ومالي . (25) .

يشترى التجار المغاربة الملح من تغازا ، ومنها يحمل الى بلاد مملكة مالي ، حيث يبادلونه بالذهب باثمان مرتفعة في أهم الاسواق : إيوالاتن ومالي وتنبكتو وكوكو .

ويبدو بالاعتماد على ابن حوقل وكادا داموستا (Ca Da Mosta) وليون الافريقي ان اسعار الذهب ارتفعت في آخر القرن 15/9 وبداية القرن 16/10 بينما انخفضت أسعار الملح :

ذكر ابن حوقل في 340/951-952 ان ثمن حمل الجمل في أودغشت يساوي بين 200 و 300 دينار ذهبا (26) ، اي ما يعادل 944 غرام الى 1416 وذكر « كادا موستا » خلال النصف الثاني للقرن 15/9 انه كان يساوي حوالي 1 كلغ من الذهب في تنبكتو ومالي (27) ، اما ليون الافريقي فقال انه كان يساوي في حوالي 1526/932 ثمانين دوقة ذهبية اي حوالي 283 غرام . (28)

يتفق سعر ليون الافريقي مع فترة تمركز إمبراطورية صونغاي وسيطرتها على ملاحة تغازة في عهد « أسكيا محمد » (898/1493-934/1528) والمنافسة البرتغالية على سواحل المحيط الاطلسي واكتشاف أمريكا . وهذا يعني ان اسعار الذهب في بلاد السودان بقيت منخفضة طوال العهد الذي تزامن مع حياة بجاية الحفصية .

---

23) المصدر نفسه والصفحة نفسها

24) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

25) قال ابن بطوطة : « ولما عزمت على السفر (من إيوالاتن) الى « مالي » وبينها وبين إيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمجد ، اكتريت دليلا من مسوفة ، وخرجت في ثلاثة من أصحابي » المصدر نفسه ص 298 .

26) ابن حوقل ، *كتاب صورة الارض* ، ص 151 .

27) Mosta(A.C.D.) , *relations de voyages* ..., *op.cit.* p. 54 , cité par Devisse (J.) , " Routes de commerce ... , *op.cit* . p. 360.

28) L'Africain (L.) , *Description l' Afrique* , t. II., p. 824 ; Devisse (J.) ,*Ibid* ., p. 360. العربر (صالح) ، « *العلاقات التجارية* ...» مرجع سابق ، ص 79 - 80 .

وكان الحصول على الذهب يتم بتبادل بضائع اخرى منها ما خضع لآلية مشابهة كالنحاس الذي مثل بضاعة للتبادل المربح بالذهب بشهادة ابن فضل الله العمري . فقد ذكر ان ملك مالـــي كان يمنح 66 مثقالا من الذهب مقابل مائة من النحاس (29) .

ويوجد مصدره في مدينة تكدا على طريق القوافل:« وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معادن النحاس » (30) . وقد ياتي ايضا من المغرب الاقصى (31).

ان الهام في هذه التجارة هو الفارق الشاسع بين الاسعار في موطـــن الانتاج تكدا والاسعار في مواطن البيـــع . وقد اعطانـــا ابن بطوطة فكرة عن سعره في تكدا حيث ذكـــر ان 400 قضيب نحـــاس من الغلاظ او 600 من الرقاق تباع بمثقال ذهب .

واذا قارناه بالسعر الذي ذكره العمري في مالـي اي 66 مثقـــالا من الذهب مقابل مائة من النحاس تبين لنا الفارق الشاسع . ولابد ان نلاحظ ان اخبار المصدريـــن متزامنة تقريبا ، اذ ينتهي كتاب مسالك الابصار للعمـري الى حدود 1340/740 ،وقام ابن بطوطة بزيارته الى تكدا سنة 1353/754 .

يبدو ان العمري قد بالغ ، ولكن حتى وان بالغ ، فان ما قاله يدل دائما علـــى ان الارباح الكبيرة كانت تتاتى من نقل النحـــاس مـــن المنجم الى مواطن تفتقده بينما يتوفر الذهب عندها .

ان الملح والنحاس بضاعتان تنقلهما القوافل من المناجم الواقعة على الطريق نحو بلاد الذهب.

وهنـــاك سلع أخرى تاتي بها القـــوافل من بلاد المغرب اما من انتاج مغربي او أوروبي ، منها الفضة والاقمشة والملابس والخيول .

يبين ماريان مالويست (Marian Malowist) في مقاله حول « ذهب

---

29) Al- Umari (Ibn Fadl Allah) , *L'Afrique moins l'Egypte* ,trad. et annoté par J.M. Gaudefroy Demombynes , Paris 1927 , p. 81 ; Devisse (J.) , *"Routes de commerce ..."* , *op.cit* ., p. 361 .

30) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 305 - 306 .

31) Devisse (J.) , " *Routes de commerce ...*" , *op.cit* ., p. 362 .

السـودان فـي العصر الوسيط » (32) ان الفضة كانت نادرة هنالك حيث كانت مبادلته بالذهب مربحـة جدا . واعتمـد في ذلك اولا علـى شهـادة الجنوي « انطونيو مالفانـت » (Antonio Malafante) الذي زار مدينة تـوات في 1447/851 واستقى بها معلومات عن بلادالسودان مفادها ان الفضة هنالك تساوي الذهب ، وثانيا على مقتطف من كتاب « وصف افريقيا من سبتة الى السينغال » لفلانتين فرنانديز (Valintin Fernandez) يقول فيه ان الفضة في أرجيم (Arguim) أغلى من الذهب . ويفترض ان التجار المغاربة مارسوا هذا النوع من التجارة .

قد تؤكـد رحلـة ابن بطوطة ما ذهب اليه مالويست اذ تضمنت ذكرا لادوات متعددة من فضة في قصر سلطان مالي كعلامة للأبهة : « رماح الذهب والفضة » « رمحان صغيران احدهما من ذهب والآخر من فضة » « قنابر من ذهب وفضة »(33) .

وتاتي القوافـل المغربية او المصرية بالاقمشة والملابس ايضـا وسلـع متنوعة تكون مطلوبة في بلاد السودان من انتاج بلادهم او قادمة من اوروبا ، لتبادلها بالذهب بثمن مرتفع . قال ليون الافريقي :« يقصد السـود مدينـة كوكو باعداد وافرة ومعهـم كميات كبيرة من الذهب لمبادلتهـا بالبضائع المستوردة من بلاد البربر او اوروبا ولكنهم دائما لا يجدون البضائع الكافية لاستنفاذ ما لديهم من ذهب فيعودون الى ديارهم بنصفه او ثلثيـه » (34) ويضيف ان اكثر اللحف (ج.لحاف) الاوروبية رداءة كانت تباع باربعة دوقات وذكر بعض انواع اللحف الجيدة التي تباع بـ 15 دوقة او 30 دوقة » (35) .

ذكر ليون الافريقي المخطوطات كسلعة قادمة من المغرب ومطلوبة في مدينة تنبكتو حيث تباع بثمن مرتفع .(36)

(32 Malowist (M.) , " L'or du soudan ..." , *op.cit.* , p: 1634-1636 .

يرجعنامالويست فيما يخص شهادة مالفانت الى :

De la Ronciére (c.) , La découverte de l'Afrique au moyen âge ,t. I., le Caire , 1925 , p. 155.

وفي ما يخص شهادة فرنانداز الى :

Fernandez(V.) , *Déscription de la côte d'Afrique ..., op.cit* . p. 54 .

(33 ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 300 - 301 .

(34 L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ..., op.cit* . , t. II, p. 464-465.

(35 *Ibid* ,t. II, p. 470-472.

(36 *Ibid* ,t. II, p. 467

كانت الخيول القادمة من بلاد المغرب او مصر مطلوبة جدا من قبل الملوك والامراء ورجال السلطة لتكوين الجيش خاصة . وهي تبادل ايضا بالذهب . لكن مبادلتها تتم اساسا بالعبيد. (37) واعطانا ابن بطوطة ثمنها بالذهب في مالي سنة 1353/754 ولاحظ غلاءها فقال : «وكان لي جمل اركبه ، لان الخيل غالية الاثمان يساوي احدها مائة مثقال ...» (38)

2 - البحث عن العبيد

يشكل البحث عن العبيد الدافع الاساسي الثاني بعدالذهب . وهي تجارة مربحة .

كانت تعتمد اساسا على مبادلة الخيل بالعبيد ، وتخضع لدورة واضحة : شراء الخيول من بلاد المغرب بالدنانير الذهبية و مبادلتها بالعبيد في بلاد السودان ، ثم بيع العبيد في اهم اسواق بلاد المغرب . وتاتي بجاية في المرحلة الاخيرة حيث يلتقي التجار الاوروبيون بالتجار المغاربة .

تعتبر بلاد السودان كلها مصدر لجلب العبيد ، لان ابن بطوطة اكد على اهمية اسواق تكدا ومالي وإيوالاتن قائلا : «ويتفاخرون (اهل تكدا) بكثرة العبيد والخادمات ، وكذلك اهل مالي وإيوالاتن » (39) .

اكد ليون الافريقي من جهته على اهمية سوقي « برنو » و«كوكو» . وقد تحدث عنها باكثر تفصيل وأفادنا عن مصدر الخيول وثمن بيعها في بلاد السودان وطريقة الحصول على العبيد : كانت الخيول تاتي من بلاد المغرب ومصر ثم يبقى التجار بعد وصولهم الى بلاد السودان ينتظرون مبادلتها ، اذ لم يكن من السهل توفير العبيد في الإبان .

فقد حدثنا ليون الافريقي عن خروج ملك برنو او امير كوكو لاقتناصهم حين تصل القوافل ولا يخرج الملك في اي وقت بل يتحين الاوقات المناسبة . وقد ينتظر التجار شهرين او ثلاثا ، واحيانا يبقون الى العام القادم (40) . وتخصص الخيول للمبادلة بالعبيد اساسا ، لانها بضاعة

---

37) انظر في ما يلي: ص 204-205 من نفس هذا الباب .

38) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 304 .

يساوي المثقال حوالي 4.72 غرام . راجع الفصل الخاص بالعملة ص 267-269 من البحث .

39) المصدر نفسه ص 305 .

40) L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ..., op.cit.* , p. 480 .

استراتيجية قادرة على اغراء الملــوك .

تباع الخيول بأثمان مرتفعة ، يخبرنا عنها ليــون الافريقي بقولـــه : « يتاجر ملك برنومع بلاد المغرب . فهو يتبادل معهم الخيول بالعبيد بحساب 15 الى 20 عبدا لكل فرس . » (41)

اورد « غودراي » (A. Goudray) فـي دراســة لــه عن العلاقــات التجارية لتلمسان بالصحراء مثالا عن الارباح التي يمكن ان تحصل من وراء هذه التجارة فقال يدفع مقابل الفرس الجيد في بلاد المغرب 30 دوقة ، ويباع بمعدل 17 عبدا.وبعد العودة يباع العبد في مدن بلاد المغرب بـ 25دوقة (42). وبالتالي فان الثمن الذي دفع عند شراء الفرس استثمر ليتضاعف بمعدل 14 مرة عند بيع العبيد .

ولا شك ان الارباح طائلة حتى بعد طرح كامل التكلفة من ثمن البيع بما في ذلك تكاليف السفر وفقدان بعض الخيول عند الذهاب او بعد العبيد عند الإياب .

حدثنا ابن بطوطة عن انواع متميزة من العبيد منهم الخادمات اللاتي سماهن بالمعلمات . واشار الى ارتفاع ثمنهن وندرتهن ، فقد قال : « ولا يبيعون (اهل تكدا) المعلمات منهن (اي الخادمات) الا نادرا وبالثمن الكثير » (43) واشار ايضا الى وجود الجواري الحسان والفتيان ببلاد برنو : « ومــن هذه البلاد يؤتي بالجواري الحسان والفتيان وبالشياب المجسدة »(44) .

يعطينا ابن بطوطة فكرة عن حجم العبيد الذين يمكن ان تنقلهم القافلة اذ ذكر ان تلك التي صاحبها عادت بـ 600 عبد (44) .

تسابــق التجار المغاربة نحو بلاد الســودان من اجل الحصــول على بضاعتين اساسيتين:الذهب والعبيد اللتين كونتا العمودي الفقري للتجارة الصحراوية .وكانت المبادرة بايديهم فخلقوا آلية مربحة قوامها عناصر ثلاث:

- السيطــرة على تجــارة الملــح التي تحتاجه بلاد السودان الغربية والوسطى لمبادلته بالذهب .

---

41) Ibid., p.

42) Goudray (A.), " Relations commerciales de Tlemcen avec le Sahara et le Sudan ", *Bulletin de la Societé de Géog. d'Alger*, (1897), p. 427-430 ; Abakar (A.), *Le commerce caravanier ..., op.cit., p. 147.*

43) ابن بطوطة ، *تحفة النظار* ، ص 305 .

44) المصدر نفسه ، ص 306 .

- المشاركة في تجارة النحاس بنقله من المنجم الى أسواق الاستهلاك في بلاد السودان .
- مبادلة بضائع مصنعة مغربية او أوروبية ، خاصة الاقمشة واللحف .
- التبادل مع الملوك ببضاعة استراتيجية : الخيول مقابل العبيد .

وقد تتزود القافلة ببضائع افريقية متنوعة تساهم في الزيادة في الارباح مثل الشب والتوابل والمسك والجلود والعاج (45) . ولكنها لم تشكل ابدا المحرك الاساسي لخروج القافلة نحو بلاد السودان .

II - بجاية ميناء متوسطي لبضائع السودان

تعود القوافل اذن الى بلاد المغرب بالذهب والعبيد ، وبضائع اخرى . وتصل الى المداخل الكبرى : غدامس ووارجلان وسجلماسة وأغمات . وقد تتجاوز سجلماسة الى تلمسان . ولكن لم تكتمل الى هنا الدورة التجارية الصحراوية ، بل يبدأ التوزيع والتسويق .

فالذهب والعبيد بضاعتان مطلوبتان من قبل التجار المغاربة داخل المغرب الاسلامي ، ومن قبل السلطة ، ويتلهف عليهما التجار الأوروبيون القادمون الى الموانئ الساحلية حيث يطلبون البضاعتين .

ومن هنا تبدأ آلية جديدة للتبادل المربح مع تجار المتوسط . ويبدأ معها أهم دور تقوم به بجاية في التجارة الصحراوية .

1 - بجاية ميناء للذهب :

أ - أوروبا تقتني ذهبها من بجاية ومثيلاتها من موانئ المغرب :

كان رصيد اوروبا من الذهب محدودا جدا ، بينما أصبحت حاجتها من العملة الذهبية في تزايد خاصة منذ القرن 13/7 لثلاثة عوامل (46)

---

(45) Abakar (A.) , *le commerce caravanier ...* , *op.cit* ., p. 148-149 .

(46) Heers (J.) , " Le Sahara et le commerce ..., *op.cit.* , p. 248.

اولا كان الانتاج محدودا جدا ، فمناجم اوروبا الوسطى وآسيا الصغرى وبلاد القوقاز لم تكن تعني شيئا .
ثانيا ، ان التجارة مع المشرق جرفت معها كميات ضخمة من العملة الذهبية او الفضية الى حدود القرن 13/7 لان التجار الايطاليين آنذاك لم تكن بايديهم بضائع ثمينة لمبادلتها بالتوابل .
ثالثا ، عرفت التجارة الأروبية الداخلية والخارجية تطورا ملحوظا بعد ازمات القرن 14/8 ، ونمت الصناعات وارتفع حجم المعاملات أكثر فاكثر .

لهذه الاسباب اجمالا احتاجت اوروبا لذهب السودان ، فبحثت عنه في موانى بلاد المغرب .
ولنا شهادة هامة لحاخام مدينة الجزائر في أواخر القرن 14/8 تؤكد ان الأوروبيين يقتنون الذهب من المغرب الأوسط ، فقد قال : «الذهب في بلاد اوروبا مرتفع الثمن وفي هذه البلاد (يقصد المغرب الأوسط) منخفض ، لان بلاد اوروبا تقتني ذهبها من هذه المنطقة » (47).

من المؤكد ان بجاية كانت احدى اهم الاسواق التي وفرت لهم الذهب .
فقد افادنا المؤرخ هلمر كروجر (H. Krueger) معتمدا على وثائق جنوية من القرن 12/6 ان التاجر الجنوي « بونوسيوهانيس لركاربوس » (Bonusiohannis Lercarius) الذي حمل الحرير والكتان الاسبانيين الى بجاية أمر باعادة تمويل المداخيل في الشمع والشب او الذهب في بجاية ايضا (48) . وقال ان وثائق أخرى تحدثت عن اقتناء جنوة للذهب من موانى وهران وسبتة او اي مكان آخر . وانها تشير الى ان إفريقيا هي مصدره .(49)

ان بجاية كما بينا سابقا محطة لتجار الصحراء بشهادة الادريسي (50) . وهي مرتبطة بكل المداخل الصحراوية . وان حاخام الجزائر لما تحدث عن المغرب الأوسط لم يخصص حديثه عن الجزائر . فمن الطبيعي ان تستقطب تجار الذهب من الأوروبيين والمغاربة وغيرهم ، لانها كانت أهم ميناء في هذه المنطقة يحتوي على أنشط حركة لتجار البحر الابيض المتوسط وأكبر

---

47) وردت القولة في مقال ميشال ابيتول :
Abitol (M.) , " Juifs maghrebins ..." , *op.cit.* , p. 177-178.

48) Krueger (H.C.) " The wares of exchange in the genoese Africain Traffic of the twelfth century" *Speculum* , XII , (1937) , p. 69 .

49) Ibid.

50) راجع ص 155 من البحث .

عدد من الفنادق الممثلة للتجار الايطاليين والمرسيليين والقتلانيين (51) .

وكانت بجاية دار ضرب للعملة الذهبية والفضية شهد ابراهيم المريني على أهميتها بصفة غير مباشرة عندما حدثنا عن العدد الهام لعمالها الذين خرجوا الى زواوة اثناء هجوم الاسبان في 915/1509-1510 .ودار الضرب دليل آخر على ان بجاية كانت تنشط تجارة الذهب . وكانت ايضا سوقا من أسواق صياغة الذهب ، اذ حدثنا صاحب الاستبصار في القرن 6/12 عن تذهيب عمائم الامراء من صائغي مدينة بجاية فقال : « ببلادهم صناع لذلك فاخذ الصائغ عن تعميم عمامة منها دينارين وأزيد ... وتساوي العمامة الخمسمائة دينار والستمائة دينار »(52) .

وأخيرا فان بجاية كانت موطنا هاما من مواطن اليهود الذين نشطوا في تجارة الذهب ، وكانت لها جاليات قديمة سمت نفسها محلية (توشافيم) أضيفت اليها جاليات هاجرت من الاندلس نعتت « بالمطرودة » (ميغوراشيم) (53) .

نتجت هذه الهجرة عن الحملة الاضطهادية التي وجهت ضد اليهود سنة 793/1391 في شبه الجزيرة الأيبيرية ، لا سيما في مملكة قشتالة ومنطقة قطلونية وجزر الباليار . ويبدو ان قدومهم قوبل باستحسان السلطة الحفصية التي اعتبرت ان دورهم قد يكون ايجابيا في الحياة الاقتصادية (54) ولذا ليس من الغريب ان يكون دورهم هاما في بجاية في ميدان حرفة الذهب وتجارته .

توصل برنشفيك الى القول بان مدينة قسنطينة كانت باستمرار تضم يهودا (55) . وقد تكون بجاية بالنسبة اليهم المرفا الساحلي الذي يمكنهم من التعامل مع تجار المتوسط .

أكد « ماريان مالويست » (M. Malowist) ، بالاعتماد على نتائج

---

51) راجع ص 242-243 من البحث .

52) ورد هذا النص في مقال رشيد بو رويبة ، « الحياة الاقتصادية في بجاية ...» ، مرجع سابق ، ص 493 .

53) Abitol (M.) , " Juifs maghrebins ..." , *op.cit* , p. 187

ونلاحظ ان الدولة الحفصية لم تواصل ممارسة التضييق على اليهود الذي قامت به الدولة الموحدية خاصة في بداية عهدها ، بل « قد استعادوا حياتهم بصورة تكاد تكون طبيعية وخالية على الاقل من التخوف المستمر بشان ذواتهم وممتلكاتهم » : برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، مرجع سابق ، ج1، ص 431 .

54) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 433 .

55) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 432 .

أعمال « مارك بلوك » (M.Bloch) و « فرديـنـان برودال » (F.Braudel) و « شارل إيمانويل ديفـورك » (Ch. E. Dufourcq) و « شـارل فارلـنـدان » (Ch. Verlinden) و « أ.م. واطسن » (A.M. Watson) على مدى تاثير ذهـب السـودان على ضرب العملـة في اوروبا الغربية والجنوبية وتاثيره على الاصلاحات التي شملت النظام النقدي بها خلال القرن 13/7 حيث انه لم يكن القيام بها ممكنا بدونه (56)

ب - ماذا مقابل الذهـب ؟

* أوروبا تقتني الذهب الخام والمصنوع :

سعت اوروبا بطرق متنوعة للتزود بالذهب . ورحب المغاربة بذلك لانهم يبيعونه غاليا بالمقارنة بكلفته ، ولانهم ياخذون السلع الاوروبية الى بلاد السودان لمبادلتها بالذهب باغلى الأثمان . ويعتبر الأروبي من جهته العملية رابحة حين يقارن ثمن الذهب في اوروبا وثمنه في مواني المغرب . ويلخص حاخام الجزائر ذلك في أواخر القرن 14/8 في قوله :« الذهب في بلاد اوروبا مرتفع الثمن وفي هذه البلاد (اي المغرب الاوسط) منخفض ...» (57)

ليس من المستبعد ان تكون للأوروبيين امكانية الحصول على الذهب في شكله الذي يصل به من بلاد السـودان ، التبر أو السبائك ، ما دام تجار الصحراء يلتقون بهم مباشرة في بجاية نفسها .

لكن « ج . - جيهـال » (G. Jehel) يعتقد فيما يخص جنـوة ان تبر الذهب لم يعد يصدر اليها بعد 1250/648 ويفسر ذلك بحاجة شمال افريقيا المتزايدة لهذا التبر لضرب العملة التي عرف حركة متزايدة عند الحفصيين ويذهب الى القول بان شمال إفريقيا قد أصبح موردا للتبرمن جنوة نفسها . ولكنه يلاحظ في نفس الوقت ان وثائـق صقلية تشهد بان تصديـر ذهـب إفريقيا تواصل نحو هذه الجزيرة بموجات ضخمـة خاصة عنـد فترات تـازم الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب ويقول انه من المحتمل ان يذهب جزء من هذا الذهب من صقلية الى جنوة عن طريق المبادلات المختلفة (58) .

(56 Malowist (M.) , " Le commerce de l'or dans le Soudan ..", *op.cit* ., p. 1630.

(57 Abitol (M.) , " Juifs maghrébins ....", *op.cit* . , p. 177.

(58 Jehel (G.) ,*Les Génois en Méditerranée ...* , *op.cit* ., p. 354-355.

نستنتج ان التزود بالذهب في شكله الخام لم يكن دائما أمرا هينا . فالمغرب العربي قد يخير تحويله الى نقود او حلي ، وبعدها يتعامل به مع الاوروبيين . فهو معدن استراتيجي تتضاعف الفائدة منه بعد خدمته .

*** لم تكن السلع مقابل الذهب أوروبية فقط :**

أما بالنسبة للسلع التي يقدمها الاوروبييون مقابل الذهب فتعتقد انها كانت متكونة من تلك التي كانت مطلوبة في بلاد السودان . ولكن ايضا من تلك التي تحتاجها بلاد المغرب نفسها . ولانعتقد انها كانت ضرورة قادمة من البلد الاصلي . فالدورة التجاريةأكثر تعقدا لان التجار الايطاليين خاصة يتنقلون عبر المتوسط من مرفإ الى آخر . وقد يبادلون تجار المغرب ببضائع المشرق او بضائع وقع اقتناؤها في الطريق مقابل الذهب او العبيد . وهذه أمثلة أوردها « هملر كروجر » (H. Krueger) عن مواد شرقية نقلها الجنويون الى بجاية .

ففي سنة 1159/554 جلب التاجر الجنوي « لامبرتوس دي دالنيو » (Lambertus de Dalneo) الى بجاية الفلفل والتوابل وجوز الهند الى جانب بضائع أخرى قادمة من جنوة عن طريق مواني لافنتين (Levantine) التي استجلبتها بدورها من مواني الشرق الادنى : يافا وطرابلس (بلبنان) والاسكندرية (59) .

وفي 26 افريل قام التاجر « برناردوس روفوس » (Bernardus Refus) بجلب بضائع من سوريا قيمتها 281 ليرة الى بجاية (60) .

لذلك ، فان البضائع متنوعة ومن مصادر مختلفة والمهم ان تكون مطلوبة في سوق بجاية .

*** الفضة مقابل الذهب :**

يجلب التجار الاوروبيون الفضة ايضا في شكلها المعدني او النقدي لمبادلتها بالذهب في بجاية ومثيلاتها من المواني المغربية . ويركز « ماريان

---

59) Krueger (H.C.) " The Wares of exchange ..." , *op.cit. p.*, 65 .

60) Krueger (H.C.) , " Genoese Trade with North west Africa The twelfth Century " , *Speculum* , VIII, (1933) , p. 395 .

مالويست » (M. Malowist) على اهمية هذا التبادل (61) ويتحدث عنه ميشال أبيتول (M. Abitol) (62) وجورج جيهال (G. Jehel) . (63) .

تصدر أوروبا هذا المعدن لانه يتوفر عندها ، عكس الذهب ؛ وذلك بفضل مناجم « سربيا » التي يستفيد منها تجار « راغوزة » (Raguse) (64) ومناجم « بوهيما» (65) ، والمانيا الوسطى التي يستفيد منها تجار البندقية (65) ، ومناجم سردانيا التي يتزود منها تجار جنوة (66) .
لذلك كان من مصلحة اوروبا ان تصدر الفضة وتحافظ على رصيدها من الذهب بل تعمل على تنميته .

هناك ما يؤكد ان بجاية تستقبل مثل بعض الموانى المغربية الاخرى الفضة في شكلها المعدني او النقدي.فقد افادنا هملركروجر(H.C. Krueger) ان التاجر الجنوي « بونيسيو هاني » (Bonusiohannis) حمل معه صفائح من فضة الى بجاية في صيف 1164/559 (64) . وأعطانا جورج جيهال (G .Jehel) امثلة ترجع الى سنة 602-1206/603 عن تصدير الفضة الخام من جنوة نحو بجاية بما قيمته 25 ليرة ،و 43 ليرة ،و 100 ليرة مصاحبة بالجواهر والاقمشة ، و 100 ليرة مصاحبة بالجواهر .واعتمد في ذلك على وثائق من ارشيف مدينة جنوة (68) .

تمثلت الطريقة الاخرى لبيع الفضة في تكثيف تصديرها في شكلها النقدي خاصة منذ بداية القرن 13/7 . ولذلك ضربت دراهم في اوروبا نفسها سميت « مِلاَّرِش » (Millarès) حاملة لنصوص عربية وصدرت خاصة الى موانى بجاية وسبتة ووهران ، والى مدينة تلمسان (69) ولاحظ روبار برنشفيك (R. Brunschvig) كثرة الفضة المسكوكة التي كانت ترسلها

(61 Malowist (M.) , "Le commerce de l'or dans le Soudan..." , *op.cit* ., p. 1634-1636.

(62 Abitol (M.) , " Juifs maghrébins ..." *op.cit.* , p. 189.

(63 Jehel (G.) , " *Les Génois en Méditerranée ..., op. cit* , p. 355-356 .

(64 Heers (J.) " Le Sahara et le commerce méditérranéen ..." , *op.cit.* , p. 248 .

(65 *Ibid* .

(66 Jehel (G.) , *Les Génois en Méditerranée ..., op. cit.*, p. 355

(67 Krueger (H.C.) , " The Wares of exchanges ..." , *op.cit.*, p. 67.

(68 Jehel (G.) , *Les Génois en Médeterranée ..., op. cit.* p. 356 .

(69 Malowist (M.) " Le commerce de l'or dans le Soudan ..." , *op.cit* ., p. 1635.

مرسيليا في القرن 13/7 الى تونس وبجاية على وجه الخصوص ، غير انه لم يذكر الوثائق التي نصت على ذلك .(70)

لقد ادرج لنا جورج جيهال (G. Jehel) في كتابه « الجنويون في الحوض الغربي للبحر المتوسط ق XI - ق XIV » جدولا مقارنا للتمويلات والقروض الجنوية وعقود تحويل العملة بين 1180/576 و 1289/688 انطلاقا من مجموعة وثائق بارشيف جنوة . وتبين منه ان التجار الجنويين حريصون على تمويل العمليات والقروض البحرية بالدينار الفضي (Besant) فمن بين 175 عملية هناك 108 بالدينار الفضي و 35 بالوقية التارانية (Once tarin) و 30 بالليرة التوارنية (livres tournois) او الريال المرسيلي (Réal) : بينما كانت اغلبية عقود التحويل بالوقية والليرة والريال بعدد 98 من 112 عقدا .(71) وهذا يعني ان التجار الجنويين عملوا على ان تكون العمليات التجارية البحرية نحو بلاد المغرب مصدرة للفضة وموردة للذهب ولبضائع إفريقية أخرى ، وان يضمن التحويل لهم المحافظة على رصيدهم من الذهب بل تنميته . وكانت بجاية من أكبر الاسواق المغربية التي تجري فيها مثل هذه العمليات ، الى جانب تونس وسبتة بصفة خاصة .

اما بالنسبة للتجار المغاربة في بجاية او مثيلاتها فكانوا هم ايضا ينتفعون من دخول العملة الفضية . فقد سبق ان بينا انهم كانوا يبادلون الفضة بالذهب في بلاد السودان بالتساوي (72) لذلك فالنقود الفضية الواردة عن طريق الأوروبيين تتضاعف قيمتها هنالك .

واستفادوا من تطور قيمة الفضة لصالح الذهب لانهم في هذه الحالة اصبحوا يتحصلون من الأوروبيين بنفس القيمة من الذهب على كمية أكبر من الفضة تجلب لهم في بلاد السودان كمية اكبر من الذهب .

2 - أوروبا تشترى العبيد السود من بجاية :

أ - بجاية سوق لعبيد بلاد السودان :

حدثنا الغبريني عن بيع السود في حومة المذبح حيث كان اسرى

---

70) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ... مرجع سابق ، ج‌II، ص 271 .

71) Jehel (G.) , *Les Génois en Méditerranée ...*, *op.cit* ., p. 134.

72) راجع ص 202-203 من نفس هذا الباب .

القرصنة من البيض اقل ثمنا ، اذ قال " « وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين ان يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوحش » (73) وتحدث في موضع آخر عن « بعض السودوات من غسالات الثياب كانت على راسها رزمة من الثياب فاخذت لها في الزحام في سوق باب البحر(74) .

نقلت لنا وثيقة من ارشيف العدل « جيوفاني مانزيني » (Giovanni Manzini) الذي كان يتنقل مع سفن البندقية مؤرخة في 11 أكتوبر 1475 (10 جمادى II 880) (75) ان جزائريا اشترى زوجا من العبيد السود من سوق بجاية ، وحملهما على سفينة ايطالية أصحابها من البندقية . وكان ينوي ان يتسلمها في الجزائر . ولكن استحوذ عليهما ربانها « طوماسو زينو » (Tomaso Zeno) مدعيا انه اشتراهما لحسابه .

يتوضح من الامثلة السابقة الواردة في المصادر ان بجاية كانت دون شك سوقا للعبيد السود حيث كانوا يباعون الى جانب أسرى القرصنة .

ب - الطلب يفوق العرض في بجاية :

ان جلب العبيد السود الى بجاية كان امرا اعسر من جلب اسرى القرصنة ، والعرض اقل . وانعكس ذلك على اثمانهم كما تبين في الخبر الذي اورده الغبريني . وتفسر هذه الظاهرة في بجاية بمقارنة سريعة بين الرحلة الصحراوية ورحلة القرصنة وبين العرض والطلب :

اولا ، لم يكن جلب العبيد السود دائما بايدي البجائيين انفسهم ، وقد لا يشاركون مباشرة في جلبهم من بلاد السودان اذ لم نعثر على اشارة واحدة تدلنا على وصولهم بانفسهم الى هنالك ، بل المرجح ان التجار المغاربة من مختلف الجهات هم الذين ربطوها بتلك البلاد . ولعل البجائيين ساهموا مع غيرهم بالوصول الى مداخل الصحراء ولكن حتى هذا الافتراض لا نملك ما يدعمه في المصادر بينما كان القائمون بالقرصنة هم البجائيون انفسهم ، واكتسبوا فيها مهارة كبرى واصبحوا

---

73) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76 .

74) المصدر نفسه ، ص 165 .

75) Ducellier (A.) ," Le registre de Giovanni Manzini , notaire sur les galées vénitiennes de Barbarie (1472- 1476 " ,*Cahiers de Tunisie* , n° 155-156 , (1991) p. 522-523

يتحكمون في تقنياتها حتى صارت القرصنـــة إحدى اهم اختصاصـات بـجاية بـشهادة الغبريني (القرن 13/7) : « وذلك ان بـجاية كانت بلدة غزاة » (76) ، وابن خلدون (القرن 14/8) وشرع في ذلك (اي حسب عبارة ابن خلدون : في غزو بلاد الفرنجة) اهل بـجاية منذ ثلاثين سنة ...» (77) .

ثانيا، كان السبي في البحر اقل كلفة واكثـر سرعة ، فرغم ان تجارة العبيد السود مربحة جدا فان جلب الأسرى اكثر ربحـا ، لان القرصنــة تعتمـد على الاستيلاء في اهم مرحلة لها ،بينما كان اقتناء السود تجارة في كامل مراحله. هذا بالاضافــة الى ان القرصنــة كانـت تجلـب غنائم هامـة للقائمـين بهـا والمشاركين فيها ، من شانها ان ترفع حجم الارباح .

ثالثا ، عرف تدفق الأسرى نسقا سريـعا ، نظرا لارتفاع عدد الرحلات وقصـر مدتها بالمقارنة بطول مدة الرحلة الصحراوية التي قد تفوق السنة والسنتين وانعكس الفارق في التواتر وطول المدة على حجم العـرض الـذي عبر عنـه الغبريني بقوله : « وبلغ الحال من كثرة سبـي الآدمـيين ان يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش » .

رابعا ، ان شراة العبيد السود يفوقون شراة الأسرى لانهم يتكونون الى جانب المحليين من التجار الأوروبيين القادمين خاصة من الحوض الغربي للمتوسـط . فطلباتهم اضافة الى العوامـل السابقـة هي التي رجحـت الكفة لتجـعل من العبيد السود بضاعة مطلوبة .

لم يـخضع اقتنـاء العبيدالســود الى دورة تجارية بسيطــة فهو مـثل الذهب او اية بضاعة اخرى ، يمكن ان يدفع الأوروبييون مقابلها سلعا تحصلوا عليها من مواني أخرى . نسوق مثالا يمكن ان يكون نموذجا مـشابها لبـجاية . فـحسب نص مؤرخ في 20جوان 1463 (2 شوال 867) كان تجار «راغوزة » (Raguse) يذهبون الى ألبـانيا ثم صقلية حيث يتــزودون بالحبــوب التــي يـحملونها الى برقة لمبادلتها بعبيد بلاد السودان .(78)

---

76) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76 .

77) ابن خلدو ن، *العبر* ، ج VII، ص 902 .

Ducellier (A.) " Raguse , l'Italie et la Berberie au moyen âge : A propos de (78 quelques documents inédits ou peu connus " , *Cahiers de Tunisie* ,t .XVI ,(1968) ,p. 33.

3 - الأوروبيون يقتنون من بجاية بضائع « سودانيـــة » أخرى :

لم يبحث تجـــار أوروبا عــــن الذهب والعبيد فحسب من البضائـــع السودانية بل بحثوا ايضا عن بضائع اخرى متنوعة . وكانت هامة رغم انها لم تمثل الدافع الرئيسي لخروج القوافل .

نعدد من بينها الشب الذي ذكره الادريسي (79) على انه من منتوجات « كوار » في مملكة « برنـو - الكـانم» وكان التجار المغاربــة يشترونه (80) وذكرت الوثائق الجنوية في القرن 12/6 حسب هلمر كروجر(H.C. Krueger) ان جنوة كانت تقتني الشب من بجاية .(81) غير انه لاحظ وجوده بكثرة في المغرب الاقصـــى على الحـدود الصحراوية . وعـده دي ماس لاتري (De Mas Latrie) ضمن البضائــع الواردة من بجاية الى فنلندا في أواخر القرن 13/7 (82) .

فالمشكلة هي ان وثائقنا لا تنص على مصدره الاصلي بالنسبة لبجاية .

ورأى« دي لا بريمــودي » (De la Primaudaie) ان بجاية كانــت تزود التجـار الاوروبيين الى جانب الذهب بسلع أخرى تجلبها قـوافل الصحـــراء ، وهي ريش النعام الابيـــض و الاسود والعاج (83) . ويضيف اليها جاك هيرس (J. Heers) (84) وليسار (J.M. Lessard) (85) وأباكار (A.Abakar) (86) المسك والعنبر الرمادي والعاج المستعمل في صياغـةالحلي وفن النحت ، وبداية من القـــرن 14/8 بعض التوابـل : الفلفل الاسود والميلغتا (Melaghetta) التي تشبهه .

---

79) الادريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص 11 - 13

80) Mauny (R.) , *Les siécles obscurs* ..., *op.cit.* p. 180.

81) Krueger (H.C.) ," The Wares of exchange ..." ,*op.cit* ., p. 69 .

82) De Mas Latrie ,éd.,*Traités* ... *op.cit* , doc. n° VIII (Royaume de France) , p. 98

83) Primaudaie (M. F.Elie de la) ,*Commerce et navigation de l'Algérie avant la conquête française* , Paris 1861 , p. 165 .

84) Heers (J.) " Le sahara et commerce ..." , *op.cit.* ,p. 250.

85) Lessard (J.M.) , " Sijilmassa ..." , *op.cit* . p. 13.

86) Abakar (A.) , *Commerce caravanier ...op.cit* , p. 149.

اكيد ان بجاية كانت حلقة هامة في الدورة التجارية مع بلاد السودان . ولكن المعطيات غير متوفرة للاجابة عن عديد التساؤلات منها مثلا التساؤل عن كيفية مساهمة البجائيين في الرحلات الصحراوية سواء بشريا او ماليا . قد تكون بجاية منطلقا ومقصدا لهذه الرحلات او محطة عبور . ولكنها في نفس الوقت منطلقا ومقصد لهذه الرحلات ومحطة عبور ولكنها في نفس الوقت منطلق ومقصد ومحطة عبورللرحلات البحرية المتوسطية . فبجاية ميناء تلتقي فيه التجارتان الكبريان : تجارة بلاد السودان وتجارة المتوسط .

تجار هذه او تلك تربط بينهم اساسا بضاعتان رئيسيتان قادمتان من بلاد السودان : الذهب والعبيد الى جانب بضائع أخرى متنوعة . وخلقت المعاملات وترابط المصالح آليات للتبادل شملت محطات متعددة ومجالات جغرافية واسعة : البحر المتوسط والمغرب والصحراء وبلاد السودان . وكانت بجاية حلقة رئيسية في هذه الآليات ومحطة محورية بين هذه المجالات تترابط فيها المعاملات والمصالح .

ان التحول الكبير الذي شل محطات هامة مثل سجلماسة سيحدث في بداية القرن 16/10 حين لم تعد بجاية مدينة حفصية . وكان نتيجة لتمركز البرتغاليين على السواحل الغربية الافريقية واكتشاف أمريكا واستيلاء الاسبان على الموانى البحرية لتجارة بلاد السودان : وهران وبجاية وطرابلس خلال 915/1509-1510 .

بقيت بجاية اذن طوال العهد الحفصي ميناء بحريا رئيسيا لتجارة بلاد السودان يربطها بتجار البحر المتوسط لا سيما حوضه الغربي .

الفصـــل الثـــالث

بجاية ميناء لتجارة البحر الابيض المتوســـط

الباب الاول :

الهياكل والعملة

نركز في دراستنا للهياكل الضرورية للتجارة البحرية ببجاية على ثلاثة محاور مترابطة :

- الميناء والاسطول التجاري اي هياكل الاستقبال والنقل البحري . فندرس طوبوغرافية الميناء ومؤسساته الادارية والمالية ونطرح اشكالية وجود الاسطول التجاري او غيابه .
- التمثيل الاجنبي الذي تركز في بجاية في اطار واضح : الفندق ، وضم ممثلين واعوانا في مقدمتهم القنصل .
- العملة في بجاية التي سنحاول ان نتعرف على خصائصها وتقسيماتها وقيمتها ومفعولها . كما نتعرف على اشكاليات التعامل النقدي .

ولعلنا نتمكن بعد دراسة هذه الهياكل ان نتعرف على دورها في التعامل التجاري وضمان المصالح .

هياكل الاستقبال والنقل:

الميناء والاسطول

تمر دراسة التجارة البحرية حتما بدراسة البنية الاساسية الاولى : الميناء الذي سنحاول التعرف على مدى مساهمة موقعه في تشكله ونموه وسنهتم بالجانب التنظيمي اي دراسة مؤسساته الادارية والمالية المادية والبشرية الضرورية لسير حركته والحركة التجارية البحرية المرتبطة به .

ا - طوبوغرافية الميناء

1 - الموقع متميز :

-أ - موضع الميناء محمي بحرا وبرا :مدينة بحرية جبلية :

بنيت بجاية في العصر الوسيط منذ العهد الحمادي على سفح جبل « أمسيون » (1) المسمى حاليا جبل « غوراية » وتنحدر شيئا فشيئا الى ان تلامس ماء البحر الابيض المتوسط . ويقوم اليوم المعلمان الاثريان باب البحر والقصبة شاهدين على ذلك فالاول يحاذي الشاطئ والثاني يشرف عليه .

قال الادريسي عن هذا الموضع :« ومدينة بجاية على البحر لكنها على حرف حجر . ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون ، وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى ...» (2) ، وقال ياقوت الحموي انها « مدينة على ساحل البحر » وانها بنيت « في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال » (3).وذكر الحميري ان « بجاية معلقة من جبل قد دخل في البحر يضرب فيه .»(3') .

يحمي ظهر المدينة عرف جبل « أمسيون » الذي يذهب من رأس

---

1) لربما كان هذا الجبل نفسه يسمى ايضا بجبل بجاية نسبة الى القبيلة . ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 357 ؛ *رحلة التجاني* ، ص 119 ؛ *الورثيلاني ، نزهة الانظار* ،ص 646 .

2) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ...ص 115.

3) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ج ا ، ص 339 .

3') الحميري (ابو عبد الله محمد) ، *الروض المعطار* ...، ص 81 .

الرأس المثقوب

(تصوير الباحث نفسه)

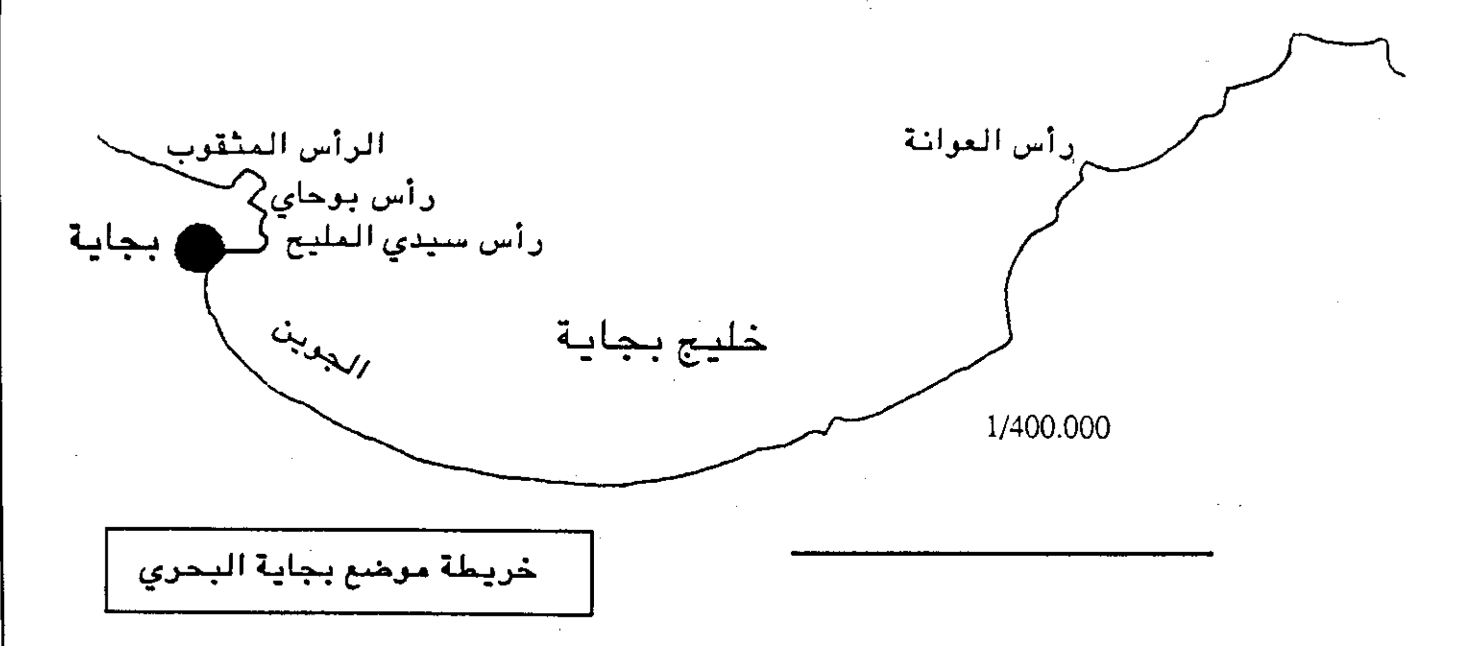


بوحـــــاي شرقا الى جبل فرنـــو غربا على مسافة ثمانيـــة كيلومتـــر (4)

*** جوين بجاية متميز طبيعبيـا :**

تقــع بـجاية على الخليج المسمى باسمها الذي يمتد من رأس العوانــة شرقا الى الرأس المثقوب غربا ويمثل شبه قوس (5) يبلغ عرضه 28 ميلا اي ما يقارب 5 كلم . وقد يصل عمقه الى 8 أميال اي حوالي 15 كلم (5') .

لكن الاهم هو الجزء الغربي للخليــج حيث بنيت بـجاية . فالـــرؤوس الثلاث : الرأس المثقوب ورأس بوحاي ورأس بواق او سيدي المليح (6) تتقدم في البحر نحو الشرق .



4) في الخرائط والمراجع باللغة الفرنسية :
رأس بوحاي : Cap ou Pointe Noire
جبل فرنو : Dj.Farnou

5) في الخرائط والمراجع باللغة الفرنسية :
رأس العوانة : Cap Cavallo
الرأس المثقوب: Cap Carbon

Féraud(Ch.) , *Histoire des villes de la province de Constantine...* , *op.cit.* , tI, p. 21- (5' 22 ; Gsell (S .) *Atlas Archéologique....*, *op.cit.*, feuille 7 ,N° 12 ; Vasse (Henri) , "Bougie et sa région " ,*Bulletin économique et juridique* , Alger ,fév. Mars ,(1961) ,p.320, Institut Géographique National ; carte topographique ; Béjaia au 1/50.000é , Alger 1965, feuille 26 .

6) في الخرائط والمراجع الفرنسية : رأس سيدي المليح : Cap Bouak

ويكون رأس سيدي المليح رعنا معكوفا في الشمال الشرقي لبجاية .
وهكذا تشكل جوين « شبه دائري تشرف عليه المدينة وتحيط به في الشمال مرتفعات « أمسيون » .
في هذا السياق ، يصف الادريسي هذا الموضع بقوله : « ومدينة بجاية في جون ينظر الى الشرق » (7) ويدعمه العمري حين قال انها واقعة « في سفح جبل يدخل اليه جون من البحر الشامي » (8) .
يشكل الجوين مخبأ محميا من الضباب والرياح الشمالية الغربية بفضل عرف أمسيون ومعكوف رأس سيدي المليح . لذلك قال عنها أبو عبيد البكري : « وهي مرسى مامون شتوي (9) اي انه مامون حتى في الشتاء.
تتوفر الرؤوس الثلاث إمكانية مراقبة البحر عن بعد ، وتهدي البحارة عن بعد للوصول الى الميناء .
واعتبر الجغرافي هنري فاس (Henri Vasse) ان بجاية واقعة على افضل جوين في السواحل الجزائرية (10)

* مناعة الموضع عامل ملائم لحركة الميناء :

كانت لهذا الموضع مزية أخرى على النشاط التجاري وحركة السفن اذ جعل من بجاية مدينة منيعة ، وصف العبدري مناعتها بقوله : « موضوعة في أسفل سفح جبل وعر ، ومقطوعة بنهر وبحر مشرفة عليهما اشراف الطليعة متحصنة بهما منيعة ، فلا طمع فيها لمحارب . ولا متسع بها لطاعن وضارب ..» (11) وعدها ابن خلدون من المدن التي تستجيب لمقاييس الاستراتيجية الدفاعية في عصره بقوله : « ومما يراعي في البلاد الساحلية التي على البحر ان تكون في جبل او تكون بين امة من الامم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة ...» ثم ضرب لذلك أمثلة سبتة وبجاية وبلد القل .
وكان لهذه المناعة دور اقتصادي لانها كانت عامل أمن ، وبالتالي تساهم في تامين الميناء برا وبحرا .

---

7) الادريسي ،*المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 131.
8) العمري (ابن فضل الله) ، *وصف إفريقية والاندلس* ... ص 8 .
9) البكري (ابو عبيد) ، *المسالك والممالك* ، جII، الفقرة رقم 1269 ، ص 757 .
10) Vasse (Henri) " Bougie et sa région " , *op.cit.*, p. 320.
11) العبدري ، *الرحلة المغربية* ، ص 26 .

قمّة غوراية

(تصوير الباحث نفسه)

ان موضع بجاية بحري جبلي آمن مهيا طبيعيا لاستقبال السفن .
ولعله يتكامل مع موقعها بالنسبة لجهتها والحوض الغربي للبحر المتوسط .

ب - موقع متميز جهويا ومتوسطيا :

- جهويا :

تقع بجاية جهويا في منطقة جبلية (12) تتخللها منخفضات ضيقة ومسالك أهمها وادي الساحل الذي يبتعد مصبه عن المدينة ميلين حسب صاحب الاستبصار (13) والعمري (14) .

وهو يشكل مسلكا بريا هاما تحدث عنه صاحب الاستبصار وسماه الوادي الكبير قائلا : « ... ولها (اي بجاية) طريق الى جهة الغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير » .(15)

ولربما شكل مسلكا نهريا للسفن متصلا بالبحر فالبكري أخبرنا عن ذلك قائلا : « بشرقيها (اي شرقي بجاية) نهر كبير تدخله السفن محملة (16) » وقد يكون الادريسي أعاد قوله اذ ذكر انه « نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب (17) ويضيف التمقروتي فيما بعد (القرن10/15) ان السفن الصغار هي التي كانت تدخله (18)ولا يتنافى وجود وادي الساحل مع ما قدمنا من وصف لمناعة الموضع . فقد بين صاحب الاستبصار ان الاعراب الهلاليين لم يكن بامكانهم بلوغها اذ قال : « والطريق (من بجاية) الى قلعة بني حماد على عقاب وأوعار وكذلك طريقها الى الشرق وليس لها طريق سهلة الا من جهة الغرب ؛ فلم يكن للعرب اليها سبيل ...» (19)

---

12) تلتقي بجهة بجاية ثلاث سلاسل جبلية : سلسلة جرجرة التي تنحدر نحو البحر حتى تنتهي بجبل « امسيون » « غوراية حاليا» في شمال بجاية وسلسلتا « البابور » و « البيبان » في جنوب بجاية . وتفوق هذه السلاسل أحيانا 2000 متر من الارتفاع .
VAsse(N) ," Bougie et sa région ..." , *op.cit* ., p. 319.

13) يقول صاحب الاستبصار : «ولها نهر كبير يقرب منها بنحو ميلين » الاستبصار - الاصالة . مرجع سابق ، ص 102 .

14) يقول العمري : « ولها نهر جار على نحو ميلين منها ...» ، العمري ، *وصف إفريقة والاندلس* ، ص 8 .
ينحدر واد الساحل من جبال « البيبان » ويبلغ طوله اليوم 195 كلم
Vasse (H.) ," Bougie et sa région ..." , *op.cit*, p. 319 .

15) الاستبصار ، *الاصالة* ، مرجع سابق ،ص 101

16) البكري (ابو عبيد) ، *المسالك والممالك* ، ج II ، الفقرة 1269 ص 757 .

17) الادريسي ، *المغرب العربي من نزهة المشتاق* ، ص 116 .

18) التمقروتي ، *النفحة المسكية* ، ص 19 .

19) الاستبصار - *الاصالة* ، مرجع سابق ، ص 101.

ويرى ابن خلدون ان قبائل جهة بجاية تشكل قوة دفاعية لصالح المدينة لانها « تكون صريخا » لها (20)
فالمسلك محصن طبيعيا حسب الأول وبشريا حسب الثاني . وفعلا فإن وجوده بين المرتفعات يمكن القبائل من مراقبته وتامينه .

- متوسطيا:

كان موقعها بالنسبة للحوض الغربي لبحر الابيض المتوسط متميزا . نلاحظ ان لهذا الحوض شكل نصف دائرة قاعدتها الضفة الجنوبية اي ساحل بلاد المغرب . وعلى هذه الضفة الجنوبية تحتل بجاية موقعا وسطا ذا أهمية كبرى: فقد كانت الرحلتان بين بجاية والاندلس وبين بجاية وصقلية متساويتين ، اذ قال ابن سعيد المغربي عن المسافة بين بجاية والاندلس : « وعرض البحر عند بجاية الى جهة طرطوشة من الاندلس ثلاثة مجار» (21)

وقال صاحب الاستبصار : « فانها (اي بجاية) بينها وبين صقلية ثلاث بحار ...» (22) و« المجرى » عند ابن سعيد هو « البحر » عند صاحب الاستبصار وكلاهما يعني يوما (23) ويخبرنا ابن خلدون انه قضى مدة تقل عن خمسة ايام من ساحل المرية بالاندلس الى بجايةعن طريق البحر بقوله : « وركبت البحر من ساحل المرية منتصف ست وستين ونزلت بجاية لخامسة من الاقلاع (24) . وقد تكون سفينته توقفت في الطريق للاستراحة .لذلك ، مهما كان الاتجاه داخل الحوض الغربي للمتوسط فان الرحلات من ميناء بجاية او نحوه لم تكن طويلة بحكم موقعها - الوسط .

وباجمال تمتعت بجاية بموقع ملائم ومتميز بحرا وبرا مستجيب لمقاييس العصر الوسيط ، فجعل منها ميناء آمنا طبيعيا وبشريا ، مفتوحا على البحر ومتصلا بالبر .

---

20) ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 349 .

21) ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض في الطول والعرض* ، تحقيق خوان قرنيط 1958 ، ص 76 .

22) الاستبصار ، *الاصالة* ، ص 101 .

23) تعني « ثلاثة بحار » عند « فانيون » (Fagnon)ثلاثة ايام اذ ترجمها الى الفرنسية بثلاثة ايام :
" ... La Sicile n'est éloignée que de trois jours de navigation ..."; Fagnon (Edmond),éd. , *Nouveaux textes historiques relatifs à l'Afrique du nord et à la siècle* ,Extrait du Kitab et Istibsar ,p. 106.

24) ابن خلدون ، (عبدالرحمان) ،*التعريف بابن خلدون* ، ص97 .

2 - ميناء قديم وآخر جديد :

لقد بني الميناء ،اذن في جوين بجاية المحمي بحرا وبرا . فكيف تطور ؟

ذكرالغبريني«باب المرسي»على انه غير«باب البحر »اذ وجدت خارجه على ما يبدو مقبرة حيث كان يدفن من توفي من الفقهاء اذ ذكر ثلاثة منهم دفنوا هنالك هم ابو محمد عبد الحق الاشبيلي (25) وابو عبد الله العربي (26) وابو محمد عبد الحق الانصاري (27) .

لقد كان باب البحر ملامسا للشاطئ (28) ؛ فلم يكن بالامكان ان توجد خارجه مقبرة . وقد ذكره الغبريني في موضع آخر حين أشارالى « سوق باب البحر » (29)

أخبرنا أبو علي ابراهيم المريني عن وجود مرسى قديمة ، قد تكون هي المقصودة عند الغبريني وذلك في سياق حديثه عن عمليات الاحتلال الاسباني لبجاية سنة 1509/915 اذ قال : « قامت القوات الاسبانية بعمليات الانزال في المرسى القديمة التي يوجد شمالها قبر الشيخ عيسى السبوكي » (30) . وهنا اورد بوضوح ان هناك مرسى قديمة وان هناك مقبرة يدفن فيها الفقهاء والمشايخ مثل عيسى السبوكي . ويؤيد الورثيلاني ما ذهبنا اليه رغم انه مصدر متأخر (31) اذ يشير الى ان المقصود هو « باب المرسى القديم ». فقد ذكر ان قبرالشيخ عبد الحق الإشبيلي كان موجودا خارج «باب المرسى القديم» (32) .

كان هناك اذن مرسى قديمة وأخرى جديدة ويحدد شارل فيرو موقع المرسى القديمة بين الرأس المثقوب ورأس سيدي المليح المسمى رأس البواق

---

25) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 75 .

26) المصدر نفسه ، ص 82 .

27) المصدر نفسه ، ص 88

28) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، مرجع سابق ، ج ا، ص 412-413 .

29) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 165.

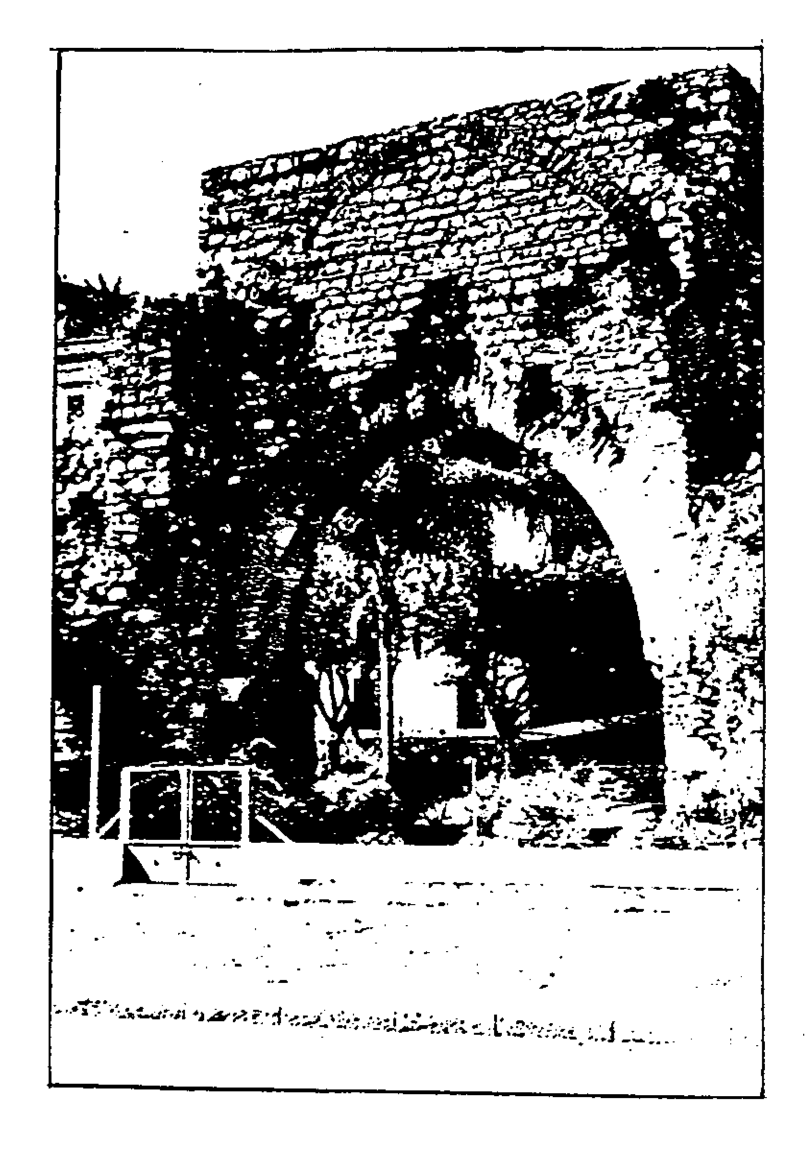
30) Féraud (ch.) ," Conquête de Bougie ...", *op.cit.* p. 251.

31) عاش الحسين بن محمد الورثيلاني من 1710/1125 الى 1779/1193 .

32) الورثيلاني (الحسين) ، *نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية* ، تحقيق محمد ابن ابي شنب ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت 1974/1394 ، ص 29 .

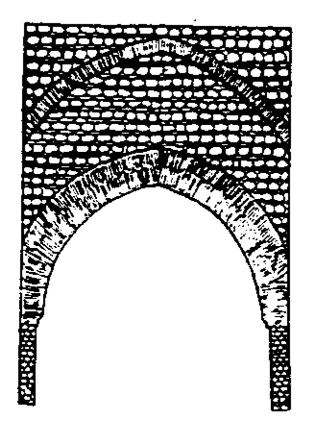
منظر امامي لباب البحر

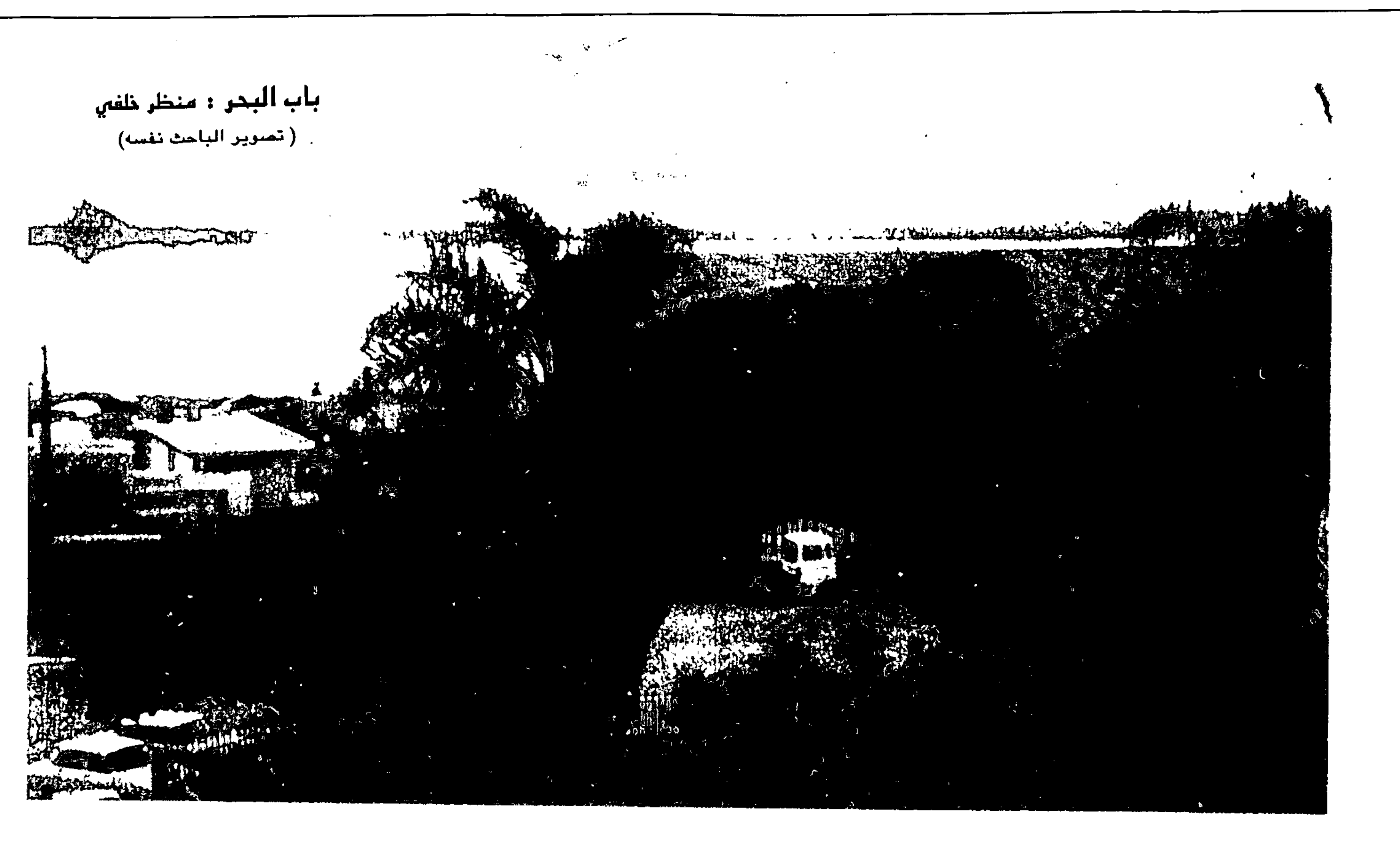
المرجع : العربي (اسماعيل) ، *دولة بني حماد* ... ، مرجع سابق ، ص 160 .



رسم للمنظر الأمامي لباب البحر

المرجع : بورويبة (رشيد) ، *الدولة الحمادية* ... ، مرجع سابق ، ص 201 .





باب البحر : منظر خلفي

(تصوير الباحث نفسه)

ايضا ولكنه لم يعلل ذلك بوضوح ، بل اعتمد على تحديـــد موقع قبر عيسى السبوكـــي في وادي القردة الواقـــع بين رأس بوحـــاي و « الإبـــر » (Les Aiguades) . وبالتالي فان المرسى القديم حسب فيرو كان واقعا بين الابر ورأس بواق (33) .

نحن لا نؤيد فيرو « (Féraud) لانه موقع بعيد عن المدينة ومرتفـع. فالمرجح ان يكون في جوين سيدي يحيى لانه أفضل طوبوغرافيا وقريب من المدينة ويتصل مباشرة بالميناء الجديد .

ان الناصر بن علناس هو الذي بني الميناء الجديد (34) . والمرجح انه بناه حذو المرسى الذي كان يستعمله تجار الجالية الاندلسية قبل قدومه . وبالتالي فالمرسى القديم هو الذي كانت تستعمله هذه الجالية .

ولكنه لم يتعطل بعد بناء الميناء الجديد . وما استقباله للسفن الحربية الاسبانية سنة 1509 الا دليـــل على انه بقي عمليا . مما يجعلنا نفترض انه تحول الى مرسى عسكرية او مرسى للقرصنـة ، لا سيمـــا وان ســوق الاسرى بحومة المذبح كان قريبا منه ، ومن الممكن انه اصبح يكمـل نشـاط الميناء الجديد مثل استقبال السفن التي تنوي الارساء لمدة طويلة ، أو تلك التي لم تجد مكانا ، أو السفن المعطبة ، الى ما يشابه ذلك .

وكان باب البحـــر واقعا على الميناءالجديد . وهو ما زال قائما الـــى اليوم . ونقل برنشفيك ان بعض المراكب كانت تمر تحت قوسه القوطي الشكل للوصول الى جوين داخلي أصبح اليوم مردوما .(35)

ويلاحظ ان هذا التصميم مقتبس من المهدية لمنافسة بني زيري . وانه وجد مثله بعد ذلك بقليل في السور المريني لمدينة سلا .(36)

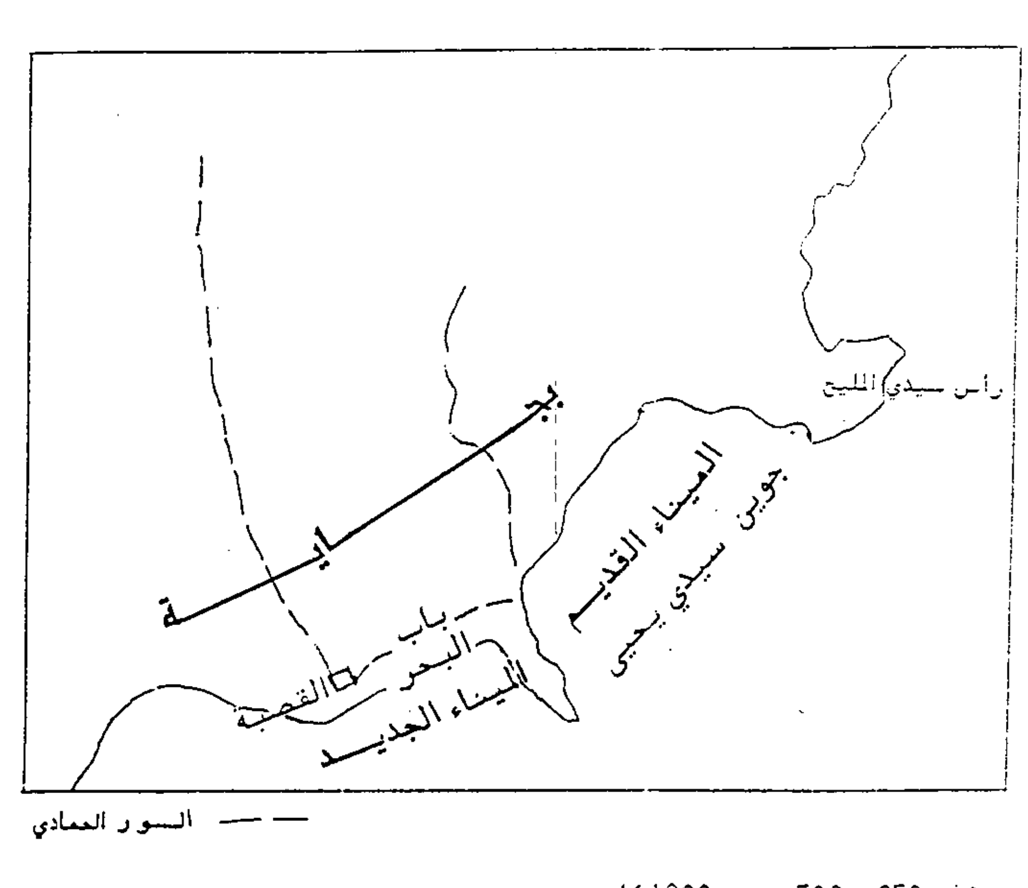
---

33) Féraud(ch.) ,éd. , " Conquête de Bougie ...", *op.cit* ., Note 2 p. 250.

34) راجع ص 55 من البحث .

35) برنشفيك (روبار) ، *تاريخ إفريقية* ... مرجع سابق ، ج1، ص 412 - 413 .

36) المصدر نفســه والصفحات نفسها .



الميناء
في العهد الحفصي

راجع : الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 75 ؛ الورثيلاني (الحسين) ، *نزهة الانظار* ، ص 29 ؛ Féraud (ch.) ,éd " Conquête de Bougie ...", *op.cit.* p. 251 ؛ برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج 1، ص 412-413.

II - مـؤسسات الميناء، ديوان البحـــر واعوانـــه

1 - ديـوان البـحـر: مؤسســة ادارية ومـالية شاملة لحركة المينـاء :

ضم الميـنـاء مؤسسة ادارية مـالية سميت بديـوان البـحـر .
تدلنا الوثيقة المؤرخة في 23 أفريل 1379 من أرشيـف تاج أرغـون على انه وجد مسؤول عن دواوين البـحـر ضمن الادارة المركزية في تونس (37) الذي قد يكون صاحب الاشغال (38) ويذكر برنشفيك ان دواوين البـحـر كانت ترجع بالنظر الى صاحب الديوان أو الناظر بالديوان (39) .
لكن النظام ببجاية كان صورة من النظام المركزي وتمتعت باستقلالية إدارية كبيرة . وكان يوجد بها أيضا صاحب أشغـــال (40) وبالتالي ، فمـــن الممكن أيضا ان يرجع ديوان البـحر اليه بالنظر .
ان مصادرنـــــا لا تمكننا ان نتجاوز الافتراضات بالنسبة لهذه النقطـــة .
توحي تسمية ديوان البـحر بانه كان يهتم بكامل الانشطة البـحريـــة .
غير ان « كولان » (G.S.Colin)توصل الى القـول بانه كان عبارة عن مكتـب مـختص باستـخلاص ضريبة العشر وغيرها الموظفــــة على واردات التجـــار الأوروبيين(41) .فهل تبين لنا المعطيات التي بين أيدينا ان صلاحياته تتجاوز الوظيفة الجبائية ؟

أ - الوظيفة الأولى للديوان : استـخلاص الاداءات :

تتمثل أولى وظائـــف ديوان البـحـر في استـخلاص الاداءات علـــى البـضائع الواردة .وتحدد بصفة عامة بـ 10٪ من قيمتهـاوتسمى«العشر»(42) .

(37 Dufourcq (Ch.) ,éd., " Le registre 1389..." , *op.cit.*, doc.251,p. 137.

(38 Colin (G.S) ," Diwan occident musulman " , *Encyclopédie de l'Islam* , Nlle éd. tII,p. 341.

(39 برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، مرجع سابق ، ج II ، ص 67 .

(40 راجع ص 103-104 من البحـــث.

(41 Colin(G.S.) , " Diwan ..." , op.cit , t.II, p. 341.

(42 BAUTIER (R.H.) , " Les relations commerciales entre l'Europe et l'Arique du Nord ", *Bulletin philologique et historique du Comité des Travaux historiques et scientiifques* , (1953-54) ,p. 401; Forand (Paul G.) ," Notes on Ušr and Maks " , *Arabica* , III , (1966) , p. 137-141; Ferhat (Halima) , " La fiscalité au Maghreb du XIè au XIII è s. : enjeux et conflits " , dans son recueil intitulé *Le Maghreb aux XIIè et XIIIè s.: Les siécles de la foi* , éd. , Wallada , Casablanca 1993 , p. 127-142 .

وقد تمنح امتيازات لدولة دون الآخرى حسب الظروف ونوعية العلاقات والاتفاقيات ولنا أمثلة عن ذلك :

تمتعت جنوة حسب اتفاقية 1161 بتخفيض للاداءات بنسبة الخمسين اي 40 ٪ من القيمة المعمول بها ، ويعني ذلك انها تدفع 6 ٪ فقط من قيمة البضائع (43) .

وكانت ميورقة تدفع 75 ٪ من قيمة الاداء اي 7,5 ٪ من قيمة البضائع وأرغون 50 ٪ فقط اي 5٪ من قيمة البضائع (44) .

ويخضع استخلاص الاداءات في الديوان الى تراتيب إدارية محكمة فعادة تدفع على كل البضائع عند دخولها الى الميناء . ولكن قد تمنح امتيازات لبعض القوميات ، فمثلا تنص اتفاقية عام 1264 مع بيزة على ان تجارها منحوا امتياز دفع الاداءات على البضائع المباعة فقط ، وانه بامكانهم دفعها عند خروجهم (45)

ويتسلم التجار الاجانب في الموانى المغربية بصفة عامة وصلا للخلاص يسمى « البراء» واذا لم يستطيعوا بيع بضاعتهم يمكن لهم بيعها في اي ميناء آخر تابع للسلطنة دون إعادة دفع هذه الاداءات (46) .

وتفيدنا الوثيقة المؤرخة في 25 / 4 / 1369 بان إدارة الديوان كانت تضع على ذمة اعوانها في الميناء سجلات تدون فيها كل الاداءات التي وقع استخلاصها . ففي هذه الوثيقة طلب ملك أرغون من سفيره جون رويق (Jean Roig) الذي كلفه بالمطالبة بالاتاوة ، بان يحاول الاطلاع على السجلات المتضمنة للاداءات المدفوعة من قبل تجار أرغون(47).

---

43) De Mas Latrie ,éd., *Traité... ,op.cit* ., p. 108.

44) Alarcón ,éd., *Los documentos arabes ...*, *op.cit*,.doc. 130 ,daté du 18 Jumada II 714 /29 septembre 1314,p. 288.

جدلة (ابراهيم) ، *المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي* ، أطروحة شهادة التعمق في البحث بإشراف الاستاذة منيرة شابوتو - الرمادي ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، تونس 1988-1989 مرقونة ، ص 109-110.

45) De Mas Latrie ,éd., *Traités..., op.cit* . doc. XI, daté du 11Aout 1264 à Tunis , Traité avec pise ,p. 43-47 .

46) Dufourcq (ch.E.) ," Le commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe Chrétienne et marine musulmane données connus et pétitiques en suspen " *Actes du 1er congrés d'histoire et de civilisation du Maghreb* , ceres Tunis (1979) ,t. I p. 164 .

47) Du même ,éd., ,Registre 1389...*op.cit* ., doc129, p. 68-69.

ب - وظائفه تتوسع لتشمل كامل حركة الميناء :

يبدو ان مراقبة حركة البيع والشراء داخل الميناء ، هي ايضا من مهام ديوان البحر اذ تذكر رسالة سنة 1293 ان أعوانه ضربــوا تجار مرسيليــا لانهم لم يسلموا القماش للمشترين (48) .ومن مهامــه توفير بعــض الخدمات للتجار سواء المحليين او الاجانب منها تامين الحقوق وايداع الاموال .

فبالنسبة لتامين الحقوق اعطتنا الوثيقة رقم XVII من وثائق « أماري» مثال تسجيل المبيعات واثمانها ('48) وبالنسبة لايداع الاموال تشير الوثيقة رقم XIX من نفس هذه الوثائق الى ان تاجر الجلود بتونس الحاج صدقة لم يتمكن من استخـــلاص ديونـــه من الاموال التي تركهـــا التاجـــر « السيرألبانو» (Ser Albano) في الديوان اذ ورد في الرسالة التي بعثها الحاج صدقة الى «السير ألبانو » ما يلي : « ...والذي تركتم في الديوان ما قدرت ان ناخذ منه شيئا ...» . وان ايداع الاموال كان مؤمنا في الديوان تامينا اداريا ورسميا بكل حـــزم : فقد صرح الحاج صدقة ان الديوان رفض تسليمــه اي مال قائلا : « ...اني طلبت انا وغيري من الديوان ما بقيت لكم فيه فقالوا ما ندفع لكم شيئا الى ان يصلو فياخـذوا جميــع مالهم ويدفعوا لكم مالكم قبلهـم وان لم يتفق وصولكم الينا في هذا الوقت فعسى تكتبوا لنا كتبا وتنفذوا من قبلكم من ياخذ من الديـــوان ويدفـــع لنا حقنا والذي يصل يكون بامر من صاحب بيشة وبمكاتبة من قبله ووكالة من قبلكم وان وصلتم بانفسكم فهو احسن . » (''48) فهل كان الديوان يستخدم الاموال المودعة وبالتالي يصبح عبارة عن بنك ؟ ام هي تادية خدمات للتجـار لا غيـر بتامين اموالهـم الى ان يعودوا فتكون الفائدة هي تنشيط التجارة وابقاء الاموال داخل بجاية ؟

وتكشف وثيقة سنة 1462 عن مهمــة أخرى تتمثــل في المحافظة على الامن في الميناء لأي سبب من الاسباب . وهي رسالة من برشلونة ورد فيها

---

48) De Mas Latrie , éd., " Chartes inédites ..." , *op.cit.* , p. 293-296 .

'48) Amari (M.) , éd., *I diplomi arabi ..., op.cit .,* p.55.

بوضوح ان أعوان الديوان حجزوا أمتعة التجار القتلانيين إثر اعتدائهم على سفينة ميورقية (49).

ويتبين من خلال رسالتي 1293 و 1462 ان الديوان كان يتمتع بصلاحيتين : الأولى استعمال القوة عند الضرورة بما انهم ضربوا التجار المرسيليين حسب هذه الرسالة وأجبروهم على دفع الأداءات للديون بالقوة. والثانية صلاحية حجز البضائع. وفي وثيقة 1462 كان الحجز عقابا وضرورة أمنية حسب ما يبدو.

وهذا النوع من التدخلات يجعلنا نفترض وجود شرطة قارة بالميناء تحت طلب الاعوان الاداريين او نفترض ازدواجية وظيفة هؤلاء الاعوان اي انهم في نفس الوقت أعوان شرطة وأعوان اداريون.

ونظرا لامتداد مهمات ديوان البحر الى مسامع البيع والشراء وحفظ الأمن ومعاقبة المعتدين، فانها تتجاوز مهمتي استخلاص الضرائب ومراقبة دخول السلع وخروجها.

ولذلك نفترض ان ادارة الميناء متمثلة كلها في ديوان البحر، اي انه متعدد المهمات والصلاحيات ليكون ادارة شاملة لكل شؤون الميناء التجارية والمالية والادارية وقد يتسع نظره ليشمل ايضا تنظيم رحلات القرصنة، وسنوضح ذلك فيما يلي عند حديثنا عن رئيسه المسمى برئيس البحر.

2 - سلطة الاشراف على الديوان وأعوانها :

ورد في بعض المصادر ذكر لمنصب « رئيس البحر » الذي سمّى ايضا بـ « صاحب البحر » و « قائد البحر » و « القائم بالاسطول » (50)

---

49) ورد في هذه الرسالة المؤرخة في 2 ديسمبر 1462 ان المستشارين البلديين لبرشلونة يلتمسون من سلطان بجاية ان يامر بإرجاع امتعة التجار القتلانيين التي حجزها أعوان الديوان إثر اعتدائهم على سفينة تابعة للتجارر الميورقيين إثر اعتدائهم على سفينة تابعة للتجار الميورقيين اعدائهم.
De Mas Latrie ,éd., *Traités... op.cit.*, p. 335.

50) ابن خلدون، *العبر*، ج VI، ص 805، ج VII، ص 543 ؛ ابن القنفذ، *الفارسية*، ص 186.

و « رايس بجاية » (51) واشـــارات الى وجودآعوان للميناء دون اي تفصيل (52).

أ- رئيس البحـــر :

يتبين من التسميات السابقة ان لرئيس البحر المكانة الأولى في ادارة الميناء اي في ديوان البحر. وبالتالي فهو رئيس ديوان البحر.

*** الإشراف على شؤون التجارة :**

ان أول مهماته هي الإشراف على شؤون التجارة البحرية في الميـنـــاء ولا تبـــدو هذه المهمة واضحـــة في المصادر العربية،غير اننا نستنتجها من رسالتين الى مجلس مرسيليا سنة 1293 ، الاولى بعثها تجار مرسيليا في 15جوان (53) والثانيـــة بعثها « رايس بجاية » (54) ولكـــن لا نعرف اليوم والشهر. وتفيدنا الاولى بـان رئيـس البحـــر او « رايـــس بجايـــة » تدخل المرسيليين بسبب رفضهم دفع الضرايب قبل البيع. وتقول ان بعض التجار ضربـــوا .وتفيدنا الثانية بان رئيس البحـــر « محمـد بن يـوسف» أعلـم مجلـس بلدية مرسيليا بمحادثة وقعت امامه بين التجـــار الافرنج والمتصرف في بيـــع الخمـــور.

يـتبين من الرسالتين ان من مهامه التدخل في شـــؤون التجـــارة والتجار بصفة عامة ، اي ان تدخلـــه في حل مثل هذه المشاكـــل ما هو الا مؤشرعلى اهتمامه بعديـــد المسائل المتعلقـــة بالحركة التجارية في الميناء. وهذا يدل ايضا انه بوصفه صاحب السلطة الرسمية العليا في الميـنـــاء ، فان من صلاحياته مخاطبة السلط الرسمية الاجنبية في المسائل المتعلقة بالتجارة والتجار. ونفترض انه ، بوصفه المسؤول الاول في الميناء ، يشرف على اعوانه وتتنظم الرحلات التجارية ويراقب حركة التفريغ والشحـــن ويسهر علـــى تطبيق بنود المعاهدات التجارية المتعلقة بالرسوم والبضائع والامتيازات.

ولعل كلمة « رئيس » و « رايس » تعني ايضا رئاسة بعض الرحلات التجارية البحرية.

(51 De Mas Latrie,éd., " Chartes inédites ..." , p. 391,395-396.

(52 *Ibid.*, p. 396.

(53 *Ibid.* , p. 395-396.

(54 *Ibid.* , p. 391.

* قيادة الاسطول الحربي وتنظيم القرصنة :

ويكشف ابن خلدون عن مهام أخـــرى لرئيس البحر . اولها المهمة العسكرية المتمثلة في قيادة الاسطول الحربي ؛ اذ يخبرنا بان زيد بن فرحون « قائد البحر » كلف بقيادة الاسطول الحربي الذي ارسله السلطان الحفصي سنة 740 هـ / 11339 - 1340 م الى ابي الحسن المريني للمحاربة ضد الاسبان (55) ويذكر لنا ابن خلدون ان ابا عبد الله محمد ابن ابي المهدي كان القائم بالاسطول ببجاية وزعيم البلد والمتكفل بوالي بجاية الامير ابي العباس احمد بن ابي عبد الله الذي مازال صغيرا (.56) هو الذي سمح لابي حمو سنة 789 هـ / 1387 م بالنزول في بجاية . (57)

ويبدو ان ابا محمد ابن ابي مهدي كان يشرف على عمليات القرصنة التي قامت بها بجاية في سواحل فرنسا وغيرها في آخر القرن 14/8 ('57) وتوصل برنشفيك الى القول بان القرصنة البجائية عرفت اوجها في عهده بفضل مجهوداته ("57) لذلك فان مهمه رئيسا في البحر كانت شاملة لكل شؤون البحر التجارية والعسكرية والمتعلقة بالقرصنة وقد تضاف اليها مهمات اخرى مدنية وسياسية . ومحمد بن ابي مهدي هو المثال لرئيس البحر الذي جمع بيده كل هذه المهمات . فقد تقلد المهمة في ظروف ملائمة اذ تميزت الفترة بهيمنة العائلات المحلية وتقهقر العائلات الاندلسية بداية من 1327/727 (58) وابن ابي المهدي هو من العائلات المحلية التي كان رئيس البحر يعين منها مثل ابن يوسف وابن فرحون ايضا .

وكان السلطان يحرص على ان يكون من مواليه ، اذ يقول ابن خلدون عن زيد ابن فرحون انه كان « من صنائع دولة الموحدين » (59) .

الا انناترجح ان المهمة العسكرية المتمثلة في قيادة الاسطول الحربي لا تعد ضمن وظائفه كرئيس لديوان البحر ، لان المسائل العسكرية ، لا سيما إعلان الحرب والدفاع هي من المسائل الراجعة بالنظر الى السلطان مباشرة او نائبه في بجاية اي الوالي .

---

55) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VII ، ص 543-544 ؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ... ، ج I، ص 193-194.

56) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج VI، ص 895 .

57) المصدر نفسه ، ج VI، ص 895-896 .

'57) انظر ص 292-294 من البحث .

"57) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، جI، ص 227 .

58) انظـر ص 418-422 من البحث .

59) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VII، ص 544 .

هذا يعني ان رئاسة البحر مهمه مزدوجة : فهو رئيس لديوان البحر فيما يخص النشاط الاقتصادي للميناء بما في ذلك حملات القرصنة نظرا لمردودها الاقتصادي ، وهو صاحب منصب « حكومي » فيما يخص رئاسة الاسطول الحربي ، فهذا الاسطول غير تابع لمؤسسة ديوان البحر .

وبالتالي ، فان مشمولات رئيس البحر أوسع من مشمولات ديوان البحر الذي يرأسه هو نفسه وبخلاصة رئيس البحر هو رئيس لجهازين مستقلين ، لكن الاثنين مرتبطين بالبحر الديوان والاسطول الحربي . فقد اريد ان تكون رئاسة البحر جامعة لكل مسائل البحر اقتصاديا وعسكريا مع الحرص الا تخرج المسائل العسكرية من دائرة المسؤوليات « الحكومية » المباشرة .

ب - وظائف ومهمات وأعوان :

*** وظائف ادارية ومالية :**

- المشرف : أهم الوظائف المالية :

تطلعنا الوثيقة رقم III المؤرخة في جويلية 1182 (ربيع الاول 578) التي نشرها أماري (M.Amari) (60) على وظيفة « متولي الاشراف » المكلف بتجار قومية معينة . وتذكر اسم « متولي اشراف التجار البشانيين » (اي تجار بيزة) ، وهو ابو عمرو بن علي بن حسون ، فتقول عنه : « ان ابا عمرو بن علي بن حسون متولى إشرافنا فيها (في بجاية) انهى اليهم ونفذ امره عليهم الا يبيعوا ولا يشترون من امتعتهم وانواع سلعهم التي كانت عادتهم شراؤها والتصرف فيها الا ان يجلب كل واحد منهم ممن تباع بضاعته بخمسمائة دينار درعا كبيرا ...» (61) .

تعرض الغبريني في عنوان الدراية لوظيفة « المشرف » في مناسبتين ولكنه لم يوفر لنا معلومات عن مهمته ومشمولاتها . ذكر ان الفقيه ابا محمد عبد الله القرطبي(المتوفي سنة 1238/636 - 1239) كان « مشرفا ببجاية » في مدة آخر الولاة الموحدين السيد ابن عمران وانه اعتقل معه ثم سرح (62) واخبرنا ان المستنصر (1249/647 - 1277/675) سال عند زيارته لقسنطينة قاضي بجاية ابا العباس الغماري عن « المشرف بالبلد » قائلا : « سمعنا انه مسرف » (63) .

(60 Amari (M.) ,éd., *I Diplomi arabi ..., op. cit.* p. 10-13.

(61 *Ibid* . p. 11-12.

62) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 271 .

63) المصدر نفسه ، ص 113 .

وروى ابن بطوطة حكايــة اغتصاب لمال احد التجار بالتحيل قام بهـا « منشاجو أيوالاتن » ببلاد السودان وقال : «يعنــي مشرفهــا » (64). قال التاجر انه اخذ منه ما قيمته ستمائة مثقال وأراد ان يعطيه في مقابلته مائة مثقــال .

يسمى متولي الاشراف مشرفا ايضا . ويذكره كولان (G.S.Colin) في مقاله بدائرة المعارف الاسلامية على انه المسؤول على استخلاص الضرائب من التجــار في الميــناء . ويتماشي هذا الفهوم مع وثيقة جويليـــة 1182 لان « متولي الاشراف» الــذي ذكرتـــه فـــرض أداءا استثنائيا . كما يفهم من الاخبـــار التي اوردها الغبريني وابن بطوطة ان مهمة المشرف كانــت ذات صبغة ماليـــة : فالمستنصر حـرص على ان يعرف ان كـــان مسرفــا ام لا ، ومشرف ايوالاتــن اغتصب مال التاجر بالتحيل خلال عملية ماليـة علـى ما يبدو .

فالاشراف اذن مهمة جبائية داخل الميناء كمـا يتوضـح في وثيقة جويليـــة 1182 . ولكن ما ورد في عنوان الدراية يجعلنا نفترض وجود مشرف داخل المدينة ايضا لربما مهتم باستخلاص الاداءات في اسواقهـا .

لا يتحدث كولين (G.S.Colin) عن وجود مشرف مهتم بتجــار قومية دون الاخرى . لكن وثيقتنا تشير الى هذا التخصص لانها تحدثت عن « متولي اشراف « البشانيين » .

كان الاشراف اذن من مهام عدد من المشرفين او متوليي الاشراف ، كل واحد منهم متخصص باستخلاص الضرائب على تجار قومية دون الاخرى . وقد يكون هناك مشرف عام ينسق بينهم .

ان هذا التنظيم لا يمكن الا ان يتواصل فـــــي العهد الحفصـــــي لان الحفصيين حافظوا على التنظيمات الموحدية اجمالا ثم ان الحركـــــة التجارية توسعت أكثر فأكثر في العهد الحفصي الشيء الذي يجعل تعدد المشرفين أمرا اكثر ضرورة .

تبين الوثيقة المؤرخة في جويلية 1182 ان المشرف يمكن ان تسند اليه صلاحيات واسعة على التجار الاجانب الراجعين اليه بالنظر في اطار مهمته حين يتعلق الامر بخدمة غرض سياسي او عسكري او اي غرض آخر . وفـــي هذه الوثيقة خدم قرار فرض الضريبة الاستثنائية غرضا عسكريا للدولـــة الموحدية التي دخلت آنذاك في مواجهة حروب « الاسترجاع » باسبانيا خاصة في عهد ملك قشتالة « الفونس الثامن » (1158/553 - 1214/611) (65)

---

64) ابن بطــوطة ، *تحفة النظار* ، ص 302.

65) انتصر الموحدون في الارك في 8 شعبان 591 / 18 جويلية 1195 ،ولكنهم انهزموا في العقاب في 15 صفر 606 / 17 جويلية 1212 وبذلك انتهت المواجهة لصالح الاسبان .

- الكتبة وشيخ الكتبة :

لنا اشارة واحدة لمهمة قد تكون ادارية وهي مهمة « شيخ كتبة الديوان ». ذكر الغبريني في « عنوان الدراية » ان الفقيه ابا عبد الله محمد الادريسي « كان شيخ كتبة الديوان ببجاية » . ويعني ذلك وجود عدد من الكتبة ايضا هو رئيسهم . ولا نستطيع ان نحدد مهامهم . وقد يكون الكاتب مكلفا بالتدوين في سجلات ادارة الديوان او بكتابة المراسلات الادارية والرسمية .

- الأعوان :

تشير الرسالتان المؤرختان في 15 جوان 1293 (11 رجب 692) ومن تجار مرسيليا الى مدينتهم (66) وفي 2 ديسمبر 1462 (9 ربيع 1 867) (67) الى وجود أعوان اداريين في الميناء .

الرسالة الاولى تتضمن شكوى المرسيليين لان هؤلاء الاعوان أجبروهم على تسليم القماش قبل ان يقبضوا ثمنه . كما اجبروهم بالقوة على دفع الاداءات قبل الشروع في البيع . وقد تدخل رئيس البحر بنفسه للكف عنهم. الرسالة الثانية ، يطالب فيها المستشارون البلديون ببرشلونة أمير بجاية بارجاع السلع التي حجزها أعوان الديوان من التجار القتلانيين لانهم اعتدوا على سفينة ميورقة .

لا نستطيع ان نتعرف على اصناف كل الاعوان اما الرسالتان فتكشفان عن صنف قد يكون هو الاهم ، وهو صنف الاعوان المكلفين باستخلاص الأداءات ومراقبة انزال السلع او شحنها ودخول التجار وخروجهم . وتبينان ان صلاحياتهم ونفوذهم متسع . فكان باستطاعتهم الالزام بالدفع وحجز السلع وحتى تسليط العقوبات . وقد يكون بامر من « المشرفين » .

ج - مهمات مختلفة استوجبتها الحركة التجارية اليومية :

احتاجت الحركة التجارية اليومية الى العقود والشهود والترجمة والدلالة .

---

66) De Mas Latrie ,éd., " Chartes inédites ..." , *op.cit* ., p. 295-296 .

67) Du même , éd., *Traités ...* , *op.cit* , doc. XXX (Royaume d'Aragon) ,p. 335.

وكانت كلها مهام غير ادارية يعمل اصحابها لحسابهم الخاص اي انهم لا يتقاضون مرتبات بل يقومون بخدمات للتجار بمقابل مالي .ولكن هذه المهمات لا تخرج عن سلطة ديوان البحر . فقائد البحر هو الذي يعينهم وينظم نشاطهم حتى لا يختل النظام وحتى تكون اعمالهم معترف بها ورسمية . لقد شهدت على ذلك الرسالة رقم XXV من الرسائل التي نشرها « أماري » (AMARI) المؤرخة في ربيع الأخر 604 / 13 - 22 نوفمبر 1207(68) .

وهي حتى و ان كانت ترجع الى اواخر العهد الموحدي فانها تشير الي التنظيم الحفصي ايضا الذي هو امتداد للتنظيم الموحدي اجمالا .

هذه الرسالة بعثها احمد بن تميم الترجمان ببجاية يطلب فيها وساطة اشياخ واعيان بيزة لدى قائد البحر لبجاية ابي السداد موفق بن عبد الله حتى يعيده الى الترجمة والدلالة لتجار بيزة لكن الترجمان قد يعينه رئيس البحر برضاء التجار الاجانب او التشاور معهم . فقد نقلت الوثيقة رقم XXV ما يلي : «جرت عوايد البشانيين ان لا يترجم الا من ارادوه ولا يدلل لهم الا من ارادوه ...»

وسنحاول ان نعرف بمختلف هذه المهمات :

* **الترجمان** : وهو المترجم تتوضح مهمته من خلال هذه الرسالة رقم XXV وكذلك من رسالتين أخريين بعثها تاجران من تونس الى تجار من بيزة رقم XVII(69) و XVIII (70) ويتبين ان التنظيم في بجاية وتونس متطابقان . تكشف الرسالة رقم XXV ان هناك تخصص للترجمان وبالنسبة لاحمد بن تميم هو مختص بالترجمة لتجار بيزة . لذلك يتعدد المترجمون بتعدد الجنسيات او القوميات وقد يوجد اكثر من مترجم لجنسية معينة .

قال ابن تميم الترجمان : « نترجم في الديوان وندلل في الحلقة للبشانيين » وهو بهذه العبارة يلخص مهمته وما يلفت الانتباه هو انها كانت مزدوجة . فقد تعني الترجمة في الديوان القيام بالترجمة بين التجار الاجانب

(68 Amari (M) ,éd., *I diplomi arabi* ..., p. 75-77.

(69 *Ibid* , p. 55-56 غير مؤرخة

(70 *Ibid* , p. 57-59 غير مؤرخة

وموظفي ديوان البحر واعوانه بداية من عملية دفع الاداءات الى مختلف العمليات الاخرى كتسجيل المبيعات او ايداع الاموال .

وتبين الرسالة ان الترجمة كانت ضرورية في حلقة الدلالة ؛ لتسهيل التعامل والحوار بين مختلف التجار رغم اختلاف لغاتهم ، فالترجمان يدلل عوضا عن مجموعة معينة من التجار الاجانب . فهو لسانهم مع اصحاب اللغات الاخرى . لذلك تتم المشتريات والمبيعات بحضوره ولربما بواسطته ، فقد ورد في الوثيقة رقم XVIII من تاجر من مدينة تونس الى تاجر من بيزة ما يلي : «... ولم تنصفاني انفسكما (هكذا) في ثمن الجلد الذي اشتريته ياباج في خاصة نفسك على يد الترجمان ...» (71)

ان الترجمان عون ضروري لكل فئة من التجار الاجانب . لذلك فليس من الغريب ان يتابع كامل العمليات التجارية للتجار الذين يترجم لهم ، منذ نزولهم الى ساعة عودتهم، ونتيجة لملازمته هذه للتجار قد يتحول الى شاهد عن صفقة او دين او غير ذلك وهو ما ذكرته الوثيقة رقم XVII من منشورات « أماري » فقد خاطب تاجر من تونس تاجرا من بيزة قائلا : « ... دفعت لي عشرة دنانير ذهب على يد عثمان الترجمان » (72) .

واستنتج ديفورك (Ch. E. Dufourcq) ان اول من يستقبل التجار القتلانيين في الميناء ترجمان او إثنان من المسلمين (73) .

مهمة المشاهد :

احتاجت العمليات التجارية الى الشهادة الرسمية المعترف بها التي تهم لا شك توثيق العقود والاعتراف بالديون وانواع مختلفة من الالتزامات ومن المتداول ان الشهادة كانت (وما زالت الى اليوم) من مهام العدول .

(71 Amari (M) ,éd., *I diplomi arabi ...,op.cit* p. 57 .

(72 *Ibid* ., p. 55 .

(73 Dufourcq (ch. E.) , " Les activités politiques et économique des catalans en Tunisie et en Algérie Orientale de 1262 à 1377 ", *Boletin de Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* , t . XIX , (1946) , p. 45.

ويقول انهما مرسلان من قبل القنصل او الكاتب الملف ؛ *Ibid* ؛ لكننا نلاحظ ان هذا لايعني ان الترجمان معين من قبلهما بل هومعين كما بينا من قبل رئيس البحر في بجاية .

اما الغبريني فيخبرنا ان الفقيه ابا محمد عبد الله القلعي (المتوفي في 1271/669) « كان مشاورا شاهدا بالديوان » (74) اي انه كان مساعدا للقاضي وشاهدا بالديوان . ولربما يقصد الغبريني انه جمع بين رتبة المشاور والعدل الشاهد . وعلى اية حال ، وجدت في الديوان مهمة الشاهد الضرورية لتوثيق العقود والالتزامات وكانت ذات مداخيل هامة اذ قال هذا الفقيه بعد ان غادر هذه المهمة : «ان لي منذ انتزعت من الديوان ستة اعوام ، وان من هو هناك في خطته يقدر انه اكتسب في هذه المدة ستة آلاف دينار ، واني قد اكتسبت فيها ستة آلاف حديث وحديث بدينار اشرف من دينار .» (75)

III - اشكالية الإسطول التجاري :

هل اكتملت البنية الاساسية للميناء ومختلف مؤسساته بوجود اسطول تجاري ببجاية ؟

1 - لبجاية اسطول تجاري :

لقد تجهزت بجاية باسطول حربي (76)واسطول ضخم للقرصنة (77) يكفي بان نذكر بانها شاركت بسفن حربية الى جانب المرينيين سنة 1340/740 ضد الاسبان بالنسبة للاسطول الحربي ، ونذكر بقولة ابن خلدون التالية بالنسبة لاسطول القرصنة :« يصنعون الاسطول (اي البجائيون) ويتخيرون له الابطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ... » (78) بينما ما زالت اشكالية وجود اسطول تجاري ببجاية مطروحة .

وقد ناقش ديفورك (Ch.E. Dufourcq) موضوع الاسطول التجاري المغربي ضمن مقالة حول تجارة بلاد المغرب (79) وبالنسبة لبجاية لدينا بعض المعطيات نحاول الاعتماد عليها .

---

74) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 93 .

75) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

76) راجع ص143-144 من البحث .

77) انظر ص 286-307 من البحث .

78) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 902 - 905

79) Dufourcq(Ch.E.) ," Commerce du Maghreb Médiéval..." , *op.cit.*, t.I , p. 170-184 .

فقد ورد في « البيان المغرب » ان مركبا بجائيا اقلع من الاسكندرية سنة 1141/536 ببضائع عظيمة لها شان واثمان للتجار» وهدية من صاحب الديوان المصري الى الامير الحمادي يحيى بن العزيز (1124/518 - 1152/547) (80) وان الامير الحسن صاحب المهدية (1121/515-1148/543) « أخذه ، وامر بتفريغه ، وبقي المركب فارغا حتى جاءت صدمة آكتوبر فانكسر ...»

واخبرنا الغبريني في عنوان الدراية ان ابا محمد عبد الحق بن ربيع كتب وثيقة ابتياع سفينة بما نصه :« اشترى فلان من فلان السفينة الفلانية بجميع ما يحتاج اليه جارية وراسية ...» (81) . وبالتالي كانت هناك سفن على ملك البجائيين تباع وتشترى فيما بينهم .

وتفيدنا الرسالة المؤرخة في صفر 707 / سبتمبر 1307 من الرسائل العربية الديبلوماسية بارشيف ارغون (82) بان سفينة ميروقية استولت في شوال 702 / ماي - جوان 1303 في ساحل بنزرت على جفنين للمسلمين : الاول « كان وصل من بجاية موسقا بالبدن والبرنس قيمته اربعون الفا » والثاني صغير للبونيين « قيمته بمافيه خمسة آلاف دينار » . فالرسالة تتحدث بوضوح عن مركبين تجاريين الاول لتجار بجائيين والثاني لتجار بونيين .

وتخبرنا رسالة بتاريخ 1314/6/25 (11 ربيع الاول 714)تتضمن جوابا من خايم II (1291/690-1327/727) الى سلطان بجاية ابي بكر (1312/7112-1318/718) ان ابا بكر هذا طالب خايم II بان يعيد له سفينة عليها خمسة مسلمين و 3000 دينار كانت قد اسرت وحملت الى برشلونة ('82) .

ووردت معلومة اخرى في الوثيقة المؤرخة في 11 ماي 1386 (10 ربيع الثاني 788) من الدفتر رقم 1389 بارشيف تاج ارغون (83) تفيد

---

80) ابن عذاري ، *البيان المغرب* ، ج I، ص 312 .

81) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 86 .

82) Alarcon (M.A) ,éd., *Los documentos arabes ..., op.cit .*, doc. 119 , p. 259.

82') Masia de Ros (A.) , La Corona de Aragon ... ,*op.cit.*, doc. 134 bis ,p. 422.

83) Dufourcq (ch.E.) ,éd.," le registre 1389 ..., *op.cit.* , doc 310 , p. 151.

بان قرصانا قتلانيا اسمه « غيلام - رامون دي مونتكادا » (Guillem -Ramon de Montcada) استولى على سفينتين للمسلمين على سواحل تونس بكل ما عليها ، التجار وسلعهم وامتعتهم .

قد يكتري البجائيون او غيرهم من تجار الدولة الحفصية سفنا اوروبية ، وقد يكترون جزءا من حمولتها (84) ولكن هناك في هذه المعطيات ما يدل دون شك على ان سفنا تجارية كانت ملكا للبجائيين : اولا ، كانت بجاية تصنع السفن التجارية . ثانيا ، نسب المراكشي في « البيان المغرب ...» المركب الذي خرج من الاسكندرية الى البجائيين بكل وضوح . ثالثا ، تدل المعلومة الواردة في عنوان الدراية على ان البجائيين كانوا يشترون ويبيعون السفن وبالتالي كانوا يملكونها .
رابعا ، طالب ابو بكر حسب الرسالة المؤرخة في 1314/6/25 باسترجاع السفينة اعتمادا على انها ملكا للمسلمين البجائيين .

2 - البجائيون يستعملون اسطولهم التجاري اساسا للملاحة الساحلية :

قد يستعمل التجار البجائيون في اغلب الاحيان السفن الاوروبية وقد يكون ذلك باكتراء جزء من حمولتها او باكترائها كاملة سواء من قبل الخواص او السلطان نفسه (85) كما نصت على ذلك معاهدة فيفري 1271 (رجب - شعبان 669) بين خايم الغازي (Jacques le conquérant) (1213/610 - 1276/675) والمستنصر (1249/647 - 1277/675) (86) .

لا نعتقد ان البجائيين فضلوا هذا الحل لعدم قدرتهم على التحكم في تقنيات الملاحة البحرية بل بالعكس ، هم برهنوا على هذه القدرة عن طريق صناعة السفن وشهرتهم بممارسة القرصنة . فهو اختيار لا غير، فسره ديفورك (Dufourcq) بموقف الفقهاء الذين يعارضون ذهاب المسلمين الى « ارض الكفار »حتى لا يقعوا تحت سلطة قانونهم او يودعوا اموالهم هناك (87) .

---

84) Du même , " Commerce du Maghreb ... " ., p. 174.

85) Dufourcq (ch.E) , " commerce du maghreb ... " , op.cit ., p. 174.

86) De Mas Latrie , *éd., Traités ...,op.cit.*, p.280-284; Dufourcq(Ch.E.),*Ibid* ., p. 174.

87) Dufourcq (ch.E.) , *Ibid* ., p. 180.

نحن لا نساير ديفورك في هذا التفسير . فقد وجد من بين التجار المسلمين من كان يذهب الى اوروبا ذكرهم ديفورك نفسه فلا بد ان نفرق بين مسالتين : مسالة تنقل التجار ومسالة استعمال السفن . وهنا تهمنا مسالة استعمال السفن الاوروبية .

لقد جمع ديفورك 32 مثالا (88) لتجار من بجاية وتونس وتلمسان وسبتة ووهران بين سنة 1222/619 و 1520/926 ، وقد يهم المثال الواحد مجموعة وليس فردا . هؤلاء نزلوا او اقاموا مدة ، كل حسب وجهته في برشلونة اوميورقة او جنوة .واستنتج بنفسه ان هذه الامثلة كافية للقول بان المغاربة كانوا يذهبون بانفسهم الى مواني اوروبا اكثر مما كان معتقدا .

ونحن نستنتج ان المانع الفقهي الذي توجه للمسلم كمسلم لم يعد هو المفسر بعدما ذكرنا بكل هذه الامثلة التي بينت ان التجار البجائيين او المغاربة كانوا يتنقلون الى اوروبا عندما تدعوهم الحاجة الى ذلك .

اما تفضيلهم للسفن الاوروبية في سفراتهم البعيدة خاصة الى سواحل اوروبا فله حسب اعتقادنا اسباب اقتصادية وامنية :

اولا ، قد تكون آليات المبادلات هي التي قسمت الادوار بهذه الطريقة : فلقد كان على الاوروبيين الخروج بانفسهم ووسائلهم للبحث عن مواد استراتيجية وثمينة واكيدة ، الذهب والعبيد من مواني المغرب والتوابل من مواني المشرق . وعرفوا ان هذه التجارة لن تكون بالنسبة اليهم رابحة الا اذا نظموا رحلاتهم بانفسهم ، لان هذا يمكنهم من خلق دورات تجارية في البحر تشمل حتى بلدان اوروبية اخرى فتكون مربحة اكثر فاكثر اساسا بمبادلة سلع هذا بسلع ذاك . لهذا كله تواترت رحلاتهم وتعددت سفنهم المتوجهة نحو مواني المغرب والمشرق الاسلاميين .

ونظرا لكثرة هذه الرحلات وتعدد مسالكها واتجاهاتها فان الاعتماد عليها من قبل التجار المغاربة عامة والبجائيين خاصة لم يشكل عائقا قد يعطل نشاطهم . قد تكون آليات التبادل هذه انتجت تدريجيا هذا النوع من تقسيم الادوار .

ثانيا ، ان كثرة رحلات الاروبيين الى بجاية ومواني المغرب قلصت حاجة البجائيين والمغاربة عامة الى اعدادرحلات خاصة بهم . وبالتالي قلصت حاجتهم الى سفن تذهب بهم بعيدا . فهم كانوا يستطيعون بيع سلعهم للاوروبيين في مواني بلاد المغرب ذاتها ، ومنها بجاية .

(88 *Ibid* ., p. 177-179 .

هناك عامل امني . قد يكون البجائي خاصة والمغربي عامة قد نظر اليه بعين الاعتبار. فالتاجر البجائي الذي يكتري جزءا من حمولة السفينة يضمن عدم اعتداء القراصنة الاوروبيين على سلعته لانها سفينة أوروبية ، لا سيما عندما تشرف على سواحلهم ،بل انه يضمن حتى حماية اصحاب السفينة لسلعته ولمن يرافقها .

ولم يكن الكراءهو الطريقة الوحيدة لاستعمال السفن الاوروبية بل قد تكون ملكية السفينة مشتركة بين بجائي (او مغربي عامة) وأوروبي (89) بان يبتاع البجائي جزءا منها . مثلا اشترى تجار من تونس وبجاية وغيرهما سنة 1270/670 أجزاء من سفينة آرغونية بترخيص من ملك أرغون (90)

ان الامثلة التي بين ايدينا لا تنفي ممارسة السفن التجارية البجائية للملاحة البعيدة فقد ذكرنا ان كتاب « البيان المغرب » اورد خبرا عن مركب بجائي خرج من الاسكندرية . كما ان وثيقة 1314/6/25 (11 ربيع الاول 714) تجعلنا نفترض امكانية وصول السفينة التجارية البجائية الى سواحل اسبانيا الشيء الذي جعل القراصنة القتلانيين يجرونها الى برشلونة .

ولكن المرجح ان نشاطهم كان مركزا على الملاحة الساحلية القريبة على السواحل بلاد المغرب .

الخـــــاتمة :

وباجمال وجد اسطول تجاري بجائي تركز نشاطه على الملاحة الساحلية وان الاختيار الافضل بالنسبة للمسافات البعيدة تمثل في استعمال السفن الاروبية.

ومثل ميناء بجاية بنية اساسية مركزة في موقع طبيعي متميز تدعم بهياكل ادارية ومالية وبشرية قادرة على استقبال وتحريك النشاط التجاري، مكونة من ديوان البحر ومؤسسات متفرعة عنه او تعمل تحت اشرافه وبتعيين منه .

ومثل ديوان البحر المؤسسة الادارية والمالية الشاملة لنشاط الميناء والحازمة لضمان مداخيل الدولة وحقوق التجار .ومثل فيها رئيس البحر السلطة العليا المتدخلة في كل المسائل المتعلقة بالميناء .

وتركزت باشرافه هياكل متنوعة الادوار :

- هياكل لمراقبة الانزال والشحن وخاصة استخلاص الاداءات : المشرفون والاعوان
- طاقم من الكتبة بإشراف رئيس الكتبة لتنظيم العمل الاداري.
- هياكل لتسهيل العمليات التجارية وتنظيمها: تراجمة وشهاد وحلقات للدلالة .

---

89) *Ibid*., p.180

90) *Ibid*.

وكان ديــوان البحــر يوــفر خدمات وضمانــات كتسجيــل المبيعــات والمشتريات وايداع الاموال وحماية التجار من اعتداءات بعضهم على الآخر .

وتنطلق من الميناء سفن تجارية بجائية على ملك التجار البجائيين ، يكونون اسطولها التجاري . لكن هؤلاء اختاروا تشغيله في الملاحة الساحلية وفضلوااستعمال السفن الاوروبية في اغلب سفراتهم الى اوروبا .

هياكل التمثيل الاجنبي في بجاية : لصالح من ؟

استطاعت الاطراف التجارية المتعاملة مع بجاية ان تركز في مينائها ، واهم مواني الدولة الحفصية مؤسسات قارة وممتلكات تخدم مصالحها وتعمل على حسن سير تجارتها . تمثلت خاصة في الفنادق ذات الوظائف المتعددة ، وفي ممتلكات اخرى ايضا مثل المساكن والمتاجر والمقابر (1). كما ركزت هذ الاطراف ممثلين قارين ومستخدمين اولهم القنصل ، واستعملت السفراء عند الحاجة . ولا يمكن ان نفهم دور هذه المؤسسات والهياكل الادارية الاجنبية كهياكل مساهمة في تنشيط الحركة التجارية او العلاقات الديبلوماسية فحسب ، بل علينا ان نطرح التساؤل الذي يكشف عن حقيقة وظيفة هذا التمثيل الاجنبي فنقول لصالح من كانت تعمل هذه المؤسسات والهياكل الادارية الاجنبية ؟

I - ما هو الفندق ؟

1 - الفندق مؤسسة اجنبية متمتعة بامتياز « امتداد الاقليم » :

عرف ابن منظور الفندق قائلا : «...والفندق بلغة اهل الشام خان من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن ...» (2).

تضمن هذا التعريف معنى التخصيص لنزول الناس من المارين للاقامة الوقتية دون تحديد نوعيتهم ومدة اقامتهم التي يمكن ان تطول او تقصر. وتطور هذا المعني دون ان يفقد صبغة استقبال المارين للاقامة ، فاصبح في شمال افريقيا يعني المبنى الذي يحيط بفناء واسع ويحتوي على طابقين سفلي وعلوي لاستقبال القوافل او البدو المارين بالمدينة مصحوبين بامتعتهم وحيواناتهم المخصصة للركوب . وجعل الطابق السفلي للحيوانات والسلع والطابق العلوي للمبيت (3) ولذلك كان محطة ذات وظيفتين رئيسيتين : النزول والتخزين .وكان يتحاشاه اصحاب الترف ولا ينامون فيه لقربهم من الحيوانات واحيانا العاهرات اللاتي يقمن في بعض الغرف ويستقبلن المسافرين (4) . وفي المغرب الاقصى ، اطلقت كلمة فندق على صنف آخر هو عبارة عن ورشات أو مخازن متخصصة بنوع من الحرف ، مثل فندق النجارين بفاس (5) .

والفندق كمؤسسة خاصة بقومية من التجار الاجانب هو تطور للمدلول الذي تشكل في افريقية والمغرب الاوسط خلال الفترات الاسلامية

---

1) De Mas Latrie , éd., *Traités... ,op.cit.* , p. 130.

2) ابو الفضل ابن منظور : *لسان العرب المحيط* ، طبعة دار لسان العرب . بيروت دون تاريخ ، ص 1135

3) Le Tourneau (R.) , " Funduk" , *Encyclopédie de l'Islam* , t.II, p. 966-967.

4) *Ibid*

5) *Ibid* .

الاولى اذ احتوى على عناصر اساسية منه : فهي مبنى للنزول والاقامة لأناس مارين وهم التجار ولكنه مخصص لقومية محددة . وهو يخضع لنفس الانموذج الهندسي من فناء او أفنية صغيرة ومخازن ودكاكين وغرف للتجار وغرف للاستحمام دون ان تكون هناك اماكن للحيوانات المخصصة للركوب .

وحصل تطور مفهوم الفندق عند التجار الاوروبيين ليستجيب لنمط حياتهم وطموحاتهم ومصالحهم :

فاولا : اصبح الفندق مقر القنصلية وبالتالي المقر الذي يمثل الدولة والجالية ويدافع عنهما ويحل مشاكلهما ويحكم بين الافراد اي انه «المقر الديبلوماسي »

ثانيا : اصبح عبارة عن مركب كامل حافظوا فيه على وظيفتي التنزيل والتخزين لسلعهم الواردة عن طريق البحر واضافوا اليه ممارسة انماط حياتهم ونظمهم وقوانينهم ومعالجة قضاياهم المدنية والتجارية ومن الممكن حتى الجنائية التي تقع بينهم . ومن انماط حياتهم وجود الحانة والكنيسة (6) والفرن . واصبحوا يمارسون حياتهم داخله دون تدخل السلط المحلية ، حتى صار الفندق يتمتع بامتياز « امتداد الاقليم » (L'Exterritorialité) (7) ومستقلا بذاته يديره القنصل وجمع من الموظفين ويحيط به سور عند كل الجاليات ، داخله مبان متعددة ذات وظائف شبيهة بالتي وجدت في الفنادق المحلية .

ثالثا : حولوه الى سوق تباع وتشترى داخله بضائعهم او البضائع المحلية وتعقدفيه الصفقات التجارية .

2 - تركزت الفنادق في بجاية في العهد الحفصي :

تاسست فنادق مختلفة خاصة بكل طرف من الاطراف التجارية الاوروبية المتوسطية المتعاملة مع بجاية:القتلانيون والمرسيليون والجنوييون والبيشانيون والبنادقة . وضمت بجاية مثل تونس فنادق لكل الجاليات المتعاملة مع شمال افريقيا الغربي . ويبدو ان الفنادق والقنصليات في بجاية او غيرها من المدن الساحلية المغربية لم تركز الا في العهد الحفصي ولعلها تعود كلها الى القرن 13/7 وبداية القرن 14/8 ويبدو ان الاسبقية كانت للمدن الايطالية ومرسيليا ثم تلتها أرغون وميورقـة .

---

(6) De Mas Latrie, éd., *Traités..., op.cit.* ,Doc. XI 11 Aout 1264 à Tunis , article 17, p. 44; Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ...op.cit.* ,p. 70 ; Dufourcq (Ch.E.) ,"les Consulats Catalans ...", *op.cit*. p. 479 .

(7) De Mas Latrie,éd., " Chartes inédites ...", *op.cit* ., p. 390 ; Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ...* " ,*op.cit,*. p. 70.

فقد سمح للبيزيين باقامة فندقهم الدائم منذ معاهدة ذي القعدة 631 / اوت 1234 (8) . وكذلك للجنويين منذ معاهدة 3 شوال 633 / 10 جوان 1236(9) ونصت الوثيقة المؤرخة في 641 / 1243 على وجود قنصلين ببيزة : الاول في تونس والثاني في بجاية (10) واقيم فندق المرسيليين منذ نهاية الثلث الاول للقرن 7 / 13 (11) .ويحمل اقدم نص بين ايدينا يثبت وجود فندق قتلاني تاريخ 4 جوان 1259 (12) يليه نص بتاريخ 5 جوان 1259 يجدد مهمة القنصل لسنتين (13) . ويفهم من ذلك ان فندق القتلانيين وقنصليتهم يعودان لا شك الى ما قبل ذلك التاريخ .

ويرى برنشفيك ان قنصليتهم تعود الى اوائل القرن 13 (14) ولكن ميورقة لم تتحصل على احداث قنصلية ببجاية الا في 1302 ، وكان اول قنصل لها بينات بلانكاس (15) .

3 - وظائف متعددة اهمها الوظيفة الاقتصادية :

تعددت وظائف الفندق . فقد كانت له وظيفة سياسية لانه مقر القنصل الذي اعتبر ممثلا رسميا للدولة او المدينة -الدولة المعنية . وله وظيفة دينية لانه احتوى على مبنى الكنيسة الخاصة بالجالية (16) . ولكن الفندق مؤسسة اقتصادية قبل كل شيء ، اذ جعل اصلا ليكون مؤسسة دائمة لخدمة المصالح التجارية . فقد ربطت اتفاقية 1236 المنعقدة بين جنوة والدولة الحفصية ، بوضوح الفندق بالتجارة اذ نصت على ان للجنويين الحق في اقامة مؤسسة دائمة ، عبارة عن مخزن او مصرف يسمى فندقا وذلك في المدن التي يمارسون فيها التجارة (17) . وهي وظيفة متعددة الاوجه .(18) فهو مخزن للسلع ويتم الخزن مقابل اداء يدفع للقنصل ، وهو سوق تجارية للبضائع الموردة ومورد للعائدات المالية المتاتية من كراء المحلات والفرن والحانة والاداءات الموظفة على العقود التجارية .

---

8) De Mas Latrie ,éd., *Traités ...op.cit .*, p. 31-37 .

9) Du même ," Documents relatifs au commerce des génois sur la côte d'Afrique au moyen âge " ,*Bibliothéque de l'école des chartes , D. II,* (1857) , p. 439-440.

10) Du même ,*Traités ..., op.cit.*, p. 130 .

11) برنشفيك،*تاريخ افريقية* ،ج 1 ،ص 465: Pernoud (R.) , Commerce de Marseille...,t.I,p.171.

12) A.C.A, Rég.f. 169, Acte publié par De Mas Latrie , *Supplément* , p.34.Cf Dufourcq (Ch.E.) " Les consulats catalans de Tunis et de Bougie au temps de jacques le conquêrent " *Annuario de Estudios Medievales* , Barcelona (1966) ,p. 470.

13) *Ibid.*

14) برنشفيك (روبار) : *تاريخ افريقية* ، ج1 ، ص 152 .

15) Aguiló (E.K.) ," Creacio del consulat de Bugia y nominacio del premier consul en Benet Blancas 1302 ,"*Boletín de la sociedad Arqueológica luliana,* (1915) ,p.220.

16) De Mas Latrie ,éd.*Traités* ...Doc. XII , 29 Avril 1271 avec Pise ,p. 47 .

17) De Mas Latrie ,éd., " Documents relatifs au commerce des genois ..." ,*op.cit.* p.440.

18) انظر لاحقا ص 261 من البحث .

II - شخصيات التمثيل الاجنبي : تمثيل قار وتمثيل ظرفي :

ان الفندق هو المقر والمؤسسة القارة التي احتوت على ممثلين لبلادهم والذين سنحاول التعريف بهم ، كالقنصل ونائبه والعدول وكاتب الحسابات وغيرهم . ولكن التمثيل الاجنبي لم يقف عند هؤلاء اذ وجد ايضا القائد الذي كان قارا ايضا ، كما وجد تمثيل ظرفي كان يقوم به السفير ويتصدر القنصل كل الوظائف القارة .

1 - التمثيل القار :

أ - القنصل ابرز شخصيات التمثيل الاجنبي القار :

يرتبط وجود القنصل الدائم بوجود الفندق لان الفندق هو مقر القنصلية ولا يمكن ان يوجد فندق دون قنصل ، لان القنصل هو المشرف عليه والمتصرف فيه . والمقصود بالاشراف التسيير الاداري وتنظيم حياة التجار داخله . أما التصرف فالمقصود به التصرف المالي والمادي وبالتالي فهو المتصرف في الكراء والاداءات والمصاريف حسب عقود اللزمة .

وما يهمنا هنا هو ان القنصل كان ابرز شخصية من بين شخصيات التمثيل الاجنبي الدائم . ولعلنا نتبين ذلك من تعيينه ومهامه في مجال تمثيل بلاده .

***القنصل ممثل رسمي لبلاده اذ هو معين من أعلى سلطة بها :**

كان الملك في أرغون هو الذي يعين قنصله بامر ملكي ، اما لمدة محددة او مدى الحياة . ويورد لنا « ماسيا دي روس » (Masia de Ros) وثيقة تعيين القنصل برناردو دي صولر (Bernardo de Soler) لمدى الحياة في 27 رمضان 701 / 26 ماي 1302 باسم ملك أرغون (19) ، وفيها ذكرت المدة التي عين لها ومختلف مهامه وصلاحياته . وبقي القنصل الارغوني في بجاية ، مثلما كان عليه الحال في تونس ،معينا من طرف الملك الارغوني حتى بعد سنة 1266/664 ، خلافا لما اصبح واقعا بالنسبة للبقية الذين صار مجلس بلدية برشلونة هو الذي يعينهم مادامت الفنادق الاخرى باتت من مشمولاته (20) ، ولذلك فان قنصل بجاية هو قنصل الملك ولم يدع « قنصل القتلانيين » احيانا الا مجاراة للبقية . ولا نلاحظ في هاتين المدينتين اي اثر لانتخاب القنصل من

---

19) Masia de Ros (A.), *éd.* , *La Corona de Aragon* ...,*op.cit.*, p. 497-498, doc.n° 191 .

20) انظر ص 258-260 من البحث .

قبل التجار ، او تعيينه من قبل بلدية برشلونة (21) فـ « برناردو دي صولر » نعت في معاهدة 27 من ذي القعدة 708 / 8 ماي 1309 بانه « قنصل السنيور ملك « أرغون » (22) .

وبالنسبة لميورقة ، تشير رسالة الملك خايم II الى السلطان ابي بكر المؤرخة في 21 شعبان 715 / 20 نوفمبر 1315 الى برناردو بلانكاس (Bernardo Blancas) على انه « قنصل ملك ميورقة ببجاية » (23) ،وكان قد عين من قبل حاكم الجزيرة باسم الملك وباتفاق مع شيوخ المدينة منذ 20 ربيع الاول 702 / 12 نوفمبر 1302 (24) .

وكان التعيين بالنسبة الى قناصلة المدن الايطالية من صلاحيات « دوج » المدينة باسم هيئة البلدية . ويعتبرون تابعين للبلدية . فمثلا ، تذكر رسالة 20 نوفمبر 1315 اسمي قنصلي جنوة وبيزة ، وتنسبهما الى بلديتيهما عندما تقول :«فرانكو دي كورنيقا» (Franco de Cornigа) قنصل بلدية جنوة و« باولو قرييلي » (Paulo Grielli) قنصل بلدية بيزة ببجاية » .(25)

ويعين قنصل مرسيليا من قبل حاكم مدينة مرسيليا (Le Viguier de Marseille) باسم البلدية وملك صقلية حسب وثيقة سنة 1268/666 (26) التي يتبين من خلالها انه لم يكن لمرسيليا الى حد هذا التاريخ قنصل قار . وتضمنت تعيين التاجر المرسيلي « هوق بورقونيون » (Hugues Bourgonion) قنصلا على سفينة « سان جاك » التابعة لهوق لاري (Hugues la Rue) وشركائه . وكان قنصلا وقتيا حسب الوثيقة ، تنتهي مهمته بنهاية الرحلة . ولم يكن ربانا للسفينة بل فوض له مجلس المدينة وحاكمها سلطتيهما اثناء هذه الرحلة ، ولربما يتكلم باسم التجار ويحل مشاكلهم ويحكم بينهم .

وتحرص المدن الايطالية مثل ملك أرغون على ان يكون القنصل معينا منها والا يكون منتخبا من قبل التجار حتى تحافظ على تبعيته اليها ، ما عدا في بعض الحالات الاستثنائية . واعتبرت البندقية ان القنصل الذي لا ينتمي الى المجلس الكبير حتى وان كان استثنائيا ووقتيا مدعو الى الانصراف (27).

(21 Dufourcq (ch.E.) ," Les consulats catalans ...",*op.cit.*, p. 469 .

(22 De capmany (A.), éd., , *Antiguos Tratades de paces y alianzas* , Madrid 1786 , valencia 1974 , p. 77 ; De Mas Latrie ,éd., *Traités ...,op.cit* ., p.301et sq ; Masia de Ros ; *éd.* , *La Corona de Aragon ...,op.cit.* , doc. 124,p. 406 .

(23 Masia de Ros , éd.,*Ibid* , Doc. 139,p. 426 .

(24 Dufourcq (Ch.E.) ,*L'Espagne Catalane ..., op.cit* .,p. 421 .

(25 Masia de Ros,éd., *La corona de Aragon ...,op.cit*, Doc. 139,p.426 .

(26 De Mas Latrie ,éd.," Chartes inédites relatives aux états de Bougie et de Bône (1268-1293-1480) ",*Bibliothèque de l'Ecole des Chartes* , A,II,(1841-42),p. 389-390.

(27 Ducellier (A.) ," Raguse , l'Italie et la Berbérie au moyen âge : A propos de quelques documents inédits ou peu connus " ,*Cahiers de Tunisie* , T. XVI (1968) ,p. 39-40.

ان تعيين القنصل من قبل اعلى السلط في بلاده يعني انه مكلف رسميا بتمثيلها بل هو الممثل الرسمي الدائم لها لرعاية مصالح تجارها ، فما هو دوره في مجال تمثيل بلاده ؟

*** مهام متعددة في مجال تمثيل بلاده :**

اعتبر القنصل اولا الواسطة بين التجار وبلادهم ، وبينهم وبين السلطة الحفصية . فهناك مراسلات للقناصلة الى بلدانهم لاخبارهم ببعض المشاكل التي يتعرض لها تجارهم منها رسالة قنصلي مرسيليا والتجار في 15 جوان 1293 (28) التي تشكو سوء معاملة السلط البجائية لهم .

ولنا رسالة لنائب القنصل الارغوني الى خايم II في 22 / 02 / 1316 يخبره فيهاعن نتائج مقابلة مع السلطان (29) . وتبين ان مشاغل القناصلة هي الدفاع عن مصالح التجار لدى السلطة الحفصية اذ كانت مسالة احترام المعاهدات التجارية والسلمية من اهم محاور المقابلة .وهي مقابلة استجابت لشكوى ارسلها التجار انفسهم منذ 1315/09/13 لعدم احترام بجاية للمعاهدات (30) .

ولم ترد في هذا الصنف من المراسلات اسماء القناصلة وحدهم بل لاحظنا انها كانت مصحوبة باسماء كبار التجار او بعبارة « من القنصل والتجار » وهي رسائل تؤكد من ناحية على ان القنصل يخدم مصالح التجار ومن ناحية اخرى تدلنا هذه الرسائل على ان للتجار ضغطا وتاثيرا كبيرين على القنصل حتى وان لم تكن لهم صفة التمثيل الرسمي واحيانا يغيب اسم القنصل كمراسل رسمي وتبقى اسماء التجار مثلما وقع في رسالة 1315/09/13 التي ذكرناها . واستجاب خايم II لهم بان اعلم السلطان ابا بكر ببجاية في رسالة 16 اكتوبر 1315 بشكواهم وانذره بانهاء العمل بالمعاهدة ان تواصلت المعاملات السيئة (31) . وفي نفس الوقت تدل المقابلة على ان القنصل كانت له صلوحية التفاوض مع السلط الحفصية الجهوية والمركزية . كما تمتع بصلوحيات اخرى في نطاق التمثيل الرسمي لدولته اذ كان بامكانه حضور تحرير المعاهدات . والمثال على ذلك حضور القنصل الارغوني ببجاية « برناردو دي صولر »الى جانب سفير خايم II ، « قارسيا بيريز دي مورا » (Garcia Peréz de Mora) تحرير معاهدة 8 ماي 1309

---

28) De Mas Latrie ,éd.," Chartes inédites ... ",*op.cit.*, p. 293-296.

29) Masia de Ros,éd., *La corona deAragon ...,op.cit.*, p. 434 et sq .

30) *Ibid*, doc. 144,p.432-433 .

31) *Ibid*, doc. 145,p.433-434 .

ان الرسائل الثلاثة مترابطة ، اذ تبين ان في 13 / 09 / 1315 اشتكى التجار الى ملكهم الذي رد الفعل في 1315/10/16 ولكن يبدو ان رسالته لم تكن لها نتائج سريعة . فتحرك القنصل ثم ارسل تقريره في 1316/02/22 .

ببرشلونة (32) وتوكل له مهمة الحفاظ على المصالح المالية لأرغون .فمن اهم المسائل التي كانت تطرح على السلطان عند مقابلته له مسالة دفع الاتاوة السنوية التي انقطع عن دفعها سنة 1316 .

وتفيدنا رسالة خايم II الى السلطان الحفصي في 1315/11/20 ان نائب القنصل في بجاية «بيناكاسا »مكلف باستلام قيمة كراء السفن الحربية التي ارسلت الى بجاية لمحاربة تلمسان (33).

وقد تسند له معالجة مشكلة اسرى القرصنة اذ تعلمنا رسالة 3 ماي 1316 من خايم II الى « بيناكاسا »انه كلفه بالسعي لتحرير الاسرى الارغونيين في بجاية واوصاه بتوخي الحذر والنباهة (34).

وبعث شيوخ مدينة برشلونة سنة 1326 رسالة بتاريخ 18 جوان الى قناصلهم بالدولة الحفصية يطلبون منهم بذل المجهودات لاطلاق سراح احد اعراف برشلونة المسمى « فرانساش دي بوجارة » (Francesch de Bugera) واعلموهم ان ملكهم كتب في هذا الامر الى سلطان تونس وبجاية والى « محمد بن سيد الناس فقيه بجاية » حسب قولهم (35) .

وقد يتدخل القنصل لدى تجار جاليته باسم المصلحة العامة لبلاده ، كما وقع سنة 1286/685 حين تدخل القنصل القتلاني « بونانات آوليفيي » (Bonanat Olivier) في ميناء بجاية ليمنع تجار بلاده من انزال القمح وامرهم بالتوجه الى قتلانية حسب اوامر بلدية برشلونة لانها كانت آنذاك تعيش مجاعة نسبية . ولكنهم خالفوا اوامره وفوقوا مصالحهم واذاعوا الخبر للسلطان ، فحجز له امتعته .(36)

تمثلت مهام القنصل في مجال تمثيل بلاده اساسا في حماية التجارة ومصالح بلاده . وكانت له صلاحية التعامل مع اعلى سلطة في الدولة الحفصية ما دام قد اعتبر ممثلا لأعلى سلطة في بلاده .

ب - القائد الاول : يخدم السلطان ام بلاده ؟

*** من هو القائد الاول ؟**

وجدت شخصية اجنبية اخرى قارة مختلفة عن القنصل لانها عسكرية . وهي شخصية القائد الاول . وكان لكل ميليشيا من الميليشيات المسيحية الارغونية او الميورقية ولربما الصقلية قائد اول سواء في بجاية او تونس وتلمسان

---

32) *Ibid.*

33) *Ibid*, doc. 139,p.426-428.

34) *Ibid* , Doc 136,p. 423-424 .

35) De Capmany(A.) , éd. , *Memorias Historicas sobre la marina , Comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona* , Barcelona 1961-1963 , t. II,doc. 120, p. 179 .

36) Dufourcq (Ch.E.) , "A propos de l'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII et XIX s " , *Revue d'histoire et de Civilisation du Maghreb* . Faculté des lettres -Alger ,n°2, Janvier (1967) ,p. 43.

والمغرب الاقصى . ويعين من قبل الملك والسلطان معا .وكان مبدئيا على ذمة السلطان الذي اعتبره « خديما له » وهي العبارة التي وردت في الوثيقة رقم 130 من الوثائق التي نشرها ألاركون (Alarcon) (37) . ويرجع تكوين الميليشيات الى عهد ابي زكرياء الاول الذي طلب جنودا مرتزقة ليكونوا في خدمته (38) . فالمفروض ان يكون القائد ايضا في خدمته . فهل كرس هذا المنصب فعلا لخدمة مصالح السلطان الحفصي بالدرجة الاولى ؟

لقد وزعت منذ عهد ابي زكرياء (1229/627-1249/647) فرق على بونة وبجاية (39) ووضع على راس كل فرقة قائد ، اما القائد الاول فيرأس كامل الميليشيا من نفس القومية في كامل الدولة الحفصية .

ولكن اختلف الامر بالنسبة لبجاية منذ انفصالها الاول من 1285/684 الى 1309/709 اذ اصبح لها قادة اولون (40) ، ويفسر ذلك بتزايد اهمية الميليشيات المسيحية لتزايد عددهم . فقد طلبت بجاية مساعدات عسكرية بحرية ارغونية (41) للتصدي لاخطار متعددة اولها الخطر القادم من تونس التي اعتبرت الانفصال غير شرعي . فقد هاجم السلطان ابو عصيدة قسنطينة سنة 1295/695،ووصل الى ميلة (رمضان / جوان -جويلية) .كما ان بني عبد الوادي المتحالفين مع تونس هاجموا المناطق الغربية لدولة بجاية . (42)

وتحصلت بجاية على الموافقة الارغونية ضمن معاهدة 8 ماي 1309 . (43) مقابل دفعها لـ 2000 دبلون ذهبيا(44) وتنص رسالة موجهة من خايم II الى ابي بكر في 20 نوفمبر 1315 على انها تلقت الاعانة العسكرية لا من ارغون فقط بل ايضا من ميورقة وجنوة وبيزة (45) .

وقد اشتهر في بجاية كقائد ارغوني « بير فرناندازدي فرقا » (Pere Fernandez de Vergua) وكقائد اول لكامل الميليشيا الاوغونية « قارسيا بيريز دي مورا » (Garcia Perez de Mora) الذي برز دوره خاصة في عهد ابي بكر بداية من 1315 بعدما تلقت بجاية المساعدة العسكرية الارغونية

---

37) Alarcón y Santon (M.A.), y Garcia de Linarès (R.) , Los documentos Arabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón , Madrid , Imprenta de Estanislao Maestre Pozas , 14, 1940, p. 288.

38) Dufourcq (Ch.E.) , *l'Espagne catalane ...,op.cit.* ,p. 501-502 .

39) *Ibid*

40) *Ibid.* , p. 448.

41) Masia de Ros ,éd., *La Corona de Aragon ...,op.cit.,* doc. 124,p. 404-406.

42) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ص ، 713- 715.

43) Masia de Ros ,éd., *La corona de Aragon,..,op. cit.,*doc.124, p. 404-406.

44) الدبلون الذهبي هو الدينار الذهبي ، انظر ص 267 من البحث .

45) لنا ثلاث رسائل من خايم II مؤرخة كلها في 20 نوفمبر 1315 وتتضمن معلومات عن مساعدة ارغون العربية لبجاية ، موجهة بالتوالي الى ابي بكر والى رؤساء السفن والى قنصله ببجاية . وتنص الاولى على ان بجاية تلقت الاعانة العسكرية من ارغون وميورقة وجنوة وبيزة سنة 1315 .

ضد بني عبد الواد (46) .

*** ادواره مزدوجة :**

يخول للقائد الاول الى جانب القيادة العسكرية صرف اجور الجنود وانتداب جنود آخرين او رفت البعض منهم ولكن في نطاق العدد المحدد من قبل السلطان .

ولم يقتصر دوره على قيادة الميليشيا ، بل يمكن ان يتحول الى سفير مفوض عن السلطان الحفصي او رسول حامل لرسالة . فقد فوض ابو البقاء خالد امير بجاية في عهد الانفصال الاول لـ «قارسيا بيريز دي مورا » صلاحية اتمام معاهدة 8 ماي 1309 باسمه في مدينة برشلونة (47).

وفي ربيع 1312 بعث ابويحيى ابو بكر امير بجاية في عهد الانفصال الثاني قائد ميليشية ميورقة الى ملكه السنيور« دون صانكسو » (Señor Don Sanxo) ليعلمه برغبته في الحصول على اعانة عسكرية وانه يرسل اليه سفيرا ثم نزل محمد بن عبد الله بن الست في ميورقة سفيرا عن ابي يحيى ابي بكر وعقد معاهدة 23 نوفمبر 1312 مع قريقوري صلامبي (Gregori Sallambi) الذي مثل ملكه دون سانكسو (Don Sanxo)(48) وليس من الغريب ان يكلف السلطان الحفصي احد قادة المليشيات بمهمة ديبلوماسية اذ كان يعتبر الميليشيا وقادتها موجودين لخدمته ، لا سيما وانه يشترك مع الملك في تعيين القائد الاول .

وقد يقوم القائد الاول بدور المراقب لحساب القنصل في تونس او بجاية في بعض الحالات ويحاسب حتى موظفي الفنادق في تلمسان (49) كما ان القائد الاول يعمل على الاستفاد ة ماديا مثل القنصل وغيره من الموظفين ، اذ من الممكن ان يشتري لزمة بيع الخمور (50) فيتحول بذلك الى تاجر .

وهكذا نرى ان منصب القائد الاول يستفيد منه صاحبه والسلطان والملك . ولكن دون ان يكون هناك تكافؤ . ففي آخر الامر ، الملك هو المستفيد الاول سياسيا وماليا ويظهر عدم التكافؤ حتى في المهمات التي كان يقوم بها القائد الاول بطلب من السلطان نفسه مثل طلب الاعانة العسكرية. وبالتالي فالقائد الاول يخدم بلاده قبل كل شيء .

---

46) *Ibid* , doc. 139,140,141, p. 426-429 ;Dufourcq (Ch.E.),*L'Espagne Catalane ...,op.cit.* p . 4 4 8 .

47) Masia de Ros ,*éd.,La corona de Aragon... ,op.cit.,* doc. 124 ,p. 404-406 ; De Capmany ,éd,"*Antiguos Tratados ...*" ,*op.cit.*, p. 71-77 ; De Mas Latrie ,éd., *Traités ...,op.cit.* ,p. 301 sq .

48) Aiguilo (E.k.) ,éd.," Tractat de Pau entu el Rey de Mallorca don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechra dia 23 de nov 1312 " , *Boletin de la sociedad Arqueologica Luliana (1915)* , p. 217-226 .

49) Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ...,op.cit .* , p. 517.

50) *Ibid* ., p. 519 .

وقد تميزت ادوار القائد الاول بالازدواجية بين المهمة العسكرية الاصلية والمهمات المدنية العرضية ، وبين خدمة بلاده وخدمة السلطان خلافا للقنصل الذي كانت مهامه مدنية فقط ، جعلت اساسا لخدمة بلاده ، وهناك من المهام ايضا ذات الصبغة الديبلوماسية ما سمي بالسفير . فهل تتداخل مهمتا القنصل والسفير ام لكل مهمة خصائصها ؟

2 - التمثيل الظرفي مهمة السفير :

أ - مهام وقتية تفرضها الظروف والمصالح :

السفير هو رسول عن سلطة البلاد التي ارسلته . وليس من الضروري ان تكون هذه البلاد بلاده. ومهمته او مهماته محددة و تنتهي صلاحياته بانتهائها . فهي مهمة غيرقارة قد يقوم بها بعض التجار بصفة موازية لرحلتهم التجارية او بعض النبلاء الذين كانوا بدورهم مهتمين بالتجارة . وهذا يعني ان السفير لا يرسل خصيصا في ذمة مهمة ديبلوماسية معينة .

ونذكر من التجار « رامون مارسلي » (Ramon Marcelli) تاجر من بيزة ارسله خايم II (1291/690-1327/727) (51) ،في ماي 1298 (شعبان - رمضان 697) الى ابي البقاء خالد امير بجاية(1301/700-1309/709) ونذكر من التجار ايضا فرنسيسك صاكوستا (Francesc ça Costa) سفيرا في ربيع الاول 761 / جانفي 1360 و « رامون باديا » (Ramon Badia) سفيرا في شوال - ذو القعدة 766 / جويلية 1364 .(52) وهما تاجران من ميورقة ارسلهما الملك الارغوني « بيدرو IV »(Pedro IV (1336/736-1387/789) الى السلطان الحفصي ابي اسحاق ابراهيم (1350/751-1368/770)ونذكر من بين النبلاء « جون رويق » (Jean Roig) سفيرا في ربيع الثاني 766 وشعبان 770 / جانفي 1365 وافريل 1369 و « بيرنقر دي موراي » (Berenguer de Morey) سفيرا في ربيع الثاني 791 / افريل 1379 . وهما من البيت الملكي لـ « بيدرو IV » ارسلهما الى « سلطان تونس وبجاية » (53) .

ويحمل السفير معه رسالة تفويض كوثيقة رسمية للاعتراف به من قبل السلطة الحفصية . ولنا عدد من رسائل التفويض وردت واحدة ضمن الوثائق التي نشرها « ماسيادي روس »(Masia De Ros) وهي بتاريخ 29 رجب 697 / 12 ماي 1298 من خايم II ملك أرغون الى ابي البقاء خالد

(51 Masia de Ros ,éd.,*La corona de Aragon ...,op.cit.* ,doc. 123,p. 403-404 .

(52 Dufourcq (Ch.E.),éd., " Catalogue chronologique et analytique du registre 1389 de la chancellerie de la couronne d'Aragon " ,*Miscelanea de Textos Medievales* , 2 , Instituto de Historia medieval ,Barcelona (1974) ,doc.1 et 49.

(52 *Ibid* ., doc. n°56,p.80, doc. 128,p.98,doc n°253,p.137

سلطـان بجايـــة تفـــوض « رامون مرسلـــى » (Ramon Marcelli) سفيرا لديـه (54) .

ووردت البقية ضمن وثائق الدفتر 1389 من دفاتر المستشارية الارغونية التي نشرها « دي فورك » (Dufourcq) (55) وهي التالية :

- رسالة بتاريخ 5 جويلية 1364 من «بيدرو IV » الى سلطان تونس وبجاية تفوض « رامون دي باديا » (Ramon de Badia) .

- رسالة بتاريخ 13 جويلية 1366 من « بيدرو IV » الى سلطان بجاية تفوض « الفيكونت دي روكاربرتي » .

- رسالة بتاريـــخ 23 افريل 1379 مـــن « بيدرو IV » الى « بيرنقر دي موراي » نفسه (Berenguer de Morey) تفوض له السلطة للقيام بالسفارة في تونس .

- رسالة بنفس التاريخ الى السلطان الحفصي ابي العباس تفوض الشخص نفسه سفيرا لديه .

- رسالة بتاريخ 17 جوان 1379 من « بيدرو IV » الى ابي العباس سلطان تونس وبجاية تفوض « الفيكونت دي روكابرتي » (Le Vicomte de Rocaberti) . وهو مفوض في نطاق مهمته . فكانت له صلوحية التفاوض باسم بلاده او توقيع المعاهدات ، اذ تذكر معاهدة 1327/08/23 مع تلمسان ان السفير الارغوني«لورنزو سيما»(Lrenzo Cima) مكلف بإمضائها(56). وامضى السفير الارغوني « فرنساش صاكوستا » (Francesch Sacosta) معاهدة 15 جانفي 1360 مع السلطان الحفصي اسحاق ابراهيم الثاني (57). ولكنه يتفاوض او يتصرف حسب توجيهات معينة . وقد تمكنه بلاده من مجال اقصى للتصرف حسب المعطيات التي يتعرض لها . ونسوق مثالا على ذلك : كان خايم II قد خول لسفيره « بيرفيقاتا » (Pere Vigata) في سفارة اولى سنة 1315 وسفارة ثانية سنة 1326 التي كان فيها مصحوبا بـ « ميقال ماركت » (Miguel Marquet) استخلاص قيمة كراء السفن الحربية من سلطان بجاية ثم من « سلطان تونس وبجاية » المقدر بـ 12.000 دوبلون ، وسمح له بان يخفض هذه القيمة الى حد ادناه 4.000 دوبلون (58) .

(54 Masia de Ros ,éd., *La Corona de Aragon ...*, *op.cit .*, doc. n°123 ,p. 403-404 .

(55 Dufourcq (Ch.E.) ,éd. , " Le Registre 1389 ..." ,*op.cit.*, doc.n°49 , p. 78 doc.n° 99 p. 91 , doc. n° 251 ,p. 137; doc. 252,p. 137; doc. 257,p. 138.

(56 Masia de Ros ,éd., *La corona de Aragon...,op.cit.*, doc. 170 ,p. 466,470.

(57 Dufourcq (Ch.E.) ,éd., le registre 1389...,*Op.cit.* ,doc.1, p. 67 .

(58 Masia de Ros,*éd.,La corona de Aragon ...,op.cit.*,doc.141p. 429et doc.143,p.431-432

مـــاهي نوعية هذه المهمات ؟ :

تتعدد المهمات ولذلك نرى ان السفارات تتعدد كلما دعت الحاجة الى اثارة مسالة ما . وقد ارسل ملك أرغون بين جانفي 1314 وماي 1316 اربعة سفارات على الاقل الى بجاية بالذات عندما كانت دولة منفصلة تحت حكم ابي يحيى ابي بكـر ، (59) .

والسفارة غير مقيدة بنوعية معينة من المهام ، بل توكل للسفير اية مهمة تفرضها الظروف والمصالح . وقد يقتصر دوره على حمل رسالة فحسب كرسائل التهنئة او الرسائل الاخبارية .

نورد في ما يلي اسماء لسفراء وموجزا عن مهامهم (60) :

السفير	المرسل	المرسل اليه	التاريخ	المهمة
غيلام دي ميرمبال Guillem de Mirembell	خايم II	ابو زكرياء اميربجاية	جوان 1293	حمل رسالة فيها جواب عن رسالة بجاية تبين نفس الرغبة في ربط العلاقات
بيرنقر دي فيلاريقوت Berengueur de Vilaregut	خايم II	سلطان تونس	جويلية 1294	تونس طلبت من خايم II التخلي عن تحالفها مع بجاية . بعث خايم بسفيره مستجيبا بشروط مالية : الاتاوة ، القرض، أجر المليشيا ،هدية .
رامون مارسيلي Ramon Marcelli	خايم II	ابو البقاء ، خالد امير بجاية	ماي 1298	التفاوض مع سلطان بجاية للوصول به الى عقد معاهدة .
لورنزودي برقا Lorenzo de Berga	خايم II	ابو يحيى زكرياء اللحياني بتونس	1313	تسليم رسالة فيها اخبار الحرب بين بجاية المستقلة عن تونس وتلمسان .
بيرفيقاتا Pere Vigata	خايم II	ابو يحيى ابو بكر ببجاية	نوفمبر 1315	المطالبة بدفع مقابل كراء السفن الحربية الارغونية المشاركة الى جانب بجاية .

59) *Ibid.*, doc. 133,p. 418-420 ; doc. 134,p. 420-421 ; doc. 139,p.426-428,doc 141,p. 429; doc.142,p. 429-431.

60) Archives de la Couronne d'Aragon à Barcelone , Registre 252,f.55; Dufourcq (Ch.E.),éd. ," Documents inédits sur la politique Ifriquiyenne de la Couronne d'Aragon " *Analecta sacra Tarraconensia* XXV (1952) p. 260; Du même , " La Coronne d'Aragon et les Hafsides au XIII è s (1229-1301) ", Analecta Sacra Tarraconensia,XXV, (1952), p. 89-90; برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج1، ص 139.

فرنسيش صاكوستا Francesch sa Costa	بيدروIV	ابو اسحاق بتونس	جانفي 1360	التوقيع باسم الملك على معاهدة 15 - 16 جانفي 1360 معاهدة سلم وتجارة
رامون باديا Remon Badia تاجر ومواطن ميورقي	بيدروIV	ابو عبد الله ببجاية	جويلية 1364	المطالبة بدفع الاتاوة المقدرة بـ 2000 دينار ذهبي المنصوص عليه في معاهدة 1360/01/15
جون رويق Jean Roig	بيدروIV	سلطان تونس وبجاية (61)	جانفي 1365	المطالبة بدفع الاتاوة السنوية قدرها 2000 دينار ذهبا
عضو من عائلة الياتا Alliata	جون دال كونت دوج بيزة ولوك Jean del Conte doge de Pise et de Lucques	ابو العباس ببجاية	ماي 1366	يحمل رسالة تهنئة لابي العباس بعد استيلائه على بجاية
بيرنقر دي موراي Berenguer de Morey من البيت الملكي	بيدروIV	السلطان او الماسب الحفصي او رئيس ديوان البحر	افريل 1379	المطالبة بالاتاوة 2000 دينار ذهبا
جون صالا Jean Sala	بلدية برشلونة	امير بجاية	1473	المطالبة باسترجاع امتعة التجار

ب - السفارة متبادلة :

ليس امر السفير مثل القنصل . فان لم يوجد قنصل حفصي ، فان السفير قد وجد لانها مهمة ضرورية لا بد منها . ولم يكن حتما منتميا للدولة الحفصية . ولنا خمسة أسماء لسفراء من بجاية الى أرغون (62) :واحد مسلم من الدولة الحفصية واربعة مسيحيون ، ولنا اسم سفير الى ميورقة مسلم من بجاية . وهم :

---

61) كانت بجاية آنذاك منفصلة عن تونس من 1364/765 الى 1371/772. راجع ص 82 - 84 من البحث .

62) Alarcon , *Los Documentos Arabes ...*, doc. 130 ,p. 288 ; doc. 136, p. 302 ; Dufourcq (Ch.E.) éd. ," Registre 1389..." *op.cit.* Doc.155, p. 106 ; Du même ,éd. " Documents inédits ..." p. 260.

برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ... ج ا، ص 184 .

السفير	المرسل	المرسل اليه	التاريخ	المهمة
بيرنقر دي كونش Berenguer de Conches ارغوني تابع للملك .	ابو زكريا سلطان بجاية	خايم II ملك ارغون	1293	تبليغ الرغبة في توطيد العلاقات .
قارسيا بيريز دي مورا Garcia Pérez de Mora (ارغوني)	ابو البقاء خالد سلطان بجاية	خايم II	ماي 1309	عقد اتفاقية 8 ماي 1309
محمد بن عبد الله ابن الست	ابو يحيى ابو بكر سلطان بجاية	دون صانكسو ملك ميورقة .	نوفمبر 1312	عقد معاهدة23 نوفمبر 1312
الفارس فراند جوفن («خديم» للسلطان ابي بكر) (63)	ابو يحيى ابو بكر سلطان بجاية	خايم II	سبتمبر 1314	حمل رسالة مكتوبة وشفوية والتفاوض مع الملك في أمور تتعلق بالقرصنة .
الحاج ابو مروان عبدالملك (مسلم)	محمد بن محمد ابن سيدالناس الحاجب ببجاية	خايم II	مارس 1323	التفاوض في عقد معاهدة استجابة لطلب خايم II
رامون بير Ramon Père (ارغوني)	ابو العباس سلطان بجاية	بيدروIV	أوت 1371	تبليغ الرغبة في اتمام معاهدة بينهما .

وللسفير الحفصي نفس صلوحيات السفير الارغوني ويحمل معه ايضا رسالة تتضمن الى جانب طرح بعض المسائل اعتماده وتفويضه وصلوحياته . ونضرب لذلك مثلا : ففي رسالة ابي بكر الى خايم II المؤرخة في 18 جمادى الثانية 714 / 29 سبتمبر 1314 ورد ما يلي : « وقد عينا خديمنا الفارس الاثير الاكرم فراند جوفن للمسير اليكم والحديث معكم وتكميل هذا الصلح وتتميمه على نحو ما وقع ابتداؤه وقد عرف بهذه الاحوال ليقولها لكم مشافهة ...» (64). وفي رسالة محمد بن محمد بن سيد الناس الى خايم II بتاريخ 26 صفر723 / 6 مارس 1323 ورد ايضا : «واقتضى النظر ان يتوجه اليكم الحاج الأفضل الأثر الأكرم الأخلص ابو مروان عبد الملك سلمه الله تعالى بعد ان فوض اليه في النيابة في عقد ما يراه على الشروط المعلوم لجنابكم المكرم وبلادكم وعلى كافة بلاد مولانا ...» (65) .

---

63) لربما يكون قائدا وفارسا من فرسان الميليشيا الارغونية او الميورقية المستاجرة ، اذ يصفه ابو بكر في الرسالة التي بعثها معه بقوله : « خديمنا الفارس الأثير الأكرم فراند جوفن ...»
Alarcon ,éd.*Los documentos Arabes ...,op.cit.,* Doc. 130, p. 288 .

64) *Ibid.*

65) *Ibid* , doc. 136, p. 302 .

ويتبين جليا من هذين المثالين ان السفير الحفصي هو ايضا مفوض في النيابة عن مرسله وتخول له صلوحيته التفاوض باسمه و توقيع المعاهدات حسب توجيهات ومعلومات يكون قد تزود بها . ويتبين من الرسالة الثانية ان التفويض بالنيابة قد يكون تاما في نطاق مهمته والشروط المتعارفة من الجانبين . وبالتالي فان التمثيل الاجنبي في بجاية عن طريق السفراء يقابله تمثيل حفصي بنفس الصلوحيات وعلى نفس المستوى . واذا تفحصنا المهمات المكلفين بها لفت نظرنا ما تميزت به مهمات السفراءالارغونيين عن غيرهم من السفراء الاجانب ، اذ اعتبر السفير بالنسبة الى ارغون احد العاملين على تكريس مبدإ النقص للدولة الحفصية . فتركزت مهماته على إقرار التبعية المالية ، بينما نظر الحفصيون الى السفير كعامل لربط العلاقات العادية وتصفية المسائل المطروحة . ورآه الايطاليون كعامل لضمان وتدعيم مصالحهم التجارية . فلا يمكن لـ « دوج » بيزة ولوك ان يعجل بارسال سفيره سنة 1366 لتقديم التهاني لابي العباس بمناسبة استيلائه على بجاية الا لهذا الغرض .(66)

وباجمال فان السفير هو ممثل ديبلوماسي يؤدي مهمات باسم الدولة التي ارسلته لخدمة سياستها العامة ومطامحها البعيدة والقريبة .

III - من هم المستفيدون من مداخيل الفندق ؟

1 - القنصل اكبر المستفيدين من بين موظفي الفندق :

أ - كيف ينتفع القنصل ؟

القنصل مكلف بجمع المداخيل فهو يقوم باتمام عقود اللزمة وكراء المحلات ويتسلم اموالها ، ويبيع لزمة الحانة والخمور التي تحتفظ القنصلية باحتكار بيعها عند بعض الجاليات المسيحية ونفس العمليات بالنسبة الى الفرن ويستخلص المقادير الموظفة على خزن السلع من قبل التجار ، وهو الذي يتسلم أداءات العقود والصفقات التجارية ونسبة عن تحرير عقود العدول (67) ، ويمنح الوظائف بطريقة اللزمة ، منها وظائف المحاسبين التابعين للفندق ككاتب ديوان البحر الذي يستخلص أداء يعطى نسبة منه للقنصل ، ومثل متصرف الحانة والخمور الذي يعتبر من اهم الوظائف . ويستخلص القنصل مقادير موظفة على النظر في القضايا العدلية لانه هو الذي يصدرالاحكام . وبالنسبة للقنصل القتلاني ،فانه يتلقى بعض الدفوعات من ديوان البحر الحفصي نفسه تساوي 20 دينارا فضيا في الشهر .

كيف ينتفع القنصل من ذلك ؟

يعين قناصلة المدن الايطالية من قبل سلطاتهم في اغلب الاحيان ولكنه هو الذي يستفيد من اكبر نسبة من أداءات ومداخيل الفندق اذ لا يدفع الا نسبة منها

(66 De Mas Latrie ,éd." Chartes inédites ...",*op.cit.*, p. 394-395 ,396.

(67 .Dufourcq (ch.E) .L'*Espagne Catalane* ...,*op.cit.*, p. 99.

الى السلطة في بلده الاصلي . فمثلا كان قنصل البندقية يدفع قبل 1336 ثلث مداخيل الحانة والخمور لحكومة الجمهورية والبقية له (68) .

وكان قنصل القتلانيين يعين من قبل الملك مقابل قيمة سنوية يؤديها للملكه من عائدات لزمة الفندق حسب عقد التعيين . فمثلا عين القنصل بيرنقردي ريقرس Berenguer de Reguers سنة 1268 لمدى الحياة مقابل دفعه لـ 300 « بيزانا فضية » سنويا . واراد الملك تعويضه سنة 1273 بارمنقول أندرو مقابل 1300 فلس بلنسي اي اكثر من 500 « بيزانا فضية » او 650 .(69).

وهكذا فان القنصل يستفيد من القيمة التي تفوق مجمل ما يدفعه للملك . وهي استفادة لا شك انها هامة . فقد لاحظ « ريكار » (Ricart) سفير ملك أرغون الى بجاية في صيف 1272/671 بان حجم معاملات الفندق يعطي القنصل امكانيات كبيرة من الفوائد ،(70).

ولكن الحقيقة كانت دون ذلك ، اذ كان القنصل يماطل في دفع ما عليه . فمثال بيرنقر يدل على ذلك ، اذ لم يدفع الى الملك قيمة اللزمة الا بعد ان جاء سفير عنه (71) رغم انه يقيم حسب قول دي فورك في اسبانيا في اغلب الاحيان (72) .

وتعتبر الحانة والخمور اهم مورد لمداخيل القنصل عند كل الجاليات ، لا سيما انها تباع بالجملة والتفصيل ،(73) حتى انه لما قررت جمهورية البندقية الغاءها في تونس في 1320-1321 وعينت قنصلا جديدا اسمه « بياترو فاليترو » (Pietro Faletro) تماطل للالتحاق بمركزه ، ولم يلتحق في آخر الامر رغم انها مكنته من الانتفاع بمخزنين آخرين ومن مقرالحانة سابقا (74) ويبدو ان قرار البندقية جاء نتيجة تلاعب القنصل السابق بالحانة والخمور (75) .ويظهر من مداولات المجلس الكبير في البندقية المؤرخة في 20 مارس 1320 ان الفوضى عمت بين البنادقة في غياب القنصل وذلك من اجل الحانة (76).

(68 Ducellier (A.) ," Raguse , l'Italie et la Berberie au Moyen âge" ,*Cahiers de Tunisie* ,T.XVI, (1968),p.38.

(69 Dufourcq (Ch.E.) ,*L'Espagne Catalane ...,op.cit.*, p. 99 ; Du même " Les consulats Catalans ... ",*op.cit.* , p. 478.

(70 *Ibid.*

(71 *Ibid.*

(72 Du même, *L''Espagne Catalane ...,op.cit*.p. 99.

(73 De Mas Latrie , *Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au Moyen âge* , Paris 1886, p. 370.

(74 Ducellier (A.) ," Raguse , L'Italie et la Berberie ...",*op.cit.* , p. 38-39.

(75 *Ibid* ., p. 39.

(76 *Ibid* ., p. 38.

وفي بجاية شَغَّل قنصلُ القتلانيين« بيرنقردي ريقرس »(Berenguer de Reguers) لبيع الخمور حتَّى الغرفَ المخصّصة لاقامة التجار (77) .

وتخص رسالة قنصلي مرسيليا والتجار المؤرخة في 15 جوان 1293 بالذكر مداخيل الحانة (78) .ويتحايل قنصل هذه الجالية او تلك لكي لا يكشف القيمة الحقيقية للمداخيل . فهذان قنصلان لمرسيليا يغتنمان فرصة رفع شكواهما من مضايقات السلط البجائية ليعلنا لهيئة البلدية انهما لم يتوصلا الى استخلاص مداخيل الحانة ، ولم يتمكنا من استرجاع ما أخذ منهما عن احد الفنادق ...» (79) وهكذا كان القنصل قبل كل شيء رجل اعمال ، ويتدعم توجهه وممارساته كرجل اعمال بانتمائه الى صنف التجار ، منهم :

* بيرنقردي ريقرس (Berenguer de Reguers) الذي عين في افريل 1268 قنصلا لارغون في بجاية (80) .

* بينات بلانكاس (Benet Blancas) الذي عين في 1302/11/12 قنصلا لميورقة في بجاية ، وهو ايضا من الاعيان (81) .

* هوق بورقونيون (Hugues Borgonion) الذي عين في 1268 من بين التجار المرسيليين كقنصل وقتي لرحلة على سفينة سان جاك التابعة لهوق لاري وشركائه (82) .

ب - كيف ينتفع المحيطون بالقنصل ؟

تحيط بالقنصل مجموعة من المنتفعين مرتبطين به بعقود اللزمة ومتفقون معه حول طرق الانتفاع والتعامل مع البلد الاصلي ومتعايشون معه حسب مبدإ رعاية المصالح المشتركة . ولذا يشاركون ويساندون التحايل ضد صاحب الامر في بلدهم ما دامت مصالحهم تقتضي ذلك . والمحيطون بالقنصل هم المفوض عنه او نائبه ومتصرف الحانة والخمور والكاتب المتعامل مع ديوان البحر والعدول والكتبة (83).

ويوجد بالنسبة للقتلانيين ، المفوض عن القنصل ، واحيانا مفوضان ، حين يكون القنصل مترسما ، ويمكنه ترسيمه من ان يقوم في اسبانيا

(77 Dufourcq (Ch.E.) , " Les consulats Catalans ..." *op.cit.*, p. 479.

(78 De Mas Latrie ,éd., *Traités...*, *op.cit.*, doc.2 sur Marseille, année 1228 p. 89.

(79 Du même ,éd., " Chartes Inédites ..." ,*op.cit.* , p. 396 .doc. du 15 Juin 1293.

(80 Dufourcq (Ch.E.) ," Les Consulats Catalans ..." *op.cit.*, p. 478-479.

(81 Dufourcq (Ch.E.) , " *L'Espagne Catalane...* ,*op.cit*, p. 421

(82 De Mas Latrie ," Chartes inédites ..." ,*op.cit.* , p. 390.

(83 Dufourcq (Ch.E.) ," Les Consulats Catalans ..." ,*op.cit.* ,p. 478 ; *du même ,L'Espagne Catalane...* , p. 273,549.

او غيرها ومن تفويض مهامه الى من يشاء اختياره سواء شخصا او شخصين (84). وبالتالي تحصل لهذا المفوض منافع شبيهة بما يتحصل عليه القنصل نفسه . وتذكر لنا المصادر اسما لنائب قنصل قتلاني وهو « برناردو بيناكاسا » (Bernardo Benacasa) الذي كان ينوب ويساعد القنصل « برنات دي صولر » (Bernat de Soler) (85) واهم المنتفعين بعد القنصل او مفوضه ان وجد ، هو متصرف او محاسب الحانة والخمور (Gableur)نظرا لاهمية المداخيل المتاتية منها . وهو كما ذكرنا يتحصل على هذه المهمة عن طريق اللزمة . ونظرا لاهمية مداخيلها لم يكن من الضروري دائما ان يقوم القنصل باللزمة بل احيانا يقوم بها الملك نفسه مباشرة (86) .وبصفة عامة القنصل مكلف بذلك . وفي اغلب الاحيان تحتكر القنصلية بيع الخمر سواء قنصليات أرغون او المدن الايطالية و مرسيليا .

ونجد متصرف الحانة والخمور يدافع عن هذا القنصل او ذاك حين تتفق مصالحه معه . واهم مثال كان في عهد القنصل « بيرنقردي ريقرس » حين استبد له الملك جاقمو الغازي بـ « اندرو » في 1273/08/20 فعارض ذلك متصرف الحانة معارضة شديدة (87) .

اما الكاتب لدى ديوان البحر والعدول فكانوا لا يخضعون لنظام اللزمة . فالاول اعتبر ممثلا لدى إدارة ديوان البحر الحفصي حيث يخول له استخلاص أداء ذي قيمة بسيطة يعطي منها نسبة للقنصل . والعدول يمنحونه نسبة عن تحرير العقود . وهكذا يتبين ان القنصل كان اكبر المنتفعين من مداخيل الفندق من بين كل موظفيه .

2 - مالك الفندق في صراع مع القنصل لتامين منافعه :

كل هؤلاء الذين ذكرناهم انما كانوا يتصرفون في الفندق باسم مالكه في بلدهم الاصلي . كان ملكا للبلدية بالنسبة للمدن الايطالية ومرسيليا. وهي تنتفع بجزء من المداخيل ، والجزء الآخر للقنصل ومساعديه ، وبالنسبة لارغون ،كان مالك الفندق هو الملك الذي حرص على تامين منافعه .وينتفع الملك من مداخيل الفندق عن طريق اللزمة التي يلتزم القنصل بدفعها (88).وبقدر ما يحاول القنصل المماطلة والانتفاع، فان الملك هو ايضا يجري وراء منافعه . ولذلك الامر ارسل خايم الغازي (1213/1276) مثلا سفيره « ريكار» (Ricart) في 1272/671 لاستخلاصها من القنصل بيرنقر دي ريقرس (Berenguer de Reguers) كما بينا سابقا (89) .

---

84) Du même ,*L'Espagne Catalane ...,op.cit.* ,p.99.

85) Masia de Ros (A.) , *La Corona de Aragon ...,op.cit,* doc. 136,p. 423-424; doc.138,p.425-426; doc. 139,p.426-428, doc. 146,p.434-435 .

86) Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ...op.cit.,* p. 99.

87) Du même , " Les Consulats Catalans ...", *op.cit* ., p. 478 -479 .

88) *Ibid.,* p. 469.

89) راجع ص 256 - 257 من البحث .

وكان الملك هو الاخر يتصرف بعقلية التاجر ، فبعد ان عين هذا القنصل في 1268 لمدى الحياة بدا له ان يعين غيره في 20 أوت 1273 وهو أرمنقول أندرو (Ermengol Andreu) الذي سيدفع له ثمنا اعلى للوظيفة ، 1300 فلسا بلنسيا التي يمكن ان تساوي من 500 الى 650 بيزانا فضية عوضا عن 300 بيزانا التي كان يؤديها له بيرنقر دي ريقرس . وكان ذلك بايعاز من سفيره الذي لاحظ حجم المنافع الكبيرة من فندق بجاية . وامام معارضة مساندي بيرنقر في بجاية اولهم محاسب الحانة والخمور تراجع الملك وثبته من جديد في افريل 1274 ، ولكن بزيادة ثلث « الأداء السنوي » (Cens Annuel) (90) غير ان الملك سرعان ما اعاد أرمنقول أندرو لانه علم بان تصرفه كان اكثر استقامة من سابقه بيرنقر . ويستنتج « ديفورك » ان الملك كان يخير - الى جانب حرصه على تامين مصالحه المالية - قنصلا مستقيما لحماية الصالح العام (91) ونضيف هنا ان الملك في آخرالامر تصرف تبعا لدورين يتمتع بهما : اولهما دور الملك - رجل الاعمال اذ انتفع بترفيع « الاداء السنوي (Cens Annuel) بتعيينه للقنصل أندرو . وثانيهما : دور الملك - السلطة . ومن هذا المنطلق يحمي الوظيفتين التجارية والديبلوماسية للفندق ، وكل اختلال في سيره يمكن ان يعطل هاتين الوظيفتين .

كان فندقا بجاية وتونس من الفنادق الاستثنائية لانهما بقيا ملكا للملك يعودان اليه بالنظر مباشرة وينتفع منهما فبعد 1266-1268 عادت كل الفنادق المتوسطية الاخرى الى بلدية برشلونة(92) واصبح تعيين القنصل من مشمولاتها ، وسميت « فنادق القتلانيين » مثل فندق الاسكندرية . بينما بقي فندقا بجاية وتونس ينتسبان الى الملك حتى بعد 1266-1268 بقوله « فندقنا» او « قنصل فندقنا »و حتى إن سُمّيا احيانا بـ «فندق القتلانيين » فذلك مجاراة لبقية الفنادق .(93) .

*** لماذا تشبث خايم١١ ومن بعده بملكية هذين الفندقين ببجاية وتونس ؟**

ان هذا يدعم قولنا بان الملك حريص على ضمان منافعه المالية الخاصة ، ولكنه حريص اكثرعلى ان يخدم اتجاها عاما.وهو تدعيم التوسع الارغوني في الحوض الغربي ، لان بجاية وتونس اعتبرتا مفتاح النفاذ الى الدولة الحفصية ، لذلك لم يفرط الملك في الملكية المباشرة لفندقيهما . ان الملك وقنصله بقيا اكثر المنتفعين من فندق بجاية وكانا في الحقيقة يتصارعان على حوز اكثر المنافع رغم ان الواحد بحاجة الى الآخر.ولا شك كان الصراع مماثلا بين البلديات الايطالية ومرسيليا وقناصلها .

(90 Dufourcq (Ch.E.) ," Les Consulats Catalans ... " ,*op.cit.*, p. 478 -479.

(91 Ibid . , p.479.

(92 *Ibid* ., p. 471-472 .

93) راجع ص 244 من البحث .

فالى اين آل هذا الصراع ؟
اتجهت السلطة في البندقية نحو تدعيم الدور الديبلوماسي للقنصل .
فهل كان الغاء لمنافعه المالية من الفندق ، ام اتجاها نحو المعادلة ؟
اصبحت البندقية مثلا تؤكد منذ بداية القرن 14/8 اكثر من غيرها على المهمة الديبلوماسية لقنصلها . ان بياترو فاليترو (Pietro Faletro) الذي عينته قنصلا في تونس اختارته من بين النبلاء ، وليس من بين التجار او رجال الاعمال . ولكنها لم تتوصل الى ما كانت ترجوه ما دام قد رفض ضمنيا الالتحاق بمركزه كما ذكرنا . غير انها بقيت متشبثة بمبدئها اذ وضحت منذ 1336 تصورها لمهمة القنصل (94) فسمحت له بالانتقاع بالآداءات الموظفة على المحلات التجارية بفندقها دون ان يمارس التجارة بنفسه مباشرة ومنعت عليه خاصة الاشتغال ببيع الخمور التي يمكن ان تضفي عليه صورة غير مشرفة وتفتح له طريقا للتلاعب.وبذلك نستطيع القول بانها تجعل من قنصلها ممثلا ديبلوماسيا قبل كل شيء بان تبعد عنه الممارسة المباشرة للتجارة .
وتميزت سياسة ملك أرغون منذ البداية تجاه القنصل بسمتين : اولهما ، اذ انطلقنا من مثال « بيرنقردي ريقرس » (95) ، وان التزاماته للقنصل لا يمكن ان تكون ثابتة لا سيما في ما يخص تعيينه مدى الحياة وفي ما يخص لزمة الحانة .
وثانيهما : الحرص على تكليف القنصل بمهمات ديبلوماسية او مهمات لفائدة الملك ليذكره بانها من مهماته الاساسية الى جانب إدارة الفندق ولزمة محلاته.
ولقد تضمنت رسالة ملك أرغون الى ابي يحيى ابي بكر تكليفا بمهمة ديبلوماسية اذ يعلمه فيها بان برناردو بيناكاسا نائب قنصل بجاية برناردي صولر مكلف باستخلاص معلوم كراء السفن الحربية الآرغونية(96) .وبيناكاسا نفسه يبعث برسالة في 22 فيفري 1316 الى ملكه خايم II يخبره فيها بنتائج مقابلته لسلطان بجاية (97) .وفي 3 ماي 1316 يكلفه بموضوع آخر هو المطالبة بتحرير اسرى القرصنة القتلانيين في بجاية ويوصيه بان يتصرف بكل مرونة وسرية (98) .واذا كان الفندق مورد مداخيل بالنسبة لمالكه والقنصل وبعض الموظفين ، فماذا كان بالنسبة للتجار؟.

3 - بالنسبة للتجار ، الفندق يحتضنهم ويخدم تجارتهم :

الفندق هو مقر القنصلية التي تحميهم وسبق ان وضحنا هذا الدور الذي كان يقوم به القنصل (99) والفندق يوفر خدمات متعددة :

---

94) Ducellier ," Raguse , l'Italie et la Berbérie..." ,*op.cit.* , p.39-40.

95) راجع ص 258- 259 من البحث.

96) Masia de Ros ,éd., *La Corona de Aragon ...,op.cit.* , doc.139,p.426-428.

97) *Ibid .*, doc. 146, p.434-435.

98) *Ibid.* , doc. 136,p. 423-424.

99) حول مسالة دور القنصل لحماية مصالح التجار ،راجع ص 246 - 247 من البحث .

اولا :الفندق هو نزل للتجار حيث يجدون فيه غرفا للمبيت وبيوت استحمام ، ويوفر الفرن لهم الخبز حتى ايام الشدة في بجاية . وتوفر الحانة المشروبات الخمرية (100) .

ثانيا : الفندق هو مخزن للسلع ، ولعل هذه الوظيفة هي الاهم بالنسبة للتجار وهي الحجة التي اعتمدوها ودولهم للمطالبة بإقامة الفنادق وهي العنصر الاساسي لتعريف الفندق من قبل المتعاقدين . فقد عرفت معاهدة 1236 مع جنوة بان الفندق مبنى قار عبارة عن مخزن او مصرف (101) .

ثالثا : هو سوق تجارية . فالفندق يستقبل التجار مصحوبين بسلعهم وحقائبهم بعد الانزال واتمام اجراءات ديوان البحر لا سيما دفع الاداءات .وفي الفندق يقام البيع والشراء وتعقد الصفقات التجارية اضافة الى من كانوا يبيعون ويشترون ويعقدون في الميناء . وهو سوق صاخبة يختلط فيها المسيحيون والمسلمون واليهود . وتجد فيها البيع بالمزاد العلني وعددا من المستخدمين والموظفين : الترجمان والكاتب - المحاسب الذي يعتبر واسطة بين التجار وديوان البحر والعدول اي أولئك الاشخاص الضروريين لاتمام التراتيب « القانونية » للبيع والتعاقد .(102) .

ان الفندق يحتضن تجاره ، ويخدم مصالحهم التجارية لانه يوفر لهم الخدمات والاطار الملائم لتحقيق غايتهم الاساسية المتمثلة في اتمام العمليات التجارية ، ولانه مقر القنصلية التي تحميهم وهي فوائد كبرى رغم الاداءات والمصاريف .

---

100) De Mas Latrie ,éd., *Traités ...,op.cit.*, p. 130; Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane..., op.cit* ,p. 70,99; Du même , " Les Consulats Catalans ..." , *op.cit.*, p.479.

101) De Mas Latrie ,éd.," Documents relatifs au commerce génois ...",*op.cit.* , p. 440.

102) Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ..., op.cit.* , p . 70.

العملـــة

هل كانت العملة في بجاية حفصيّة بكامل خصائصها ومواصفاتها ؟ وهل كانت عملة ذات قيمة وتفاق ؟
تمرّ الاجابة بالتعريف بالسكة ومكانتها في التعامل النقدي في الداخل ومع الخارج.

I- السكـــة :

1 - بجاية دار ضرب للعملة الحفصيّة :

يبدو حسب ما أورده ابن خلدون في مقدمته أن ضرب العملة في بجاية بدأ مع الأمير الحمّادي المنصور بن علناس(1088/481 - 1104/498- 1105) إذ قال : « وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة إلا في آخر الأمر اتخذها منصور صاحب بجاية ، ذكر ذلك ابن حمّاد في تاريخه ... » [1] ثم ذكر في كتاب العبر تاريخ استحداث العملة الحمّادية وضربها في بجاية لأوّل مرّة سنة 1148/543 في عهد آخر أمراء الدولة الحمّادية يحيى بن العزيز (1124/518-1152/547) ، ونقل النصّ الكامل الذي كتب على الدينار الحمّادي الأوّل ، ومن بين ماورد فيه مايلي : « ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة» [2] ويخبرنا أن هذا الأمير هو الذي « استحدث السكة ولم يحدثها أحد من قومه أدبا مع خلفائهم العبيديين » [3] وبالتالي فإن العملة التي استعملها الحماديون إلى ذلك التاريخ كانت عملة فاطمية . ومن الممكن أن المنصور ضرب عملة فاطمية ، أي أننا نفترض أن دار الضرب ببجاية أسست منذ عهد المنصور لتضرب بها عملة فاطمية . ويبقى يحيى بن العزيز صاحب أول دينار حمّادي .

ولم نجد ذكرا لدار الضرب في بجاية في مصادر أخرى بعد ابن خلدون إلا في بداية القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي ، إذ ذكرها أبو علي إبراهيم المريني عند روايته لأحداث 1509/915-1510 حين قال : «....آخرون (من البجائيين) ذهبوا إلى ز واوة من بينهم كل الذين مارسوا شغلا في دار ضرب السكة ... » [4] بينما وقع العثور على قطع نقدية مضروبة في بجاية أقل تباعدا

---

1) ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 262 .

2) اورد ابن خلدون ما يلي : « ... واستحدث السكة (أي ابو زكريا يحيي بن العزيز) ولم يحدثها أحد من قومه ادبا مع خلفائهم العبيديين . ونقل ابن حماد أن سكته في الدينار كانت ثلاث سطور ودائرة في كل وجه . فدائرة الوجه : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .» والسطور : « لا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيي بن العزيز بالله الأمير المنصور » ، ودائرة الوجه الأخر : « بسم الله الرحمان الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة » وفي سطوره : « الامام ابوعبدالله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي » ابن خلدون ، *العبر* ، ج IV ص 363 .

3) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

4) Féraud (Ch.L),éd., << Conquête de Bougie ...>>, *op cit*, p256

زمنيا (انظر الجدول المصاحب) ، وتهم فترات مختلفة من العهدين الموحدي والحفصي ، وتهم حتى فترة الاحتلال المريني ، وتقوم دليلا على تواصل وجود دار الضرب ببجاية للعملة الذهبية والفضية [5].

ولابد أن نلاحظ أنه لم تصلنا أية قطعة للعهد السابق أي الحمّادي ، وبقي ابن خلدون يمثل الدليل الوحيد على ضرب السكة ببجاية أيام الحماديين.[6]

جدول للقطع النقدية المضروبة في بجاية

دنانير :

الفترة	التاريخ	القطر بالمم	الوزن بالغرام	المراجع
العهد الموحدي	1156/551-1152/547 (خلال حكم عبدالمؤمن بن علي)		2.29	Hazard (H.W) , *The numismatic History* ... , p143,n°447; Supplément p218
	نفس الفترة			Ibid , p 143,n° 448
	1163/558-1156/551 (خلال حكم عبدالمؤمن بن علي)			Ibid , p146 , n° 473
	نفس الفترة			Ibid , p146, n° 474 .
	1168/563-1163/558 (خلال حكم يوسف)			Ibid , p147 , n° 481
	نفس الفترة			Ibid ,p 147 , n° 482 .

---

5) عن النقود المضروبة ببجاية التي وقع العثور عليها انظر :

Lavoix (H) , << Memoire sur les monnaies frappeés par les Beni Hafs >>, *Revue Archéologique* , Paris (1852) , p 258-275 ; Du même , *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale* , vol II ; Espagne et Afrique , Paris 1891,n°942,952;953;et954; De Candia (J . Farrugia) , <<Monnaies Hafsites du Musée du Bardo >> *Revue Tunisienne* , (1938) , p231-288 et 5 planches , n° 2,8,9,19,20,21,37,44; Brunschvig (R) , << Un Dinar hafside inédit>>,*Bulletin de la société historique et géographique de la région de Sétif*, tII , (1941) , p179-182 ; Hazard (H.W), *The numismatic History of late medieval north Africa*, éd. The American Numismatic Society, New York 1952,n° 447, 448,473, 474,481,482, 562 ,574, 575,581, 584, 586a, 597, 610, 769, et 778 ;

البنك المركزي التونسي ، *النقود العربية في تونس* ، تقديم حسن حسني عبدالوهاب ، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس 1968 ، ص 145-146، 147-148 ، 166 ؛ العجابي (حامد) ، *جامع المسكوكات العربية بإفريقية* ، المعهد القومي للآثار والفنون ، المطبعة الرسمية ، تونس 1988، أرقام 384 ، 386 ، 395 ، 398 ، 409 ، 410 ، 411 ، 424 ، 434 .

6) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ص 363.

العهد الحفصي	1249/647-1228/625 (فترة ابي زكريا يحيي الأول)	28	4.76	حامد العجابي ، جامع المسكوكات.. مرجع سابق ، ص 298 ، رقم 384
	1277/675-1249/647 فترة ابي عبدالله المستنصر)	28	4.70	De Candia (J.F) , << Monnaies Hafsites ...>> p 241; 242; n° 2 ; Hazard (H.W) , Ibid ; p 163, n° 562; حامد العجابي ، المصدر نفسه ، ص 300 رقم 386
	1284/683 (بداية حكم ابي حفص عمر)	28	4.73	حامد العجابي ، المرجع نفسه، ص 310 ، رقم 398 .
	1295/700-1285/684 فترة ابي زكرياء بن ابي اسحاق « المنتخب لإحياء دين الله » مستقل ببجاية .(أ)	29	4.73	De Candia (J.F), Ibid, p 247, n°8 ; حامد العجابي ، المرجع نفسه ، ص 307 ، رقم 395 .
	نفس الفترة	29	4.71	De Candia (J.F), Ibid, p248 ,n° 9 ; Hazard (H.W) , Ibid ; p166 n° 574.
	نفس الفترة			Hazard (H.W) , Ibid ; p 166 n°575
	1318/718-1312/712 (أبويحي أبوبكر مستقل ببجاية)			Ibid , p 167 , n° 581 .
	1346/747-1312/712 (فترة أبي يحيٰ أبي بكر في بجاية ثم في تونس) (ب)	28	4.72	البنك المركزي التونسي ، النقود العربية ...، مرجع سابق ، ص 146 رقم 332 (م) . حامد العجابي ، المرجع نفسه ، ص 319 رقم 409 .
	نفس الفترة	25.5	4.74	Lavoix (H) , Catalogue ..., op cit , p 420, n° 952 ; حامد العجابي ، المرجع نفسه ، ص 320 ، رقم 410 .
	نفس الفترة	27	4.66	Lavoix (H) , Ibid ,p420, n° 952 ;De Candia , Ibid p. 254 n° 19 ; Hazard (H.W) *Ibid* p168 n° 585.

				حامد العجابي ، المصدر نفسه ص 321 ، رقم 411 .
	نفس الفترة	25	4.73	De Candia , *Ibid* , p254 255 ,n°20 ; Hazard (H.W), *Ibid* ,p169, n° 586 a;
	نفس الفترة	24.5	4.71	De Candia , *Ibid* ,p. 255 , n° 21 ; Hazard (H.W), *Ibid* , p169, n° 586 a ;
	1350/751-1350/750 (فترة السلطان ابي العباس أحمد الفضل)	30	4.75	De Candia , *Ibid* , p262 - 263 , n° 37 ; Hazard (H.W), *Ibid* , p171, n° 597 .
الفترة المرينية	1358/759-1348/749 (فترة السلطان أبي عنان فارس)	بين 26 و33	بين 4.57 و 4.73	Hazard (H W),*Ibid*;p209, n° 769.
	نفس الفترة			*Ibid* . p210 , n° 778 .
العهد الحفصي	1434/837-1394/796 (فترة أبي فارس عبدالعزيز)	18	4.80	De Candia (J.F) , *Ibid* , p268-269,n°44; Hazard (H.W) , *Ibid* , p175 n° 610 ; حامد العجابي ،مصدر سابق ، ص 332 رقم 424
	نفس الفترة	غير مذكور بالمرجع	4.60	Brunschvig (R), << Un dinar Hafside inédit >> , Bulletin de la société Historique et géographique de Sétif, II , (1941), p179.
	نفس الفترة	غير مذكور بالمرجع	4.65	*Ibid* .
	1439/843-1435/839 (فترة استقلال أبي الحسن علي بن ابي فارس ببجاية) (ج)	غير مذكور بالمرجع	4.72	Brunschvig (R) ,*Ibid* ; Hazard (H.W) , *Ibid*, p.177,n°627.
	1488/893-1435/839 (فترة أبي عمرو عثمان)	20,5	4,65	حامد العجابي ، المصدر نفسه، ص 338 ، رقم 434 .

أنصاف دنانير :

الفترة	التاريخ	القطر بالملم	الوزن بالغرام	المراجع
العهد الحفصي	1277/675-1249/647 (أبو عبدالله المستنصر)	بين 20 و 23	بين 2.34 و 2.46	Hazard (H.W) , *Ibid*, p. 162,n°558 .
	نفس الفترة	بين 20 و 23	بين 2.34 و 2.46 .	*Ibid* , p. 163 n° 563

دراهم :

الفترة	عدد القطع	أبعاد المربع بالملم	الوزن بالغرام	المرجع
الموحدية	7	/	بين 1,53 و 1.55	Hazard (H.W), << Late medieval North Africa: Additions and supplement Notes >> The A N S M Notes, XII (1966) ,p 214 , n° 1083 .
	1	/	1,34	Hazard(H.W) , *The numismatic History ...,op.cit.*, p.267,n° 1085; Du même , *Supplément , Ibid.*, p.215, n° 1085 .
	1	/	1,40	Hazard (H.W) , *supplément..., Ibid* , p 215,n°1085 a.
موحدية أو حفصية	08	15 X15	/	متحف بجاية
حفصية	12	من 20X15 إلى 20 X20	من 1 إلى 1,30.	البنك المركزي التونسي ، *النقود العربية* ... ، مرجع سابق ، ص 147-148 .

أما عن موقع دار الضرب ، فلا نملك أي شيء يدلنا عليه .وقد تكون بُنيت في العهد الحمادي بجانب « الدار السلطانية » [7] قياسا بغيرها ؛ فدار الضرب بالقيروان كانت تقع بجانب دار الإمارة ، [8] وكانت تقع بالقصبة في تونس ؛ [9]

هوامش الجدول:

1) انفصل أبو زكريا يحيى بن أبي اسحاق إبراهيم ببجاية سنة 1285/684 ، وحكمها مستقلا إلى تاريخ وفاته في رمضان 700 / أفريل 1301 وتلقب ب « المنتخب لإحياء دين الله » . ونجد هذا اللقب على الدينار الذي ضربه ببجاية . راجع ص 71-72 من البحث .

ب) حكم مستقلاً ببجاية من 1312/712 إلى 1318/718 . راجع ص 73-74 من البحث .

ج) ضرب هذا الدينار باسم أبي الحسن بن أبي فارس عبدالعزيز الذي عيّن واليا على بجاية في 1434-1433/837 ، وتمرّد على ابن أخيه السلطان أبي عمرو عثمان (1435/839-1488/898) منذ 1435/839 إلى 1452/856 . وتمكّن من الاستقلال ببجاية من جمادي الأولى 839 / نوفمبر1435 إلى جمادي الثانية 843/ نوفمبر 1439 ، ثم لمدة عشرين يوما سنة 1446/850 . ومن المرجح أن يكون قد ضرب دينارهُ في المدة الأولى . وكانت بجاية خارج فترتيْ استقلاله بها بيد الولاة المعيّنين من قبل السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان ، تاريخ الدولتين .... ص 137- 145 .

---

7) ذكرها ابن الأثير هكذا في *الكامل في التاريخ* ، ج 10، ص 47-48 .

8) عبدالوهاب (حسن حسني) ، *ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية* ، 3 أجزاء ، مكتبة المنار ، تونس 1964 . ج 1، ص 410 .

9) ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 235 .

واعتمادا على أن ضرب السكة باسم السلطان كان علامة رئيسية من علامات الحكم، واعتمادا على أن « النظر في السكة يحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش » كان من بين مشاغله الرئيسية.[10]

ولكن من جهة أخرى، لا نعرف مكان « الدار السلطانية ». وقد تكون دار الضرب قد تحوّلت بعد الحمّاديين إلى القصبة أو بالقرب منها. وهي التي بناها الموحدون باعتبارها قلعة ومركزا للحكم.

والثابت أن بجاية كانت دار ضرب للسكة في العهد الحفصي وما قبله. فما هي خصائص العملة المضروبة بها ؟

2 - العملة المضروبة في بجاية لا تخرج عن النمط الحفصي حتّى أيام انفصالها :

أ- الدينار الذهبي: عملة مستقرة مطابقة للدينار الحفصي عامة :

كان الدينار الذهبي الوحدة النقدية الأساسية. وقد توصّلنا إلى حصر 18 قطعة منه مضروبة في بجاية.[11] وقسّم الدينار الحفصي إلى ثلاثة أجزاء : نصف الدينار وربع الدينار أو ربيع وثمن الدينار أو ثمينة.[12] وقد أدرج هازار (H.W.Hazard) قطعتين من نصف الدينار مضروبتين ببجاية.[13]

* عيار قار :

الدينار الحفصي عامة وريث الدينار الموحدي الذي أنشاه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (1194/590-1184/580). وكان يساوي قبله منذ عهد

---

10) المصدر نفسه، ص 416.

11) راجع الجدول ص 262-264 من البحث.

12) Brunschvig (R), << Esquisse d'histoire monétaire almohade et hafside >>, *Melanges offerts à William Marçais* par l'Institut d'Etudes Islamiques, Paris (1950), p. 69; Hazard (H.W), *The numismatic history* ... *op cit*, n° 546, 551 et 552 ;

حسن حسني عبدالوهاب، *ورقات* ... مرجع سابق، ج I، ص 457 ؛ البنك المركزي التونسي، *النقود العربية* ... مرجع سابق، ص 140-142، 144، أرقام 318 (م)، 319 (م)، 320 (م)، 321 (م)، 322 (م)، 323 (م)، 324 (م)، 329 (م) ؛

Dhina (A), *Les Etats de l'occident musulman aux XIIIè, XIVè et XVè s ; Institutions gouvernementales et administratives,* ENAL Alger 1984, p. 208-213 ;

العجابي (حامد)، *جامع المسكوكات* ... مرجع سابق، ص 296، 299، 308، 312، 396، 401، 402، 418، 421، 423، 435، 438، 441.

13) Hazard (H. W), *The numismatic History... ,op cit.*, p. 162, n°558, p.163, n°563.

عبدالمؤمن بن علي (1163/558-1130/524) 2.36 غرام أي نصف العيار الشرعي المعمول به آنذاك في الدولة العبّاسية والمساوي لـ 4.72 غرام أي ما يعادل المثقال المعمول به منذ عهد المنصور الخليفة العبّاسي الثاني (775/158-754/136) وما قرّر القيام به يعقوب المنصور هو أن يصبح الدينار الذهبي للدولة الموحّدية مساويا للمثقال أي ضعف الدينار السابق . وبذلك صار وزنه 4.72 غرام ،[14] وهو مايقابل 80 حبة من القمح . وسمّي أيضا بالدينار اليعقوبي .

وسمّاه الأوروبيون « دبلون » (Doublon) و« دوبلا » (Dupla) و «دوبلا» (Dobla) و « دوبل » (Doble) و « دوبل » (Double)، أي الدينار المضاعف .[15] ونجد هذه التسمية في عدد من المعاهدات والرسائل بين الحفصيين والأوروبيين .[16]

وقد يتجاوز الدينار الحفصي العيار الشرعي بقليل أو ينقص عنه ، ولكنه في أغلب الأحيان يحوم حول 4.70 غرام من الذهب . فكان ذا عيار مستقر طوال العهد الحفصي .

ولم يتضرّر عيارُ الدينار الحفصي بالاضطرابات السياسية أو الآفات الطبيعية ، إذ لم تصلنا دنانير ذات عيار منقوص طوال العهد الحفصي[17] وكلها لا تبتعد عن 4.70 غرام . وهذه أمثلة عن دنانير ضربت في فترات تميّزت بظروف صعبة :

الفترة	مكان الضرب	العيار بالغرام	الظرف السياسي	الآفات
1277/675-1249/647 (المستنصر)	بجاية تونس	4.70 4.74	الحملة الصليبيّة الثامنة 1270/669	وباء سنة 1270/669
1294/693-1284/683 (ابو حفص عمر)	بجاية تونس	4.73 4.75	إثر ثورة الدعيّ أحمد بن أبي عمارة .	قحط 1281-80/679
1350/751-1350/750 (أبو العباس أحمد الفضل)	بجاية طرابلس	4.75 4.65	إثر الاحتلال المريني 1349/750-1345/748	طاعون منتصف القرن 1350/750

---

14) Brunschvig (R) , << Esquisse d'histoire monétaire ...>> *op cit.* ,p.64, 65, 68; Dufourcq (Ch.E) ,<< La Couronne d'Aragon et les Hafsides au XIIIè s(1229-1301)>>,*Analecta Sacra Tarraconensia* , Barcelona (1952) , p 74 .

15) Brunschvig (R) , *Ibid.* , p 64 ; Dufourcq (Ch.E) , *Ibid* ., p 74 .

16) Exemples : Masia de Ros,éd., *Los documentos* ... ,*op cit* , documents 134, 137, 141, 144 , etc ...

17) اعتمادا على منشورات لافوا (H . Lavoix) ، دي كانديا (F.De Candia) ، هازار (H.W.Hazard)، البنك المركزي التونسي ، وحامد العجابي ؛ راجع البيليوغرافيا .

ولم نعرف اصلاحا في مايخص العملة الذهبية بإحداث دينارجديد . ولايعني ذلك أنه لم يتعرض لظاهرة الغش بل يبدو أنه كان أقل عرضة لذلك ، ويبدو أن السلطة اختارت دائما قطع الدينار المغشوش والمحافظة على الدينار الذهبي بعياره الشرعي . يخبرنا البرزلي عن تفشّي الغش في العملة الذهبية « الحميّة » نسبة للحامة في الجريد . ولكن السلطان أمر بقطعها واقتصرت دائرة التعامل بها على المنطقة التي ضربت بها ، وضبطت مع ذلك قيمتها .[18] ويظهر هنا حزم السلطة على المحافظة على قيمة الدينار الذهبي ولانعرف إن كانت العملة الذهبية المغشوشة والمنقوصة قد تداولت في بجاية إذ لم نعثر في مصادرنا عن خبر يفيد ذلك ولم نقرأ عن أية محاولة للغش تخص العملة الذهبية منطلقها بجاية .

ولم يختلف عيار الدينار المضروب في بجاية عن عيار الدينار الحفصي المضروب في أيّة مدينة حفصيّة أخرى طوال العهد الحفصي حتّى في الفترات التي كانت منفصلة [19] فيها وندرج في ما يلي جدولا للمقارنة يتضمّن أمثلة لقطع ضربت في بجاية وفي مدن أخرى في فترات مختلفة :

جدول مقارنة لتطوّر الدينار المضروب في بجاية مع الدنانير المضروبة في المدن الحفصيّة الأخرى :

الفترة	المدينة	القطر بالملم	الوزن بالغرام	المراجع
1249/647-1228/625 (فترة أبي زكرياء يحي الأول)	بجاية	28	4.76	راجع الجدول ص 263 من البحث
	دون ذكر المدينة	28	4.72	Lavoix (H) , *Catalogue* ... , *op cit* ., p. 414, n°944 .
1277/675-1249/647 (فترة أبي عبدالله المستنصر)	بجاية	28	4.70	راجع الجدول ص263 من البحث .
	تونس	28	4.74	DeCandie,"Monnaies hafsites.." *op cit*. , p 250 n° 14 . ح العجابي ، *جامع المسكوكات* ، مرجع سابق ، ص 250 ، رقم 391 .
سنة 1284/683 (بداية حكم ابي حفص عمر)	بجاية 29	28 29 4.71	4.73 4.73	راجع الجدول ص 263 من البحث
1294/693-1284/683 (فترة أبي حفص عمر)	تونس	28	4.75	Lavoix (H) , *Catalogue*..., *op cit* ., p417, n°948; De Candie,"MonnaiesHafsite...", p.245, n° 5 .

18) ورد في نوازل البرزلي مايلي : « وكذا جرى في الذهب « الحميّة » كانت أولا تخرج كالطيبة والفها الناس ، ثمّ كثر الضرب من الفسقة فيها وحمل عليها غش وصاريتفاوت غشه . فامر بقطعه لعدم ضبط غشها ، وخوف ذهاب رؤوس أموال الناس فقطعت وصارت سلعة كسائر السلع بتونس ، والمعاملة بها في ناحية الموضع الذي ضربت فيه لم تزل،لكنها على حسب نسبتها لامر الاميرية الجيّدة في الطيب »، البرزلي ،*نوازل* ج II ، ورقة 38ظ : Brunschvig (R) , << Esquisse d'histoire monétaire... >>*op cit*., appendice , p 91

19) عن الانفصالات ، راجع ص 70-74 ، 88-90 من البحث .

1318/718-1312/712 (ابو يحيي ابو بكر مستقل ببجاية)	بجاية	بين 25 و 30	بين 4.67 و 4.80	
1346/747-1312/712 (فترة أبي يحيى ابي بكر في بجاية ثم في تونس)	بجاية	28 25.5 27	4.72 4.74 4.66	راجع الجدول ص 263 من البحث.
1346/747-1318/718 (ابو يحيي ابو بكر في تونس)	بسكرة	26.5	4.71	ح . العجابي ، المرجع نفسه ، ص 317 رقم 407 .
	قفصة	28	4.69	De Candia,Monnaies Hafsites op cit p 256 n° 23 ح . العجابي ، المرجع نفسه ، ص 318 ، رقم 408 .
1434/837-1394/796 (فترة أبي فارس عبدالعزيز)	بجاية	18	4.80	راجع الجدول ص 264 من البحث.
	بسكرة	25	4.61	De Candia , Ibid , p267,n°43; ح . العجابي ، المرجع نفسه ، ص 327 ، رقم 419 .
	الحامة	24	4.79	De Candia,Ibid,p269,n°45 ح . العجابي، المرجع نفسه ، ص 328 رقم 420 .
	قفصة	25	4.76	De Candia,Ibid,p270,n°46
1439/843-1435/839 (فترة استقلال أبي الحسن بن أبي فارس ببجاية)	بجاية		4.72	راجع ص 264 من البحث .
1488/893-1435/839 (فترة أبي عمرو عثمان)	بجاية	20.5	4.67	راجع ص 264 من البحث .
	طرابلس	17	4.74	Lavoix (H) , *Catalogue* ...., *op cit* ,p .434 , n° 975 . De Candia , *Ibid* , p 277,n°57; حامد العجابي ، المرجع نفسه ، ص 340 ، رقم 437 .
	توزر	24	4.66	De Candia , Ibid,p276 , n°56; حامد العجابي ، المصدر نفسه ، ص 342 ، رقم 439 .

*** خصائص أخرى لم تخرج هي أيضا عن النموذج الحفصي :**

بالنسبة للحجم ، تراوح قطر الدينار الحفصي بصفة عامة والمضروب في بجاية بصفة خاصّة بين 25 و30 مم . وقد يصل إلى 31 مم [20] ، أو كما يتبيّن من الجدولين السابقين الأوّل والثالث ، قد ينزل إلى ما تحت 20 مم ، ولكنه دائما بنفس الوزن ، كالدينار الذي ضرب في بجاية في فترة أبي فارس قطره 18 مم ، أو ذلك الذي ضرب في طرابلس في عهد أبي عمرو عثمان قطره 17 مم فقط .

وورث الدينار الحفصي في بجاية وغيرها رسم المربّع داخل الشكل الدائري ، وورث خاصة نفس العناصر المكوّنة للنصوص المنقوشة التي تبيّن قبل كل شيء وفاء الحفصيين للمذهب الموحدي ، وتتمثل في مايلي وإن اختلفت صياغتها أو مكانها على القطعة النقدية: الطوق أو الوسط ، الوجه أو الخلف :

- البسملة (بسم الله الرحمان الرحيم)
- توحيد الله بصيغ مختلفة مثل لاإله إلا الله أو الواحد الله أو لا إله إلا الله الأمر كله لله لا قوة إلا بالله أو الله ربّنا .
- الصلاة على محمدا رسول الله .
- التذكير بأن محمدا رسول الله .
- الاعتراف بإمامة المهدي بن تومرت عليهم وأنه القائم بأمر الله أو خليفة الله .
- ذكر اسم السلطان أو الأمير الحفصي .
- ذكر المدينة وأحيانا لا تذكر .

فهي عملة ملتزمة بالمذهب الموحدي ، إلى جانب كونها شارة من شارات الملك بذكرها لاسم السلطان.ولكن الحفصيين وقبلهم الموحدين لم يهتموا بوضع التاريخ ، وهذا يدل على أنهم وظفوا النصّ لغاية مذهبية وسياسية . ولم يروا في نقش تاريخ الضرب وظيفة تهمّهم .

ولم يتغيّر مضمون النصّ على الدنانير المضروبة ببجاية في فترات الاستقلال بها . ماعدا في ما يخصّ اسم السلطان الذي عوّض باسم الأمير الذي انفصل بها ؛ ووصلتنا أمثلة عن ذلك :

فقد سجّل أبو زكريا بن أبي إسحاق اسمه على الطوق كما يلي حين حكم ببجاية مستقلا من 1284/684 إلى 1295/700 :الأمير المنتخب -لاحياء دين الله

(20 Dhina (A) , *Les Etats de l'occident musulman ...* , *op cit.*, p. 212.

- أبوزكريا ابن - الأمراء الراشدين .[21] وسجل أبو يحيى أبو بكر اسمه في الوسط مصحوبا في الطوق بلقب الأمير الأجل المتوكل على الله المؤيد بنصر الله .[22] وتمكّن الأمير أبوالحسن علي بن أبي فارس الذي تمرّد على أبي عمرو عثمان من ضرب العملة باسمه أثناء فترة استقلاله ببجاية (1439/843-1435/839) دون أن يغيّر شيئا في النصّ ما عدا اسمه ولقبه : «أبو الحسن علي بن أمير المؤمنين أبو فارس عبدالعزيز

---

21) النص الكامل هو التالي :

	الوسط	الطوق
الوجه	الشكر لله والمنة لله والحول والقوة بالله بجاية	الأمير المنتخب لإحياء دين الله أبو زكريا بن الأمرا الراشدين
الظهر	الواحد الله محمد رسول الله المهدي خليفة الله	بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد والهكم اله واحد لا اله إلا هو الرحمن الرحيم

De Candia (J.F), << Monnaies Hafsites ...>>, *op cit*,p. 247,n°8;Hazard (H.W), *The numismatic History...,op cit.*, p166 , n°574;

العجابي (حامد) ، *جامع المسكوكات* ، مرجع سابق ، ص 307 ، رقم 395؛ مع الملاحظة أن حامد العجابي أخطأ في تاريخ فترة أبي زكريا بن أبي اسحاق الملقب بالمنتخب لاحياء دين الله وأدرجه في قائمة السلاطين الحفصيين وحدّد فترة حكمه من 1284/683 إلى 1295/694 ، بينما كان أميرا مستقلا ببجاية من 1285/684 إلى تاريخ وفاته 1301/700 (راجع ص 71-73 من البحث) ، كما اعتقد أن أبا حفص عمر حكم الدولة الحفصية في تونس خلال سنة 1284/683 فقط . مع العلم أنه حكمها من 1284/683 إلى 1295/694 انظر : ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ص 699-700 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 146-152 ؛ الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ، ص 50-53 .

22) النص الكامل هو التالي :

	الوسط	الطوق
الوجه	أبو يحي أبو بكر بن الأمر ا الراشدين بجاية	الأمير الأجل المتوكل على الله المؤيد بنصر الله
الظهر	الواحد الله محمد رسول الله المهدي خليفة الله	بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

Hazard (H.W),*The numismatic History...,op cit*, p167, n° 581;

البنك المركزي التونسي ، *النقود العربية* ... ، مرجع سابق ، ص 146 ، رقم 332 ؛ حامد العجابي ، *جامع المسكوكات* ... ، مرجع سابق ، ص 391 ، رقم 409 .

المتوكل على الله المؤيد بنصر الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين » .[23]
ويفسّر ذلك بأن الذين قاموا بحركات استقلالية كانوا من العائلة الحفصيّة واعتبروا أنفسهم أصحاب الشرعية لمواصلة الحكم الحفصي .[24]

ولم يتغيّر مضمون النص على الدينار في بجاية إلا في فترة الاحتلال المريني أيام السلطان أبي عنان فارس [25](749/1348-759/1358) على أننا نشير إلى أن الدينار المريني والدينار الحفصي متقاربان من حيث الوزن والقطر ، رغم أن الدينار الحفصي يتّصف بزيادة طفيفة إجمالا من حيث الوزن .[26]

إذن لم يخرج دينار بجاية عن الأنموذج الحفصي بكامل خصائصه لاسيما العيار ، رغم التغيّرات السياسية التي طرأت على بجاية . فكان دينارا حفصيّا قبل كل شيء . وحافظ على قيمته شأنه شأن الدينار الحفصي عامّة . وحتى الدينار المريني الذي ضرب بها ، لم يُدْخِل الاضطراب على عيار الدينار المتداول بها . وما تغيّر إلاّ انتماؤها لسلطة أخرى ، أي أن المعاملات النقدية بقيت مستقرّة .

ب - العملة الفضية عملة حفصيّة غير مستقرّة :

ورثت الدولة الحفصيّة في بداية عهدها الدرهم الموحدي بكامل خصائصه : العيار والحجم والشكل والنصوص والتقسيمات .[27] وكان وزنه مساويا لحوالي 1.50 غرام[28] وكانت أجزاؤه وأضعافه هي : القيراط وهو نصف الدرهم ، وربع الدرهم ، والخروبة وهي ضعف الدرهم .[29] وحافظ على مدى العهد الحفصي على

---

23) النص الكامل هو التالي :

	الطوق	الوسط
الوجه	بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد لا إله إلا الله محمد رسول الله	الشكر لله والحول والقوة بالله المهدي خليفة الله
الظهر	المتوكل على الله المؤيد بنصر الله المنصور بفضل الله امير المؤمنين	أبو الحسن علي ابن أمير المؤمنين أبو فارس عبدالعزيز بجاية

Brunschvig (R),<< Un dinar Hafside inédit ...>> , *op cit.*, p. 179-180 .

24) راجع ص 71-74 ، 88-90 من البحث .

25) النص على القطعة المرينية في بجاية التي أوردها هزار(Hazard) برقم 769 هو التالي :« ضرب ببجاية - عن امر عبد الله - فارس امير - المؤمنين المتوكل - على رب العالمين - » . وهذا السلطان المذكور هو ابو عنان فارس بن ابي الحسن (749/1348-759/1358).

26) Dhina (A) , *Les Etats de l'occident musulman* , op cit , tableau p212-213 .

27) ورد في المعيار ما يلي : « ... وسئل أبو عزيز عمّا إذا كان الغالب في الأسواق وجود القراريط ، وهي انصاف الدراهم ... » الونشريسي ، *المعيار*، ج ٧ ، ص 77 ؛
Brunschvig (R), << Esquisse d'histoire monétaire >>,*op cit* ,p70

28) *Ibid.*, p. 64.

29) Dhina (R.), *Les étas de l'occident musulman ...,op.cit.*,p.208-209.

خاصيتين : الشكل المربّع الخارجي والنصوص التي تضمّنت العناصر الأساسية التي تضمّنها الدينار في صيغ مختلفة ، وهي البسملة وتوحيد الله وذكر الرسول والتنصيص على إمامة المهدي وأحيانا ذكر المدينة ، دون ذكر تاريخ الضرب . ولكن الدرهم لم يُدرِجْ - خلافا للدينار- اسمَ السلطان ، ماعدا في فترة متأخرة خلال القرن 16/10 .[30]

واتصفت الدراهم التي ضربت ببجاية بنفس الخصائص . وتدلّ على ذلك المجموعة الهامة من الدراهم التي وردت في نشرة البنك المركزي التونسي ، عيارها بين 1 و1.30 غرام ، وضربت في مدن مختلفة من الدولة الحفصيّة ، وهي بجاية وعدد القطع 12 ، وبونة : 7، وتنس : 11 ، وتوزر: 7 ، وتونس : 34 ، والجزائر: 3 ، وطرابلس : 6 ، وقابس : 5 ، وقسنطينة : 2 ، وجربة : 1 .[31] ولكن الدرهم الحفصي لم يعرف الاستقرار المتواصل مثلما كان الشان بالنسبة للدينار ، لا سيما في ما يخصّ عياره وأجزاؤه ، ولذلك مرّ بثلاثة فترات رئيسيّة :

*** فترة الدرهم القديم : إلى نهاية القرن 13/7 :**

يمكن اعتبار الفترة الأولى فترة الدرهم الموروث عن الموحّدين بكل خصائصه . وهو الذي أصبح يسمّى منذ نهاية القرن 13/7 بالدرهم القديم نظرا لإحداث درهم آخر سُمّي بالجديد .[32] ووقع التعامل النقدي بدينار فضّي غير ملموس يُحسبُ به فقط سُمّي [33] بـ «دينار الدراهم » أو « دينار عشري الصّرف » مساوٍ لعشرة دراهم . وذكر أبو العباس القلقشندي أنها عشرة دراهم قديمة ، إذ قال : « ثمّ مصطلحهم (أي أهل إفريقية) أن كل عشرة دراهم عتيقة بدينار ، وهذا الدينار عندهم مسمّى لا حقيقة له ، كالدينار الحبشي بمصر والرائج بإيران ... »[34]

وأورد البرزلي عبارة « دنانير عشريةِ الصّرف » قائلا : « وسئل ابن أبي الدنيا عمّن باع سلعة بستّين دينارا سكية عشرية الصرف كل دينار عشرة دراهم ... » [35] وأورد ابن قنفذ عبارة « دينار دراهم جديدة » بقوله : « أنفق (أبو اسحاق ابن

---

30) Hazard (H.W.) , *The numismatic History ...,op.cit.*, p. 273, n° 1125.

31) البنك المركزي التونسي ، *النقود العربية* ، مرجع سابق ، ص 147-149 .

32) القلقشندي (أبو العبّاس) ، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء* .15 جزءا ، طبع المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة والطباعة . ج V ص 114 ؛ البرزلي (أبو القاسم) *جامع مسائل الأحكام بما نزل بالمفتين والحكام أو نوازل البرزلي أو فتاوى البرزلي* ، مخطوط رقم 04851 بالمكتبة الوطنية بتونس ، ج II ، ورقة رقم 82 ؛ Mauny (R) , *Masa il Al-Sarf*,extraits des Nawāzil de Burzulī, C A R sous la direction de M . Talbi , Tunis 1975 , p5 ;Brunschvig (R) << Esquisse d'histoire monétaire... >>, *op cit* , p71; Dhina (A) ,*Les Etats de l'Occident musulman* , *op cit*, p.209.

33) ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 187 ؛ القلقشندي (أبو العباس) ، *صبح الأعشى* ، ج V، ص 114 ؛ البرزلي ، *نوازل* ، ج 2 ، ورقة رقم 48 ظهر ؛ Brunschvig (R) , << Esquisse d'histoire monétaire... >> , *op cit* , p.70;Dhina (A) , *Les Etats de l'Occident musulman* , *op cit.*,p.211.

34) القلقشندي (ابو العباس) ، *صبح الأعشى* ، ج 5 ، ص 114 . ويبدو ان هذا الدينار بهذه القيمة يستمد جذوره من الفترة العبّاسية ، إذ كان يعتبر الدينار الذهبي الملموس مساويا من 10 إلى 12 درهما فضيّا . Brunschvig (R.) , *Ibid.* , p. 70,n°2 .

35) البرزلي ، *نوازل* ، ج II ، ورقة رقم 48 ظهر .

السلطان أبي العباس أحمد) في شهر شعبان من سنة 792 ثمانين الف دينار دراهم جديدة »[36] . ويعني هذا أن إمكانية احتساب الدينار الفضّي بالدراهم الجديدة كانت ممكنة ، مع مراعاة المعادلة في الصرف . ولربما أريد القول أيضا أن الأمير دفعها بما يعادلها دراهم جديدة . ولكن يبدو أن ذلك لم يكن قاعدة عامة لان البرزلي أو القلقشندي اللذين قدّما لنا التعريف والمعادلة كانا واضحين في جعل الدرهم القديم قاعدة احتساب الدينار الفضّي .

*** تزامن الدّرهم القديم والدّرهم الجديد : من نهاية القرن 13/7 إلى منتصف القرن 15/9 :**

- في فترة السّلطان أبي حفص عمر (1295/694-1284/683) انحطّ الدرهم لاشك نتيجة خلط الفضّة بالنحاس . وقد ذكر أبو العباس القلقشندي بوضوح أن « القديم مغشوش بالنحاس »[37] ولذلك أحدث درهم خالص الفضّة سمّي بالجديد بوزن مُساوٍ لـ 1,50 غرام .

ولم ينقطع التعامل بالدرهم القديم بل تزامن الإثنان معا مع مراعاة قيمة كل منهما طيلة الفترة المتراوحة بين نهاية القرن 13/7 ومنتصف القرن 15/9 . وتذكر المصادر تفشي دراهم مغشوشة مخلوطة بالنحاس انطلقت من الجريد حوالي سنة 770/1368-1369، وسميت « بالجريدية » ، ولكنها لم تفض إلى القيام بإصلاح . وانتشرت في بجاية أيضا . وكانت محلّ نقاش في ما يخصّ معادلتها مع الدراهم الجديدة .[38]

وبالنسبة للمعادلة بين القديم والجديد ، ذكرالقلقشندي الذي توفي في 821/1418 أن « كل عشرة دراهم عتيقة بثمانية دراهم جديدة »[39] أي أنّ : الدرهم الجديد = $\frac{10}{8}$ الدرهم القديم = 1.25 درهم قديم . وتوصّلنا حسب البرزلي المتوفى في 841/1438 إلى نفس النتيجة ، إذ يورد أن 48 درهما جديدا تساوي 60 قديمة ، أي $\frac{60}{48}$ = 1.25 وبيّن أن الجديد يساوي خمسة أرباع القديم أي 1.25 .[40]

ولم تكن المعادلة آلية ، إذ كانت مرتبطة بالقيمة الفعلية للعملة في السوق . ويتبيّن ذلك من إحدى فتاوى البرزلي في مسالة « المراطلة » بين القديم والجديد

36) ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 187 .

37) القلقشندي ، *صبح الاعشى* ، ج7، ص 114 .

38) البرزلي ، *نوازل* ، ج II ،ورقة 38 ظهر ؛الونشريسي (احمد) ، *المعيار*، ج ٧ ،ص 77-78 : ج 6 ، ص 45 . Brunschvig (R) << Esquisse d'histoire monétaire... >> , *op cit* , Appendice , p91 .

39) القلقشندي (ابو العباس) ، *صبح الاعشى* ، ج 5 ، ص 114 .

40) البرزلي ، *نوازل* ، جII، ورقة 48 ظهر .

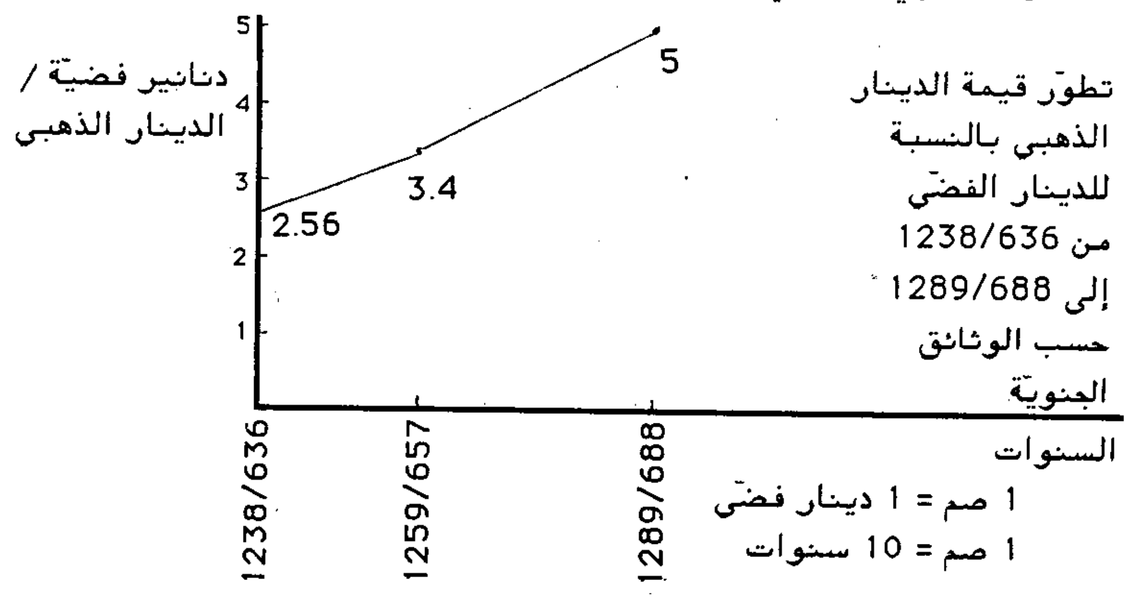
أي المعادلة أو « المصارفة » إذ يرى أن الدراهم القديمة تستبدل مقابل الجديدة في حالة قبول صاحب الدراهم الجديدة لذلك . ويعلل هذا الموقف بانه « أعطى أفضل في النفاق »[41] وبالتالي ، فإن المبادلة ، حتى بعد ضبط المعادلة ، تخضع أيضا لاعتبار « نفاق » العملة وقوتها في السوق .

وإذا قارنا العملة الذهبية بالفضيّة نلاحظ أن المعادلة تطوّرت لصالح العملة الذهبية . فقد بيّن جورج جيهال معتمدا على وثائق مدينة جنوة (Archivo di Stato di Genova) أن قيمة الدينار الذهبي (double) ارتفعت بصفة ملحوظة خلال القرن 13/7 بالنسبة لدينار الدراهم الفضّي (besant) وكانت كما يلي[42] :

- 1238/636 : 2.56 دينار دراهم .
- 1259/657 : 3.4 دنانير دراهم .
- 1289/688 : 5 دنانير دراهم .

ونلاحظ أن وثائق جنوة تتفق مع وثيقتين أرغونيتين[42] مؤرختين في 1284/683 و 1290/689 لتؤكدا نفس القيمة في سنوات الثمانين للقرن 13/7 ؛ إذ ورد فيهما أن الدينار الذهبي يساوي 5 دنانير فضيّة أو 50 درهما . وأخبرنا البرزلي أن الدينار الذهبي كان يساوي 60 درهما قديما أو 48 جديدا أي 6 «دنانير دراهم» من منتصف القرن 13/7 إلى «عشرة التسعين من نفس القرن»[43]

ونفترض أنه لا يوجد اختلاف بين الوثائق الجنويّة أو الأرغونيّة من جهة ، والبرزلي من جهة أخرى ، إذ يبدو أن المعادلة بنيت في الأوليّيْن على قاعدة التعامل التجاري الخارجي ، وبنيت في الثانية على قاعدة التعامل الداخلي .



---

41) المصدر نفسه والورقة نفسها .

42) Jehel (G) , *Les Génois en Méditerranée Occidentale (fin XI e dédut XIV e s) , Ebauche d'une stratégie pour un empire* , Centre d'histoire des sociétés, Université de Picardie,Alphacopy, Paris 1993, p153 , Note 86 .

42') Brunschvig (R.) ," Esquisse d'histoire monétaire ...", *op.cit.* , p. 74 ; Dufourcq (Ch.E.) , " La couronne d'Aragon ...",*op.cit.*, p. 98.

43) البرزلي ، *نوازل* ، ج II ، ورقة رقم 48 ظهر .

ويبدو أن النظام النقدي اعتمد معدن الذهب . ويؤكده البرزلي حين أورد ما يلي : « ... وكذا كان شيخنا الإمام وغيره يقولون في المعاملة إنما هي بالذهب في ساير الاسواق إلاسوق الغزل وسوق الآبارين ... » [44] واستنتج ج. جيهال بدوره أن هناك تطوّرا نحو اعتماد الذهب . [45]

ولعل ذلك يفسَّرُ بتوفّره نتيجة للحركة التجارية النشيطة مع بلاد السودان ، بلاد الذهب ، ونتيجة لمدى تاثيره في التعامل مع أوروبا التي كانت بحاجة لهذا المعدن الثمين . [46]

* **فترة «النّاصرى» : بداية من منتصف القرن 15/9 .**

يبدو أن الدرهم الجديد تعرّض هو أيضا للفساد خلال المدة القصيرة والمضطربة للسلطان أبي عبدالله محمد المنتصر (1435/837 ـ 1437/839) ولذلك جاء السلطان أبو عمرو عثمان بإصلاح جديد تمثّل في إنشاء الدرهم المسمّى بالناصري [47] الذي أصبح يساوي ثلاثة مرات الدرهم الجديد وعرف تقسيمات أخرى هي :

الخمسي : $\frac{5}{6}$ الناصري

الخروبة : $\frac{4}{6}$ الناصري أي ثلثيه (2/3)

نصف الناصري : $\frac{3}{6}$ الناصري

الجديد : $\frac{2}{6}$ الناصري أي ثلثه

القفصي : $\frac{1}{6}$ الناصري ، وهو القيراط

ولم نعثر في مجموعات جوامع المسكوكات على أية قطعة من قطع الناصري سواء بالنسبة لبجاية أو غيرها من المدن الحفصيّة ؛ على أنه ذكر في

44) المصدر نفسه،الورقة نفسها .

45) Jehel (G) , *Les Genois en Méditerranée , op cit* . p .153, Note 86.

46) انظر ص206-211 من البحث .

46) انظر ص206-211 من البحث .

47) Brunschvig (R) ,*La Berberie Orientale ... op cit* ,tII, p74;Du même ,<<Esquisse d'histoire monétaire ...>> *op cit* p 83; حسن حسني عبدالوهاب ، ورقات ... مرجع سابق ، ص 459-460 ؛ Dhina (A) , >> Les finances et la monnaie des Etats de l'occident musulman des XIII ,XIV et XV è s (Hafsides , marinides , Abd-Al-Wadides et Nasrides) >> , *majallat Et-Tarikh* , 1er semestre (1980) ,p19 ; Du même, *Les Etats de l'occident musulman...* op cit ,p209 .

رحلة عبدالباسط بن خليل سنة 1463-62/867 [48] ومناقب سيدي ابن عروس [49] التي حرّرت بعد 1462-63/867 . ورحلة أدورن[50] سنة 1470/875 . ونلاحظ أن الدرهم الجديد السابق للناصري لم يندثر بل أصبح يمثل فقط ثلثَ الناصري .

وبإجمال ، لم تتغيّر العملة الذهبيّة وتميّزت بالاستقرار طوال العهد الحفصي ، بينما لم تكن العملة الفضيّة مستقرة فخضعت للتجديد والاصلاح .

II - العملة الحفصية في التعامل النقدي :

1- مكانة العملة في التعامل النقدي مع الخارج :

أ - ثقة في الدينار الذهبي :

كانت للمتعاملين مع الحفصيين ثقة في الدينار الذهبي . وتجلّى ذلك في أنه كان عملة التعامل على المستوى الرسمي وفي الميدان التجاري ، وداخل أوروبا نفسها . فعلى المستوى الرسمي ، كانت المطالب المالية لأرغون كلها بالدينار الذهبي ؛ وأهمها مقدار 12000 دينار مقابل كراء السفن الأرغونية التي استعملتها بجاية في حروبها ضد الهجوم التلمساني سنة 1315/715 ، [51]. وكذلك الأتاوة السنويّة بـ 2000 دينار ذهبي التي فرضتها أرغون على « سلطان تونس وبجاية » بمعاهدة 10-11شعبان 760 / 15-16جوان 1361 اعتمادا على التزام مالي لأبي يحيي أبي بكر مع ميورقة عندما كان أميرا مستقلا ببجاية من 1312/712 إلى 1318/718 ، [52] وتهدف محاولات الملك إلى الزيادة في رصيد مملكته من الذهب الذي كانت لا تنتجه أوروبا بينما توفر في بلاد المغرب بفضل التجارة مع بلاد السودان . [53] وهذا دليل أيضا على أن له ثقة في نقاوته .

وفي الميدان التجاري ، لنا أيضا أمثلة منها أسعار الجلود والصّوف الذي بيعَ إلى تجار من بيزة أو الديون المتبقيّة عندهم وكانت موضوع الرسائل التي أوردها أماري (Michel Amari) [54] وكلها بيعت بالدينار الذهبي أيام الموحدين

---

48) Brunschvig (R.), éd., *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVè s.* : *Abdelbasit B.halil et Adorne* , *Publication* , de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des lettres d'Alger ,Paris,p. 28,85 .

49) الراشدي (عمر بن علي الجزائري) ، *ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب سيدي احمد بن عروس* ، طبعة اولى بمطبعة الدولة التونسية - تونس 1885-1886 ، ص 435 ، 459 .

50) Brunschvig (R) ,éd., *Deux récits de voyage ...* ,*op cit* ,p. 175 , 220 .

51) Masia de Ros,éd.,*La Corona de Aragon, op cit* , doc . n°139,140,141,142,143, respectivement pages : 426-428,428,429,429-431,431-432 .

52) Dufourcq (Ch.E),éd. ,<< Le Registre 1389 >> , *op cit* doc n°1;49, 50 ,51, 56, 96;98, 126, 127, 129, 132, 251, 253 ,respectivement pages 67,78,78-79,90,98,98-99,99,137,137,137.

53) انظر ص 195-204 ، 313-315 من البحث .

54) Amari (M),éd.,*I Diplomi Arabi, op cit* , doc XIV, XV, XVII, XVIII, XIX, XX, respectivement pages:48-49,60 -62, 63-64, 50-52, 55-56, 57-59.

أو الحفصيين . ونستنتج من هذه الرسائل أن تجار بيزة كانوا يدفعون بالدينار الذهبي .

وفيما يخصّ المعادلة بين الدينار الذهبي والعملات الآخرى ، فلنا بعض المعطيات :

فقد توصّل جيهال إلى ضبط معادلات بين الليرة الجنويّة والدينارالحفصي . ففي رمضان 657 / سبتمبر 1259 دُفعت في تونس 840 ليرة جنويّة مقابل 1200 دينار ذهبي أي أن الليرة عادلت 1.42 دينار .

وفي 28 أفريل 1268 أبدلت في بجاية 103 ليرات و 5 فلس مقابل 140 دينار ذهبيا أي أن الليرة ساوَت حوالي 1.35 دينار ذهبي .[55]

وتبيّن حسب الدراسة التي قام بها برنشفيك عن العملة الموحديّة والحفصيّة أن الدينار الحفصي يساوي ستة أخماس « الفلوران » الفلورنسي ، أي 1.20 سنة 1350/750 .واستمرّت نفس المعادلة سنة 1420/823 مع « الدوقا» (ducat) التي عوّضت « الفلوران » بنفس الوزن (3.54 غرام) [56] . ويبدو أن المعادلة كانت لصالح بعض العملات الآخرى ، ويفسّر ذلك بان عيار الذهب نفسه المصنوع منه الدينار الحفصي كان أقلّ قيمة . فالقلقشندي الذي كتب عن إفريقية في 813/10-1411- أخبرنا أن ذهب العملة الحفصيّة كان أقلّ ثمنا من ذهب مصر .[57]

ويتبيّن أيضا من المقارنة بين الدوقا والدينار أن ذهب العملة الفلورنسية أرفع عيارا ، إذ إذا احتسبنا6/5 من 3.54 غرام ، وهو وزن «الدوقا» ، تحصّلنا على وزن أقل من وزن الدينار مساوٍ لـ 4.24 غرام . وبالتالي فإن 4.24 غرام فقط من ذهب « الدوقا » يساوي 4.72 غرام من ذهب الدينار .

إن قوّة الدينار الحفصي تكمن في استقراره في الداخل والخارج لآنه لم ينحطّ وحافظ على مكانته . لذلك لم يُشَكّل تفوّق قيمة ذهب بعض العملات الآخرى خطرا عليه .

ب - مكـــانة العملـــة الفضيّـــة :

لم تكن للعملة الفضيّة مكانة في المعاملات الرسمية ، إذ لم تذكر في أيّة رسالة أو معاهدة ، بينما يبدو أنها كانت عملة تعامل بين التجار ، ولا سيما دينار الدراهم (besant) .

ودرس ج جيهال (G.Jehel) مثال جنوة ، ولاحظ أن التعامل بالعملة الفضيّـة متـداول وأن دينـــار الدراهـــم يحتـلّ أكبر نسبة في تحويل العملة مع

55) Jehel (G) , *Les Génois en Méditerranée* ... ,*op cit*, p .131.

56) Brunschvig (R) ,<< Esquisse d'histoire monétaire ...>>,*op cit* ., p.83.

57) القلقشندي (أبو العباس) ، *صبح الاعشى* ، ج ٧ ص 114 ؛ Brunschvig (R) *Ibid* .,p. 83

الجنويّين حيث أن 64 % من العقود مع المدن التجارية المغاربيّة التي تنصّ على الليرات الجنويّة لها ما يقابلها دنانير فضيّة .[58]

أما المعادلة في الصّرف بين الليرة والدينار الفضّي ، فهي من ناحية اختلفت بعض الشيء بين المدن المغاربية ، ومن ناحية أخرى يبدو أن العملة الفضيّة في بجاية كانت أقوى من غيرها في المغرب الاسلامي في مستوى التعامل الخارجي . وهذه أمثلة :[59]

المكان	التاريخ	القيمة بالليرة الجنويّة	القيمة بالدنانير الفضيّة	قيمة الليرة الجنويّة الواحدة بالدنانير الفضيّة
بجاية	1225/10/05 (30 رمضان 622 هـ)	25	34.5	1.38
	1240/09/15 / 25 / صفر / 638 هـ	102 ليرة و 3 فلس	460	4.5
سبتة	1229/626	200	871	4.35
تونس	1214/01/20 7 رمضان 610 هـ	40	200	5
	1254/03/23	300 ليرة و 10 فلس	1330	4.4
	سبتمبر 1259 (رمضان - شوّال 657 هـ)	840	4080	4.85
	1306/706	15	75	5

وقد تطوّرت المعادلة بين الليرة الجنويّة والعملة الفضيّة الحفصيّة لصالح الليـــرة خلال القرن 13/7 كما لاحظ ج جيهال [60] وهذا يفسّر أولا بانخفاض قيمة

(58 Jehel (G) , *Les Génois en Méditerranée Occidentale...,op cit* , p .131.

(59 *Ibid* , p . 131 .

60) أدرج جورج جيهال جدولا لمعدلات عشرية (10 سنوات) لتطوّر قيمة الليرة الجنوية بالدنانير الفضيّة اعتمادا على نسب تسديد الديون البحريّة :

العشريّة	القيمة	العشريّة	القيمة
1190-1180	4.3	1209-1200	3.97
1219-1210	4.39	1229-1220	4.05
1239-1230	4.6	1249-1240	4.49
1259-1250	4.59		

Ibid. , p. 130.

الدرهم القديم لتعرّضه للغشّ بالنحاس [61] كما بيّنا وظهور الدرهم الجديد . ونحن عرفنا أن دينار الدراهم كان يساوي 10 دراهم قديمة وبالتالي فانخفاض الدرهم القديم يعني انخفاضا لدينار الدراهم أي الدينار الفضّي أو دينار الصّرف ويفسّر ثانيا بالاتجاه نحو اعتماد الذهب للعملة الحفصيّة .ويفسّر ثالثا بآليّة التجارة الصّحراويّة . فالفضّة كانت تبادل في بلاد السودان بنفس قيمة الذهب وأوروبا كانت تنتج الفضّة ولكنها في حاجة للذهب . وكان الأوروبيون يأتون بالعملات الفضيّة لمبادلتها بالذهب . وكان من صالح التجار المغاربة أن تنخفض قيمة الفضّة ليدفعوا مقابلها أقلّ ذهبا .[62]

وبالتالي لم ينحط دينار الصّرف بالنسبة للدينار الذهبي فحسب بل أيضا بالنسبة للعملة الأجنبيّة . والليرة الجنويّة هي مثال لذلك .

ج - تداول العملة الحفصيّة داخل أوروبا :

تداولت العملات الحفصيّة والمغربيّة بصفة عامة في دائرة المعاملات التجاريّة داخل أوروبا و حتّى في دائرة المعاملات اليوميّة .

وقد عرض ج جيهال بعض الأمثلة عن عمليّات نقديّة تمّت بواسطة دنانير فضيّة خلال القرن 13/7 أو أمثلة عن عمليّات محليّة كاستخلاص ديون أو كراء أو أجور بالعملات المغربيّة .[63]

إن ما نستخلصه هو مكانة العملة الحفصيّة والمغربيّة عامة . فهي عملة ذات مفعول نقدي واسع النطاق لا يقتصر على التعامل الثنائي بين تجار أوروبا وبلدان المغرب .

2 - إشكاليّة الغـش والتقليـد :

يمكن أن تتعرض العملة الذهبيّة أو الفضيّة وحتّى النحاسيّة إلى الغش الذي كان يمثّل آفتها . والغشّ يعني الغشّ في المعدن أو ضربها ناقصة في الوزن .[64]

ولا يحدث الغشّ في دور الضرب التابعة للسلطة بل على مايبدو يقوم به «مدلسون» نعتهم ابن خلدون بـ « أهل الريب » [65] والبرزلي بـ : «الفسقة» [66] .

وليس للغشّ حدود يقف عندها ، مثال ذلك ضُربت حوالي 770/1368-1369 في

منطقة الجريد دراهم غلب عليها النحاس ، تفشّت في كامل إفريقيّة واصطلح على

61) راجع ص 274 من البحث .

62) انظر لاحقا ص 209-211 من البحث .

63) Jehel (G) , << Besants et dinars à Gênes au XIII ès >> *dans Etat et Colonisation au moyen âge et à la Renaissance*, sous direction de Michèl Balard, Publication du CNRS et du CNL , éd la Manufacture, Lyon 1989, p . 63-68 .

64) البرزلي ، *نوازل* ، ج II ، ورقة 38 ظهر .
Brunschvig (R) , << Esquisse d'histoire monétaire >> *op cit* , Appendice , p . 91.

65) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص658 .

66) البرزلي ، *نوازل* ، ورقة رقم 38 ظهر ؛
Brunschvig (R) , << *Esquisse d'histoire monétaire* >> *op cit* , p 91.

منطقة الجريد دراهم غلب عليها النحاس ، تفشّت في كامل إفريقيّة واصطلح على تسميتها بـ « جريديّة »[67] كما ضربت في أوروبا نقود مقلدة للعملات المغربيّة منها الحفصيّة ؛ حتى أن البابا كليمان IV تضايق من ذلك فارسل إلى قسّ « ماقلون » (Maguelonne) يامره بالا يخضع لإرادة ملك فرنسا وألا يضرب « عملة الكفار التي تحمل اسم محمد »[68]

كانت هذه العملة موجهة أساسا إلى بلدان المغرب ، ومنها قطع ضربت في جنوة ومرسيليا بنفس خصائص العملات المغربيّة ، وخاصة العملات الفضيّة .[69]

إن وراء التقليد أهدافا قد يكون أوّلها رغبة أوروبا في المحافظة على رصيدها من الذهب بالاحتفاظ بالعملة الجيّدة ودفع عملة فضيّة أو عملة دون مستوى الدينار الذهبي ؛ وثانيا التشكيك في قيمة العملات المغربية ومنها العملات الحفصيّة بالنسبة لعملاتهم ،[70] وتصبح المعادلة لصالحهم أكثر فاكثر للاستحواذ على كميّات أكبر من الذهب يقع تحويلها بعد ذلك إلى عملاتهم المحليّة .

فهل حمى الحفصيّون عملاتهم من هذه المحاولات في الداخل والخارج ؟

أ - السلطة حازمة لمقاومة الغش والتقليد :

كانت السلطة الحفصيّة حريصة على حماية العملة من الغش والتقليد . فمن مشاغل السلطان تعيين من يكلف بـ « ... النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش »[70'] . ورأى السلطان[71] سنة 1369-1368/770 أن حماية العملة تعني حماية « رؤوس أموال الناس من « التلف»[72] فقد فهم أن الغشّ يفقد قيمة رؤوس الاموال ، ويؤدي بالتالي إلى تأزم الوضع المالي . فهي مسالة حيويّة .

وتمثلت طرق حماية العملة :

أولا : في تسليط أقصى العقوبات ، فقد أخبرنا ابن خلدون أن السلطان المستنصر (1277/675-1249/647) ضرب عملة نحاسيّة سميت بالحندوس ، وهي العملة النحاسية التي عرفناها في العهد الحفصي ، ولكن « أفسدها الناس بالتدليس » فـ « اشتدّ السلطان في العقوبة عليها ، فقطع وقتل ، وصارت ريبة لمن تناولها ، وأعلن الناس النكير في شانها وتنادوا بالسلطان في قطعها ... »[73]

---

67) المصدر والمرجع نفسهما .

(68 Jehel (G) , << Besants et dinars>>, *op cit* , p 68 .

(69 *Ibid* . p 60-61 .

(70 *Ibid* , p 66 .

70') ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 235 .

71) في سنة 1369/770 ، إما ان يكون السلطان ابا اسحاق إبراهيم (1369/770-1350/751) أو ابا البقاء خالد (1370/772-1369/770) .

72) البرزلي ، *نوازل* ، ج 2 ، ورقة رقم 38 ظهر ؛
Brunschvig (R) ,<< Esquisse d'histoire monétaire... >>, *op cit*, p.91.

73) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 658 .

وثانيا : في قطعها من السّوق مثلما فعل السلطان للحندوس سنة 1262/660 [74] أو للدراهم « الجريدية » سنة 1368/770-1369 [75].

وثالثا : القيام بإصلاح بإحداث عملة أخرى أكثر صفاوة تعوّض العملة السابقة المغشوشة . وقد حدث ذلك للدرهم مرتين : في منتصف القرن 13/7 وقبيل منتصف القرن 15/9 . [76]

ورابعا : مراقبة العملات الواردة من الخارج . فقد نصّت معاهدة بتاريخ 670-1272/671 على أن الجنويين ملزمين بإدخال عملة جيّدة إلى تونس ، وأن السلطة الحفصيّة تحتفظ لنفسها في كلّ الحالات بحق مراقبة العملة الواردة بواسطة مصالح دواوين البحر في كامل البلاد . [77]

ب - الشرع يصنّف العملة المغشوشة :

يصنّف الشرع العملة المغشوشة إلى نوعين :

أوّلها : عملة مغشوشة يُسمح التعامل بها لأنها أصبحت بعد تداولها عملة مصطلحا عليها كما هي على حالها وبالتالي لم تعد مدلسة . ويعني ذلك أن قيمتها تبلورت وضبطت . وهدف المشرّع المالكي هو المحافظة على رؤوس أموال الناس .

ويتبيّن هذا الموقف في ماورد في نوازل البرزلي الذي نقل رأي المفتي أبي القاسم الغبريني : « وذكر له (أي للسلطان) مسالة العتبيّة وأن العامة إذ اصطلحت على سكة وإن كانت مغشوشية فلا تقطع لأن ذلك يؤدي إلى تلف رؤوس أموالهم »[78]

ويتفق مع هذا الموقف ما ورد في المعيار المعرب لأحمد الونشريسي إذ قال : « إن كان الجزء المشوب بالفضّة من النحاس معلوما قدره لايزاد فيه ، واشتهر ذلك عند الخاصة والعامة من أهل دار السكّة وغيرهم من المتعاملين ، جاز طبعها على ذلك ، وجاز التعامل بها ، لأنّا أمنّا من التدليس بها » [79]

ثانيها : عملة مغشوشة لايسمح التعامل بها لأن قيمتها لم تتوضّح ولم تستقر ولم يصطلح عليها بين جميع الناس ، وقصد بها إفساد العملة الإسلاميّة وهذا يعني أنها لم تخرج من دائرة التدليس . ويعتبره الشرع أمرا « منكرا لا يحلّ تركه » [80] ولذلك يرى أن الحسم بقطعها لازم .

---

74) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

75) البرزلي ، *نوازل* ، ج II ، ورقة 38 ظهر :

Brunschvig (R),<< Esquisse de l'histoire monétaire ...>>, *op cit*, p. 91 .

76) راجع ص 274-277 من البحث .

77) Jehel (G) , << Besants et Dinars >> , *op cit* , p 63

78) البرزلي ، *نوازل* ، ج II ، ورقة 38 ظهر :

Brunschvig (R) , << Esquisse d'histoire monétaire ...>> , *op cit* , p 91.

79) الونشريسي ، *المعيار*، ج VI ، ص 129 .

80) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

واعتمادا على هذا المبدإ فإن العملة المقلدة من قبل الأوروبيين ذات القيمة المنحطة هي أيضا « منكرة ». بينما اجتهد المشرّعون في مسألة المعادلة للصنف الأول مع السكة الخالصة :

أولا : يمنعون أية معادلة آلية لنفس العدد ؛ إذ ورد في المعيار المعرب ما ينفي المعادلة لنفس العدد بين عملة « طيبة » وأخرى « غير طيبة » ولو كانت أكثر وزنا : « إذا تسلف عشرة دراهم طيبة خفيفة وردّ عشرة دراهم طيبة وازنة فإنه لايجوز ذلك في القرض والبيع . هذه صورة من الصور ، وكذلك لو تسلّف عشرة دنانير طيبة خفيفة ويرد له عشرة دنانير وازنة غير طيبة في العين ... » [81]

وثانيا : ضبطوا القاعدة في إبدال العملة بغيرها . ويمكن استخلاصها من مسألة طرحت ببجاية ، وهي مسألة إبدال الدراهم « الجريدية » بالدراهم الجديدة الضرب في بجاية . فقد ورد أن « إبدال الجريدية بالجديدتين المذكورتين (في بجاية والمغرب) إن كانا بوزن جائزٌ على حكم المراطلة »[82] وإن كانا بلا وزن » أي بالعدد جاز في اليسير أي العدد القليل « دون دوران فضل » أي دون اعتبار ما هو أجود ، « مثل الدينار والثلاثة لا أكثر » [83] فالقاعدة العامة هي مراعاة « حكم المراطلة » أي قواعد المعادلة ، ويستوجب آنذاك الوزن ، إذ يفهم أن « المراطلة » مرتبطة بالوزن .

ولعلّ ذلك يفسّر بأن الوزن يمكن من احتساب نسبة المعدن الخالص في كل من العملتين .

ويهم استثناء القاعدة المقدارَ القليل فقط عند الابدال بلا وزن أي بالعدد ، عندئذ « المراطلة » غير إلزاميّة .

تختلف مواقف السلطة والشرع في ما يخصّ معالجة ظاهرة الغش . ولكنها تصبّ في مصبّ واحد وهو مراقبة العملة وضبط التعامل بها .

فللسلطة موقف وحيد إذ تقاوم كل عُملة خرجت عن المواصفات المضبوطة المعترف بها رسميّا . بينما تتنوّع مواقف الشرع لأنها تقبل المصطلح عليه والمعمم بين الناس من العملة المغشوشة . وتَعرضُ حلولا «للمراطلة في الصرف » والتعامل النقدي . وقد تنتهي السلطة بقبول الأمر الواقع المتمثل في تداول العملة المغشوشة المصطلح عليها . فيقنّنُ لها المشرعون المالكيّون . وتصبح عملة نافذة المفعول حسب قواعد مضبوطة في عمليّات المعادلة في الصّرف والبيع والشراء .

ودلّت مسألة إبدال العملة «الجريدية» بـ«الجديدة » في بجاية ، على أن بجاية كانت مثالا لهذه المواقف ومجالا لتداول العملة المغشوشة المشرعة . غير أننا لم نعثر في المصادر عن أي خبر يفيد أنها كانت منطلقا للغش مثل منطقة الجريد ولعلّ ذلك يفسّرُ بقوّة حضور السلطة بها المركزية أو المحليّة .

81) المصدر نفسه ، ج٧ ص 57 .

82) المصدر نفسه ، ج٧ ص 77-78 .

83) المصدر نفسه ، ج٧ ص 78 .

إن السلطة والشرع في بجاية بصفة خاصة والدولة الحفصيّة بصفة عامة قادران على إبطال مفعول الغش حتى لايؤدي إلى تقويض رؤوس الاموال والفوضى. ولذلك بقيت العملة الحفصية عملة فاعلة.

خضع التعامل النقدي لمقاييس مضبوطة من حيث العيار والتقسيمات والمعادلة. واعتُمِد الذهب قبل الفضّة، فحافظ الدينار الذهبي على استقراره طوال العهد الحفصي.

وتبيّن أن العملة كانت من المشاغل الكبرى للسلطة والشرع اللذين عملا على حمايتها من الغش والتقليد وضبطا مقاييس المعادلة والتعامل وربطا العلاقة بينها وبين رؤوس الاموال.

كل ذلك يجعلنا نتحدّث عن نظام نقدي قوامه عملة ذات خصائص ومواصفات مضبوطة، مراقبة ومقنّنة وبالتالي حافظت على قيمتها ونفاقها. وقد كانت بجاية دار ضرب لهذه العملة الحفصيّة ومنطقة سيولة لها.

جامعة تونس الأولى
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

بجاية في العهد الحفصي : دراسة اقتصادية واجتماعية

أطروحة الدكتوراه الموحدة

(الجزء الثاني)

اعداد
صالح بعيزيق
باشراف
الاستاذة منيرة شابوتو - رمادي

تونس 1995

الباب الثاني

القرصنة :

* بجاية « بلد غزاة »

_____ * _____

استراتيجية ومردود وسلبيات

وصف ابو العباس الغبريني بجاية بـ « بلد غزاة » اي غزاة البحر واكد على « كثرة سبى الآدميين» حسب عبارته (1). وخصها ابن خلدون بالحديث دون غيرها من مدن الدولة الحفصية عندما تعرض لموضوع غزو البحر وميزها بالتفوق قائلا عن غزاتها: « يصادمون ما يلقون من اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ...» (2) .ويصور تدفق الأسرى قائلا :« امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال ...» ولاحظ ليون الافريقي اهمية القرصنة في بجاية حتى جعل من الاحتلال الاسباني للمدينة نتيجة مباشرة لها (3) .

---

1) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76 .

2) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 902 - 905.

3) L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ... ,op.cit.* ,t. II,p. 360.

كما تعددت الرسائل الاوروبية المطالبة بتحرير اسرى القرصنة البجائية والمعاهدات الرامية لتامين التجار في البحر ، نشر بعضها « دي كابماني » (De Capmany) (4) و « ألاركون » (Alarcon) (5) و « ماسيا دي روس » (Masia de Ros) (6) وديفورك (Dufourcq) (7).

قد نتساءل عما اذا كان البجائيون يمارسون لصوصية البحر ام القرصنة .

ان الغبريني وابن خلدون تحدثا عن «غزو البحر» بينما لم يستعمل ليون الافريقي اي مصطلح ولكن الثلاثة لم يشيروا الى اعمال دالة على ممارسة لصوصية البحر من قبل البجائيين ، وقد تكون وجدت . ولكن النشاط المشار اليه في هذه المصادر كان علنيا معترفا به ينطلق من الميناء ويعود اليه بالأسرى والغنائم (8) . كما ان الرسائل والمعاهدات تبين ان السلطة تتبنى القراصنة بالالتزام عوضهم بعدم الاعتداء .

تساؤلات مختلفة حول هذه المسالة نحاول التطرق اليها : حول تطورها واسس قوتها في بجاية وتنظيمها وطبيعة نشاطها سياسيا واقتصاديا وحول ردود الفعل الاوروبية وقرصنتها المضادة والمحاولات السلمية .

I - بجاية أهم قاعدة « لغزاة البحر » طوال العهد الحفصي :

رسم لنا ابن خلدون التطور العام للقوة البحرية للمسلمين وبين ان المشرق ضعف في البحر بعد سقوط العبيديين بينما بقي المغرب ثابتا بفضل اساطيل المرابطين والموحدين من بعدهم ثم اصبح التفوق للافرنج بعد

(4 De Capmany (A.) ,*Memorias ..., op.cit.*, doc.120 ,p. 179 .

(5 Alarcon (M.A.) *Los documentos Arabes ...,op.cit.* doc. 23 p. 47;doc. 119 p. 257-260, doc. 130, p. 288, doc. 131 ,p. 290-291.

(6 Masia de Ros (A) ,*la Corona de Aragon ..., op.cit.* ,Doc.124,p.404-406, doc.134, p.422,doc 135, p.422-423,doc.136, p. 423-424,doc. 137 , p. 424-425, doc138 , p. 425-426 .

(7 Dufourcq (ch.E) " Le registre 1389 ..."*op.cit* ., doc. 173 , p. 112 .

8) الغبريني ، *عنوان الدراية* ص 76 - 77 ؛ ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 902 - 905 ؛
L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ...op.cit* ., t.II, p. 360 .

انحلال الموحدين ولم يزاحمهم اياما الا المرينيون و بعض المدن الساحلية ثم تقهقر الافرنج وتركوا المجال لاهل إفريقية فتفوقوا على حسابهم خلال النصف الثاني للقرن 14/8 (9) .

قد ينطبق هذا الرسم لابن خلدون على تطور القرصنة ببجاية .

1 - بجاية احدى قوى القرصنة النشيطة في المتوسط من ايام الموحدين الى نهاية الاحتلال المريني :

أ - قبل الحفصيين

تعود القرصنة في بجاية الى عهد الناصر بن علناس (1062/454 - 1091/484) فقد حرر هذا الامير جميع الأسرى المسيحيين في 468 - 1076/469 اعترافا بالجميل للبابا غريغوار VII (Grégoire VII) الذي كان قد لبى له رغبته بتعيين القديس « سرفنديس » (Servendus) أسقفا في بجاية (10) . وكانت الظروف العامة ملائمة حسب التطور الذي لاحظه ابن خلدون فقد كان الناصر معاصرا للفاطميين بمصر (973/362-1171/566) والمرابطين بالمغرب (1056/448 - 1147/541) وكانت من علامات سياسة الناصر وابنه المنصور بعده (1088/481-1105/498) الرغبة في مضاهاة الدول الاخرى . ولكن لا نعتقد ان القرصنة في بجاية تالقت في العهد الحمادي بل تالقت في الفترة الموالية اي الموحدية بشهادة ابي العباس الغبريني ، فالموحدون اختاروا تقوية حضورهم في البحر امام المسيحيين . ويظهر انهم ركزوا في المغرب الاوسط على مدينة بجاية . فقد قال الغبريني ضمن ترجمته لابي الطاهر عمارة الذي عاش في القرن 12/6 : « وذلك ان بجاية كانت بلدة غزاة ، وكان غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ، ويسوقون السبي الكثير منها ، وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها ، وهناك يخمس ويقع الفصل فيه ، ولم يزل الحال على ذلك ،

---

9) ابن خلدو ن ، *المقدمة* ، ص 254 - 255 ؛ *العبر* ، ج VI، ص 902 .

10) Idris (H.R.) , *La Berberie Orientale ..., op.cit* ., t.I. p. 759 .

وبلغ الحال من كثرة سبى الآدميين ان يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش ...» (11)

وكان يصف الوضع عند هجوم علي ويحيى بن غانية على بجاية في 6 شعبان 580 / 12 نوفمبر 1184 (12) لانـه اراد القول بان النـاس توهموا نزول القراصنة البجائيين اذ أورد ما يلي : « فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لاجل السبي ... والناس ما عندهم من شانهم خبـر ...» (13) .

ب - القرصنة تتواصل نشيطة في بجاية مع الحفصيين :

ونلاحظ ان الغبريني لم يغفل عن الاشارة الى ان نشاط غزاة البحر في وقته اي النصف الثاني للقرن 13/7 بقي حثيثا اذ استدرك قائلا :« ولم يزل الحال على ذلك » .

ولنـــا منذ السنوات الاولى للقرن الموالي اي القرن 14/8 معاهدة ورسائل تعبر عن قلق أرغون من اعتداءات قراصنة بجاية ، تعود الى فترتي الانفصـــــال الاول (1285/684 - 1309/709) والانفصـــــال الثاني (1312/712 - 1318/718) (14) .

فالمعاهدة هي معاهدة 8 ماي 1309 (27 ذو القعدة 708) (15) بين بجاية وأرغون تنص على تبادل الأسرى وضمان حرية تنقل التجار الى بجاية وامنهم على سواحلها وخارجها .

وتذكر الرسائل التالية اسرى قتلانيين بايدي القراصنة البجائيين :

---

11) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76.

12) راجع ص65-66 من البحث .

13) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 77.

14) راجع ص 71-74 من البحث .

15) De capmany(A.),éd.,*AntiguosTratados ..., op.cit.*,p.71-77 ; De Mas Latrie,éd., *Traités..., op.cit.*, doc. XI (Royaume d'Aragon) , p. 301 et sq. ; Masia de Ros, *La Corona de Aragon ..., op.cit.* , doc 124,p. 404-406 .

18 جمادى II 714 / 29 سبتمبر 1314 من سلطان بجاية ابي يحيى ابي بكر الى خايم II الملك أرغون (16) و 27 رمضان 714 / 4 جانفي 1315 من خايم II الى ابي بكر (17) و 7 صفر 716 / 1 ماي 1316 من خايم II الى ابي بكر ايضا (18) و 9 صفر 716 / 3 ماي 1316 من خايم II إلى نائب القنصل ببجاية (19) و 3 ربيع I 716 / 26 ماي 1316 من خايم II الى ابي بكر (20).
ولنا رسالة حاملة لتاريخ 23 مارس فقط دون ذكر السنة ارسلها خايم II الى نائبه ببلنسية تتعرض الى اعتداء قراصنة بجاية على سفينة بلنسية (21).

وتتواصل الرسائل التي تشير الى القرصنة البجائية في عهد ابي يحيى ابي بكر حتى بعدما انتقل الى تونس واصبح سلطانا لكامل الدولة الحفصية (718 / 1318 - 747 / 1346) منها :

- رسالة بتاريخ 29 ذي الحجة 724 / 17 ديسمبر 1324 من امير غرناطة عبد الله اسماعيل (1325/725-1314/714) الى خايم II ، ينفي فيها انتماء القرصان « ابن جندي » الذي «اخذ ناسا من بلاد خايم II وباعهم ببجاية» الى رعاياه (22) . فقد يكون بجائيا .
- رسالة بتاريخ 16 رجب 726 / 18 جوان 1326 من المستشارين البلديين ببرشلونة الى قناصلتهم بمملكة تونس يطلبون منهم الاتصال بمحمد بن سيد الناس الحاجب ببجاية لتحرير اسير هام من اسرى القرصنة (23) .

ان هذه الرسائل دعمها مؤشر تاريخي هام ، وهو اختيار رئيس بحرها زيد بن فرحون سنة 740 / 1340 لقيادة الاسطول الحربي الذي ارسله السلطان ابو بكر الى المرينيين لينضم الى اسطولهم ضد الاسبان (24) .

---

16) Alarcon (M.A.),éd. , *Los documentos arabes ..., op.cit.* , doc. 130,p. 288.

17) Masia de Ros (A.),éd. , *La Corona de Aragon ..., op.cit.* doc . 134,p. 420-421.

18) *Ibid* . , doc. 135, p. 422-423.

19) *Ibid* . , doc . 136,p. 423-424.

20) *Ibid.* , doc 137 , p. 424-425 .

21) Masia de Ros (A.),éd. *La corona de Aragon ..., op.cit.* ,doc. 138 , p. 425-426.

22) Alarcon (M.A),éd. , *Los documentos arabes ... , op.cit.* ,doc23, p. 47 .

23) De Capmany (A.),éd. , *Memorias ...,op.cit* ., doc. 120,p. 179.

24) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VII، ص 543-544 : برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، مرجع سابق ، ج1، ص 193-194 .

وقد برهن هذا الاختيار على تفوق بجاية في تقنيات المواجهة البحرية المسلحة ، وبالتالي مؤشر على قدرتها على خوض مخاطر القرصنة لان رئيس البحر هو المنظم ايضا لعملياتها .

ج - القرصنة في بجاية ايام المرينيين :

استولى المرينيون على بجاية في السنة التي تلت وفاة ابي بكر (1346/747) . وتواصل الحكم المريني بها من 1347/748 الى 1360/761 (25) . وقد رأى ابن خلدون ان التفوق في البحر لم يعد للمسلمين بعد الموحدين بل « للفرنج » ، ولكنه استثنى المرينيين بصفة خاصة قائلا : « زاحمتهم (اي زاحمت الفرنج) اساطيل المغرب لعهد بني مرين » (26)
واستثنى معهم بعض البلاد الساحلية بقوله : « وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من اهل البلاد الساحلية » (27) . غير ان هذا الاستثناء لم يقصد به التفوق ، بل « المزاحمة » لا غير اي الحضور معهم في البحر .

ان تميز المرينيين عن غيرهم من المسلمين وتقاليد بجاية في القرصنة واهمية ميناثها هي عوامل تجعلنا نعتقد في تواصل نشاطها على نفس النسق السابق .

2 - فترة الاوج والتفوق في البحر: ايام السلطانين ابي العباس وابي فارس (1370/772 - 1434/837) :

1 - الدلائل :

يفيدنا ابن خلدون بان المنعرج كان في بداية الثلث الاخير للقرن 14/8. فعند حديثه عن « منازلة نصارى الفرنج للمهدية في 5 شعبان 792 / 19 جويلية 1390 ('27) رجع بنا الى ثلاثين سنة سبقتها ليرجع اسبابها الى القوة التي اصبحت عليها القرصنة بافريقية وخصوصا في

---

25) راجع ص 80-82 من البحث .

26) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 902 .

27) ابن خلدون ، *المقدمة* ، ص 256 .

'27) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI ، ص 902-905 . انظر ايضا الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص112-113 ؛ ابن الشماع ، *الادلة البينة* ، ص 111 .

بجاية ، اذ جاءت كرد فعل من قبل « الفرنج ». وقد ابرز ابن خلدون تالق القرصنة البجائية في افريقية وتفوقها على القرصنة الاوروبية في هذه الفقرة التي صارت معروفة عند الباحثين : « ... ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركزهم بإفرنسة ... واصبحوا دولا متعددة ، فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم ، وشرع في ذلك اهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر ، ويصنعون الاسطول ويتخيرون له الابطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ، ويصادمون ما يلقون من اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه او يكاد ، فشق ذلك على امم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثار به ...» (28) ثم يضيف انهم اجتمعوا وقرروا اخذ الثار (29) .

بلغت القرصنة في بجاية اذن قوة فاقت العهود السابقة وفاقت غيرها من المغاربة والاوروبيين خلال الثلث الاخير للقرن 14/8 حسب معلومات ابن خلدون . وهي اجمالا فترة السلطان ابي العباس احمد الذي حكم بجاية مستقلا بها من 1366/767 الى 1370/772 (30) ثم سلطانا لكامل الدولة الحفصية من 1370/772 الى 1394/796 . ولنا رسالة تضاف الى قول ابن خلدون عن هذه الفترة بعثها ملك أرغون « بيدرو IV » (Pedro IV (1387/789-1336/736) بتاريخ 20 جوان 1373 (27 ذي الحجة 774) الى السلطان ابي العباس يطلب منه أن يترك مبعوثين له ومن يرافقهما يشترون كل من ارادوا تحريره من الأسرى المسيحيين في الولايات الحفصية (30).

لكن هل تواصلت قوة القرصنة البجائية على هذا الشكل والمستوى بعد الغارة المسيحية على المهدية سنة 1390/792 ؟

لم تحقق هذه الغارة هدفها التاديبي بل حققت ما لم تكن تصبو اليه ، لانها انتهت بانهزام الاوروبيين فزادت ثقة المغاربة في قوتهم وشحذت عزائم « غزاة البحر » للتمادي في عمليات القرصنة ، خاصة بجاية التي لم تستهدفها الغارة مباشرة رغم انها في الواقع كانت احتجاجا قبل كل شيء ضد غزاتها .

---

28) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 902-905

29) المصدر نفسه ، جVI، ص 905 .

30) Dufourcq (Ch.E.) ," Le registre 1389 ..." , *op.cit.* ,doc. 173, p.112.

سيبرهـــن قراصنـــة بجاية عن قوتهم في عهد ابـــي فارس ايضـــا (1394/796 - 1434/837) :

لقد قام قراصنة افريقية وبجاية في اواسط ذي الحجة799 / نهاية اوت -بداية سبتمبر1397 بغارة قوية مباغتة وسريعة وهادفة على قريـــة « توريبلنكا » (Toriblanca) الواقعة في مملكة بلنسيـــة وأسروا نحو المائة رجل وامرأة من سكان القرية حملوهم معهم ثم دخلوا الكنيسة واخذوا منها حقة القربان مع جميع ادواتها (31) .ويذهب برنشفيك الى القول بان المحتمل ان اهالي بجاية بالتحديد هم الذين قاموا بهذه الغارة (32) .

وفي اواخر 814 / ربيع 1412 قام « غزاة » بجاية بهجوم على سواحل ليغوريا (Liguria) بشمال ايطاليا قرب مدينة جنوة اعده واليها نفسه (33).

اما في عهد ابي عمرو عثمان فيبدو ان القرصنة قد هدأت دون ان يكون مرد ذلك ضعف القراصنة ولكنه يفسربتغيرالمواقف السياسية الخارجية .

ب - كيف نفسر هذا التفـــــوق ؟

اختار السلطانان ابو العباس احمد وابنه ابو فارس اعتمادا على نجاحهما في الداخل تثبيت مركزيهما في الخارج بالبرهنة عن غيرتهما عن المسلمين والاسلام فذاع صيتهما في العالم ، خاصة ابو فارس ('33) والبرهنة عن قوتهما في الحوض الغربي للمتوسط امام الاوروبيين (34) وكانت القرصنة من اهم الوسائل .

وقد كان لبجاية دور الزعامة في هذا الاتجاه بفضل تقاليدها السابقة في القرصنة واسطولها الهام المخصص لهذا الغرض الذي شهد ابن خلدون باهميته وتجدده لانه يصنع في بجاية ذاتها ، وذلك حين قال :« ...يصنعون الاسطول ويتخيرون له الابطال ...» (35) ولعل المرسى القديم كان مهيئا لهذا الغرض ، وقد يدلنا على ذلك ان الاسطول الحربي الاسباني ارسى فيه سنة 1509/915 حين جاء ليحتل بجاية .

واصبحت بجاية منذ بداية المنعرج والدفع الجديد للقرصنة تحت الحكم الفعلي لاول « غزاة البحر » فيها ، رئيس البحر محمد بن ابي مهدي الذي طالت فترته اذ امتدت على ثلث قرن باكمله من 1370/772 الى 1403/805 ، اي كامل مدة السلطان ابي العباس احمد وتسع سنوات في عهد ابـــي فارس

---

31) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، مرجع سابق ،ج ا، ص 250-251 .

32) المرجع نفسه ، ج ا ، ص 251 .

33) المرجع نفسه ، ج ا، ص 249 .

'33) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، جا، ص 247 ، 248 .

34) المرجع نفسه ؛ ج ا، ؛ ص 227 ، 248 - 254 .

35) ابن خلدون ، *العبـر* ، ج VI، ، ص 902 .

فكانت مدة كافية ليؤثر في مجرى حياة المدينة حتى اننا نتسائل هل يمكن الحديث عن عهد محمد بن ابي مهدي في بجاية ؟

لقد جمع بيده النفوذ السياسي والاداري والمالي والعسكري والاشراف على جميع شؤون البحر منذ ان عينه السلطان رئيسا للبحر ببجاية في 772 / 1370 - 1371 واوصى ابنه واليها ابا عبد الله محمد بالرجوع اليه في امور الولاية وغيرها (36) ، وخاصة منذ ان عين سنة 1385/785 كفيلا للوالي الصغير القاصر ابي العباس احمد حفيد السلطان وابن الوالي السابق (37) .

وكان يتمتع بنفوذ محلي فهو ابن بجاية و« زعيم البلد » حسب عبارة ابن خلدون (38) . وهذا عامل هام من العوامل التي تجعله قادرا على ان يكتل ابناءها ممن تمرسوا بالبحر حول مشاريعه البحرية .

ان كل هذه المهام ونجاحه في القيام بها مدة 33 سنة ، تدلنا على امكانياته الكبرى في تنظيم الحكم وتنظيم مسائل البحر .

لم يكن هناك اذن ما يعوق ابن ابي مهدي في بجاية عن اتخاذ القرار والمبادرة لخوض مغامرات القرصنة('38) لا سيما انها كانت تتماشى وسياسة السلطانين لذلك نعتقد ان دور رئيس البحر محمد بن ابي مهدي كان فعالا وحاسما . فهل يمكن القول بان بجاية في مدته كانت مدينة بحرية يحكمها بحار ؟ .

3 - من الهدوء النسبي الى قرصنة عنيفة وفوضوية :

اما ابو عمرو عثمان فقد اختلف عن سابقيه في سياسته الخارجية اذ فضل تامين حركة التجار الاجانب نحو بلاده (39) وافضت هذه السياسة الى ابرام معاهدات مع عديد الاطراف (40) :مع البندقية (841 - 1438/842 و 860-1456/861) ، ارغون (843-1440/844) ، جنوة (843-1440/844 و 869-1465/870) فلورانس (848-1445/849 و 864-1460/865) ، الشيء الذي سمح بتهدئة القرصنة الحفصية نسبيا وممارستها في الوقت المناسب ، لكنها لا يمكن

---

36) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 895 ؛ ابن القنفذ ، *الفارسية* ، ص 186 .

37) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI، ص 896-897 .

38) المصدر نفسه ، ج VI، ص 895 .

'38) اشار المؤرخان « باراتيي » (Baratier) و « راينو » (F. Reynaud) في فقرة من كتاب *تاريخ تجارة مرسيلية* الى ان محمد ابن ابي مهدي هو الذي كان يدبر القرصنة البجائية ضد سواحل مرسيليا .
Baratier (E.) ,Reynaud (F.) ,"*Histoire du commerce de Marseille* ,t.2 (1291 à 1480) Paris 1951,p.104.

39) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، مرجع سابق ، ج I، ص 276-286 ، 292-297 ، 301-304

40) المرجع نفسه والصفحات نفسها .

ان تتراجع تماما نظرا لمردودها المالي الهام سواء للخواص او الدولة .

لذلك فالقرصنة البجائية لم تخمد في عهد عثمان او بعده حتى وان هدأت نسبيا . ويبدو انها عادت بعنف ولربما اصبحت فوضوية بعد ابي عمرو عثمان ثم ايام انفصالها الاخير قبيل الاحتلال الاسباني (41) . فقد لاحظ ليون الافريقي في بداية القرن 16/10 أن البجائيين كانوا اثرياء اذ كانوا « يسلحون العديد من المراكب التي كانوا يوجهونها للسطو على السواحل الاسبانية (42) ورأى ان احتلال الاسبان للمدينة جاء في نظره كردّ فعل ضد غاراتهم (43) .

بدأت القرصنة في بجاية او ما سمته المصادرالعربية« بالغزو البحري» منذ انطلاقة المدينة في العهد الحمادي وتركزت ايام الموحدين لتتواصل نشيطة طوال العهد الحفصي لمدة تقارب ثلاثة قرون تميزت فيها بجاية عن غيرها من المدن الساحلية للسلطنة اذ برهنت على انها كانت القاعدة الحفصية الاولى « لغزاة البحر » .

ولقد عرف هذا النشاط فترة متميزة يمكن اعتبارها فترة الاوج والتفوق في البحر تحدث عنها ابن خلدون في وقته ، وهي فترة السلطانين ابي العباس احمد وابي فارس عبد العزيز من 1370/772 الى 1434/837) وتركز هذا التفوق اساسا في فترة محمد بن ابي مهدي رئيس البحر في بجاية من 1370/772 الى 1403/805 .

ان فترة الاوج هذه هي فترة تفوق في البحر ، لم تنازعه فيه مدن وقوى الحوض الغربي للمتوسط ، خلافا للفترات الاخرى التي مثلت فيها بجاية احدى قوى القرصنة النشيطة فقط . فهي فترة قوة متميزة لنشاط حثيث لم يتراجع في بجاية فكان من خصائص تاريخها .

وان الهدوء النسبي للقرصنة البجائية في عهد السلطان ابي عمرو عثمان لم يكن يعني خمودها بل تعديلها مؤقتا . وقد عادت بعده عنيفة ولكنها فوضوية . فكانت بهذا الشكل افرازة لفترة الفوضى الاخيرة في بجاية خاصة والدولة الحفصية عامة .

---

41) راجع ص 88-90 من البحث .

42) L'Africain (L.) ,*Description de l'Afrique ...op.cit* , p 360.

43) Ibid.

II - اشكالية دور القرصنة وتوظيفها :

نتساءل عن دور القرصنة وتوظيفها ومردودها وتاثيرها .

تمثل اسلوب القرصنة في ممارسة قوة السلاح في البحر وعلى السواحل للاستيلاء على الغنائم البشرية والمادية والعبث برموز الهوية والسيادة للطرف المقابل . ويلقى القراصنة المساندة الرسمية في اطار احترام الاتفاقيات وأوامر السلطة .

فهل كان توظيف هذا الاسلوب سياسي - ديني - عسكري ام اقتصادي ؟ وما هو مردودها وانعكاساتها ؟ .

1 - هل تتفوق « شرعية الجهاد » ام المصالح ؟

أ- توظيف ديني- استراتيجي : القرصنة « جهاد »:

لم ينته الصراع الاسلامي المسيحي بانتهاء آخر حرب من الحروب الصليبية في تونس سنة 1270/669 بل تواصلت المناوشات والغارات التي تزعمتها خاصة مملكة ارغون او توابعها والتي كانت تركز على فترات ضعف الدولة الحفصية ونسوق مثال احتلال جربة من طرف « روجيردي لوريا » (Roger de Lauria) في خريف 1284/683 انطلاقا من صقلية التي كانت تابعة لارغون . نهب المغيرون الجزيرة وقتلوا الرجال والنساء وقطعوا خط الاتصال مع اليابسة والقوا القبض على آلاف الأسرى الذين حملوهم الى صقلية وحولوهم الى رقيق . واجبر « روجير » السكان على دفع أداء باهض (44) .

وتواصلت محاولات الهيمنة ، فنحن نذكر الاتاوة التي كانت ارغون تريد فرضها باستمرار على تونس وبجاية (45) .وتكررت المواجهة العسكرية بين المرينيين والاسبان وانتهت بهزيمة المرينيين في معركة طريف في اواخر 1340/740 (46) .

---

44) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج ا، ص 124-125 .

45) انظر ص 313-319 من البحث .

46) احتل الاسبان جبل طارق ، فاستنجد سلطان غرناطة بالمرينيين الذن استرجعوه سنة 1333/733 ولكن ابا الحسن المريني انهزم اخيرا في طريف سنة 1340/740 بعد انتصار بحري باهر في جبل طارق ; *Encyclopédie de l'Islam* , Anc éd . t.III, p. 528 ؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، مرجع سابق ، ج ا، ص 193-194.

وبلغ صدى الزحف التركي الى اوروبا لانه مثل منذ بدايته مرحلة صراع جديدة وطويلة بين المسلمين والمسيحيين . فالاتراك حققوا منذ نهاية القرن 13/7 انتصاراتهم على حساب بيزنطة . وتوسعوا خلال القرن 14/8 في الاناضول وبلاد البلقان ناهيك انهم جعلوا عاصمتهم « أدرنه » (في البلقان) من سنة 1362/763 الى 1453/857 . وتمكنوا من اخضاع بلغاريا سنة 1393/796.

وتجمع المسيحيون في تكتل كبير بمساندة البابا « بونيفاس التاسع » في حملة عسكرية لايقاف التقدم العثماني سنة 1396/798 . وكان الانتصار للعثمانيين في موقعة « نيقوبوليس» الشيء الذي ذكى الشعور العدائي عند المسيحيين. وكانت الضربة الكبرى سنة 1453/857 بسقوط القسطنطينية في ايدي العثمانيين ، وفتحت منذ هذا التاريخ مرحلة صراع كبرى شاملة للبحر المتوسط بين القوتين العظميين آنذاك : العثمانيين والاسبان .

لقد تطورت القرصنة المغربية في هذا الاطار العام الذي وضع المسيحي في مواجهة مع المسلم .هذه المواجهة التي كانت لا تغيب الا بالتقاء المصالح المشتركة .

بينت لنا الغارة التي قام بها قراصنة بجاية وإفريقية في اواسط ذي الحجة 799 / اوت -سبتمبر 1397 على « توريبلنكا » (Toriblanca) في مملكة بلنسية ان اهدافها تجاوزت المنافع المادية لتكون عملية مضادة للمسيحية ورد فعل للحملات الصليبية ، وذلك لانهم دخلوا الكنيسة ونهبوها وعبثوا بحقة القربان وادواتها .

لذلك فان القرصنة البجائية قامت بعمليات مشابهة اريد بها ايضا مواجهة ضد « الكفرة » .هذه الكلمة استعملها ابن خلدون حين قال عن البجائيين: « يصادمون ما يلقون من اساطيل الكفرة » (46) .واستعمالها لم يكن مجانيا بل عبر عن موقف وعن نظرة الى الطرف الآخر ، وهذا الآخر هو المسيحي. بينما في المقابل اختار للبجائيين عبارة « الابطال الرجال » حين قال: « ويتخيرون له (اي لاسطولهم) الابطال الرجال » (47) .فالقرصنة بغاياتها هذه كانت شكلا من اشكال « الجهاد » في البحر .

---

46) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 903 .

47) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

هل يعني هذا ان الجهاد بشحنته الدينية هو المحرك الرئيسي والمتفوق الذي يضع القرصنة في قناة وحيدة : الصراع مع المسيحية ولو كان على حساب المصالح العديدة ؟ ام ان الامر مختلف عن ذلك ؟ .

ب - مرام استراتيجية سياسية - عسكرية وراء توظيف القرصنة للجهاد :

لقد فهم الحفصيون ان دولتهم كانت دائما مستهدفة من قبل الاوروبيين ، لا سيما من قبل ارغون . وبحثوا عن وسائل تفرض وجودهم في الحوض الغربي للمتوسط وتحد من طموحات هؤلاء الاوروبيين .

ان اسطول القرصنة كان يقوم بدور المعوض لما كان يجب ان يقوم به الاسطول العسكري بالنسبة لعدد من الغارات على سواحل اوروبا او مراقبة الحركة في البحر او حتى حماية الموانئ ، دون ان يكلف الدولة نفقات مالية لان القرصنة نشاط بيد الخواص ، والقراصنة ليسوا جنودا نظاميين .

كما ان ما كان يقوم به القراصنة من عمليات متواترة وموزعة لم يكن الاسطول العسكري قادرا على القيام به . ولم يكن من المرغوب ان يبادر بالمواجهة لانه لم يكن يضاهي الاساطيل الاوروبية لا سيما الارغوني . وكان من المفضل ان يبقى دوره دفاعيا ومما يشهد بنقصه هو الطلب المتكرر للسفن العسكرية الارغونية لاستعمالها في المعارك ضد بني عبد الواد (48) .

لقد نظر الحفصيون الى القرصنة اذن كعامل قوة لا بد من تبنيه، خاصة ان القرصنة الاوروبية كانت بدورها نشيطة . فالمواجهة بالمثل كانت ضرورية .

ولا يعني انهم عولوا على القرصنة كليا . ففي عهد ابي العباس احمد (1370/772-1394/796) السلطان الذي اراد ان يعطي للدولة دفعا جديدا استطاع الاسطول الحفصي الخروج من سواحله لضرب المدينة الاوروبية سرقوسة خلال صائفة 1393/795 (49) . وفي عهد ابي فارس (1394/796-1434/837) الذي واصل سياسة ابيه ولربما باكثر قوة ، نزل هذا الاسطول بمالطة سنة 1429/832 في حملة انتقامية موجهة ضد ألفونصو الخامس ملك أرغون الذي كان قد شن هجوما على قرقنة في 24 شوال 827 / 19 سبتمبر 1424 . ('49)

ان توظيف السلطة للقرصنة استراتيجي لانها كانت عنصرا من عناصر اثبات الوجود الاسلامي وعامل قوة للدفاع والهجوم .وان التعامل مع القرصنة سواء من الجانب الحفصي او الاوروبي يمر ايضا بالنظر في نوعية ردود الفعل وربط القرصنة بالعلاقات الثنائية .

---

48) راجع ص76 من البحث ، الهامش رقم 68 .

49) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، مرجع سابق ، ج ا، ص 238 .

'49) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 126-127؛ برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج١، ص 260-261 .

ج - المصالح الاقتصادية والثنائية تتجاوز الصراع فتعدل القرصنة :

*** الحملات العسكرية « الثارية » للاوروبيين تتحاشى بجاية وتونس ، موطني مصالحهم التجارية :**

ضربت القرصنة البجائية والحفصية عامة مصالح الاوروبيين نظرا للخسائر المادية والبشرية وفقدان الامن في البحر بالنسبة لتجارهم.

فجاءت ردود فعل في شكل حملات «ثارية » مختلفة في اهدافها عن الحملات التوسعية كاحتلال جربة سنة 1284/683 من قبل روجير . ووقعت هذه الحملات الثارية خاصة في فترة اوج القرصنة البجائية في الثلث الاخير للقرن 14/8 والثلث الاول للقرن 15/9 .

حدثنا ابن خلدون عن الحملة ضد المهدية في منتصف سنة 1390/792 وبين انها كانت « ثارية » ضد غزاة البحر بافريقية وخص منهم اهل بجاية وقد قال : «شق ذلك على امم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا على الثار به وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافرنجة فصم عن سماعها ... » (50) ثم اخبرنا ان اساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم او من جاورهم من امم النصرانية قد اجتمعت واقلعت من جنوة وحطت بمرسى المهدية . وانتهى الهجوم بانهزامهم .

وجاءت حملة ثارية ثانية في 13 ذي الحجة 800 / 27 اوت 1398 (51) كرد فعل على غارة توريبلانكا (Toriblanca) التي اكتست صبغة صليبية لان البابا « بونوا الثاني عشر » (Benoit XII) هو الذي تبناها (52). وتوريبلنكا من مملكة بلنسية هي من توابع ملك ارغون مارتان الاكبر (Martin el Humano) (1396/798 - 1410/813) .ولم يتحمس مارتان كثيرا لهذه الحملة التي كانت بطلب بعض المدن ، خاصة بلنسية ، ولكنه ايد مساعيها لدى البابا .

وتجمع اسطول الصليبيين من سبعين سفينة متجها نحو افريقية ولكنه ضرب مدينة تدلس التابعة لبني عبد الواد رغم ان المسؤولين عن غارة توريبلنكا هم رعايا حفصيون وبجائيون بالدرجة الاولى .

---

50) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 904-905

51) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، مرجع سابق ، ج1ص 250-252.

52) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 251 .

وتم الهجوم على تدلس ونهبها واشعال النيران فيها وهلاك ثلاثمائة شخص واقتناص مائة وخمسين من سكانها حملوا كاسرى . ثم انسحب المغيرون من الغد . (53)

فلماذا لم توجه الضربة نحو بجاية رغم انها كانت المسؤولة الاولى ؟ ورغم قربها من تدلس ؟ .

ان حملة المهدية ذاتها السابقة بثمانية سنوات تحاشت بجاية رغم ان ابن خلدون اكد على دورها الرئيسي في ازعاج السواحل الاوروبية ، كما اكد على ان الاوروبيين هجموا على المهدية ليثاروا لانفسهم من عمليات القرصنة البجائية بالدرجة الاولى .

وهذه المرة ايضا قامت بالعملية بجاية ووجهت الضربة ضد غيرها اي تدلس بل وقع تحاشي الحفصيين تماما .

فهل خافت الاطراف المشاركة من نسف مصالحها التجارية او على الاقل من تعطيلها لمدة قد تطول ؟

ان بجاية مثلت قبل كل شيء المدينة التجارية الاولى في المغرب الاوسط والجزء الغربي للدولة الحفصية ، تجمعت بها الفنادق المختلفة للجنويين والبيزيين والقتلانيين والمرسيليين وغيرهم وتعددت مصالحهم هناك : صفقات انجزت وصفقات في طريق الانجاز وتمويلات ورحلات . كما ان بجاية كانت سوقا من اسواق الذهب الكبرى ، ذهب بلاد السودان (54) .

بإجمال مثلت بجاية بالنسبة للأوروبيين موطنا تحيا فيه المصالح التجارية لاطراف اوروبية مختلفة ، كل طرف على استعداد بان ينشق عن الآخر في حالة هجوم مماثل في صورة ما اذا اصبحت مصالحه مهددة . كما ان بجاية مثلت مركز السيادة الثاني الذي قد تسخر له الامكانيات الضخمة لحمايته خاصة وانه كان آنذاك تحت ادارة رئيس البحر القوي محمد بن ابي مهدي .

بينت الحملتان ان الاوروبيين تحاشوا المركزين التجاريين الكبيرين ومركزي السلطة الاولين : تونس وبجاية ، حيث تكمن مصالحهم الاقتصادية وبالتالي تفوقت المصالح التجارية .

---

53) المرجع نفسه ، ج ا، ص 252 .

54) راجع ص195-215 من البحث .

*** المعاهدات تؤطر القرصنة لضمان المصالح الثنائية :**

لقد تحدثت المعاهدات او الرسائل عن حالة الحرب (55) او « زمان الغرة » (56) في غياب معاهدات السلم .وفي هذه الحالة ، يمكن للقرصنة ان تكون شرعية ضد الآخر.وأثيرت دائما حجة ان العملية كانت خارج فترة السلم. وهذا مقتطف من رد السلطان ابي بكر الى خايم II الجاء في رسالة بتاريخ 18 جمادى II 714 / 29 سبتمبر 1314 مبعوثة من بجاية ، توضح حدود شرعية عمليات القرصنة : « وقلتم ان الجفنين اللذين اخذا من هنا لم يؤخذا في زمان الصلح وانما كان ذلك في زمان الغرة . فاما الجفن الاول فصحيح واما الجفن الثاني فلم يؤخذ حتى كان عقد الصلح قد كتب عندكم ، والذي ثقف من اجفانكم هنا كان في زمان الغرة التي احدثتموها بما فعلتم ...» (57) .

ونذكر رسالة من الجانب الآرغوني تحدد الاطراف الصديقة التي لا يجب ان توجه ضدهم عمليات القراصنة . وهي رسالة بعثها بيدرو IV إلى حاكمه ببلنسية بتاريخ 23 شعبان 764 / 7 جوان 1366 (58) . وقد عد بجاية وتونس ضمن الاصدقاء وكذلك تلمسان وبني مرين . ولكنه عد غرناطة عدوة وانها في حالة « حرب » (غير نظامية) معه . وسمح للقراصنة التابعين له بضرب رعايا السلطان المريني في اعماق البحر فقط لان المعاهدة بينهما موجودة ولم تمض بعد بصفة نهائية .

ان هذين المثالين من الرسائل يبينان بوضوح :

- ان الدولة تحدد تحركات القراصنة وتتبنى عملياتهم ضد من لا تربطها به معاهدة سلم وان عملياتهم لا تكون شرعية الا خارج فترات المعاهدات .
- ان القرصنة ليست موجهة بصفة آلية وحتمية ضد المسيحي من طرف المسلم او ضد المسلم من طرف المسيحي .
- ان حالة الصراع امر واقع خارج اي اتفاق ، ولكنه ليس صراع كتلتين منظمتين .
- ان محرك الجهاد والصراع مع المسيحية لا تمنح شرعية للقراصنة لضرب الغير من المسيحيين الا اذا لم تربطه بالدولة الحفصية معاهدة سلم .

(55 Dufourcq (ch),éd. , " Le registre 1389 ... "*op.cit* . ,doc. 80, p. 86, doc 116,p. 94.

(56 Alarcon (MA.),éd. ,*Los documentos arabes* ..., *op.cit* ., doc. 130p. 288.

(57 *Ibid.*

(58 Dufourcq (ch.E.), éd. , " Le registre 1389 ... " ,*op.cit.* , doc. 80 , p. 86.

وكل ذلك يعني ان المصالح الثنائية المشتركة كانت قادرة ان تتجاوز التناقضات وتغيب الصراع فتعدل تحركات القراصنة .

2 - مردود مادي مرتفع للقرصنة في بجاية وسلبيات على تجارتها :

أ - مردود مادي مرتفع :

كان التوظيف الاستراتيجي موازيا لوظيفة القرصنة الاقتصادية التي لربما كانت بالنسبة لغزاة البحر هي الوظيفة الاولى . فهم لا يخرجون الى البحر للاغارة العسكرية فحسب بل لجني الارباح اولا ، ولكن على حساب المسيحيين . فلم يقع اسر مسلمين لبيعهم كرقيق . فما هي هذه المنافع المادية ؟

*** الاســـــــرى :**

ان الربح الاول لعملية القرصنة كمشروع اقتصادي تمثل في جني الأسرى دون ثمن لبيعهم كرقيق . والكلفة هي تجهيز المراكب واعداد الغزاة .

لقد تدفق اسرى القرصنة في بجاية بشكل لم تشهده مواني حفصية اخرى منذ ايام الموحدين . وشهد على هذا التدفق الغبريني وابن خلدون وعدد من الرسائل والعقود .

قال الغبريني :« يسوقون السبي الكثير منها (اي من « الجزر الرومانية» حسب تعبيره ...) وبلغ الحال من كثرة سبي الأدميين ان يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش ...» (59) .

اما ابن خلدون فقد قال عن كثافة الاسرى في فترة تفوقها : « يعودون (اي غزاة البحر البجائيين) بالغنائم والسبي والأسرى ؛ حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم ؛ تضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ...» (60).

عبر الاثنـــان عن العدد الضخم للأسرى بالتاكيد على ارتفاع العــرض . فالغبرينـــي وضـــح ان كثرة الأســـرى انعكســـت على العرض والطلـــب ممـــا تسبـــب في انخفـــاض اسعارهـــم فـــي الســـوق .

---

59) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76 .

60) ابن خلدون ، *العبــر* ج VI، ص 903-904 .

ورأى ابن خلدون ان كثرة الأسرى الحاصلين على ايدي البجائيين فاقت حاجيات سوق بجاية حين قال « حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم (اي باسرى غزاة البحر البجائيين) » .

ان العملية الواحدة يمكن ان يجني منها القراصنة عشرات الأسرى . كما يمكن الا تفوق العشرة وقد يقومون بعديد العمليات أثناء دورة واحدة نسوق مثال غارة توريبلنكا (Toriblanca) سنة 1397/799 التي كانت من اهم العمليات ، جنى فيها قراصنة بجاية 100 اسير بين رجال و نساء .

ياتي الربح من الأسرى اما بفدائهم او بيعهم كرقيق. وكان فدائهم باهضا الى حد الاعجاز حسب ابن خلدون الذي قال :« ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أويكاد » (61) وعندما يعرضون للبيع لم يسمح للاوروبيين على ما يبدو شراؤهم الا بترخيص من السلطان او السلط ، فلنا رسالة بتاريخ 28 ذي الحجة 774 / 20 جوان 1373 بعثها ملك ارغون بيدرو IV (1336/736 - 1387/789) الى ابي العباس احمد (1370/772 - 1394/796) يطلب فيها السماح لمبعوثين له ورفاقهما بشراء كل من يرغبون في تحريره من الأسرى الاوروبيين (62) .

اخبرنا ابن الأثير ثم الغبريني عن سوق بيع الأسرى ببجاية . قال ابن الاثير : « كانت جيوش ابن غانية (سنة 1184/580) بساحل بجاية ، واخذت تنزل بناحية المذبح في مكان بيع السبي من المدينة .» (63) وقال الغبريني : « ينزل الناس لشرائه (اي شراء السبي) بحومة المذبح من جهة ربضها». (64) .ويضيف الغبريني توضيحا حول موقعه فيقول : « ووصلا (علي ويحيى بن غانية) الى شاطئ بجاية بمحل بيع السبي منها » .

كان سوق الأسرى اذن واقعا بحومة المذبح خارج السور قريبا من الشاطئ ومن الميناء ، لان جيوش ابن غانية اخذت تنزل به لما وصلت الى ساحل المدينة ، ولعلها نزلت بالميناء القديم مثلما ستفعل جيوش الاسبان

---

61) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 904 .

62) Dufourcq (Ch.) ," Le registre 1389 ... " ,*op.cit*., doc. 173 , p. 112 .

63) ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، ج XI ، ص 507-508.

64) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 76 .

سنة 1509/915 (65) ، ولان بين الميناء الجديد والسور لم يكن هناك فضاء يمكن ان ينشا فيه ربض ، فباب البحر الذي يتصل به كان واقعا على الماء مباشرة (66) ومازال قائما الى اليوم ويشهد على ذلك .

ان موقع سوق الأسرى عملي ، اذ كان باتصال مباشرة بالميناء القديم فيتم انزال الأسرى مباشرة اليه . وهذا دليل آخر على ان الميناء القديم هو الذي كان ميناء القرصنة ولربما الميناء العسكري ايضا .

* الغنـــائم :

ان القراصنة يعودون بالأسرى وبكل ما يغنمونه . وعندما يقتنصون سفينة ، يعودون بها كاملة ببضائعها واموالها ورجالها وهي ممارسة عامة من جميع الاطراف ، وهذه امثلة لسفن اقتنصتها بجاية او سفن بجائية وقع اقتناصها :

- في شوال 702 / افريل - ماي 1303 اخذ جفن بجائي على سواحل بنزرت من قبل قرصان ميورقي ، قيمة ما يحتويه اربعون الف دينار . وأُخِذَ معه جفن للبونيين قيمة ما فيه خمسة آلاف دينار (67) .

- تحدث السلطان ابو بكر في رسالة له موجهة من بجاية الى خايم الثاني بتاريخ 18 جمادى II 714 / 29 سبتمبر 1314 عن جفنين بجائيين محجوزين في ارغون وعن جفن آرغوني او اكثر محجوز في بجاية (68) .

- طالب خايم II ابا بكر بتحرير سفينة أرغونية صاحبها « بونانات دي فورنالس » (Bonanat de Fornells) محجـوزة في بجاية من قبل قراصنتها (69) .

- اعتدى قراصنة بجاية على سفينة بلنسية وحملوها معهم في اوائل القرن 14/8 (70) .

لذلك شكلت الغنائم النوع الآخر من الارباح المادية التي ترتفع قيمتها بقدر ما تحتويه من سلع واموال نقدية او غير نقدية .وان الغنائم الحاصلة للبجائيين جلبت نظرابن خلدون حين قال عنهم :« ويصادمون ما يلقـون من

---

65) Féraud (L.Ch.),éd. ," Conquête de Bougie ..." ,*op.cit.*, p. 251.

66) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ا،ص 412-413 .

67) Alarcon (M.A.),éd. ,*Los documentos arabes ..., op.cit.* ,doc 119,p. 259 .

68) *Ibid* ., p. 288

69) Masia de Ros,éd. , *La corona de Aragon ..., op.cit* ., doc. 134,p. 420-421 .

70) *Ibid* . , doc. 138,p. 425-426 .

اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى»(71).

ان المثال الاول ، حتى وان كان لا يهم الغنائم الحاصلة للبجائيين غير انه يعطينا صورة لقيمة الغنائم التي يمكن ان تحصل للقراصنة في عملية واحدة .

لقد اكد ليون الافريقي بدوره على ارتفاع مداخيل القرصنة للبجائيين حتى انه ربط ثراءهم بها قائلا :« البجائيون اغنياء فهم يسلحون العديد من المراكب التي يرسلونها الى سواحل اسبانيا .» (72)

من هم المنتفعون من مداخيل القرصنة ؟

اشار الغبريني وابن خلدون الى « غزاة البحر » انفسهم كمنتفعين من بيع الأسرى والغنائم دون ان يشير ولو عرضا الى كيفية تقسيم الارباح او الى الأطراف المنتفعة الاخرى .اذ قالا انهم يبيعون الأسرى وانهم يغالون في فدائهم .

لا شك ان السلطة شريك في المنافع المادية . فهي تتفاوض مع الاطراف الاوروبية وتطالبها بالاسرى البجائيين ومتاعهم ، وهي التي وضعت الميناء على ذمتهم . وقد تامر بحجز او تسريح جفن اجنبي .

ان كل الحركة في الميناء كانت تخضع للاداءات وبالتالي لا يمكن لمداخيل القرصنة الا ان تخضع هي ايضا لدفوعات مالية للسلطة الحفصية . قد لا يكون اداء بل لربما اقتسام لقيمة الغنائم بنسب معينة . وعلى اية حال لا يمكن ان نذهب في افتراضاتنا ابعد من هذا في غياب معطيات المصادر الدقيقة.

ب - انعكاسات سلبية على تجارة بجاية :

ان منافع القرصنة المادية تجدها في المقابل انعكاسات سلبية على الحركة التجارية لمدينة بجاية . فهي يمكن ان تتسبب في خسائر مادية فادحة للتجار .

ان مثال الجفن البجائي الذي اخذ في سواحل بنزرت في شوال سنة 702 / افريل -ماي 1303 (73) يعبر وحده عن ضخامة الخسائر : فهو وحده مثل خسارة تجارية باربعين الف دينار اي ما يقارب ثمانية كلغ ونصف من الذهب ، تضاف اليها خسارة الجفن نفسه والخسارة البشرية .

---

71) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 903-904

72) L'Africain (L.) , *Description de l'Afrique ..., op.cit* ., t II., p. 360.

73) Alarcon (M.A.),éd. ,*Los documentos arabes ..., op.cit* , doc 119; p.259.

ان مخاطر القرصنة بعثت شعورا بعدم الأمن على سواحل الدولة الحفصية نفسها وفي عرض البحر المتوسط . وليس ادل على ذلك من ان البجائيين تحاشوا تجهيز سفن تجارية نحو سواحل اوروبا وفضلوا استعمال السفن الأوروبية (74) .

وقد تنعكس القرصنة على الحركة في الميناء ذاته . من ذلك انه وقع التصادم بين تجار مرسيليا واعوان ميناء بجاية مرات عديدة : سنة 1293/692 (75) و 1314/714 (76) و 1317/717 (77) . وتنص وثيقة 2 ديسمبر 1317 (26 رمضان 717) ان هناك بين المدينتين (بجاية ومرسيليا) مشاكل قرصنة . ونتيجة لذلك انقطعت العلاقات التجارية بينهما في بداية القرن 14/8 .

وفي سنة 1308/707 تازمت العلاقات التجارية والسياسية بين ميورقة وبجاية بسبب هجومات القراصنة الميورقيين على بحارة بجائيين .

وقد تؤدي القرصنة الى ايقاف العمل باتفاقيات السلم والتجارة ، ففي 27 رمضان 714 / 4 جانفي 1315 جدد ابو يحيى ابو بكر معاهدة سلم وتجارة مع ارغون بعدما انذرها بانه يعتبر المعاهدة السابقة بتاريخ 19 رمضان 713 / 7 جانفي 1314 ملغاة بسبب تعرض تجار بجاية الى هجومات القراصنة الارغونيين(78) .

مثلت القرصنة مشكلا للتجار البجائيين نظرا لعديد الانعكاسات السلبية لكنه لم يعطلها ولم يحد من حركيتها لان التجار تعاملوا مع الامر الواقع بما يقتضيه وكان نموها بايدي البجائيين ضرورة لهم لانها تخلق توازنا في البحر بينهم وبين الاوروبين الذين نشطت عندهم القرصنة . وفي غياب قرصنة بجائية يمكن ان تضعف التجارة البجائية لتفسح المجال للسيطرة الاوروبية المطلقة .

---

74) راجع ص 237-240 من البحث.

75) De Mas Latrie,éd. ,*Traités ... op.cit* p. 97.

76) Rambert (G.) ,*Histoire du commerce de Marseille* , 2 Tomes éd. Librairie Plon . Paris , t. II , p 99 .

77) De Mas Latrie ,*Traités ..., op.cit.* p. 99.

78) Masia de Ros (A.) ,*La corona de Aragon ..., op.cit.*, doc134 , p. 420-421.

الخاتمـــــــة :

لقد كانت بجاية مدينة القرصنة الاولى في الدولة الحفصية . ونشطت طوال العهد الحفصي لكن اوجها وتفوقها كان ايام السلطانين ابي العباس احمد وابي فارس ، اي خلال الثلث الاخير من القرن 14/8 والثلث الاول من القرن 15/9 .

وقد تكون القرصنة استندت الى شرعية الجهاد . اثبت البجائيون صبغتها هذه في عملياتهم ولكن الدولة وظفت القرصنة باسم هذه الشرعية قبل كل شيء لاثبات وجودها والحفاظ على توازن قوتها مع القوى الاوروبية في البحر .

وان المصالح الاقتصادية تجاوزت هدف الجهاد والصراع وبالتالي تفوقت المعاملات الثنائية لضمانها ، فاطرت القرصنة حسب الاتفاقيات ، ولم توجه ضد غيرها الا خارجها .

ولكنها علاقات قد لا تكون منتظمة وقد تتجاوزها مصالح القراصنة انفسهم ، لان القرصنة هي اولا نشاط مربح ماديا، ذات مردود مادي مرتفع للدولة والاشخاص . وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بجانب هام من التجارة في ذلك الوقت اي تجارة الرقيق البيض لانه ممونها ومحركها ، وقد لوحظ التدفق المكثف للاسرى نحو بجاية ، مما جعل منها اول سوق لهذا الصنف من التجارة، وبالتالي فان القرصان يتحول الى تاجر للرقيق البيض ومختلف البضائع التي يغنمها .

ولذلك ، فان المحرك الاساسي للقرصنة تمثل في آخر الامر في جني المنافع والارباح بأدنى المصاريف .

لكن ، مقابل كل هذه الغنائم ، قد تنعكس القرصنة على التجارة البجائية سلبا. غير انه وقع التعامل مع الوضع كما كان .و كانت ضرورة لحماية التجارة بالحفاظ على توازن بجاية والدولة الحفصية عامة مع القوى الاخرى .

الباب الثـــالث

تطـــــور
العـــلاقات التجارية البحرية

انتظمت منذ منتصف القرن الثاني عشر حركة تجارية بحرية أوروبية نشيطة ركزت على محورين رئيسين هما بحر الشمال وشبه الجزيرة الايطالية . واشتهرت في الشمال خاصة فلاندرة ومبناؤها بروج .

ولكن وان اشتهرت في الجنوب المدن الايطالية اكثر من غيرها : البندقية ، جنوة ، بيزة فان مرسيليا وبرشلونة وميورقة قد مثلت ايضا مراكز تجارية هامة لا سيما بداية من القرن 13/7 .

وبرزت على الضفة الجنوبية للمتوسط الغربي موانى نشيطة تفاعلت مع الحركة العامة وارتبطت بمراكزها ، اهمها سبتة و بجاية وتونس .

وتكونت لبجاية علاقات تجارية مع كل الاطراف حسب تطور زمني اختلف مع هذا أو ذاك . وسنحاول ان نتتبع هذا التطور مع كل طرف وان نبرز خصوصياته آملين في الخاتمة الوصول الى رسم الاطوار الكبرى لعلاقات الميناء ببلدان الحوض الغربي للمتوسط .

تطور العلاقات التجارية مع أرغـــون

ساهم روبار برنشفيك (Robert Brunschvig) مساهمة هامة في دراسة علاقة الدولة الحفصية بارغون ضمن كتابه « تاريخ إفريقية في العهد الحفصي » وبنشره لمجموعة من الوثائق (1).

---

1) Brunschvig (R.)éd., "Documents inédits sur les relations entre la couronne d'Aragon et la Berbérie Orientale au XIVés" ,*Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, t.II,(1936) p. 235-265.

وتميز شارل ايمانويل ديفورك (Ch.E. Dufourcq) بدراساته المركزة على علاقات اسبانيا القتلانية وبلاد المغرب خلال القرنين 13/7 و 14/8 سواء في كتابه « اسبانيا القتلانية وبلاد المغرب ...» (2) او في مقالاته (3) او بنشره لعدد كبير من الوثائق (4) .

وقد تواتر ذكر بجاية ضمن اعمالهما في مناسبات متكررة . لذلك ساهما في رسم ملامح وأطوار علاقتها بارغون او في توفير جانب هام من المعطيات المتعلقة بهذا الموضوع ، لا سيما خلال القرنين 13/7 و 14/8 .

سنحاول من جهتنا تتبع هذه العلاقات في عمل تاليفي مُرَكِّزِينَ على العلاقات التجارية .

لقد تبين لنا انها عرفت ثلاثة اطوار كبرى نتيجة لبعض العوامل والمؤثرات :

- طور اول : امتد من أوائل القرن 13/7 الى 1327/727 وعرفت العلاقات خلاله دفعا هاما بفضل معاهدتين الاولى بتاريخ 5 رجب 669 / 17 فيفري 1271 (5) والثانية بتاريخ 27 ذي القعدة 708 / 8 ماي 1309 (6) التي جددت بمعاهدة 19 رمضان 713 / 7 جانفي 1314 (7)

---

2) Dufourcq (Ch.E.) ,*l'Espagne Catalane ..., op.cit.*

3) القائمة طويلة ، راجع قائمة البيبليوغرافيا.

4) Dufourcq (Ch.E.),éd. ," Documents inédits sur la politique ifrikienne de la Couronne d'Aragon " , *Analecta sacra Tarraconensia* , vol. XXV,(1954) ,p.255-291; Du même ," Le registre 1389..., *op.cit.*, p. 67-152.

5) De Mas Latrie ,éd.*Traités ... ,op.cit.* , p. 220-284 ;

برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ... مرجع سابق ، ص 95 ؛

Dufourcq (Ch.E.) ," Les activités politiques et économiques des Catalans en Tunisie et en Algérie Orientale de 1262 à 1377 ", *Boletin de Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* , t. XIX, (1946),p. 34 .

6) De Capmany(A.) ,*éd.,Memorias...,op.cit.* ,t.IV.,p. 39; Du même ,éd., *Antiguos Tratados* ...,p. 71-77; De Mas Latrie ,*Traités ...op.cit.* ,p.301 sq ; De la Primaudaie (M.F. Elie) , *Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française* , *Imprimerie CH. Lahure et Cie ,Paris 1861.*, p. 150-153;

برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ،ج1، ص 152-153 ؛

Masia de Ros (A.) ,éd., *La corona de Aragon ... ,op.cit.* ,Doc.124, p. 404-406 ; Dufourcq (Ch.E) ,*L'Espagne Catalane ...op.cit.*p. 51

7) De capmany (A.),éd.*Memorias ...,op.cit.*, vol .II (éd. 1961-63) ,doc. 88,p. 126;

De Mas Latrie ,*éd., Traités...op.cit.* ,p. 304 sq ; Masia de Ros (A.) ,éd., *Ibid.* ,doc. 133 , p. 418-420.

ومعاهدة 23 ربيع اا، 723 / 1 ماي 1323 (8) .
- طور ثان : بدأ حوالي 727 / 1327 وتواصل الى نحو سنة 1436/840 وتميزت الفترة بتارجح العلاقات الديبلوماسية والتجارية .
- طور ثالث : تواصل من 1436/840 الى آخر القرن 15//9 تميز بتدهور الحركة التجارية القتلانية البحرية .

ا - الطور الأول ، من بداية القرن 13/7 الى 1327/727 ، تركيز الحضور التجاري الأرغوني في بجاية ،

1 - مكاسب متجددة الى 1314/714 :

لم يتاخر التجار القتلانيون عن القدوم الى ميناء بجاية اكثر من منتصف القرن 13/7 لان اقدم نص يثبت وجود قنصل قتلاني في بجاية يرجع الى 10 جمادى اا 657 / 4 جوان 1259 وطبعا كان ذلك نتيجة حضور سابق .

ويبدو ان العلاقات التجارية الحفصية - القتلانية بصفة عامة عرفت دفعا وحركية جديدة بداية من معاهدة 5 رجب 669 / 17 فيفري 1271 (9) بين المستنصر (1279/647 - 1277/675) وخايم الاول (1213/610 - 1276/675) . وهي اقدم معاهدة بين أرغون والدولة الحفصية من بين المعاهدات التي وصلتنا (10) . ونصت على انها صالحة لمدة 10 سنوات .ولقد اكدت المعاهدة على حفظ امن التجار في البحر والسواحل ولم تعط القتلانيين مكانة خاصة في بجاية بل فسحت لهم المجال فقط بان يتجاروا بامان ونشاط اكبر في ميناءها وموانى أخرى .

---

8) De Capmany (A.) ,*Memorias ...op.cit.* ,volII (éd. 1961-63) , doc. 113,p. 167-171 ;
De Mas Latrie ,*éd., Traités ..., op.cit.*, p. 318 sq . ; De la Primaudaie (M.F.Elie) , *Le commerce et la navigation..., op.cit.*, p. 149-150.

9) راجع الهامش السابق رقم 5 من نفس هذا الباب

10) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، مرجع سابق ، ج ا، ص 95 ؛
Dufourcq (Ch.E.) ,"Les activités politiques et économiques des catalans ...",*op.cit* . ,p.34.

وانهم بقوا يلاقون مزاحمة كبيرة من قبل الميورقيين الذين دعموا حضورهم في بجاية بفضل معاهدة اكتوبر 1302 (صفر - ربيع الاول 702)(11) التي افضت الى تعيين قنصلهم الاول في 20 ربيع الاول 702 / 12 نوفمبر 1302 (12) . وقد كانت ميورقة المنافس الاول لارغون لانها اصبحت في خلاف معها منذ انفصالها عنها سنة 1298/697 .

لذلك بقيت مكانة القتلانيين بميناء بجاية هشة وغير مدعمة الى 1309/708 فكيف تطورت الحالة ؟

استقلت بجاية عن تونس في 1285/684 . واصبحت في خلاف متواصل معها احتد منذ سنة 1293/692 حين احتل امير بجاية ابو زكرياء منطقة الزاب .

واصبح بنو عبد الواد يشكلون خطرا جديا بالنسبة لبجاية اذ قاموا باولى هجوماتهم قبل 1299/698 وعاد خطرهم مع انتصاب ابي حمو موسى الاول (707/1308-718/1318) .

وتعكرت العلاقات فجاة سنة 1308/708 بين بجاية وميورقة ، المنافسة لارغون .

هذا بالاضافة الى ان تجارة مرسيليا تقلصت في ميناء بجاية ، لربما منذ خلافات سنة 1293/692 التي اكدتها رسالة تجارهم الى مدينتهم في 9 رجب 692 / 15 جوان 1293 (13) . كما ابرمت تونس مع أرغون معاهدة في صفر - ربيع الاول 708 / منتصف اوت 1308 لمدة عشر أعوام بعد سنوات من الصعوبات المتميزة بمشكل جربة (14) وتعددت عمليات القراصنة القتلانيين انطلاقا من صقلية (15) .

كل هذه العوامل التي انحصرت بين 1285/684 و 1308/708 جعلت ارغون تغتنم فرصة خلاف بجاية مع ميورقة لتعوضها او على الاقل

---

11) Dufourcq (Ch.E.) , *l'Espagne Catalane ...,op.cit.* p. 421

12) Aguilo (E.K.) ,éd.," Creacio del Consulat de Bugia ,y nominacio del primer consul en Benet Blances 1302 " , *Boletin de la Societat Arqueologica Luliana* , XV , (1915) ,p. 220-222 ; Dufourcq (Ch.E.) ,*Ibid* ., p. 421.

13) De Mas Latrie ," *Chartes inédites ...*" , *op.cit.* , p. 393-396 ; Du même,éd. , *Traités... ..., op.cit.* ,Doc . VII (Royaume de France) ,p. 97 .

14) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ...مرجع سابق ، ج ا، ص 124 - 125 .

15) المرجع نفسه ، ج ا ، ص 152 .

لتحصل على امتيازات تُفَوِّقَهَا عليها ، وتركز حضورها . وبالنسبة لبجاية يهمها ان تحقق التوازن مع تونس وتستفيد من مساندة محتملة لأرغون ضد بني عبد الواد وتسد الفراغ في الحركة التجارية بالميناء الذي احدثه تناقص الميورقيين والمرسيليين .

نتج عن هذه التطورات تقارب بجائي - ارغوني افضى الى ابرام معاهدة بينهما مختلفة عن سابقاتها لا سيما معاهدة 1271/669 لان بجاية امضتها وهي مستقلة عن تونس في عهد انفصالها الاول (1285/684 - 1309/709) بتاريخ 27 ذي القعدة 708 / 8 ماي 1309 (16) ، وبالتالي كانت مركزة على مينائها ومنعكسة على حركته التجارية مباشرة وكانت مرتبطة بمشاكلها السياسية . ونصت على انها سارية المفعول لمدة 5 سنوات وقد جاءت المبادرة من بجاية .

تمثلت اهم بنودها في :

- منح امتيازات تجارية للتجار القتلانيين اهمها الاعفاء من الضرائب على الواردات الارغونية بنسبة 50٪ .
- حرية دخول الأرغونيين في بجاية على النفس والمتاع .
- التزام ارغون بان تضع على ذمة بجاية سفينتين مجهزتين باربع ادوات حصار مقابل 2000 دينار ذهبي عن كل سفينة مدة اربعة اشهر و 500 دينار عن كل شهر إضافي .
- تبادل الأسرى من الطرفين .

كما تحصلت أرغون بفضل هذه الاتفاقية على امتياز « الدولة الاكثر رعاية » بالنسبة للمعاملات التجارية.

استفادت أرغون استفادة كبرى مقابل الالتزام باعانة عسكرية بسيطة ، فقد تحصلت على امتيازات تجارية وأثقلت كاهل بجاية بالتزامات مالية . ولقد دعمت هذه المعاهدة بوضوح مكانة أرغون في بجاية وحضورها التجاري ووفرت لها فرصة للشروع في محاولات الهيمنة ، حتى ان قنصلها هو الوحيد الذي كان من بين القناصلة قادرا على مقابلة سلطان بجاية ، مثل زميله الموجود في تونس (17) .

---

16) راجع الهامش رقم 6 من نفس هذا الباب .

17) Dufourcq (Ch.E.) ," Les activités politiques et éco. des Catalans ..", *op.cit.*, p. 45.

ابدى ابو يحيى ابو بكر (ببجاية مستقلا : 1318/718-1312/712) في رسالة وجهها الى خايم الثاني (1327/727-1291/690) في 11 ذي القعدة 712 / 10 مارس 1313 (17') عن رغبته في عقد اتفاقية معه . وجاءت مبادرته نتيجة للضغط الملح لبني عبد الواد على بجاية . وكان يريد ان يسبق تلمسان لاية محاولة قد تقوم بها لكسب أرغون الى جانبها قبل ان ينقضي مفعول معاهدة 8 ماي 1309 (18) وتوصل في 19 رمضان 713 / 7 جانفي 1314 الى عقد معاهدة لمدة خمس سنوات تضمنت نفس المضمون (19) .

واقعيا دعمت مرة اخرى حضور التجار القتلانيين ولكنها لم تركز مثل الاتفاقية السابقة اسس الوفاق الدائم مع ارغون بل كان وفاقا ظرفيا املته المشاكل مع بني عبد الواد بالنسبة لبجاية والمشاكل مع ميورقة بالنسبة لأرغون ، لان الاتفاقيتين تضمنتا اسباب الخلاف المتمثلة اساسا في الالتزام بدفوعات مالية ولانهما لم تفضيا الى تهدئة القرصنة بينهما . وتبين ذلك من رسالتين بعثهما خايم الثاني في 11 ربيع الاول 714 / 25 جوان 1314 (20) و 27 رمضان 714 / 4 جانفي 1315 (21) . تخبرنا الاولى عن تواصل القرصنة الارغونية وتخبرنا الثانية عن القرصنتين البجائية والأرغونية وتعلن عن مطالبة خايم الثاني ابا بكر بدفع 1000 دينار ذهبي لمدة خمس سنوات هي جملة نصف مداخيل الضرائب التي يستخلصها ديوان البحر . وذلك اعتمادا على بنود معاهدة 19 رمضان 713 / 7 جانفي 1314 .

2 - « المسالة المالية » تعكر الوفاق بعد الاعانة العسكرية لسنة 1314/714 :

تحصلت بجاية على الاعانة العسكرية خلال سنة 713-1314/714 وفسحت هذه الاعانة المجال لأرغون بالمطالبة بـ 12000دينار ذهبي مقابل كراء

17') De Mas Latrie , *Traités* ... *op.cit.* , p. 303

18) فعلا ،تحصل السلطان الزياني ابو حمو موسى (1308/707-1318/718) في 19 محرم 713 / 16 ماي 1313 على موافقة مبدئية من خايم الثاني على الاعانة العسكرية . وهذا يعني ان ابا حمو موسى كان يقوم بمساع وان خايم الثاني يناور سياسيا .
Masia de Ros ,*éd., La Corona de Aragon* ... ,*op.cit.* , doc. 153, p. 445-447.

19) راجع الهامش رقم 7 من نفس هذا الباب .

20) Masia de Ros ,éd., *Ibid* , doc. 134 bis ,p. 422 .

21) *Ibid.*, doc. 134 ,p. 420 -421.

السفن الحربية إضافة الى الالف دينار السنوية . ووقع تخفيضها الى 4000 (22) ، ولكنها لم تدفع ايضا من قبل بجاية .

لقد توالت رسائل خايم الثاني المطالبة بهذه الدفوعات خلال 1314/714 - 1316/716 (23) لكن ابا يحيى ابا بكر لم يخضع له فبدأت الخلافات بينهما التي انعكست على التجارة والامن في البحر والعلاقات الديبلوماسية دون ان يصل الامر الى القطيعة بل كانت ردود الفعل متفرقة ومتصفة بالمراوغة اذ لم يكن في صالح ابي بكر الوصول الى طريق مسدود ما دام الصراع مع بني عبد الواد مازال قائما .

فمنذ 27 رمضان 714 / 4 جانفي 1315 هدد ابوبكر في رسالة موجهة في هذا التاريخ الى خايم الثاني بالغاء معاهدة 1314/1/7 معتمدا على حادثة من حوادث القرصنة ('23) . وغض ابو بكر الطرف عن اي اخلال من قبل البجائيين في تطبيق المعاهدة ، منها المعاملات السيئة التي تعرض لها تجار أرغون . فقد بعث هؤلاء الى ملكهم رسالة في 12 جمادى II 715 / 13 سبتمبر 1315 ببرشلونة يشتكون فيها سوء المعاملة من قبل اعوان ميناء بجاية وطالبوه بسحب الاعانة العسكرية .(24) وفي 16 رجب 715/ 16 اكتوبر 1315 ارسل خايم الثاني الى ابي بكر رسالة يعلمه بمحتوى الشكوى ويهدده بانهاء العمل بالمعاهدة (25) . واخبرتنا رسالة 3 ربيع الاول 716 / 26 ماي 1316 ان قراصنة بجاية اسروا شخصين من برشلونة . ولكن لم تعترف بجاية بانهما أخذا بعد إمضاء المعاهدة .(26)

بينت الصيغة التي اتخذتها ردود الفعل هذه ان الجانبين لم يرغبا في القطيعة ، وبقي الباب مفتوحا لاي صلح . وفعلا ، فقد ابرمت بينهما معاهدة بتاريخ 23 ربيع الاول 723 / 1 ماي 1323 لمدة 4 سنوات بطلب من

(22 *Ibid.*, doc. 141 p. 429.

(23 De Capmany (A.) ,éd." *Memorias ...,op.cit.* ,vol II (éd. 1961-63), doc. 94 , p. 136; De Mas Latrie ,*éd. Traités* ,p. 310; Alarcon (M.A.) ,éd., *Los documentos arabes ...* , *op.cit.* , doc. 130, p. 288 ; Masia de Ros ,éd. *La Corona de Aragon ... ,op.cit* . , doc. 135,p. 422-423 , doc. 137,p. 424-425,doc. 139,p. 426-428, doc .140,p. 428, doc. 141 p. 429, doc. 142 p. 429-431.

(23' Masia de Ros ,éd., *Ibid.* , doc. 134, p. 420-421.

(24 *Ibid.* , doc. 144,p. 432-433.

(25 *Ibid.* , doc. 145 p. 433-435.

(26 *Ibid.* , doc. 143 ,p. 431-432.

ابي بكر (27) اذ كان بحاجة اكبر لتحسين العلاقات نظرا لان هجومات بني عبد الواد قد اشتدت منذ 719 / 1319 (28) . فكانت بالنسبة اليه ناتجة عن حالة ازمة فجاءت لتقر عدم التكافؤ لصالح أرغون بتاكيد الالتزامات المالية لمعاهدة 1314/1/7 .

لقد رضي ابو بكر بهذه الاتفاقية من منطلق ضعفه آملا الحصول على دعم عسكري أرغوني . لكن خايم الثاني سوف يستبدل تونس بتلمسان التي عرضت عليه مبالغ مرتفعة من الذهب مقابل مساعدة الاسطول الأرغوني (29) لا سيما ان ابا بكر لم يدفع شيئا .

ان المسالة المالية التي الحت عليها أرغون بعد الاعانة العسكرية عكرت العلاقات الديبلوماسية وانعكست سلبا على المعاملات التجارية للقتلانيين في بجاية وامنهم . غير ان هؤلاء اكتسبوا خلال النصف الثاني للقرن 13/7 وبداية القرن 14/8 تقاليد تجارية واصبحوا يعملون في اطار هياكل قارة تمثلهم وارتبطوا بتجار بجاية لمصالح مشتركة .

لقد وفرت لهم المعاهدات الى 1314/714 مناسبات متجددة لدعم وجودهم . ثم تجددت الفرصة سنة 1323/723 .

فلم تكن الصعوبات قادرة على نسف المكاسب بل اضرت بها لا اكثر ، لا سيما ان الجانبين لم يتوخيا اسلوب التصعيد ، بل كانت مواقفها عبارة عن سلسلة من الاعمال المعبرة عن عدم الرضا .

(27 De Capmany (A.) ,éd., *Memorias* ..., doc. 113 ,p. 167-178 (éd. 1961 -1963) ;
De Mas Latrie,éd., *Traités* ... ,*op.cit.* , p. 318 sq ,
برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ... مرجع سابق ج ا، ص 184 .

28) راجع ص75-79 من البحث .

29) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ... مرجع سابق ، ج ا ، ص 185 .

II - الطور الثـاني، 1327/727-1436/840، استمرار الحركة التجارية في مناخ ديبلوماسي صعب :

1 - تفوق مسالة « الاتاوة » او المسالة المالية :

لكن «المسالة المالية» افضت في آخرالامر الى انفصام العلاقات بإمضـاء أرغون لمعاهدة مع تلمسـان بتاريخ 4 شوال 727 / 23 اوت 1327 (30) . ثم جـددت بعد وفـاة خايم الثانـي من قبل خليفتـه « الفونصـو IV» (Alfonso IV) (1327/727-1336/736) بابرام معاهدة 2 رمضان 730 / 20 جوان 1330 (31) . ويعني هذا ان « الفونصو IV » واصل مساندته لتلمسان وان عمله اكد فتح فترة اضطراب للعلاقات مع الحفصيين ستدوم طويلا ولا نستطيع ان نحدد بتسلسل تطوراتها، لكن يمكن ان نقول انها عرفت في عهد ابي بكربعد 1327/727 الى وفاته 1346/747 فتورا وقطيعة ديبلوماسية غير معلنة . وقد وجد ابو بكـر البديـل ببناء تحالف مع بني مرين سنة 1329-30/729 (32) ، تلتها فترة ثانية فترة الحكم المريني في بجاية ، مباشرة بعد عودة بجاية الى الحكم الحفصي بدأت فترة ثالثة تميزت بسيطرة مسالة «الاتاوة السنوية» التي ارادت ان تفرضها أرغون على الدولة الحفصية وقد نصت عليها معاهدة 25 صفر 761 / 15 جانفي 1360 (33) التي امضاها السلطان ابو اسحاق ابراهيم في بجاية وامضاها بيدرو IV من جهته لمدة عشر سنوات .

حددت المعاهدة قيمة الاتاوة بالفي دينار ذهبي سنويا لمدة عشر سنوات ايضا وتضمن بمداخيل الاداءات الموظفة في مواني السلطنة .

وتستمد اصلها من التـزام قام به ابو بكر لميورقـة بوصفـه سلطـان بجايـة آنذاك وحسـب اتفاقيتـي 20 ربيـع الاول

---

30 Masia de Ros ,éd., *La Corona de Aragon ... ,op.cit.* ,doc. 170, p. 466-470.

(31 *Ibid* ., doc. 179, p. 482-484.

(32 ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 776 - 778 : برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ... ، ج ا، ص 179 - 180 : Marçais (G.) , *La Berbérie Orientale...*, *op.cit.* , p. 284 .

(33 Dufourcq (Ch.E.),éd., " Le registre 1389 ..." ,*op.cit.*,doc. 1, p. 67.

702 / 23 نوفمبر 1312 (34) و 17 رمضان 729 / 15 جويلية 1329 (35) وطالب بها بيدرو IV بوصفه وريثا لمملكة ميورقة (36) .

توالت الرسائل المطالبة بدفعها الى آخر عهد بيدرو الرابع سنة 1387/789 حتى كأنها كانت شغله الشاغل في علاقته مع السلطان الحفصي . وقد احصينا 13 رسالةتثير مسالة هذا « الدَّين » بالذات في الدفتر 1389 بين 1364/765 و 1379/781 (37)

ان للمطالبة بهذه الاتاوة صبغتان : سياسية واقتصادية :

اريد بها سياسيا وضع الدولة الحفصية في مرتبة دنيا امام أرغون وتكريس الهيمنة عليها . وقد خطط بيدرو IV حتى عسكريا ، اذ فكر في اعداد حملة ضد السلطان الحفصي منذ 1373/775 متذرعا بنشر المسيحية وعين مسبقا « وكيلا عاما بمدينة تونس وممتلكاتها » (38) ، ولكنه لم يحقق من ذلك شيئا .

ومثلت اقتصاديا وسيلة من وسائل نقل ذهب بلاد السودان الواصل الى تونس وبجاية وغيرهما ، وتموين خزينة الملك .

لقد تزامن بيدرو IV (1387/789-1336/737) مع السلطان الحفصي القوي ابي العباس احمد (1394/796-1370/772) في الفترة التي اصبح يطالب فيها بالحاح بالاتاوة الموروثة عن دين ميورقي . وهو لم يكن بامكانه سابقا المطالبة بها لان بجاية التي أتفقت مع ميورقة كانت تحت سلطة المرينيين الى 1360/761 . لذلك لم يتوصل الى تنفيذ مخططه .

2 -غارات من الطرفين :

لقد خلف بيدرو IV ملوك طوموحون مثله ، واصلوا سياسته الطموحة ايضا تجاه الدولة الحفصية ، ولكن بوسائل اخرى، اذ تخلوا عن الاتاوة السنوية واصبحوا يخططون لغارات عسكرية ، خاصة « مارتان الاكبر » (Martin el Humano) (1410/813-1396/798) والفونصو الخامس (Alfonso V)

---

34) Aguiló (E.K.) ,éd.," Tractat de pau entre el Rey de Mallorca Don Sanxo y el de Bugia Boyhahia Aboubechre dia 23 de nov . de 1312 ", *Boletin de la Sociedad Arqueológica Luliana* 1915,p. 217-226 .

35) Dufourcq (Ch.E.) , *l'Espagne Catalane ...op.cit* ., 504.

36) Du même ,éd." Le registre 1389 ..."*op.cit.* ,doc. 96,p. 90, doc127, p. 98.

37) *Ibid* . , doc. 49,50,51,56,96,98,126,127,129,132,251,252,253,respectively p. 78,78,78,79,90,90,98,98,98-99,99,137,137,137.

38) De Mas Latrie ,éd., *Traités... ,op.cit.* , le supplément , p. 66-68;
برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج 1 ، ص 228 .

(819/ 1416 - 1458/862) ،لكنهما في نفس الوقت تزامنا مع السلطان الحفصي ابي فارس عبد العزيز الذي واصل منهج ابيه لربما باكثر قوة . ولذلك تواصل اضطراب العلاقات بل التوتر بين الدولتين ، سواء عن طريق تصعيد عمليات القرصنة او الغارات ، رغم محاولة التقارب التي تمت بمعاهدة اواسط 805 / بداية 1403 (39) التي برهنت عن مبدإ التكافؤ بينهمـا اذ لم تذكـر « الاتاوة » بتاتا ولا الاعفاء من الاداءات في المواني ، بل نصت على اطلاق سراح الاسرى المسيحيين مقابل فدية .

فمنذ جمادى الثاني 821 / جويلية 1418 اتفق « الفونصو V » مع بلنسية للقيام بحملة عسكرية ضد المواني المغربية (40) . ولكن مشاكله في ايطاليا جعلته يؤجلها ،وفي 25 شوال 827 /19 سبتمبر 1424 اغار على جزر قرقنة (41) . ورَدَّ الحفصيون الفعل بالاغارة على مالطة في 1429/832 ثم شنت جيوش « الفونصو V » حملة على جربة في ذي الحجة 835 / اوت 1432 (43) .

3 - هل تعطلت التجارة الأرغونية خلال هذه الفترة الطويلة من التارجح في العلاقات الديبلوماسية منذ 1327/727 ؟

ان الهياكل التجارية مستمرة وثابتة ببجاية بالخصوص وفي غيرها . اخبرتنا الوثائق ان فنادق القتلانيين التي تشتغل في منتصف القرن 14/8 ببلاد المغرب هي فنادق بجاية وتونس وبونة والقل وتدلس (44) .

واكدت رسالة موجهة من بيدرو IV الى حاكم ميورقة بتاريخ 25 محرم 780 / 24 ماي 1378 على وجوب تسهيل مرور التجار البجائيين الذين كان يرجى قدومهم منذ امد بعيد (45) وذلك في اوج فترة الخلافات حول « الاتاوة السنوية » .

---

39) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج ا، ص 255.

40) المرجع نفسه ، ج ا ، ص 260 .

41) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

42) الزركشي ، *تاريخ الدولتين* ، ص 127 : برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج ا، ص 261.

43) الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 129 : برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج ا، ص 263 .

44) ACA , reg. 1402,ff . 38v et 47 ; Reg. 1403,ff 128 et 129 in Dufourcq (ChE.) éd., " Documents inédits sur la politique ifrikiyenne ...,*op.cit* ., p.289 .

45) Dufourcq (Ch.E.),éd., , *Ibid* ., p. 289-290.

هذه الرسالة ، وان كانت توضح رغبة ملك ارغون في عدم تعطيل العلاقات التجارية من ناحية فانها من ناحية اخرى ، تقوم دليلا على فتورها بسبب المشاكل الديبلوماسية لا سيما من الجانب البجائي .

وتضمنت اتفاقية 1403/805 تراتيب التجارة القتلانية في موانئ الدولة الحفصية . ولكنها لم تمنحهم الامتياز عن غيرهم .

ان التجارة القتلانية لم تتعطل بل استمرت متمتعة بمكاسب القرن 13/7 وبداية القرن 14/8 . لان بجاية بالنسبة الى القتلانيين كانت مركزا من المراكز الرئيسية ببلاد المغرب ، ولان هؤلاء ركزوا معاملاتهم التجارية منذ البداية ، اي منذ بداية القرن 13/7 على المغرب خلافا للمدن الايطالية التي ربطت علاقات تجارية مع المشرق ثم المغرب ؛ ولان كلا النظامين في أرغون او في افريقية آمنا بالرغم من الخلافات بان مصالحهما لا تكمن في تعطيل التجارة ، وذلك واضح في قول « الفونصو V » بانه كان يرجو منذ امدبعيد قدوم تجار بجاية .

ان الانعكاس السلبي على تجارتهم تمثل اذن في مواجهة صعوبات القرصنة وردود الفعل والمعاملات السيئة للتجار من حين لآخر .

لقد كانت التجارة سائرة وكانها تلاءمت خلال هذه المدة الطويلة مع اوضاع العلاقات الديبلوماسية الصعبة ، متحدية انعكاساتها السيئة . فتفوقت المصالح التجارية المشتركة وثبت التجار على العمل

فهل يمكن القول بانها فترة استمرار التجارة القتلانية - البجائية خاصة والقتلانية الحفصية عامة في جو من الصعوبات الديبلوماسية والامنية ، اي الامن في البحر والميناء ؟ .

هي جدلية بين السياسة والتجارة تبدو كانها انتجت حالة تعايش بين المصالح التجارية والتناقضات السياسية . فهل سيتواصل هذا الوضع ؟ وبعبارة اخرى الى اين ستفضي هذه الجدلية ؟

III - الطور الثالث ، السير نحو ركود التجارة القتلانية وانتكاسها ،

1 - محاولات فاشلة لاقامة علاقات عادية والصعوبات تتفوق :

تفطن « الفونصوV » منذ أن فشل في حملته على جربة في ذي الحجة 835 /اوت 1432 بقيادته شخصيا ان عليه تغيير سياسيته مع الحفصيين . لكنه لم يجد تجاوبا من قبل ابي فارس (796/1394-837/1434) .

وكان عليه ان ينتظر خلافة ابي عمرو عثمان (1488/894-1435/839) الذي اختار بدوره تحسين علاقاته مع الدول الاوروبية ، ولعله اراد التفرغ للمشاكل الداخلية خاصة تمرد ابن اخيه ابي الحسن بن ابي فارس ببجاية (46).

كانت الرغبة متبادلة من الجانبين في إقامة علاقات طيبة وتوفير المناخ الملائم للتجارة ، وجاءت المبادرة من « الفونصو V» سنة 1436/840 حين عبر لعثمان عن رغبته في ابرام الصلح وبيع القمح الصقلي (47) . ولكن تعثرت المفاوضات نتيجة تصرف قراصنة هذا او ذلك (48) :

في سنة 1441/845 كادت تنشب ازمةبسبب القاء القبض على قرصان تونسي ، اطلق سراحه بطلب من عثمان وفي 23شوال 847 / 12 فيفري 1444 ضبطت بنود معاهدة تتضمن حلولا لتبادل الأسرى واحكاما لتنظيم المواصلات والتجارة (49) .

سيبقى نص هذه المعاهدة مجرد مشروع اذ تعكر الوضع فرفض عثمان بشدة إمضاءها . فقد إعْتَقِل نصرانيان في إفريقية بصورة استبدادية وأحْتَجِز بعض المسلمين في مالطا . وأغار بعض رعايا السلطان على سواحل صقلية ووقعوا في الاسر ، فقام الحفصيون بعملية ثأرية اذ اعتقلوا خمسمائة شخص من رعايا ارغون . وتواصل التوتر الى ان قطعت العلاقات الديبلوماسية والقنصلية في ذي الحجة 848 / مارس 1445 (50) .

ومن 850 / 1446 الى 1450/854 عاد الحاكمان الى محاولات تطبيع العلاقات عن طريق سفارات من الجانبين حتى توصلا الى ابرام هدنة لاغير في 854 /1450 (51) . ولم تتطور العلاقات بعد ذلك الى اكثر من المجاملات وتبادل السفراء والهدايا والمفاوضات غير المجدية . وقد كان الفونصو مقيما في نابولي آنذاك .

---

46) راجع ص 85-88 من البحث .

47) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ... ، جا ، ص 279 .

48) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

49) المرجع نفسه ، ج ا، ص 280 .

50) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

51) المرجع نفسه ، ج ا، ص 281 .

2 - تدهور التجارة القتلانية البحرية بداية من صعود الملك يوحنا الثاني (1458/862) الى آخر القرن 15/9 :

انقسمت مملكة « الفونصو ٧» الى قسمين بعد وفاته :نابولي من جهة بيد اخيه « فرديناد الاول » (Ferdinand I) ، وصقلية وارغون من جهة اخرى بيد ابنه « خوان الثاني » (Juan II) (1458/862-1479/884) الذي تكاثرت مشاكله الداخلية خاصة ثورة برشلونة والحرب الاهلية بها التي دامت الى 1473/878) (52) .

لقد ضربت هذه الحرب التجارة البحرية لبرشلونة ضربة قوية امتدت الى حركتهم التجارية في ميناء بجاية . وعبرت عن ذلك رسالة باسم بلدية برشلونة تخاطب فيها آمير بجاية ، مؤرخة في 1473/878 تطلب منه ان يعيد للتجار القتلانيين امتعتهم المحجوزة منذ زمن بعيد نتيجة اعتدائهم على سفينة ميورقية ، وتشهد بوضوح عن انتكاس تجارتهم بسبب الحرب اذ تقول: « لم نستطع ذلك (اي المطالبة بالامتعة) فيما قبل بسبب الحروب المرعبة التي ضربت بلادنا وقوضت لا التجارة فحسب بل جميع شؤون هذا العالــم» (53) . وترجو الرسالة ان يلبي الاميرطلبهم حتى يعودالعديد من تجارهم الى ميناء بجاية مثلما كانوا في السابق (54) .

ورث ابن خوان الثاني « فرديناد » (Ferdinand) عرش ارغون سنة 1479/884 . وكان آنذاك ملكا مع زوجته « ايزابيلا» (Isabella) على قشتالة وملكا على صقلية ، فاصبحا بذلك يحكمان معا قشتالة وأرغون وصقلية .

وقد ركزت سياستهما على هدف واحد : اتمام الوحدة الاسبانية بالاستيلاء اولا على غرناطة . واصبح الملكان يطمحان الى تحقيق اسبانيا العظمى ببنائها في الداخل اولا وصارت قشتالة المجال الحيوي لهذه السياسة . وسخرا جهودهما لاعداد القوة العسكرية وتنقية الوضع الداخلي ،لذلك كله اهملا الحركة التجارية القتلانية ، واجلا الشؤون المتعلقة بالدولة الحفصية .

---

52) برنشفيك ، المرجع نفسه ،ج ١، ص 297 .

53) De MasLatrie , *Relation et commerce del'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge*, Paris 1886 , p. 495 - 497 .
Ibid, p. 497.

54) *Ibid* .

لقد سارت العلاقات التجارية الارغونية - البجائية في خط تنازلي ، بدأت بالافضل وسارت نحو الآسوإ. غير انها لم تنقطع الى منتصف القرن 15/9 ، وعاشت طوال العهد الحفصي ضمن جدلية الطموحات السياسية والمصالح التجارية . واخيرا تغلبت الصعوبات على مستوى العلاقات الديبلوماسية وداخل أرغون نفسها ، فانتكست التجارة القتلانية في ميناء بجاية .

---

55) برنشفيك ، *تاريخ افريقية* ، ج ا، ص 297 .

56) المرجع نفسه ، ج ا، ص 302 .

تطور العلاقات التجارية بين بجاية والجمهوريات الايطالية

تصدرت جمهوريات جنوة وبيزة وفلورانسا والبندقية الحركة التجارية الايطالية في بجاية حسب مرحلتين مختلفتين : مرحلة اولى كانت الصدارة فيها لجنوة وبيزة ، وقد بدأت في اوائل القرن 12/6 وتواصلت الى بداية القرن 15/9 ، ومرحلة ثانية منذ بداية القرن 15/9 الى اواخره ، غابت فيها بيزة منذ ان سقطت في 1409/812 بين يدي فلورانسا التي ورثتها وعوضتها (1) وظهرت البندقية (2) واستمرت جنوة رغم انها اصبحت تحت نظر ميلانو .

ولكننا لن نتبع في تبويبنا هاتين المرحلتين ، بل سنعتبر تاثيرهما عندما يتحتم ذلك في دراسة تطور حالة العلاقات التجارية بين بجاية محل اهتمامنا ،والجمهوريات الايطالية ، لان النظر هنا لا يتعلق بتطور تاريخ هذه الجمهوريات بل يتعلق بتطور العلاقات التجارية البجائية -الايطالية .

هذه المدن الايطالية ، حتى وان كانت لا تمثل وحدة سياسية وطرفا تجاريا واحدا ، فانها عرفت تطورا متشابها في علاقاتها مع بجاية (والدولة الحفصية) رغم انها لم تكن فيما بينها منسجمة بسبب الصراع بين جنوة وبيزة وطموحات الهيمنة من بعضها على الاخروالتنافس التجاري ، وبالتالي كانت حساسة لنفس المؤثرات وهدفت كلها الى المحافظة على استمرارالعلاقات.

---

1) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 250 .

Boutier (R.H.) ," Les grands problémes politiques et économiques de la méditerranée médivale ",*Revue Historique,* t. CC XXXIV , (1965) ,p. 23.

2) Ducellier (A.) ," L'Adriatique et la Berberie au moyen âge : Trafic d'appoint ou trafic caché ? ", *Cahiers de Tunisie* ,N°117-118,(1981) ,p.562 ; Doumerc (B.) , " Venise et la dynastie hafside à la fin du XV è s. ,*cahiers de Tunisie* ,t. XXIX ,(1981),p.573.

لكن بجاية لم تهتم بما كان يجري بين هذه المدن الا حين يزعجها ذلك فتعاملت معها من منطلق مصالحها . لذلك لعبت التطورات الداخلية فيها ، خاصة القرصنة ، دورا هاما في تطور العلاقات بينها وبين المدن الايطالية لذلك لاحظنا مرورها بثلاث مراحل كبرى على مدى العهد الحفصي :

- المرحلة الاولى : تهم القرن 13/7 وتواصلت الى نهاية الثلث الثاني للقرن 14/8 : وهي مرحلة العلاقات الهادئة اجمالا ، والتي تعتبر امتدادا وتدعيما للنشاط التجاري خلال القرن 12/6 .

- المرحلة الثانية : تتفق مع فترة اوج نشاط القرصنة البجائية في فترتي السلطانين ابي العباس أحمد (772/1370-796/1394) وابي فارس (796/1394-837/1434) وهي فترة مضطربة .

- المرحلة الثالثة : وهي اجمالا فترة السلطان ابي عمرو عثمان (839/1435-894/1488) ، عادت العلاقات نشيطة ولكن مع طرفين تجاريين جديدين: فلورانسا والبندقية واستمرار جنوة .

I - الطور الأول ، من بداية القرن 13/7 الى نهاية الثلث الثاني للقرن 14/8 :

1 -علاقات مبكرة مع جنوة وبيزة :

قد تعود العلاقات البجائية الجنوية الى العهد الحمادي ، فيبدو ان جنوة عقدت اتفاقية سلم وتجارة مع بجاية في 531/1137 أو 532/1138 بعد هجومها عليها سنة 530/1136 (3) .

وقد تكون جنوة ابرمت منذ 549/1154 معاهدة مع الموحدين (4) الذين استولوا على بجاية منذ 547/1152 .

وكانت العلاقات الجنوية - البجائية نشيطة خلال النصف الثاني للقرن 12/6 ، فقد نشر « دي ماس لاتري » مجموعة من الوثائق تهم تجارة

---

3) Bautier (R.H.) ," Les relations commerciales entre l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerranéen du XII é au XIV é s ", *Bulletin philologique et historique du comité des Travaux historiques et scientifiques* ,(1953-54) ,p.401; Romano (s) ," osserivazioni in Margine a un Libro " , *In Italia e Algeria* ,Milano 1982,p.9.

4) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 54 هامش رقم 16 .

جنوة مع بجاية آنذاك ،تتمثل في مجموعة من العقود الخاصة بين التجار او المتعلقة بتكوين الشركات التجارية في جنوة ، مؤرخة بين 1155/550 و 1164/559 (5) .

وامضت جنوة معاهدتين أخريين مع الموحدين في 1161/556 و 1176/572 كلاهما لمدة 15 سنة (6)ومنحت امتيازا جبائيا في بجاية تمثل في دفع أداء في الديوان بـ 6 % فقط عوضا عن 10 % ، وفي بقية الموانى 10 % (7) .

وبين « هلمر كروجر » (Hilmar Krueger) ان بجاية تصدرت قائمة الموانى المغربية بالنسبة لجنوة من حيث قيمة التمويلات المخصصة للمعاملات معها بين 1155/550 و 1164/559 بلغت 2529 ليرة جنوية من مجموع 5228 (8) . والنصف الآخر وزع على سبتة (1683 ليرة) وتونس (802 ليرة) والغرب (412 ليرة) وسلا (390ليرة) وطرابلس (142 ليرة) وقابس (88 ليرة) وبقية إفريقية (57 ليرة) .

وبلغت تلك القيمة بين 1179/575 و 1200/596 6147 ليرة من مجموع 24.179 (9) ، سبقتها سبتة فقط بقيمة 18.472 . فقد حافظت على نفس حجم المعاملات تقريبا بينما ارتفع مع سبتة ارتفاعا ملحوظا وبقيت تونس في مرتبة موالية بنصف القيمة المخصصة لبجاية (3132 ليرة) ولاحظت حليمة فرحات ايضا ان سبتة كانت متفوقة على بجاية فيما يخص حجم تجارتها مع جنوة بين 1182/578 و 1184/580 وبين 1186/582 و 1191/587 (9') .

ونشر « دي ماس لاتري » وثيقتين حول تجارة بيزة مع بجاية ترجعان الى العهد الموحدي : الاولى رسالة بتاريخ 3 محرم 577 / 19 ماي 1181 يطلب فيها مطران بيزة وقناصلتها ومستشاريها وشعبها من الخليفة ابى يعقوب يوسف (1163/558 - 1184/580) تسهيل اقتناء الجلد من بجاية(10) وبينت رسالة احتجاج الى نفس الخليفة موجهة من بيزة بتاريخ ربيع I 578 / جويلية 1182 نشرها « أماري » (11) اهمية حجم المعاملات اذ يمكن ان تفوق قيمة البضاعة المنزلة في كل مرة 500 دينار . فقد اشتكوا بان المشرف طالبهم بجلب درع على كل بضاعة تساوي او تفوق تلك القيمة .

(5 De Mas Latrie,éd. ,*Traités ...,op.cit.*, p. 106 sq.

(6 Bautier (R.H.) ," Les relations commerciales ..." , *op.cit.* , p. 401.

(7 *Ibid*.

(8 Krueger (H.) " Genoese trade ..." , *op.cit* ., p. 380.

(9 *Ibid.* , p. 383.

(9' Ferhat (H.) , *Sabta des origines au XIV è s* , éd. Al-Manahil -Ministère des affaires culturelles - Imprimerie El Maarif Al-Jadida -Rabat 1993 , p. 338 .

(10 De Mas Latrie,éd.*Traités* :.., *op.cit.* p. 27.

(11 Amari (M.),éd. ,*I diplomi arabi* ..., *op.cit* ,doc.III,p.10-13.

وعقدت معاهدة بين بيزة وهذا الخليفة بتاريخ 1 رمضان 582 / 15 نوفمبر 1186 ، نشرها « دي ماس لاتري » (12) تسمح لتجارها بممارسة تجارتهم في مواني بجاية وسبتة ووهران وتونس وسواحل الاندلس ما عدا المرية .

وتبين رسالة خاصة بتاريخ ربيع II 604 / نوفمبر 1207 نشرها اماري ايضا (13) ان تجار بيزة اكتسبوا تقاليد ومكانة في بجاية ، بعثها الترجمان احمد بن تميم يطلب وساطة اشياخ بيزة لدى رئيس البحر لاعادته للترجمة والدلالة للبيزيين . ويقول :« جرت عوايد البشانيين (اي البيزيين) ان لا يترجم الا من ارادوه .»

وبقيت سبتة تتصدر المعاملات الجنوية مع مدن بلاد المغرب ، خلال النصف الاول للقرن 13/7 ، تليها بجاية ثم تونس (14) التي بدأت اهميتها تتزايد ايضا .

2 - منذ بداية العهد الحفصي : جنوة وبيزة تركزان على بجاية وتونس على حساب سبتة وسلا :

أ - التطـــور

بدأت جنوة منذ تاسيس الدولة الحفصية تتخلى عن سبتة وسلا والغرب عامة لتتوجه اكثر فاكثر نحو ميناء بجاية اولا ثم تونس ثانيا . وحصلت تغييرات في قيمة التمويلات في نفس الاتجاه (15) ويفسر هذا التحول بالاضطرابات التي وقعت في المغرب الاقصى في نفس الفترة بينما كانت الدولة الحفصية تتدعم .

واتجهت بيزة نفس الاتجاه . وتسابقت الاثنتان للحصول على اكبر المكاسب فابرمت بيزة هي الاولى اتفاقية ذي القعدة 631 / اوت 1234 (16)

---

12) De Mas Latrie,éd. ,*Traités ..., op.cit.* p.28-30.

13) Amari (M), éd. ,*I Diplomi arabi ..., op.cit*,docXXV, p. 75-77.

14) Balard(M.),"Notes sur le commerce génois en Tunise au XIII ès "*cahiers de Tunisie*, N° 155-156, (1991) ,p.371; Jehel (G.) ,*Les Génois en Méditerranée occidentale ..., op.cit.* p. 331.

15) Bono (S) ," Le relazioni commerciali fra i paesi del Maghreb e l'Italia , *Quaderni dell' istituto Italiano di cultura di Tripoli* 1967 ,p. 12; Dufourcq (ch.E) " Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIé s"*in Economies et Societés au moyen âge Mélanges offerts à Ed . Perroy* ,Paris 1972 , p.721-722; Balard (M.) ," Notes sur le commerce gênois ...", *op.cit.*, p. 371-372.

16) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1 ، ص ; 56 - 57:
De Mas Latrie,éd., *Traités ..., op.cit.*, p.31-37 .

للتجارة والسلم مع الامير ابي زكرياء (1249/647-1229/626) ، بعد خمس سنوات فقط من اعلان بيعته الاولى ، ثم لحقتها جنوة فعقدت معه اتفاقية 3 شوال 633 / 10 جوان 1236 (17).

وتحصلت بيزة على امتيازات اكبر اذ تدوم صلاحية المعاهدة ثلاثين سنة بينما بالنسبة لجنوة عشر سنين فقط ولم تمنع من التجارة حتى خارج المواني المعتادة (18) .وتمكنت المدينتان بمفعول الاتفاقيتين من اقامة فندقيهما ببجاية ومدن اخرى .

وتواصلت العلاقات التجارية حثيثة بين كل من بيزة وجنوة من ناحية وبجاية من ناحية أخرى ففي 30 رجب 649 / 18 اكتوبر 1251 ابرمت معاهدة مع جنوة لمدة 10 سنوات (19) وهي تجديد لمعاهدة 633 / 1236 بعد انقضاء مدتها بـ 5 سنوات. وفي 17 شوال 662 / 11 اوت 1264 جددت المعاهدة مع بيزة لمدة 20 سنة (20) قبل انتهاء مفعول المعاهدة السابقة لسنة 631 / 12134 ببضعة ايام .واكدت الاتفاقيتان مرة اخرى على حرية التجارة في بجاية ضمن بنودها . وفي 12 ربيع الثاني 671 / 6 نوفمبر 1272 ابرمت اتفاقية اخرى مع جنوة لمدة عشر سنوات (21) .

لقد حافظت بجاية خلال النصف الثاني للقرن 13/7 على مكانتها الهامة . وقد تطورت التجارة البيزية والجنوية لصالح تونس دون أن يكون ذلك على حساب بجاية بل على حساب سبتة التي فقدت مكانتها الاولى من

---

17) De Mas Latrie ,éd.," Documents relatifs au commerce des Génois sur la côte d'Afrique au moyen âge ", *Bibliothèque de l'Ecole des chartes* ,D,III,(1857),p.439-442;
برنشفيك ، المرجع نفسه و الصفحتان نفسهما .

18) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج ا، ص 57 .

19) المرجع نفسه ، جا ، ص 73 .

20) De Mas Latrie,éd. , *Traités ...,op.cit* ., p.43-47.

21) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ... ، جا، ص 96 .

حيث نصيبها في التمويلات الجنوية المخصصة للتجارة مع الموانى المغربية. فقد اصبح توزيعها كالتالي بين 1250 و 1259 : 47,6 % نحو تونس، 26,7 % نحو سبتة و 25,3 % نحو بجاية (22).

وتؤكد لنا رسالة مؤرخة في 29 شعبان 715 / 20 نوفمبر 1315 (23) من خايم الثاني (690 / 1291 - 727 / 1327) الى ابي بكر (24) حسن علاقات بجاية مع بيزة وجنوة، في ذلك الوقت ايام انفصالها الثاني (1312/712 - 1318/718) . فهي تخبرنا بانها تلقت منهما سفنا حربية لاستعمالها ضد بني عبد الواد، وتعطينا في نفس الوقت مؤشرا لاستمرار النشاط التجاري الحثيث البيزي والجنوي، اذ تذكر لنا إسمي القنصلين وهما :« باولو غريللي » (Paoulo Grielli) قنصل بيزة و «فرانكو دي كورنيغا » (Francho de Cornigo) قنصل جنوة (25) .

ونلاحظ ان المدينتين لم تحولا الاعانة العسكرية الى «مسالة مالية» مثلما فعلت أرغون (26) .

ليس لنا ما ينفي تواصل السير العادي للحركة التجارية البيزية والجنوية ببجاية حتى نهاية عهد ابي بكر، وهو في تونس، سلطان لكامل الدولة الحفصية (1318/718-1346/747) .

احتل المرينيون بجاية في السنة الموالية لوفاة ابي بكر (1347/748) وتبين ان بيزة ولربما جنوة ايضا، حرصت خلال فترة الاحتلال (1347/748-1360/761) على ضمان مصالحها بها، فامضت مع المرينيين معاهدة تجارة وسلم بتاريخ 28 ربيع الثاني 759 / 9 افريل 1358 لمدة عشر سنوات .(27)

(22 Jehel (G.) ,' *Les Génois en méditerranée ...,op.cit .*, p.331 ; Balard (M) ," Le commerce génois ..." , *op.cit.*, p. 372,p.384 note 10.

(23 Masia de Ros (A),éd.,*La corona de Aragon ...", op.cit* ,doc n°139,p.426-428.

24) كان ابو بكر آنذاك مستقلا ببجاية من 1312/712 الى 1318/718 قبل ان يتحول الى تونس، راجع ص73-74 من البحث .

(25 Masia de Ros (A),éd. ,*La corona de Aragon ...,op.cit.*, doc. 139,p. 426.

26) راجع ص 313 -319من البحث .

(27 De Mas Latrie,éd. ,*Traités...*,p.66 sq.

ب - أثر التنافس بين بيزة وجنوة :

نلاحظ ان علاقات بيزة وجنوة بميناء بجاية وغيره من الموانى المغربية كانت تسير متوازية وان الجمهوريتين كانتا حريصتين على تجديد المعاهدات دون انقطاع وعلى تحقيق نفس المكاسب والامتيازات . وتبين انه كلما تحصلت الواحدة منهما على مكسب الا واسرعت الاخرى للحصول على مثله .

تكشف هذه الملاحظات على التنافس التجاري بين المدينتين .

لقد تحول هذا التنافس الى صراع عنيف ومسلح بل الى حروب بينهما انعكست على مواقف السلطة الحفصية تجاه هذا او ذاك ولنا مثال كان فيه ميناء بجاية مسرحا لهذا الصراع ، فقد نشبت سلسلة من المعارك بينهما سنة 638-639 / 1241 (28) وتواصل التوتر : ففي 1245/643 اختطف البيزيون سفينة جنوية في طريقها من اسبانيا الى تونس . فرد الجنويون الفعل بسرعة اذ توجهوا الى ميناء بجاية واحتجزوا سفينة بيزية محملة بالبضائع واحرقوا مراكب اخرى تابعة لبيزة (29) وامتدت الحرب الى رعاياهما المقيمين داخل بجاية او في مدن إفريقية اخرى (30) .

نلاحظ ان معاهدة 1236/633 مع جنوة تنقضي مدتها في شهر جوان من السنة الموالية اي 1246 . ولكنها لم تتجدد الا بعد خمس سنوات كما راينا . فحادثة ميناء بجاية خلفت عند السلطان ابي زكرياء (1249/647-1229/626) انطباعا سيئا عن الجنويين ، وكان لا بد لهم من انتظار عهد المستنصر (1277/675-1249/647) حتى تعقد المعاهدة الموالية لسنة 1251/649 .

ولم تكن حادثة بجاية هي الوحيدة في مياه افريقية ففي جمادى ا، 690 /ماي 1291 اعترض الجنوييون سفينة بندقية قادمة من عنابة واحتجزوها لانهم وجدوا عليها تاجرا من بيزة مصحوبا بحمولة كبيرة من الشمع والصوف .(31) وبحثت بيزة في السنة الموالية بدون جدوى عن سفن جنوية في ميناء تونس للاخذ بثارها (32) .

---

28) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج١، ص 64.

29) برنشفيك ، المرجع نفسه والصفحة نفسها ؛

Bono (S.) " Le relazioni commerciali",*op.cit* ,p. 13.

30) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج١، ص 64 - 65 .

31) المرجع نفسه ج ١، ص 137 .

32) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

استمرت العلاقات التجارية لجنوة وبيزة مع بجاية حسب خط متواصل الى ما بعد منتصف القرن 14/8 . ولم تتاثر الا احيانا إثرتصادمات بين هاتين المدينتين الايطاليتين نتيجة لتنافسهما الشديد ومشاكلهما الثنائية التي لم تكن تهم بجاية والدولة الحفصية الا كلماانعكست على امن الميناء ، لذلك مثلا تصلب موقف ابي زكرياء تجاه الجنويين .

II - الطور الثاني : اضطراب العلاقات الإيطالية -البجائية في عهدي أبي العباس وابي فارس :1370/772-1434/837:

غيرت المعطيات التاريخية الجديدة منذ صعود ابي العباس الى الحكم مجرى العلاقات الديبلوماسية والتجارية بين الدولة الحفصية من ناحية وجنوة وبيزة من ناحية اخرى ، اذ تميزت الفترة باوج القرصنة وصلابة السلطانين ابي العباس وابي فارس من بعده .

لقد تميزت الفترة بتقلبات عديدة :

1 - توترات شاركت فيها جنوة اساسا الى 1390/792 :

تخبرنا وثيقة من ارشيف بيزة مؤرخة في 11 سبتمبر 1378 عن عديد الصعوبات والاعتداءات المتبادلة بين بحارة بيزة والبجائيين (33) وقد شاركت بيزة مع ارغون بعملية استعراضية عدوانية على سواحل الدولة الحفصية ، وساهمت بخمس سفن حربية الى جانب اثنى عشر سفينة جهزتها جنوة ضد إفريقية سنة 1388/790 وشارك معها ايضا احد حكام صقلية بثلاث سفن ، و قام هذا التحالف بحملة ضد جربة في رجب 790 / جويلية 1388 ونهبها واحتلها (34) .ورد الحفصيون الفعل بضرب جزيرة « غودش » المالطية . (35)

ولم ترض جنوة بالنتائج الهزيلة لحملة جربة التي لم يدم احتلالها الا مدة قصـيرة ، بل بقيت القرصنة الحفصية ، والبجائية خاصة شديدة فنظمت

---

33) De Mas Latrie , *Relations de commerce ...,op.cit,*. p.397.

34) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 229 - 230 : *Ibid* , p. 415

35) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج 1، ص :230

بالاشتراك مع فرنسا وبرشلونة حملة ضد المهدية (36) قادها « لويس دي بوربون » (Louis de Bourbon) خال الملك الفرنسي ودوق مرسيليا . وانطلق اسطول التحالف من ميناء جنوة . وشاركت جنوة باثنتين وعشرين سفينة حربية وثماني عشرة سفينة شراعية وبعض الزوارق واربعة آلاف بحار وثلاثة آلاف جندي من المشاة منهم الف من القذافين .

وانضم الى الحملة ما يقارب من الفي متطوع اكثرهم من النبلاء الفرنسيين . مع الملاحظة ان بيزة لم تشارك فيها لربما لانها لم ترد تعكير موقفها اكثر مما حصل نتيجة لمشاركتها في الهجوم على جربة .ووصلوا المهدية حوالي 6 شعبان 792 / 20 جويلية 1390 ومكثوا ينازلونها الى حوالي 8 شوال / 20 سبتمبر من نفس السنة (37) . وقد مَلّ الجنويون واوشكوا على ابرام صلح منفرد (38) .

ان هذه الحملة هي التي تحدث عنها ابن خلدون كنتيجة لتصاعد قرصنة اهالي افريقية وخص بالذكر منهم قراصنة بجاية (39) .

2 - مساع ايطالية واتفاقيات للتقارب من جديد : 1397/800 - 1391/793 :

لم تحقق حملة المهدية ما كانت ترجوه جنوة وغيرها . لذلك سعت الى تغيير مواقفها . وتمكنت بعد مساع مضنية لدى السلطان ابي العباس (1394/796-1370/772) من اتمام اتفاق في 16 ذي القعدة 793 / 17 اكتوبر 1391 اعتبر تمديدا لمعاهدة 1383/785 لمدة 10 سنوات(40) ، وقد تضمن الاتفاق اقرارا بهزيمة جنوة اذ افتدت حسب احد بنوده بثمن باهض مئات من رعاياها الذين اسروا قبل بداية المفاوضات في5 شعبان 793 / 8 جويلية 1391 بينما التزمت باطلاق سراح جميع الاسرى الحفصيين دون غرامة او تمييز .

---

36) ابن خلدون ، *العبر* ، جVI، ص 902- 905 :
برنشفيك ، المرجع نفسه ج I، ص 230 - 234؛
De Mas Latrie , *Relations de commerce ... , op.cit*, p. 416.

37) برنشفيك ، المرجع نفسه ، جI، ص 232 ، 236 .

38) المرجع نفسه ، ج I، ص 233 .

39) راجع ص291-294 من البحث .

40) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، جI، ص 234 - 235 .

وقامت بيزة من جهتها بمساع حثيثة لاعادة العلاقات الى مجراها الطبيعي معتذرة عن مشاركتها في الاغارة على جربة سنة 1388/790 مدعية بانها كانت من عمل بعض الخواص ، ولا دخل للدولة فيها (41) ولن تتكمن من ابرام معاهدة الا في 23 ربيع الاول 14/800 ديسمبر 1397 في عهد السلطان ابي فارس (1434/837-1394/796)، ونصت على صلح مؤبد واكدت تسوية جميع المسائل المالية والالتزام من الطرفين بضمان امن رعايا الطرفين ومقاومة القرصنة ومعاقبة قناصل بيزة في صورة حدوث اعمال عدوانية في الموانى الحفصية .

وخلافا لجنوة وبيزة فان البندقية التي لم تكثف تجارتها بعد في بجاية ، كانت قد تحصلت على معاهدة 1 شعبان 793 / 4 جويلية 1391 بسهولة منذ عهد ابي العباس لانها لم تشارك في الاعتداءين وكانت في 1388/790 قد تملصت من المشاركة بعد ان وعدت بالمساهمة بخمس سفن (42).

برهنت مساعي جنوة وبيزة واتفاقيتا 1391/793 و 1397/800 على ان هاتين المدينتين كانتا على استعداد تام للتفاوض من موقع الضعف . ذلك لان مصالحهما التجارية اصبحت مهددة ، لا سيما في ميناءي بجاية وتونس .

وتبين ان مواقفهما كانت خاضعة لضمان الحركة التجارية ، سواء عندما اعتدتا على إفريقية بنية الحد من اخطار قرصنتها على تجارها او عندما سعتا الى اتمام المعاهدتين

كيف تطورت العلاقات بعد ذلك ؟

3 - علاقات متارجحة لفلورنسا وجنوة خلال الثلث الاول للقرن 15/9 :

من ابرز الاحداث التي ميزت بداية القرن 15/9 في ايطاليا هو سقوط مدينة بيزة بين يدي « فلورنسا » في جمادى II، 812 / اكتوبر 1409 (43) فانفتحت بهذا الاحتلال مباشرة على البحر .

---

41) Amari (M.),éd. ," *I Diplomi Arabi ..., op.cit*, p. 317 ;

برنشفيك ، المرجع نفسه المرجع نفسه ، ج1، ص 235 .

42) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ص 229

43) De la Primaudaie (M.F. Elie) , *Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française*,Imprimerie Ch lahure etCie ,Paris 1861,p.139;De Mas Latrie, *Relations de commerce ...*, p.443

برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 249- 250 ،

Bautier (R.H) ," Les grands problémes ..." ,*op.cit.* , p. 23-24.

وصار تجار بيزة يتاجرون تحت رايتها ، بينما كان في الماضي تجار فلورانسا هم الذين يتاجرون تحت راية بيزة (44).

واصبحت فلورانسا وريثة بيزة في علاقاتها ومكاسبها في الدولة الحفصية ، بما في ذلك علاقاتها ومكاسبها في ميناء بجاية .

وفي 1421/824 تدعـــم اتصالهـــا بالبحر باحتلالها « ليفورنة » (Livourne) (45) . وفي نفس السنة ضبط نص اول اتفاقية بينها وبين افريقية بتاريخ 7 شوال 824 / 5 اكتوبر 1421 عن طريق سفيرها « بارتالمي دي غاليا » (Barthélemy de Galea) (46) .

ولكن لم تصادق فلورانسا عليها في ربيع 825 / 1422 اثرعودة السفير . ولم تتم المصادقة الا سنة 1423/826 بعد سفارة « ماتيونيري فيورافنتي » (Matéo Neri Fioravanti) الى تونس ، غير ان فلورانسا لم تلبث ان اعتبرت الاتفاقية ملغاة بسبب اعمال القرصنة التي قام بها القراصنة الحفصيون وفي مقدمتهم البجائيون على سواحل « توسكانا» ، وحاول احد تجارها المقيمين بتونس سنة 1427/830 تهيئة الظروف المناسبة لاتمام معاهدة جديدة .

ولكن مرة اخرى ابدت سلطات فلورانسا في 1429/832 تخوفها من اية عملية جديدة قد يقوم بها الحفصيون (47) ، لذلك ، لم يتم اي اتفاق فعلي بين الدولتين خلال الثلث الاول للقرن 15/9 . وهذا يعني ان تجار فلورانسا ، مهما كانت اصولهم اي بيزيين او غيرهم ، كانوا يقومون بتجارتهم طوال هذه المدة دون اية ضمانات او امتيازات .

لقد غاب اسم بيزة ، ولكن لم يغب تجارها في الواقع . بينما تواصل اسم جنوة رغم انها كانت آنذاك في علاقة تبعية لميلانو ، اي ان هذه التبعية لم تمنعها من مواصلة نشاطها التجاري وعلاقاتها مع بجايـــة وبقية الموانـي ، لا سيما تونس ، كطرف قادر على التخاطب باسمه .

نحن نتسائل عن تطور هذه العلاقات بعد معاهدة 16 ذي القعدة 793 / 17 اكتوبر 1391 . هل اثمرت اتصالات هادئة وهل ساعدت على نسيان الماضي ؟ .

---

44) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 263 .

45) De Mas Latrie , *Relations de commerce ..., op.cit.*, p. 443 ;
برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج 1، ص 264 .

46) De Mas Latrie, *Ibid* ., p. 444 ، برنشفيك ، المرجع نفسه والصفحة نفسها .

47) برنشفيك ، المرجع نفسه والصفحة نفسها .

يمكن ان نفهم طبيعة العلاقات في الثلث الاول للقرن 15/9 باستعراض سريع لبعض الاحداث (48) : ففي خريف 1398/801 بعد سنة فقط من الاتفاق اغارت سفن حربية جنوية على اربع سفن تونسية بالقرب من صقلية . وتفطنت الحكومة الجنوية الى خطورتها فاسرعت بتقديم اعتذاراتها الى ابي فارس الذي حجز رغم ذلك بضائع تجارها الموجودة في بلاده .

وفي 1399/801 ارسلت جنوة سفيرا للتفاوض قصد تسوية المسائل المتعلقة بالاشخاص والاملاك . وفي ربيع سنة 1412/815 نظم والي بجاية غارة على سواحل ليغوريا حيث توجد جنوة . وكانت لا شك حملة تاديبية وثارية وفي نفس الوقت عملية رابحة ماديا .

وفي سنة 1430/833 استولى القراصنة الحفصيون لا شك كانوا بجائيين ، على بعض السفن الجنوية وقادوها مع راكبيها الى بجاية .

نستخلص ثلاثة استنتاجات :

- اولا ، تميزت العلاقات في هذه الفترة (الثلث الاول للقرن 15/9) بعدم الاستقرار بل بالتوتر ، فالاتفاقية السابقة لم تمنع الاعتداءات المتبادلة .
- ثانيا ، كان التفوق عند الاتصالات الديبلوماسية للحفصيين ، وايضا عند القيام بعمليات القرصنة فجنوة هي التي كانت تسعى للاعتذار واصلاح ما فسد ، لانها تتفطن ان مصالحها التجارية اصبحت مهددة .
- ثالثا ، كان لهذا التوتر تاثير مباشر على سير التجارة وعلى مصالح التجار، اذ انعكس رد فعل السلطان مباشرة عليهم بحجز بضائعهم .

ان الفترة القصيرة التي تلتها الغارة على المهدية لم تكن في واقع الامر الا هدنة هضمت خلالها بيزة وجنوة فشلهما وانشغلتا بانقاذ العلاقات التجارية حتى وان كان ذلك بالاعتراف الضمني بالهزيمة . لكن التطور العام من بداية عهد ابي العباس سنة 1370/772 الى نهاية عهد ابي فارس 1435/837 لم يتميز الا بالتقلبات . وكانت القرصنة سببها الرئيسي .

ونلاحظ ان بيزة كانت اكثر اعتدالا بينما تعددت اعتداءات جنوة . لذلك كانت العلاقات معها اشد توترا.

وكانت بجاية فعالة في ردود الفعل بوصفها قاعدة اولى للقرصنة .

ولقد تمازجت هذه المشاكل الثنائية بمشاكل التنافس بين الايطاليين انفسهم لتزيد الامر تعقيدا .

---

48) المرجع نفسه ، ج1، ص 248- 249 ، 266 .

والنتيجة ان العلاقات التجارية ومصالح التجار كانت تسير في جو من الصعوبات في بجاية وتونس حيث يتكاثف نشاطهم.
كيف سارت العلاقات بداية من عهد عثمان ؟

III - الطور الثالث : تنشيط العلاقات التجارية ، والبندقية

ظرف تجاري جديد في بجاية :عهد عثمان (1488/894-1435/839):

تغيرت الظروف في الداخل ، اذ كان السلطان عمرو عثمان اكثر استعدادا ممن سبقه لتنشيط العلاقات التجارية :

وتغيرت الظروف الخارجية

في الحوض الغربي للمتوسط اشتد التنافس بين جنوة وارغون بداية من (823 / 1420 الى 844 / 1440) (49) حتى اصبحت جنوة غير قادرة على دخول مياه صقلية التي كانت تحت سيطرة ارغون ، فعملت على تحويل نشاطها نحو بجاية اكثر من غيرها.

ومن جهة اخرى ، تخلصت جنوة منذ ربيع II جمادى I 839 / ديسمبر 1435 من سيطرة دوق ميلانو ('49) فاصبحت تتحرك ديبلوماسيا بسهولة اكبر.

وقد جددت معاهداتها في 4 صفر 848 / 23 ماي 1444 لمدة عشرين سنة (50) وفي 17 رجب 869 / 15 مارس 1465 لمدة ثلاثين سنة (51)

ويخبرنا عبد الباسط بن خليل في 871 / 1466 عن وجود خط تجاري بحري بين جنوة وافلندة (Flandre) . والمهم بالنسبة لبجاية انه كان يتوقف بمينائها ، فقد قال:« و في يوم تاسع عشرينه (اي29 صفر 871) ورد الى ساحل مدينة وهران شونية عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين برسم الاتجار ...». ثم اخبرنا بانه ركب هذه الشونية وانها دخلت بجاية في منتصف ربيع الاول 871 / اواخر اكتوبر 1466 ('51).

---

49) Bresc (H.) ," La Sicile et la mer : marins , navires et routes maritimes " , *in* *Navigation et Gens de Mer en Méditerranée de la Préhistoire à nos jours* ,Actes de la table ronde du groupement d'interêt Scientifique Sc. humaines sur l'aire méditerranéen ,Cahier n°3 ,CNRS Paris 1980,p. 65

'49) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1 ، ص 283 .

50) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

51) المرجع نفسه ، ج1، ص 293 .

'51) Brunschvig (R.),éd. ," Deux récits de voyage ..." , *op.cit.* ,p. 67-68 .

وتغيرت الظروف في المشرق خاصة بالنسبة للبندقية ، اذ اصبح زحف العثمانيين يضايقها ويضايق التجار الايطاليين عامة لاسيما في بحر إيجه (.52) ورغم ان البندقية عرفت كيف تصون اجمالا نشاطها التجاري في المشرق (53) فانها عملت على تحويل جزء منه الى بلاد المغرب . وكانت بجاية اول الموانى التي اضافتها الى دائرة معاملاتها .اما في تونس فحضورها ليس جديدا (54) .

وانشات البندقية اول مؤسسة بحرية نحو سواحل إفريقية وبلاد المغرب بمشاركة الدولة في جمادى الثانية 840 / ديسمبر 1436 (55) وبدأت رحلاتها حسب خط بحري منتظم في 841 / 1437 يمر بصقلية وتونس والموانى المغربية وجنوب اسبانيا .

واصبحت بجاية منذ 1446/850 محطة اجبارية حددت مدة التوقف بها بـ 6 ايام (56) . وتاتي في المرتبة الثانية مع هنين بعد تونس التي يدوم التوقف بها 20 يوما والبقية : الجزائر 3 ايام وبونة : يومان ومالقة :يومان . بينما كانت سرقوسة وطرابلس (ليبيا) محطتين اختيارتين (57) .

وجـــاءت اتفاقية ذي القعدة 860 / اكتوبر 1456 لتدعم هذا المسار (58) وقد ابرمت بسهولة لمدة ثلاثين سنة .

---

52) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج١، ص 298 299؛
Ducellier (A.) ," L'adriatique et la Berbérie ..." ,*op.cit.* p. 563.

53) Bautier (R.H.) ," Les grands problèmes ..." ,*op.cit.*, p.25.

54) يرجع الى العهد الموحدي ، وتدعم بسلسلة من المعاهدات في العهد الحفصي في 1251/649 ، 1271/670 ، 1281/680 ، 1317/717 ، 1391/793 ، 1427/830 ، برنشفيـــك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ١ص 73 ،96 ، 115 ، 164 ، 191 ، 234 .

55) برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج١، ص 281 ،282 ؛
Doumerc (B) ," Venise et la Dynastie hafside à la fin du XVès " ,*Cahiers de Tunisie* ,t.XXIX ,(1981) ,p.573-574;Stockly (G.) " les premiers convois de galées commerciales vénitiennes en direction de la Barbarie au milieu du XVé s " , *Cahiers de Tunisie* ,N° 155-156, t.43,(1991),p. 479-511

56) Stöckly (G.) ,*Ibid.* , p. 494.

57) *Ibid.*, p . 482.

58) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ١، ص 293 .

وبين دفتر العدل « جيوفاني مانزيني » (Giovanni Manzini) الذي يتعلق بالفترة المتراوحة بين 1472/877 و 1475/880 ان بجاية مثلت آنذاك مع تونس وطرابلس اهم محطات التجارة البندقية على السواحل المغربية ('58) .

اما فلورانسا ، فقد نما حضورها ايضا بعد ان تخلصت من مشاكلهابوفاة ملك نابولي في رمضان 862 / جوان 1458 الذي كان يهددها برا وبحرا (59). وسرعان ما عجلت إثر ذلك بمجاراة البندقية في تاسيس خط بحري رسمي اي بمشاركة الدولة نحو الموانى المغربية في نفس السنة اي 862-1458/863 (60) تؤمنه سفينتان تمران من جنوة ثم تتوجهان نحو الموانى الحفصية . ومثلت بجاية ميناء اجباريا الى جانب تونس وعنابة والقل وتتوقفان به 3 ايام على اقصى تقدير ما عدا تونس حيث تتوقفان 12 يوما على الاكثر (61) ، ثم تمران الى المغرب الاقصى وجنوب اسبانيا .

لقد تغيرت الاوضاع في نهاية القرن 15/9 داخليا وخارجيا .

دخلت الدولة الحفصية بعد وفاة عثمان سنة 1488/894 فترة انحطاط لا رجعة فيه وعاشت بجاية ذاتها الانحلال والصراعات .

وهيمن الاسبان عسكريا وسياسيا على الحوض الغربي للمتوسط ، وبدأت سلسلة توسعاتهم في شمال إفريقيا في بداية القرن 16/10 .

وقد تكررت منذ 1487/892 اعمال العنف الاسبانية ضد سفن البندقية حتى وقع ايقاف الخط البحري الرسمي لبلاد المغرب نهائيا سنة 1508/914 (62) وبعدها بسنة احتلت بجاية من قبل الاسبان .

---

58) Ducellier (A.) ," Le registre de Giovanni Manzini ..." , *op.cit.*,p. 523.

59) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ا، ص 293 .

60) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

61) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

62) Doumerc (B) ," Venise et la dynastie hafside ...", *op.cit.*, p. 578.

الخاتمـــــــــــة:

ركز الايطاليون على مصالحهم التجارية خلافا لارغون التي هدفت الى بسط الهيمنة السياسية وفرض الحضور التجاري فرضا .

لذلك نراهم يبادرون باصلاح الوضع والاسراع بتحسين العلاقات والعمل على عدم انقطاعها . وحتى جنوة التي ابدت مواقف عدائية تراجعت بعد الاغارة على المهدية سنة 1390/792 تراجعا نهائيا .

واذا كانت ارغون تتفاوض من موقع الشعور بالتفوق فان المدن الايطالية لم تتردد من اجل ضمان الحركة التجارية في تقديم التنازلات .

وعرفت التجارة الايطالية في بجاية وموانى الدولة الحفصية بداية من عهد عثمان تطورا معاكسا لتجارة ارغون . فقد نشطت ، وتغذت بقدوم البنادقة لبجاية بينما تقلصت التجارة الأرغونية ولعلها استفادت من غياب الأرغونيين لا سيما ايام الحرب الاهلية في برشلونة (63) فنمت تجارتها دون ازعاج منهم ، واسس الخطان البحريان القارا*ن البندقي والفلورنسي .

وباجمال ، فان تجارة المدن الايطالية ببجاية ، رغم فترة التقلبات ومشاكل القرصنة كانت مستمرة إلى نهاية القرن 15/9.

---

63) راجع ص321 من البحث .

تطور العلاقات مع بقية البلدان :

مرسيليا - ميورقة - أفلندة ، بلاد المشرق

لقد جمعنا باقي بلدان المتوسط وأفلندة في محور مشترك لانها لم تشكل نفس اهمية أرغون او المدن الايطالية ، ماعدا مرسيليا في فترة زمنية اولى . ولا يعني هذا انها خضعت لنفس التطور ، بل انها عرفت تطورات مختلفة سنحاول البحث فيها .

ا - تطور العلاقات مع مرسيليا :

أشار رجين برنو (Régine Pernoud) الى ان بجاية كانت تعد في القوانين الاساسية لمدينة مرسيليا ، الى جانب سبتة والاسكندرية اهم المواني التي كان يتردد اليها تجارها .(1)

ولكن ذلك في الواقع لا يهم كامل فترات حياة بجاية في العهد الحفصي .

فقول « برنو» ينطبق على المرحلة الاولى من مراحل تطور العلاقات التجارية البجائية - المرسيلية ، التي امتدت من بداية ايام الحفصيين الى 1293/692 و بعد ذلك غابت تجارة مرسيليا مع ميناء بجاية ولم تعد الا بعد منتصف القرن 15/9 . ولربما تمت بعض العمليات التجارية في فترة اوج القرصنة البجائية بالتوازي مع محاولات استرجاع الاسرى .

---

1) Rambert (G.) ,Busquet (R.), Pernoud(R.) , Baratier (E.) , Reynaud (F.) ,Collier (R.) et Billioud(J.) ,*Histoire du Commerce de Marseille* , 3 tomes (de l'antiquité à 1599),Paris, 1949 -1951 , t.1 ,p. 169.

1 - علاقات تجارية مرسيلية بجاثية هادئة ونشيطة من بداية العهد الحفصي الى 1293/692 :

بدأت العمليات التجارية للمرسيليين منذ اواخر العهد الموحدي. ففي 1210/607-606 نظم « اتيان دي مانديال » (Etienne de Manduel) ، التاجر المرسيلي الكبير ، صفقة الى بجاية (2) ونرى بعد عشر سنوات اي في 1220/617 وكيل مرسيليا يطلب من عامل بجاية حماية القنصل الذي ارسله مع التجار (3) ونص القانون الاساسي لمدينة مرسيليا سنة 1228/625 على تراتيب بيع الخمور من قبل تجارها في بجاية ، وكذلك في سبتة ووهران وتونس ولكنه يؤكد على بجاية وسبتة (4) .

استمرت الحركة التجارية المرسيلية في بجاية بنسق عادي منذ الايام الاولى للعهد الحفصي فقد ورد الحديث عن قنصل لمرسيليا ببجاية في 1233/630 (5) غير اننا لا نعرف ان كان قارا ام وقتيا .

وتشير سجلات العدول ان سفينتين ، « سان فرنسوا » (Saint François) و «سان جيل » (Saint Gilles) توجهتا الى بجاية في 1248/646وان العدل « جيرو أملريك » (Giraud Amalric) حرر بهذه المناسبة اكثر من 26 وثيقة (6) وقد كان الجزء الاكبر من حمولتها لحساب اليهود (7) .

وكانت عقود العائلة التجارية المرسيلية « مانديال» (Manduel) وصفقاتها كثيفة الى حدود منتصف القرن 13/7 (8) ثم تلتها على ما يبدوعائلة « فريسول » (Ferrussol) (9) وعائلات اخرى .

---

2) *Ibid .*

3) *Ibid.*

4) De Mas Latrie , éd ., *Traités..., op.cit.*, p. 89-90; *Du même , relations de commerce ...,op.cit .*, p. 369. Caille (J) ," Les Marseillais à ceuta au XIII é s " ,*in Mélanges d'histoire et d'archéologie de l' Occident Musulman , Hommage à G. Marçais* , 2 tomes , Alger 1957 , t.II. , p.26 .

5) De Mas Latrie,éd., *Traités ...,op.cit.*, p. 34 et 197 : برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص 465 .

6) برنشفيك ،المصدرنفسه ج 1 ، ص 443 ؛ Pernoud (R.) ,*Histoire du commerce ...,op.cit*, tI, p. 170-171.

7) Pernoud (R.) ,Ibid. ; برنشفيك ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

8) Pernoud, *Ibid .*, t. I , p. 170; Valérian (Dominique) , *Bougie , Port maghrébin , du Xi è au XVI è s*, Mémoire de DEA (Dactylographié) ,sous la direction de Michel Balard , Université de Paris 1 ,1993 -94 , p. 113.

9) Pernoud, *Ibid* , tI . ,p. 171.

لنا مؤشرات اخرى تقوم دليلا على استمرار الحضور التجاري المرسيلي ببجاية :

ففي 1253/651 ذكرت بجاية في قانون مرسيليا الاساسي ضمن مدن ما وراء البحار التي توجد بها قنصليات مرسيلية (10)

وفي 1263/661 و 1264/662 ذكر فندق بجاية كمصدر من مصادر مداخيل « الكونت دي بروفنس » (Le comte de Provence)(11)

وفي 5 شعبان 666 / 20 افريل 1268 عينت مرسيليا التابعة آنذاك لشارل دانجو (Charles d'Anjou) « هوق بورقونيون » (Hugues Bourguignon) قنصلا على سفينة تجارية متوجهة الى بجاية صاحبها « هوق لاري » (Hugues LaRue)(12) .

لم يدم هذا الوفاق الى ابعد من سنة 1293/692 فماذا حدث وكيف تطورت العلاقات ؟

2 - توتر وغياب طويل : من 1293/693 الى بداية الثلث الاخير للقرن 15/9 :

أ - ازمتان وقطيعة :

انفجرت ازمة اولى بين بجاية ومرسيليا في عهد الانفصال الاول (1309/709-1285/684) .

لقد ارسل تجار مرسيليا وقنصلان لها ببجاية رسالة بتاريخ 9 رجب 692 / 15 جوان 1293 يتذمرون فيها من سوءمعاملة اعوان الميناء لهم (13) . فقد وصل الامر الى ضرب البعض منهم واجبارهم على دفع الاداءات و تسليم البضاعة الى مشتريها قبل قبض ثمنها . ولم يشفع لهم الا رئيس البحر حسب قولهم . ووصف باعثو الرسالة هذه الاعمال بكونها منافية لاتفاق السلم المنعقد بينهم . و لا تذكر الرسالة الاسباب الحقيقية للازمة . ولكن يبدو ان الاسباب تتجاوز مشكلة دفع الاداءات او تسليم البضائع

لربما تكون المسالة مرتبطة بالقرصنة المرسيلية .

فقد اصدر الملك « شارل دانجو» ثلاث مرات متتالية أمرا الى محافظ منطقة بروفانس (Provence) لمنع قراصنة مرسيليا ونيس من التعرض

---

10) De Mas Latrie,éd. , *Traités ...,op.cit*,p.90. : برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ،ج ا، ص 74.

11) De Mas Latie,éd. ,*Ibid* , p.91-92.

12) Du même ,éd.," Chartes Inédites... " *op.cit*, p. 388-393 ; Du même ,éd., *Traités...*, *op.cit*, p. 91-92 : برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج ا، ص 85-86 .

13) De Mas Latrie,éd., " Chartes inédites..." , *op .cit.*, p.393-396; Du même,éd., *Traités ...*, *op.cit* ,p.97;Baratier (E.), *Histoire du commerce de Marseille* . op.cit, t.II, p. 98; Valérian (D.)*Bougie , port Maghrébin ...*, *op.cit.*, p. 118.

للرعايا الحفصيين : في صفر 673 / اوت 1274 (14)وفي جمادى ا و اا 674 / نوفمبر 1275 (15) وشوال 675 / مارس 1277 (16) .

ان توالي هذه الاوامر في مدة وجيزة لهو دليل على تصاعد نشاط القراصنة ضد الحفصيين حتى اصبح من المسائل التي تشغل باله .

ستنفجر في 1314/714 ازمة جديدة ، ولكن في ظروف سياسية جديدة ، تمثلت في تاسيس الدولة المستقلة الثانية(1312/712-1318/718) على يدي ابي يحيى ابي بكر . وهذا يدل على ان سبب التوتر مستمر ولم يزل بزوال الدولة السابقة الشيء الذي يرجح مرة اخرى بان تكون القرصنة هي السبب .

ففي 1 ربيع الثاني 714 / 16 جويلية 1314 اقدم فجأة ممثل سلطان بجاية نفسه على تجريد سفينة مرسيلية من السلاح كانت تستعد للانطلاق وامر بحجزها وبيع ما عليها من السلع ، وسجن تجارها منهم « شارل اتو » (Charles Atous) و هوق دي سرفيار » (Hugues de Servières) و « بيار فنسان »(PierreVincent) (17) الذين بعثوا رسائل الى حاكم مرسيليا يحثونه على التدخل السريع بتجهيز سفن حربية ضد بجاية (18) ولكن لم يحصل شيء من ذلك .

واطلق سراح « شارل اتو» ورفاقه مجردين من متاعهم في 26 ربيع اا 716 / 18 جويلية 1316 ، فسعوا دون جدوى الى القيام بعمل يرجع لهم متاعهم (19) .

وكانت تبعات هذه الازمة كبيرة ، فقد أُبِيد فندق المرسيليين في 1316/716 ، وغابت الوثائق المتحدثة عنهم بين 1314/714 و 1332/732 وبين 1354/755 و 1379/781 (20) . وباجمال انقطعت العلاقات التجارية ماعدا بعض العمليات الاستثنائية المنعزلة في فترة ما بعد 1332/732 (21)

---

14) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج1، ص99.

15) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

16) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

17) Baratier(E.) ,*Histoire du commerce de Marseille ...*, *op.cit* .t. II, p. 99; Valerian(D.) , *Bougie ,port Maghrébin ...,op.cit*, p.119-120.

18) Balard (E.), *Ibid .;* Valerian (D.) , *Ibid .,* p. 120 .

19) Baratier (E.) ,*Ibid,* t.II ,p. 100.

20) Bautier (R.H.)," Relations entre l'Europe et l'Afrique"...,*op.cit.*,p.412.Valerian (D.), *Bougie ,port Maghrébin ...,op.cit* , p. 121.

21) انظر :

Baratier, *Histoire du commerce de Marseille ... op.cit* ,t.II ,p.101- 103 .

ب - عمليات تجارية استثنائية متزامنة مع أوج القرصنة البجائية :

وقد تكون فترة أوج القرصنة البجائية في الثلث الاخير للقرن 14/8 والثلث الاول للقرن 15/9 قد عرفت عودةبعض العمليات التجارية المصاحبة للمفاوضات حول الآسرى (22) ، واهم مثال هو ما كان يقوم به التاجر « توماس كولومبي » (Thomas Colombier) ('22) الذي عمل على الاستفادة من هذا الوضع .

ولكن لا يمكن ان نتحدث عن عودة علاقات تجارية متواصلة بل كانت الصعوبات متفوقة ، ونلاحظ ان مرسيليا شاركت هي ايضا في الحملة ضد المهدية سنة 1390/792 وهذا يعمق الخلافات ولا يخدم الانفراج .

3 - العودة القصيرة خلال الثلث الاخير للقرن 15/9 :

شهد الثلث الاخير من القرن 15/9 عودة النشاط المرسيلي في بجاية . وقد استطاع التاجر « بيار بالبو »(Pierre Balbo) في 1475/880 الدخول بنفسه حتى الى قسنطينة .

ولاحظ « رايمون كوليي » (Raymond Collier) في كتاب « تاريخ تجارة مرسيليا »ان نشاطها التجاري على السواحل المغربية كان اهم من نشاطها في المشرق بين 1480/885 و 1515/921 (23) .

وقد تفسر هذه العودة من الجانب الحفصي باستعداد السلطان عثمان (1488/894-1435/839) لتنشيط التجارة ، ما لم يعتد الطرف المقابل على حرمة الحفصيين .

وتفسر من الجانب المرسيلي بمجهودات السلطة : ففي 1473/878 سمح الملك ريني(Le Roi René) للاجانب بان يتاجروا في ميناء مرسيليا بكل حرية وضمن لهم الامن في البحر والبر . ويرى « باراتيي» (Baratier) ان المقصودين بهذا القرار هم قبل غيرهم تجار بجاية وتونس (24). لا نعتقد ان هذه العودة يمكن ان تقارن بنشاط القرن 13/7 . فمخلفات فترة الانقطاع والتوتر الطويلة لا يمكن ان يقع تجاوزها بسرعة ، اذ كان لا بد من اعادة التنظيم وإرساء الهياكل وإحياء التقاليد التجارية .

وهي عودة قصيرة فالاسبان لم يتاخروا طويلا في بداية القرن 16/10 ليحتلوا بجاية في 1509/915 ، وبدأ مع احتلالها تدهورها السريع .

الخــــــاتمة :

ان مرسيليا لم تمثل طرفا حقيقيا وفعالا في تجارة بجاية الا في الفترة الاولى اي القرن 13/7 . اما بعد ازمة 1314/714 فمساهمتها كادت

---

22) Valérian (D.), *Bougie ,port Maghrébin ...,op.cit* , p. 123-128

'22) Baratier (E.) *Histoire du commerce de Marseille ..., op.cit.*, t.II, p. 110.

23) Collier (R.) *Histoire du commerce de Marseille ..., op.cit.*, t. III p. 120.

24) Baratier (E.) , *Histoire du commerce de Marseille ..., op.cit.* t.II, p. 403.

تنعدم تماما لولا بعض العمليات التجارية المنعزلة والعودة القصيرة في الثلث الاخير من القرن 15/9 .

II - العلاقات مع بقية البلدان :

1 - ميورقة :

لم تمثل ميورقة دائما طرفا مستقلا بذاته اذ كانت من حين لآخر تابعة لأرغون . وعندما انفصلت ميورقة في 1298/697 عن ارغون سعت الى تمتين علاقاتها مع بجاية التي كانت آنذاك مستقلة عن تونس وتقوية حضورها التجاري . وحاولت ان تعزز وجودها بتركيز قنصلية بها منذ 1300/699 ، لكنها فشلت بتدخل من ارغون . فكان رد فعلها ان منعت بيع البضائع القادمة من بجاية وإفريقية على التجار الذين لا يحملونها على سفن ميورقية (24') واستطاعت في 21 ربيع II 702 / 12 نوفمبر 1302 ان تنصب قنصلا لها ببجاية اسمه بينات بلانكاس (Benet Blancas) (25) .

ونتج هذا التحول عن اتفاقية صفر ربيع الاول 702 / اكتوبر 1302 (26) . وقد هدفت ميورقة ان تحصل على نفس الامتيازات التي تحصلت عليها أرغون في تونس بفضل اتفاقية 1301/701 ، واهمها الاعفاء النسبي على الضرائب والسماح باقامة فندق قار ببجاية وبعض المدن التابعة لها ،وتعويض الضرر الحاصل عن القرصنة البجائية في المدة السابقة المقدر بـ 2000 دينار ذهبي تخصم من الاداءات في الميناء بنسبة الربع .

وجددت ميورقة معاهدتها في 21 رجب 712 / 23 نوفمبر 1312 (26') . وتعهد ابوبكر بان يتنازل عن نصف الضرائب المسلطة على الاداءات اي ما يقابل 1500 دينار ، راجيا ان يحصل منها على سفن حربية لاستعمالها ضد بني عبد الواد .

وقد فترت العلاقات الديبلوماسية بعد الاعانة العسكرية الميورقية لسنة 1315/715 الى ان عاد الطرفان للتفاوض في 1329/729 وتوصلا الى ابرام اتفاقية 17 رمضان 729 / 15 جويلية 1329 . التزم ابو بكر بمقتضاها بدفع 14500 دينارا تخصم من الضرائب في الميناء .لكن بلانكاس (Blancas) اشترط دفعها مباشرة ، وقبض منها فعلا 8000 دينارا (27) .

(24' Dufourcq (Ch.E.) *L'Espagne Catalane ..., op.cit.*, p. 420 .

(25 Aguilo (E.K.),éd. ,"*Creacio del Consulat de Bugia ...*" , *op.cit.*, p. 220.

(26 Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ...op.cit.* , p. 421.

(26' Aguilo (E.k) ,éd. , Tractat de pau ..." ,*Op.Cit.* ,p.217-220.

(27 Dufourcq (Ch.E.) , *L'Espagne Catalane ...op.cit.* , p. 530.

واعتبرت هذه القيمة دينا متخلفا يرجع الى اعانة 1315/715 . وقد رجا ابو بكر ان يحصل على سفن اخرى . ولكن ميورقة لم تقدم له شيئا .

وسيطالب بيدرو الرابع ملك أرغون (1336/736-1387/789) السلطان الحفصي فيما بعد بمخلفات ديونه نحو ميورقة عندما اصبح ملكا عليها بداية من 1343/742 (28) .

2 - العلاقات مع أفلندة والاندلس والمشرق :

لقد تنوعت العلاقات خارج المعاملات مع الاطراف الرئيسية ، سواء مباشرة او بصفة غير مباشرة . فقد ارتبطت بجاية تجاريا ايضا بافلندة والاندلس والمشرق . ولكننا لا نستطيع تتبع تطور هذه العلاقات اذ لا نملك المعطيات الكافية لذلك .

فقد كانت سلع بجاية تصل الى أفلندة اذ ذكرت لنا وثيقة مؤرخة في نهاية القرن 13/7 ما يلي:

« تجلب من مملكة بجاية فروة الاغنام ، والجلود والشمع وشب الريش »(29)

وتفيدنا رحلة عبد الباسط بن خليل الذي مر ببجاية سنة 1466/871 ان هذا الاتصال مستمر في اواخر العهد الحفصي البجائي ، وان جنوة هي التي كانت تؤمنه ، اذ حدثنا عن قدوم سفينة جنوية « من بلاد أفلندة ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط » ثم عن إرسائها ببجاية (30).

اما بالنسبة للاندلس ، فقد ذكر ابن خلدون الشياب الحريرية التي استجلبها من هناك ابوالفضل قهرمان قصر ابي البقاء خالد الى بجاية (1301/700-1309/709) (31) . وجنوة اساسا هي التي كانت تربط بينهما خلال القرنين 13/7 و 14/8 الى جانب سفن قتلانية ،ثم اصبحت البندقية وبعدها فلورنسا تزاحمانها خلال القرن 15/10 بعد تاسيسهما للخطين البحريين الرسميين (32) .

ولنا إشارات عن المشرق في مصادر عربية : حدثنا ابن الآبار عن مركب « للروم » سنة 1148/543-1149 ربط بجاية بالاسكندرية (33) .

---

28) راجع ص 316-319 من البحث .

29) De Mas Latrie,éd., *Traités... ,Op.cit .*, p. 99.

30) Brunschvig (R.)éd.,*Deux récits de voyage ..., Op.Cit* . p.67-68.

31) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VI، ص 725 .

32) راجع ص 336 من البحث .

33) ابن الآبار ، *المعجم في اصحاب القاضي الامام على الصدفي* ، مطبعة روخس 1885 ، ص 167.

واخبرنا ابن جبير عن خروج مركب « للروم » من مدينة صور متوجها الى بجاية في جمادى الاول 580 / سبتمبر 1184 (33'). وذكر لنا الغبريني في القرن 13/7 ان مركبا « نصرانيا » قدم من بلاد الشام الى ميناء بجاية (34).

وكشف لنا ابن خلدون عن خط بحري سنة 1386/788 كان يربط اسبانيا ووهران وبجاية والاسكندرية ، كانت تؤمنه سفينة لـ «بعض تجارالنصارى » وقد افادنا بهذه المعلومات عند حديثه عن سفر ابي حمو المخلوع .(35)

يتوضح جيدا ان كل هذه الاتصالات كانت داخلة في دائرة معاملات الاوروبيين مع المشرق ومسالكها ، وان بجاية كانت إحدى حلقاتها .

الخـــاتمـــة :

هل يمكن ان نستخلص من كل هذه التحولات المراحل العامة لتطور الحركة التجارية داخل ميناء بجاية في العهد الحفصي ؟

تبرز لنا ثلاث فترات كبرى :

1) فترة اولى : امتدت على القرن 13/7 وبداية القرن 14/8 ، التقت فيها جميع الاطراف التجارية للحوض الغربي للمتوسط ، وحاول كل منها ان يدعم حضوره وهياكله : الايطاليون والمرسيليون دعموا حضورا حضورا سابقا ، والقتلانيون والميورقيون لحقوا بهم ، الى ان اصبحت كل هذه القوى التجارية حاضرة معا في مدخل القرن 14/8 .

2) فترة ثانية : بدأت خلال الثلث الاول للقرن 14/8 وتواصلت الى بداية حكم السلطان ابي عمرو عثمان (1435/839-1488/894) . وهي فترة التفاعل والصراعات بين مصالح الحفصيين ومصالح الاوروبيين السياسية والتجارية وبين الطموحات السياسية والمصالح التجارية ، فافرزت تغيرات وازمات : انسحبت مرسيليا وبرزت المسالة المالية بين السلطة الحفصية وأرغون ، ثم جاءت فترة تصاعد نشاط القرصنة وردود الفعل المتبادلة .

واستمرت الحركة التجارية الأرغونية والايطالية حتى في اصعب الفترات رغم انها كانت تتحمل من حين لآخر انعكاسات الصراعات السياسية والقرصنة .

33') *رحلة ابن جبير* ، ص 277

34) الغبريني ، *عنوان الدراية* ، ص 80

35) ابن خلدون ، *العبر* ، ج VII، ص 301 - 303 ، 754 - 757 .

واذا كانت التوترات قد بدأت مبكرا مع مرسيليا وأرغون ، فان جنوة وبيزا قد حافظتا على هدوء علاقتهما مع بجاية ، والدولة الحفصية عامة الى ان اشتدت القرصنة البجائية خاصة والحفصية عامة . لذلك يمكن تقسيم هذه المرحلة الكبرى الى فترتين :

أ - فترة خلافات مع مرسيليا وأرغون ، انسحبت فيها مرسيليا وتجارها وثبتت فيها أرغون واستمرت تجارتها ببجاية .

ب - فترة تفاقم مشاكل القرصنة والامن في البحر ساهمت فيها جنوة وبيزة في عمليات عسكرية في جربة والمهدية ، بهدف حماية تجارهما من القرصنة .

3) فترة ثالثة : بدأت مع نهاية الثلث الاول للقرن 15/9 ، وتميزت بحركية جديدة للتجارة في بجاية ، ساهمت فيها ظروف داخلية تمثلت في استعداد السلطان عثمان (1435/839-1488/894) وظروف متوسطية : الزحف التركي في الحوض الشرقي ، تغيرات في ايطاليا (36) ، حرب اهلية وثورات في برشلونة (37) . لذلك استمرت جنوة ، وبرزت فلورنسا معوضة لبيزة والتحقت بساحة المعاملات في بجاية قوة تجارية هامة : البندقية ، وحاولت مرسيليا ان تعود بعد منتصف القرن بينما غاب تجار أرغون نتيجة لمشاكلهم الداخلية .

لذلك يمكن اعتبارها فترة تفوق الحضور التجاري الايطالي في بجاية .

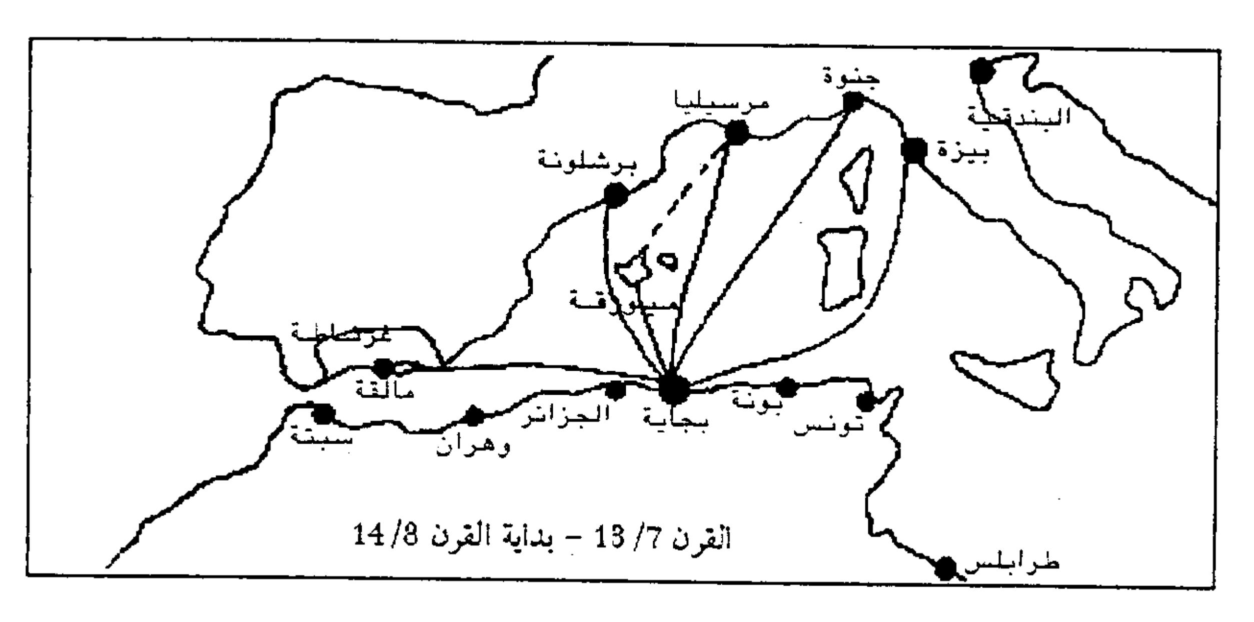
ولن يدوم هذا النشاط الى ابعد من نهاية القرن 15/9 وبداية القرن 16/10 نتيجة للمد التوسعي الاسباني .

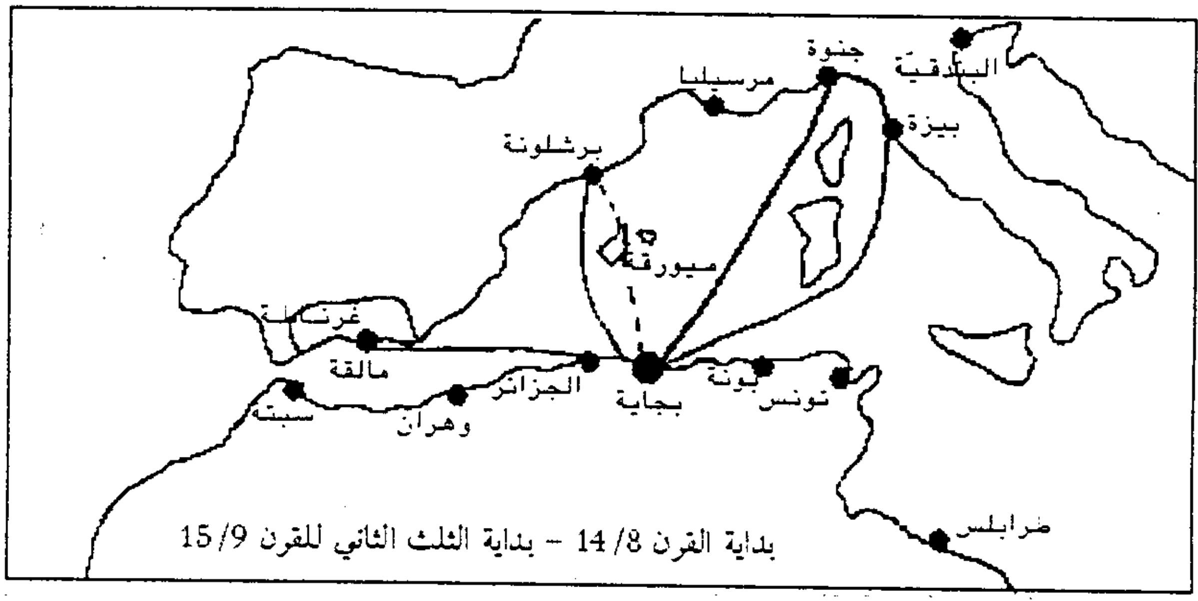
ولقد تبين ان النشاط التجاري في ميناء بجاية لم ينقطع في العهد الحفصي ، سواء بمساهمة كل الاطراف او بغياب البعض . كما تبين ان التجار الايطاليين هم الذين استمروا دون غيرهم بميناء بجاية دون انقطاع حتى في اشد الازمات لان الاهداف التجارية كانت اولى من غيرها سواء عندهم او عند حكوماتهم ، بل كادوا ان ينفردوا في القرن 15/9 حين غاب تجار أرغون .

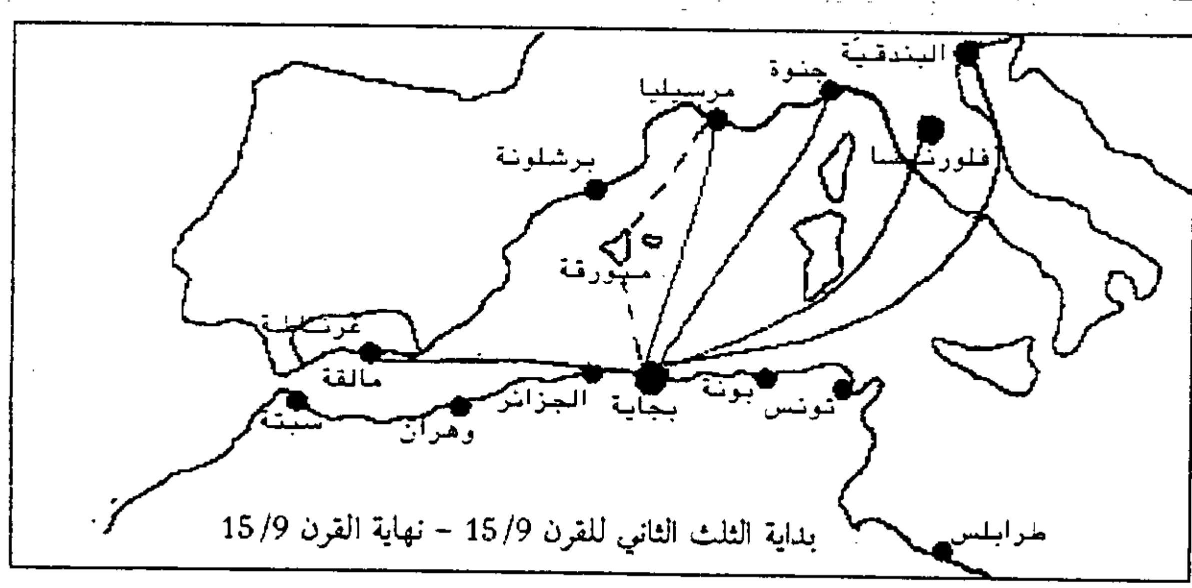
---

36) راجع ص 332-333 من البحث .

37) راجع ص 321 من البحث .







1000 كم 500 200 0

تطور العلاقات التجاريّة لبجاية في الحوض الغربي للبحر المتوسط

ـــــــ علاقة مباشرة

ـ ـ ـ علاقة عبر ميورقة

الباب الرابـــــع :

البضـــائع المتبادلة في التجارة المتوسطية

لقد اخترنا الا نتحدث في هذا الجزء عن بضائع بلاد السودان : الذهب والعبيد وغيرها التي ياتي الاوروبيون للبحث عنها او البضائع التي يعرضونها مقابلها :الفضة واللحف وانواع اخرى لاننا درسناها في الفصل المتعلق ببجاية والتجارة الصحراوية . لذلك سنهتم بالبضائع الاخرى ونركز على أهمها :

I - الصـــادرات :

أ -بجاية اهم الموانى المصدرة للصوف وفروة الجلود والجلود:

ذكرت وثيقتان نشرهما « دي ماس لاتري » الجلود المخدومة وغير المخدومة وفروة الاغنام كسلع تجلبها بيزة وأفلندة (Flandre) من بجاية .

الوثيقة الاولى رسالة مؤرخة في 3 محرم 577 / 19 ماي 1181 بعثتها بيزة الى الخليفة الموحدي تشكو فيها صعوبة الحصول على الجلد وجلود الماعز من « مملكة بجاية » (1)وتذكر الوثيقة الثانية من وثائق دي ماس لاتري المؤرخة في آخر القرن 13/7 ان أفلندة كانت تجلب من بجاية فروة الاغنام والجلد والشمع وشب الريش (2) .

واعتمد جورج جيهال على ارشيف مدينة جنوة . فتبين من دراسته ان بجاية كانت بالنسبة اليها اهم مزود للصوف (3) . فقد بلغـت قيمة المعاملات بسوق جنوة للصوف المستـــورد من بجايـــة بين 1237/634 و 1292/691

---

1) De Mas Latrie,éd. , *Traités* ...,p. 27.

2) *Ibid* ., p. 99

3) Jehel (G.) ,*Les Génois en Médit* ..., *Op.Cit* .,p. 345-347.

4510 ليرة جنوية ومثلت بذلك 48,11 % من المجموع المتعلق بهذه البضاعـة ، (9373 ليرة)و 54,12 % في مجموع الصوف المستـــورد من بلاد المغــرب (8332 ليرة) . فقد احتلت بجاية اذن المرتبة الاولى في البحر المتوسط بالنسبة لجنوة فيما يخص توريد الصوف ، تاتي بعدها تونس بنسبة 20,8 % وبونة بنسبة 11,35 % .

وذكرت وثائق ارشيف مدينة جنوة بعض انواع الصوف القادمة من بجاية : صوف دسم (Lana Sucida) ، وصوف منظف (Lana . Lavata) وصوف جيد (Lana Subtilis) (3') .

ودرس روبار ديلور (Robert Delort) « تجارة الفروة في الغرب في أواخر العصر الوسيط » (4) بالاعتماد على وثائق متعددة موزعة في مراكز ارشيف عديد المدن منها الارشيف الوطني بباريس وارشيف مدينة تورينو ومدينة كولونيا ومرسيليا . وبرزت خلال دراسته المكانة الهامة لفروة جلود بجاية في مختلف مدن اوروبا التي وصلتها لا شك عن طريق تجار بيزة وجنوة ومرسيليا وبرشلونة وفلورنسا والبندقية حسب الفترات التاريخية .

وابرز « ديلور » (Delort R.) ان فروة اغنام بجاية كانت مطلوبة في اوروبا اكثر من غيرها من فروات بلاد المغرب (5) وانها تفوقت على فروة اغنام رومانيا ولومبارديا خلال القرنين 14/8 و 15/9 (6) .

وقامت عائلة « مانديال» بصفقات عديدة خلال القرن 13/7 لجلب الجلود والجلد المخدوم من بجاية وسبتة (7) .

ولقد كانت بجاية توفر هذه المواد اي الصوف والفروة والجلود لعديد البلـــــدان: بيزة (8) وجنــــوة (9) ومرسيليـــا (9') وارغــــون (10)

(3' *Ibid.*, p. 346.

(4 Delort (R.) , *Le commerce des fourrures ..., Op.Cit* .2 tomes

(5 *Ibid.*, t.I., p. 239.

(6 *Ibid.*

(7 Pernoud (R.),*Histoire du commerce de Marseille ..., op.cit.*, t.I , p.171.

(8 De Mas Latrie ,*Traités* , p. 27.

(9 Jehel (G.) ,*Les Génois en Médit.... ,op.Cit* , p. 345-347 .

(9' Busquet (R.) etPernoud(R.),*Histoire du commerce de Marseille ..., Op.Cit* ,t.I ,p. 171 ; Delort (R.) *le commerce des fourrures* , t.I ,p. 425.

(10 Dufourcq (Ch.E.) ,*L'Espagne Catalane ..., op.Cit* ,p. 545,550 ; Du même ," Méditerranée et Maghreb du XIIIé au XIV és " ,*Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb* ,Alger ,n°3,(1967) p.82 .

وأفلندة (11) وانجلترا (12) وباريس وكولونيا ولوباك (Lübeck) والبلطيق الالماني (13).

2 - مواد دباغة :

ذكر بيقولوتي (Pegolotti) قشور بجاية (Scorza di Buggiea) من المواد التي يقتنيها الايطاليون (14) وهي مادة صالحة لدباغة الجلود (15) ووفرت بجاية مادة للدباغة ايضا مستخرجة من « حشرة المغافير » (Cochenille) يشتريها القتلانيون (16) والايطاليون (17). وهي ذات لون قرمزي ارجواني.

3 - الشمع اختصاص بجاية دون غيرها :

ذكر « برنو » (R. Pernoud) اعتمادا على عقود عائلة « مانديال » ان هذه العائلة ارسلت وسقتين من القطن الى بجاية واوصت بان يعاد التمويل في شراء الشمع من مينائها .(18)

وادرجت هذه المادة ايضا من بين المواد البجائية الواردة الى أفلندة في آخر القرن 13/7 (19)، وقد اشتهرت بها في اوروبا حتى قيل ان اسمها اطلق على الشمعة رغم ان المغرب الاقصى والجزائر وتونس وبونة كانت توفرها ايضا(20) ولكن يبدو ان بجاية كانت المزود الرئيسي.

-4 مواد فلاحية غذائية :

ذكر « مارمول » (Marmol) ان سكان بجاية يصدرون القمح الى اوروبا رغم قلة الانتاج. ويبدو ان في الخبر تناقضا. فهل كانت بجاية لا تمنع

(11 De Mas Latrie ,*Traités ...* ,*Op.Cit* , p. 99

(12 Delort (R.) ,*Le commerce des fourrures ...*, *Op.cit* ., tI ,p. 551,581.

(13 Ibid ., t.I, p. 219 .

(14 Pegolotti (F.B.) ,*La pratica della mercatura ... Op.Cit* .,p. 70

(15 Dufourcq (Ch.E.) ," *Activité des Catalans ...* " *Op.Cit* , p. 37 ; Bono (S) ," Le relazioni commerciali ..." , *Op.Cit* ., p.15.

(16 Dufourcq (Ch.E.) , *Ibid* .

(17 Bono (S.) ," Le relazioni commerciali ..." *Op.Cit* , p. 15.

(18 Pernoud (R.) , *Histoire du commerce de Marseille* , *Op.Cit* . ,t.I. ,p. 171.

(19 De Mas Latrie,éd. ,*Traités ... Op.Cit* .,p. 99.

(20 Du même ,*Relations de commerce ...* , *Op.Cit.* , p. 376.

تجارها من تصدير هذه المادة الحيوية لانها كانت تعوض بتوريد الحبوب من بلاد اخرى ؟

لقد كانت الحبوب مثلا حسب وثيقة نشرها الاركون (Alarcon) ترد من ميورقة (21) .

ويشتري تجار المتوسط من بجاية مواد فلاحية اخرى كالفواكه الجافة التي قد تكون من انتاج البساتين المحيطة بها او قادمة من جهات اخرى من بلاد المغرب . وقامت عائلة « مانديال » مثلا ببيع القطن في بجاية ثم إعادة استثمار المال في شراء اللوز من هناك (22)

وقد يقتنون الخروب والتمور (23) والزبيب (24) والزيت (25) .

5 - مواد مصنوعة او نصف مصنوعة :

وكانت بجاية تبيع المواد المصنوعة منها ادوات الفخار والخزف والملابس .

ويعطينا « دي ماس لاتري » دليلا عن تصدير الفخار والخزف البجائيين الى جنوة . فقد ذكرت اوعية عادية او من الخزف المذهب ضمن جرد قامت به صيدلية سنة 1312/712 (26) .

وبين جورج مرسي ان هذه الصناعة تاثرت في بجاية بانماط وتقنيات اوروبية خاصة المرسيلية بينما لم يقع العثور على قطع اوروبية في بجاية . فلعل الحرفيين كانوا يطورون صناعاتهم حسب الانماط التي يبحث عنها الاوروبيون .

اما بضاعة الملابس ، فقد تعرضت لها رسالة من خايم الثاني (1327/727-1291/690) الى ابي عصيدة (1309/709-1295/694) مؤرخة في 1307/707 فهي تخبرنا عن جفن قدم من بجاية الى بنزرت سنة 1302/702 حاملا لبدن وبرانس قيمتها اربعون الف (27) دينار ذهبي ، فتعرض له قرصان ميورقي واحتجزه .

(21 Alarcon (M.A.) *Los documetos arabes ... ,Op.Cit* , doc .140 ,p. 310

وسنتعرض فيما بعد الى هذه المادة عند حديثنا عن الواردات ، ص 352 ، 353 .

(22 Pernoud (R.) , *Histoire du commerce de Marseille , Op.Cit* ., t1 , p. 171.

(23 De la primaudaie (M.E.) , *Le Commerce et la navigation ..., op.cit* , p. 164.

(24 De Mas Latrie , *Relations de commerce ... ,Op.Cit* . , p. 379.

(25 Du même,éd.. , *Traités ...* , p. 377.

(26 Du même , *Relations de commerce ... , Op.Cit* ., p. 382.

(27 Alarcon (M.) , *éd., Los documentos arabes..., Op.cit* . doc. 119 , p. 259.

ولكن لا نملك اشارة واحدة عن توجيه الملابس نحو بلاد اوروبية .
باجمال ، فان اهم مواد التصدير التي تعرفنا عليها ، الى جانب سلع بلاد السودان ، متكونة من مواد فلاحية ، خاصة الصوف والفروة والجلود .
فما هي المواد الواردة الى بجاية ، غيرالمواد المرتبطة بتجارة بلاد السودان؟

II - الـــــــواردات :

أ -المواد الفلاحية من المواد الموردة الى بجاية : خاصة القطن :

ترد الى بجاية المواد الفلاحية التي قد تفتقدها او التي قد يوردها التجار لتعوض نفس النوع من السلع المصدرة بدورها الى اوروبا مثل القمح او الزيت . ولربما كانت مطلوبة لانها تمثل نوعية اخرى او لانخفاض ثمنها ، ومن اهم المواد الواردة القطــن .

ذكر « كروج »صفقة من القطن من جنوة الى بجاية سنة 553 /1158 ارسلها تاجر يهودي إسماعيل وشريكه حمولتها 13 كيسا ، وحمل معها 7 اكياس لحسابه الخاص ('27) وذكر صفقة اخرى سنة 1159/554 من القطن والتوابل قيمتها 53 ليرة (28) .

وقامت عائلة مانديال سنة 1233/627 بارسال وسقتين من القطن ، مع بيار قاروتيي » (Pierre Garotier) و« هوق دي تامبل »(Hugues du Temple) ('28) وكنا أشرنا الى انه اعاد تمويل ثمن بيعهما في شراء الشمع . (29)

وكانت ترد على بجاية مواد غذائية ، ذكرت الوثائق منها الخمور والزيت والحبوب فمثلا ، ورد في القانون الاساسي لمرسيليا سنة 1228/625 التراتيب المتعلقة ببيع الخمور في كل من بجاية وسبتة ووهران وتونس (30) وكان يباع في بجاية داخل الفنادق بترخيص من السلطـــة الحفصية . (31)

(27' Krueger (H.C.) ," *The Wares of exchange* ..." , *Op.Cit* ., p. 60.

(28 *Ibid.*

(28' Pernoud (R.) ,*Histoire du commerce*... , *Op.Cit* . p. 171.

29) راجع الصادرات ص 350 من البحث .

(30 De Mas Latrie ,éd. ,*Traités*... , *Op.Cit* ,p. 89. برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ج ا، ص 58 ؛
Caille (J) ," *Les Marseillais à ceuta* ... " , *Op.Cit* ., p. 26.

(31 De Mas Latrie , *Relations de commerce* ... , *Op.cit* , p. 369.

وورد في معاهدة 21 رجب 712 / 23 نوفمبر 1312 المبرمة بين ميورقة وبجاية ، ان لميورقة الحق في جلب 2000 جرة من الزيت الى بجاية (32) وافادتنا وثائق ارشيف أرغون (ACA) ان تاجرا بجائيا اشترى من بلنسية سنة 1316/716 ما يزيد عن 10 جرار من الزيت (33) .

واخبرتنا رسالة بتاريخ 20 صفر 759 / 1 فيفري 1358 من السلطان ابي عنان (1348/759-1358/759) الى « النائب بميورقة » عن سفينة كانت تحمل الحبوب الى بجاية . ولكنها تكسرت بساحل الجزائر (34)

2 - بضائع الشرق والهند عن طريق اوروبا :

كانت التوابل وانواع اخرى من البضائع الشرقية ترد على بجاية عن طريق التجار الاوروبيين ، خاصة الايطاليين والمرسيليين .

وقد اعطانا « كروجر » في مقاله عن « البضائع المتبادلة في التجارة الافريقية - الجنوية خلال القرن 12 » امثلة عن صفقات من التوابل وجهت الى بجاية .

في خريف 1159/554 ابرم عقد تجاري بين التاجرين الجنويين « دي ريفينو » (De Rufino) و « دي دالنو » (De Dalnéo) لارسال وسقة الى بجاية من الفلفل الاسود وانواع اخرى من التوابل والقطن بما قيمته 53 ليرة جنوية (35) .

وفي نفس السنة ، جلب « دالنيو » حمولتين من الفلفل والتوابل وجوز الهند ارسل الاولى الى بجاية وزنها 40 كلغ والثانية الى سبتة قيمتها 81 ليرة و 19 صولدي (36) .

واخبرتنا بعض الوثائق التي نشرها بلانكار (Blancard) ان يهود مرسيليا كانوا يرسلون في القرن 13/7 الى بجاية عود القرنفل والزعفران (37) .

---

32) Aguiló (E.K.) ,éd., " Tractat de Pau ... ", *Op.Cit* . , p. 217-220 ; Dufourcq (Ch.E.) ," Prix et niveaux de vie " ,*Revue le Moyen Age* ,n° 3-4 ,Alger , (1965) ,p. 492.

33) *Ibid.*

34) Alarcon (M.A.) *éd.,* ,*Los documentos arabes ...* ,*Op.cit* , doc. 140 , p. 310-311.

35) Krueger (H.C.) ," The Wares of exchange ..." , *Op.Cit* . p. 60

36) *Ibid.*, p. 65.

37) برنشفيك ، *تاريخ إفريقية* ، ص 443.

3 - بضائع مصنوعة :

وكانت البضائع المصنوعة من اهم الواردات في بجاية .

اولها ، منتوجات النسيج الاوروبية . فقد وردت من جنوة الى بجاية في 1164/559 كمية من القماش قيمتها 44 ليرة (38)

وارسل التاجر « بيار فالقيي » (Pierre Falguiers) من مرسيليا الى بجاية حوالي 1230/627 وسقة من القماش القطني واللحف وغيرها(39) كما ارسل « مانديال» في 1233/630 الى بجاية وسقة من القطن مصحوبة بـ 12 قطعة من الحرير والقماش الكتاني .

وهناك انواع اخرى من البضائع المصنوعة ، فقد جلب احد التجار الجنويين الى بجاية سنة 588/ 1192 كمية من المطارق لغرض بيعها (40) . ووردت من جنوة سنة 1200/596 حمولة من اواني الخشب .

ان كل هذه الامثلة من الواردات تبين ان بجاية لم تتلق من اوروبا سلعا من الانتاج الاوروبي فقط بل كانت تتلقى ايضا عن طريقها مواد شرقية . فكانت اوروبا تستفيد من دور الوساطة الذي تقوم به لحساب بجاية .

ولم تمثل السلع المصنوعة النوع المسيطر او الوحيد في المبيعات الاوروبية ، بل لربما كان القطن والتوابل الشرقية اهم البضائع الموردة الى جانب الفضة التي لعبت دورا هاما في المبادلات مع الذهب .

(38 Kruger (H.C) ," The Wares of exchange ..." *Op.Cit* ., p. 61.

(39 Pernoud(R.) , *Le commerce de Marseille* , *Op.Cit* .*T.*I , p. 171.

(40 Krueger (H.C) ," The Wares of exchange .." *Op.Cit* ., p. 65.

خـــاتمــة الجــزء الثانــي :

تمتع ميناء بجاية باسس وهياكل تدعمت في العهد الحفصي .

تمثلت اولا في الميناء ذاته الذي استجاب تهيئة وتنظيما الى كل متطلبات الحركة التجارية الهامة ، فاحتوى على :

- ديوان البحر واعوانه ، لا سيما رئيس البحر و « المشرفين » والكتبة والتراجمة وعدول الاشهاد . وهؤلاء كانوا يعملون على ضمان حسن سير الحركة في الميناء مثل الانزال والشحن واستخلاص الاداءات والدلالة والبيع والشراء وإتمام العقود وإيداع الاموال .

- أسطول تجاري مقتصر على الملاحة الساحلية ، وقد يقوم احيانا برحلات نحو أوروبا .

وقسم الى ميناءين : قديم وجديد .

والميناء الجديد هو الذي كان يستقبل السفن التجارية ، ووجد عليه باب البحر وسوقه . واحتوى الميناء القديم على نشاط القرصنة والنشاط العسكري ، واتصل بسوق الأسرى بحومة المذبح .

وضمت المدينة :

- هياكل اجنبية تمثلت خاصة في الفنادق التي ركزت في العهد الحفصي ، وفي وجود قناصل وأعوان ساهرين على مصالح تجار بلدانهم .

- دار ضرب لعملة حفصية قوية ، لا سيما الدينار الذهبي .

لقد تهيأ الميناء اذن لممارسة كل الانشطة السلمية والحربية . واختصت بجاية بجميعها ، اذ الى جانب نشاطها التجاري ، كانت اهم قاعدة للقرصنة .

وكانت بجاية ميناء لجميع الاتجاهات التجارية : اتجاهات تجارة القوافل مع بلاد المغرب والمشرق وبلاد السودان وتجارة البحر الابيض المتوسط مع بلدان حوضه الغربي .

وارتبطت بتجارة القوافل بفضل شبكة طرقات متكاملة ومترابطة ، كانت قبل الحفصيين مهددة بغارات الهلاليين ، وعادت في عهدهم الى نشاطها والبعض منها نشا آنذاك .

ويتبادل التجار في ميناء بجاية البضائع القادمة من البر والبحر وتلتقي هناك مصالحهم حسب آليات تبادل تمحورت حول سلع رئيسية : الذهب والعبيد والفضة والصوف والفروة والجلود والخزف والفخار وبضائع الشرق خاصة التوابل .

وتنوعت العلاقات التجارية مع المدن الايطالية ومرسيليا وأرغون وميورقة .

وقدم تجار جنوة وبيزة الى ميناء بجاية مبكرا منذ منتصف القرن 11/5 . وقدم تجار مرسيليا في اواخر العهد الموحدي ، بينما لم يات تجار أرغون و ميورقة الا في بداية العهد الحفصي في القرن 13/7 . وبقيت البندقية لا تتعامل في الدولة الحفصية الا مع تونس الى بداية الثلث الثاني للقرن 15/9 حين جعلت من بجاية محطة هامة لتجارها .

وتطورت علاقات بجاية التجارية المتوسطية مع هذا او ذاك حسب مراحل مختلفة نظرا لاختلاف الظروف التي اثرت في مسارها ومواقف كل طرف تجاه بجاية والدولة الحفصية والقضايا المطروحة . وخضعت لمؤثرات وعوامل اهمها تصاعد نشاط القرصنة والعلاقات السياسية .

ولم تعطل المشاكل الناتجة عن هذه العوامل الحركة التجارية على مدى العهد الحفصي . وحتى وان غاب تجار بعض الاطراف فان تجارا آخرين قدموا .

وحافظ ميناء بجاية دائما على تفوقه في تزويد اوروبا ببعض البضائع مثل الصوف والفروة والجلود والشمع ، واصبح احد اهم الموانى على سواحل بلاد المغرب آنداك الى جانب تونس وسبتة وطرابلس . وتساوى مع ميناء سبتة في كثير من المعاملات بعد ان كان قبل الحفصيين دونها قيمة .

وهذا يعني ان ميناء بجاية لعب طوال العهد الحفصي دورا رئيسيا في تجارة المتوسط وتجارة الصحراء وتجارة بلاد المغرب من ناحية والحياة الاقتصادية للدولة من ناحية اخرى . وربط بين مختلف الاتجاهات التجارية . فكان بذلك ميناء للوساطة بين جميع تجارها .

ولقد عرف العهد الحفصي تحولات في حياة الميناء في مستوى الهياكل والاطراف التجارية ووزن بجاية . ودعمت هذه التحولات نشاط الميناء الذي مثل النشاط الرئيسي والحيوي للمدينة . فهل أثر في تركيبة مجتمعها والعلاقات بين فئاته ؟

الخاتمـــة العامـــة

أجمعت المصـــادر على أن بجايـــة كانت أكبـــر حواضر الدولة الحفصية بعـــد تونس .ولـقـــد عرفـــت في العهد الحفصي نموا تصاعديا عمرانيا وسكانيا .

نمت عمرانيا خاصة خارج السور الذي بناه الحماديون حتى بلغت اقصى تساعها في آخر القرن 15/9 ، فصار عدد أرباضها خمسة أرباض ، آخرها الربض الذي إحتوى أفواج الاندلسيين القادمين إثر سقوط غرناطة سنة 1492/897 وليس لنا ما يثبت بوضوح بداية نشاة الارباض ؛ ولكن المرجح أنه لم يكتمل قبل الحفصيين إلا ربض واحد هو " ربض بجاية " الذي قد ترجع نشاته إلى أواخر العهد الحمّادي أو بداية العهد الموحّدي ، وأن الأرباض الاخرى حتى وإن بدأت نشاة بعضها في العهد الموحدي فانها لم تتوسع إلا في العهد الحفصي. فقد انعكست حروب الموحدين مع بني غانية في بجاية في آخر القرن 12/6 وبداية القرن 13/7 على نمو المدينة حتى أوشكت على التراجع .

وتكاثرت أيام الحفصيين المساجد والزوايا وأقيمت مبان أجنبية جديدة : الفنادق والكنائس . لكن الحفصيين لم ينشؤوا في بجاية مباني حكومية غير التي ورثوها عن سابقيهم ولم يضيفوا جوامع خطبة أخرى . فقد ورثوا القصور الحمادية والجامع الكبير والقصبة وجامعها وجامع الموحدين .

أما ميناؤها المهم الذي قد يكون عرف تغييرات تهيئة وتجهيزا، فانه بقي في العهد الحفصي مقسما إلى ميناءين :

- ميناء قديم للنشاط العسكري والقرصنة ، والمرجح أنه كان واقعا في جوين سيدي يحيي .

- ميناء جديد للنشاط التجاري ، متصل مباشرة بباب البحر الذي مازال قائما إلى اليوم ، ويقع في جوين القصبة .

وتفيد المؤشرات السكانية التي جمعناها أن عدد سكان بجاية تضاعف في آخر العهد الحفصي مقارنة بما كان عليه في العهد الحمادي ، فقد يكون بلغ حوالي ثمانين ألف ساكن .

وقد كان النمو العمراني والسكاني موازيا لتحولات اقتصادية هامة عرفتها بجاية في العهد الحفصي :

* أولا ، تحولات هامة في حياة الميناء تمثلت في :

- تركيز هياكل التمثيل الاجنبي بتاسيس الفنادق وتنصيب القناصل الدائمين .

- تزايد واضح لنشاط القرصنة البجائية حتى صارت بجاية أهم قاعدة للقراصنة في الدولة الحفصية .

- قدوم أطراف تجارية جديدة إلى الميناء منذ بداية العهد الحفصي : أرغون أولا ، ميورقة ثانيا ، وفي نفس الوقت اهتمام متزايد لتجار جنوة ببجاية على حساب ميناء سبتة .

- تزايد نشاط دار ضرب السكة في بجاية وعدم ظهور رأية عملة مغشوشة انطلاقا منها والحرص على استقرار عيار الدينار الذهبي .

وكانت لهذه التحولات انعكاسات شتّى :

فقد انعكست على الحركة التجارية في الميناء إذ اشتد التنافس بين الاوروبيين فتسارعوا إلى تكثيف نشاطهم التجاري ودعم هياكلهم ، لذلك تقاربت تواريخ تاسيس فنادقهم وتلاحقت المعاهدات مع السلطة الحفصية .

وانعكست على تطور علاقات بجاية مع هذا أو ذاك ، وقد أثر في مجراها عاملان جديدان :

أولها تصاعد نشاط القرصنة البجائية في إطار استراتيجي دفاعي وهجومي وإطار انتفاعي مادي ، حتى أنها طبعت المفاوضات ، ولم تخل أغلب المعاهدات والرسائل الرسمية من المطالبة باسترجاع الاسرى والدعوة إلى الحد من نشاطها .

وثانيها ، المسالة المالية التي أثارتها أرغون طوال القرن 14/8، هادفة الى فرض " أتاوة مالية " على السلطة الحفصية ببجاية وتونس ، مستمدة جذورها من الاعانة العسكرية المقدمة لبجاية في 1314/714 في حربها ضد بني عبد الواد .

وحركت هذه العلاقات جدلية الطموحات السياسية والمصالح التجارية . ولكن المصالح التجارية ثبتت أمام الطموحات السياسية ومشاكل القرصنة ، فاستمرت الحركة التجارية لكل التجار في الميناء دون انقطاع ، وتحملوا ردود الفعل والاضرار اللاحقة بهم ، ماعدا مرسيليا لانها مارست القرصنة ضد بجاية في أواخر القرن 13/7 في وقت غير مناسب بالنسبة إليها ، فاقصيت عن الميناء من قبل البجائيين أنفسهم . أما غياب أرغون المتاخر في القرن 15/9 فكان لاسباب داخلية في برشلونة خارجة عن نطاق العلاقات الثنائية مع بجاية .

وبرهنت التطورات الجديدة ومختلف التفاعلات على أن حركية كبيرة ميزت العلاقات الاوروبية البجائية في العهد الحفصي ، وأثبتت أن بجاية أصبحت عنصرا هاما في السياسات الاوروبية الديبلوماسية والاقتصادية وأنها كانت ثغرا حفصيا مفتوحا على أوروبا تجاريا وديبلوماسيا ، عرف حركة دؤوبة هادئة تارة ومتوترة تارة أخرى .

وأثبت القرن 15/9 مرة أخرى أن الاتصال باوروبا ، لاسيما تجاريا مستمر،وذلك في إطار التغيرات العامة التي عرفها البحر الابيض المتوسط : زحف تركي ، حرب أهلية في برشلونة ، إرادة سياسية حفصية مشجعة للحركة التجارية .فلقد اختارت البندقية آنذاك بجاية لتعوض نشاطها المشرقي (1) ، وأصبحت طرفا تجاريا في مينائها ، بل دعمت حضورها بتاسيس خط بحري قار ورسمي . ثم قامت فلورنسا بتاسيس خط مماثل .

* ثانيا ، شهد العهد الحفصي تحولات في حركة تنقل القوافل :

إذ توضحت مسالك جديدة وعادت مسالك قديمة إلى نشاطها ، وكانت قد هجرت إثر قدوم الهلاليين : فلقد عادت الطريق الرابطة بين بجاية والاسكندرية كاملة منذ نهاية القرن 13/7 . وأخذت الطريق الجنوبية مسلكها النهائي عبر المسيلة وبسكرة وكذلك الطريق التي تربط بجاية بالمغرب وسجلماسة ، إلى جانب طرقات فرعية . ولم يعد هاجس العرب الهلاليين مسيطرا على تجار القوافل ، لانه حصل نوع من التعايش بينهم .

---

1) راجع ص 336 من البحث .

وارتبطت بجاية باربعة مداخل صحراوية عن طريق المحاور الرئيسية: غدامس ، وارجلان ، سجلماسة وأغمات ، فتدعمت بالتجارة الصحراوية .

ونشات بين البحر المتوسط والصحراء علاقة جدلية في بجاية . فقد تركزت بها تجارة المتوسط وتنوع القادمون من البحر ، وتزايد عددهم متهافتين على سلع بلاد السودان ، وكان تجار بلاد السودان يتوجهون الى الميناء لتلبية طلبات الاوروبيين المتزايدة . فانعكس نمو الواحدة من التجارتين على نمو الاخرى ، وكانت كلتاهما في حاجة الى الثانية . وتطورت نتيجة لذلك الحركة التجارية في الميناء ، اذ تلاقت هناك مصالحهم وتركزت هياكلهم . وتواصلت العلاقة في خط مستمر طوال العهد الحفصي ، لان المسالك الصحراوية بقيت قائمة عبر مداخل الوسط والشرق ، كما تواصلت الحركة في الميناء نشيطة لان التجار الاوروبيين وحتى حكوماتهم مكثوا متشبثين بمصالحهم هناك إذ شكل الذهب أولا والعبيد ثانيا مطمحهم ، وذلك رغم التوترات ورغم تصاعد نشاط القرصنة .

وقد تشكل لهفة الاوروبيين على الذهب الواصل إلى بجاية أو تونس الاسباب العميقة لنشأة التوترات ، إذ لم تخطط أرغون للأتاوة بغرض استخلاص دين فقط ولم يقم الاوروبيون بالغارات على مدن حفصية بهدف التصدي للقرصنة فحسب بل كان ذلك خاصة لاخضاع الحفصيين لشروطهم وضمان تحويل الذهب .

ولكنها كانت محاولات غير مجدية إلى آخر عهد السلطان أبي عمرو عثمان (1488/893-1435/839) ، وتبين أن تحويل الذهب تم اساسا عن طريق المبادلات التجارية ، سواء بمبادلة الفضة وبضائع أخرى بالذهب أو بالحرص على البيع بالدينار الذهبي والشراء بالعملة الفضية ، لاسيما وأن الدينار الحفصي حافظ على قيمته ونفاقه .

* ثالثا ، توطدت حركة نشيطة لتجارة بلاد المغرب عبر بجاية وأخرى محلية داخل بجاية بالتوازي مع نمو تجارة البحر المتوسط وتجارة بلاد السودان، فكانت ميناء لتصدير انتاجها وانتاج بلاد المغرب نحو أوروبا وتونس والمشرق : الصوف والفروة والجلود والفخار والخزف والملابس والشمع ، وميناء لتلبية حاجياتها وحاجيات المغرب من بضائع أوروبا والشرق : القطن والسلع الشرقية والهندية ، خاصة التوابل .

واكتسبت بجاية نتيجة لهذه التطورات وزنا أكبر في البحر المتوسط وفي بلاد المغرب فقد أصبحت في العهد الحفصي أحد المواني المغربية الاربعة الكبرى للذهب والعبيد ، إلى جانب سبتة وتونس وطرابلس .

ولقد فاق وزنها في تجارة الفروة والصوف والجلود وزن أي ميناء آخر من مواني الدولة الحفصية ، بل فاق وزن أي ميناء في الحوض الغربي للمتوسط . واشتهرت بجاية بالشمع والقشور المسماة بقشور بجاية . فشكلت بذلك أهم مركز تجاري لبعض أنواع السلع في العهد الحفصي .

ولقد تبين أن بجاية كانت تتمتع باسطول تجاري اختص بالتجارة الساحلية . غير أن التجار البجائيين كانوا لا ينظمون رحلات نحو أوروبا على سفنهم إلا بصفة استثنائية . وكانوا يرسلون وسقاتهم إلى هناك على سفن أوروبية . وإنهم لم يقيموا في أوروبا هياكل شبيهة بالفنادق والقناصل ، رغم أنهم كانوا يسافرون إليها لعقد صفقات تجارية من حين لاخر .

ولم تكن لهم مسالك بحرية تجارية خاصة بهم يمكن أن تشكل دورة تجارية قد تكتسب تقاليد وارتباطات وقد تتحدد فيها ملامح المعاملات . فلقد انضوت بجاية في دورات تجارية أو خطوط بحرية جنوبية وبيزية ومرسيلية وقتلانية وميورقية وفلورنسية وبندقية .فكان على تجارها الراغبين في إرسال صفقات أو اقتنائها أن يخضعوا لجغرافية المسالك البحرية التي خطها الاوروبيون .ومثلت بجاية محطة أساسية في هذه المسالك الاوروبية . فكانت مركز استقبال في البحر المتوسط ولم تكن مركز انطلاق إلا لرحلات ساحلية قريبة .

لذلك فرضت بجاية نفسها أمام الاوروبيين بعاملين : أولهما كونها سوقا لبضائع تجارتي البر والصحراء وثانيهما نشاط قراصنتها في الحوض الغربي للمتوسط . فلم تسلك بجاية سياسة تجارية توسعية على غرار المدن الايطالية (جنوة ، بيزة ، فلورنسا ، البندقية)أو مرسيليا أو برشلونة ، ولم تدخل في مزاحمة تجارية في البحر . فكانت موقع التقاء بحري وبري ، ومثلت بذلك أهم مراكز الوساطة التجارية على سواحل الحوض الغربي للمتوسط .

وكسب ميناء بجاية مثل ميناء تونس أهمية كبرى في النشاط الاقتصادي للدولة الحفصية ، فساهم في مداخيل الدولة عن طريق

الرسوم " الجمركية " وغنائم القرصنة ، كما ساهم في حركية الانتاج الفلاحي او الصناعي .

ولهذه الانشطة التجارية تاثيرها على المجتمع إلى جانب المؤشرات الاخرى الداخلية والخارجية .

عرف مجتمع بجاية قدوم عنصر جديد في العهد الحفصي ، وهو العنصر الاندلسي . وكانت عناصره قد تكونت منذ انطلاقة المدينة ، في العهد الحمادي من مغاربة ، أساسا أصيلي باديتها والمدن القريبة والعاصمة السابقة القلعة .

بدأ وفود الاندلسيين منذ القرن 12/6 في شكل هجرة أفراد وبعدد قليل . ولكنهم لم يمثلوا عنصرا هاما عدديا ، فلم يؤثروا بعد في التركيبة الاجتماعية ، لذلك ميز الاندلسيون بعددهم الهام المجتمع البجائي منذ القرن 13/7 .وتواصل قدومهم في القرن 14/8 وفي أواخر القرن 15/9 وقد تغيرت ملامح أصولهم أثناء الهجرة الاخيرة الى بجاية في عهدها الحفصي . فكانت خاصة هجرة " العامة " لذلك ، فالنخبة هي التي طبعت مجتمعها على أطول فترة من العهد الحفصي .

وتفاعل الاندلسيون مع بقية عناصر المجتمع وحرصوا على أن يكونوا متميزين . وتفوقت منهم في بجاية عائلات ابن سيد الناس وابن غمر وابن أبي جبي . وتبلورت صراعاتهم مع غيرهم في مستوى السلطة وانسحب شيوخ الموحدين أمامهم منذ نهاية القرن 13/7 ، فكان انسحابا مبكرا دون رجعة مقارنة مع تونس .

وحلت محل الاندلسيين في السلطة بداية من 1327/727 عائلات تجارية محلية ، مثل عائلتي ابن فرحون وابن أبي مهدي ، ولم يمنع وجود وال من العائلة الحفصية من أن يتولى بعض أفرادها السلطة الفعلية لفترة طويلة خلال القرن 14/8 وبداية القرن 15/9 .

وكان صعود هذه العائلات مؤشرا لاثر التجارة والقرصنة في المجتمع البجائي .

ومن بين الآثار الاخرى لنشاط التجارة والقرصنة :

- ظهور فئة " أكابر التجار " وهي فئة ثرية من بين أعيان الخاصة .
- نشاة فئات واسعة من العبيد البيض والعلوج والعبيد السود نتيجة لنشاط القرصنة وتجارة بلاد السودان .
- ممارسة أصحاب السلطة للتجارة مباشرة أو بصفة غير مباشرة أو استغلالهم لبعض التجار " بالتسلط " .
-دعم التجار لاصحاب الملك ماديا .
- اشتغال العديد من الفقهاء بوظائف متصلة بالنشاط التجاري في ديوان البحر .

ولقد كان التراتب الاجتماعي خاضعا إلى ثلاث سلطات : المُلك والعلم والثروة وإلى ثلاثة معايير : الشرف والنفاسة والخساسة .

وأفرزت هذه المقاييس مجتمعا متناقضا عموديا بين " الخاصة " و " العامة " وبين الثروة والفقر، وترتيبا تفاضليا داخل هذه الطبقة أو تلك . فعدم التجانس بين الفئات كان عاما ، وقد ساهمت التجارة في توسيع الفوارق الاجتماعية باثراء البعض أكثر فاكثر وتزايد فقر الفقراء .

وكان المُلك يحرك الرتبية داخل " الخاصة " أساسا وكان النزول والصعود ممكنا . لذلك كان مجتمعا ذا حراك مستمر .

أثرت في مجتمع بجاية إذن تطورات العصر وتداخل فيه تأثير التجارة وسمات المجتمع الحضري الحفصي والاسلامي عامة فكان مجتمعا تجاريا حفصيا اسلاميا أصوله متنوعة وفئاته متناقضة وحراكه مستمر .

لقد كانت بجاية في نفس الوقت مفتوحة على المتوسط ومتجذرة في البر اقتصاديا واجتماعيا . وكان دورها الاقتصادي مرتكزا على الوساطة .

فهل ارتبط مصيرها آنذاك بدوام الانشطة التجارية الثلاثة التي كانت تتلاقى في مينائها : تجارة المتوسط وتجارة الصحراء وتجارة بلاد المغرب ؟

المصادر والمراجع

المصـــــادر

* المصـــادر باللغة العربية :

ابن الآبار (ابو عبد الله) ، *التكملة لكتاب الصلة* ، جزءان، تحقيق ونشر عزت العطار الحسيني ، القاهرة 1375/1955-1956 .

ابن الآبار (محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي) ، *المعجم في اصحاب القاضي الامام علي الصدفي* ، تحقيق Franciscus Codera et Zaudin ، مجريط 1885 .

ابن ابي دينار (ابو عبد الله محمد) ، *المؤنس في اخبار إفريقية وتونس* ، تحقيق محمد شمام، تونس 1967 .

ابن ابي زرع (ابو الحسن بن عبد الله) ، *الانيس المطرب بروض القرطاس* ، دار المنصور ، الرباط 1972.

ابن الأثير (عزالدين ابو الحسن علي) ، *الكامل في التاريخ* ، 12 جزءا مع جزء للفهارس (13 جزءا) ، دار صادر -بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1387/1967 ،

ابن بطوطة ، تحفة *النظار او رحلة ابن بطوطة* ، الشركة العالمية للكتاب ، الطبعة الأولى بيروت 1991 .

ابن جبير ، *رحلة* ، دار صادر -بيروت 1384/1964 .

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين ابي الفضل احمد) ، *لسان الميزان* ، 7 اجزاء مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية ، بيروت 1971.

المؤلف نفسه ، *الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة* ، الطبعة الاولى -حيدر آباد بالهند - 1348
ابن حمديس ، *ديوان عبد الجبار ابن ابي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي* ، وقف على طبعه وتصحيحه جلستينو سكياباريلل - رومة 1897 .
ابن حوقل (ابو القاسم)، *كتاب صورة الارض* ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت دون تاريخ .
ابن خلدون (ابو زكرياء يحيى) ، *كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد* ، تحقيق« ألفريد بيل »(Alfred Bel) الجزائر 1910/1328
ابن خلدون (عبد الرحمان) ، *المقدمة* ، او *المجلد الاول من تاريخ العبر*، الطبعة الثانية ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ، دون تاريخ .
المؤلف نفسه ، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر* ، 7 مجلدات ، المجلد السادس والسابع عن اخبار البربر ودول المغرب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1959 .
المؤلف نفسه ، *التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا* ، عارضه باصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة - مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1951/1370 .
ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد) ، *وفيات الاعيان وابناء الزمان* ، حققه إحسان عباس ، 8 اجزاء (الجزء الاول : فهارس) ، دارصادر - بيروت 1972 .
ابن دحية (ذو النسبين ابو الخطاب عمر) ، *المطرب من اشعار اهل المغرب* ، تحقيق ابراهيم الابياري وحامد عبد المجيد واحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، دار العلم للجميع - المطبعة الاميرية1955/1374 .
ابن رشيد (ابو عبد الله) ، *ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة* ، تقديم وتحقيق الدكتور محمد الحبيب بلخوجة ، الشركة التونسية للنشر 1982 .
ابن الزبير (ابو جعفر احمد) ، *كتاب صلة الصلة* ، وهو ذيل للصلة البشكوالية في تراجم اعلام الاندلس ، تحقيق الافي بروفنصال ، الرباط 1938 .

ابن الزيات التادلي (أبو العباس يعقوب) ، *التشوف الى رجال التصـــوف* ، تصحيح أدولف فور ، معهد الابحاث العليا المغربية - الرباط 1958 .

ابن سعيد الاندلسي (علي) ، *المغرب في حلي المغـــرب* ، جــزءان ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، سلسلة ذخائـــر العـــرب ، دار المعارف بمصر 1953 .

ابن سعيد المغربي ، *كتاب بسط الارض في الطول والعرض* ، تحقيق الدكتور خوان قرنيط ، معهد مولاي الحسن- الرباط 1958 .

ابن الشمـــاع (ابو عبد الله) ، *الادلـــة البينـــة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية* ، تحقيق الطاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب 1984 ، تونس -طرابلس 1984 .

ابن عذاري المراكشي ، *كتاب البيان المغـــرب في اخبـــار الاندلس والمغرب* ، جزءان ، تحقيق ليفي بروفنصال ، دار الثقافة - بيروت 1948 ، ليدن -بريل 1951 .

ابن القاضي (ابو العباس احمد) ، *ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال* ، تحقيـــق محمد الاحمدي ابو النور ، 3 اجزاء ،المكتبة العتيقــة- تونس ودار التراث - القاهرة 1970-1971.

ابن قنفذ القسنطيني(ابو العباس احمد الخطيب) ، *انس الفقير وعــز الحقير*، نشر وتصحيح محمد الفاسي واودولـــف فور ، سلسلـــة الرحلات (2)، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط 1965 .

المؤلف نفســه ، *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية* ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركـــي ، الدار التونسية للنشر 1968 .

المؤلف نفسه ، *كتاب الوفيات* ، تحقيق عادل نويهض ، دار الآفاق الجديـــدة - بيروت 1403/1983.

ابن منظور الافريقي المصري (ابو الفضل جمال الدين) ، *لسان العرب* ، دار صادر - دار بيروت - بيروت 1375/1956.

ابن العماد الحنبلي (ابو الفـــلاح عبـــد الحي)،*شذرات الذهب في اخبار من ذهب* ، 8 اجزاء في 4 مجلدات ، سلســـلة ذخائر العرب ، نشـــر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان (دون تاريخ) .

ابن فرحون اليعمري (برهان الدين) ،*كتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب*، وبهامشه كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج للشيخ بابا التنبكتي . طبـــع عباس بن الســـلام بن شقرون . الفحامين - مصـــر - الطبعة الاولى 1351 هـ .

ابن الفرضي (ابو الوليد) ، *تاريخ علماء الاندلس* ، سلسلة تراثنا - المكتبة الاندلسية - الدار المصرية للتاليف والترجمة 1966 .
ابن مريم التلمساني (ابو عبد الله) ، *البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان* ، تحقيق محمد ابن ابي شنب ، المطبعة الثعالبية - الجزائر 1908/1326.
ابو الفداء (عماد الدين) ، *تقويم البلدان* ، المطبعة الملكية (Imprimerie Royale) - باريس 1840.
الادريسي (ابو عبد الله) ، *المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق* ، حققه ونقله الى الفرنسية محمد حاج صادق ، نشر PUBLISUD - باريس 1983 .
المؤلف نفسه ، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* ، 3 أجزاء ، نشره دي خويه ودوزي ، ليدن- بريل 1968 .
الاصفهاني (العماد) ، خريدة *القصر وجريدة العصر* ، 3 اجزاء - تحقيق محمد المرزوقي ، محمد العروسي المطوي ، الجيلاني بن الحاج يحيى ، آذرتاس آذرنوش ، الدار التونسية للنشر - تونس 1971-1973 .
الأوسي المراكشي (ابو عبدالله محمد) ، *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة* ، تحقيق محمد بن شريفة والدكتور احسان عباس ، دار الثقافة - بيروت - 1965 .
البرزلي (ابو القاسم بن احمد ، *جامع مسائل الاحكام او نوازل البرزلي او فتاوي البرزلي* ، مخطوط ، رقم 04851 بالمكتبة الوطنية بتونس .
البكري (ابو عبيد) ، *كتاب المسالك والممالك* ، تحقيق ليوفن وفيري ، جزءان، الدار العربية للكتاب - بيت الحكمة - تونس 1992 .
البلوي (ابو البقاء خالد بن عيسى الاندلسي) ، *تاج المفرق في تحلية علماء المشرق* ، جزءان ، مقدمة وتحقيق الحسن السايح ، نشر صندوق احياء التراث الاسلامي المشترك بين المغرب والامارات العربية المتحدة ، مطبعة فضالة ، المحمدية (المغرب) 1964 .
البيذق (ابو بكر بن على الصنهاجي) ، *اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين* ، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1975 .
التجاني ، *رحلة التجاني* ، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية - تونس 1958 .
التجيبي السبتي (القاسم بن يوسف) ، *برنامج التجيبي*، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتا ب- طرابلس - تونس 1981 .
المؤلف نفسه ، *مستفاد الرحلة والاغتراب* ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب - طرابلس - تونس 1975 .

التمقروتي (ابو الحسن علي) ، *النفحة المسكية في السفارة التركية* ، تقديم وتعليق الاستاذ سليمان الصيد - سلسلة من ذخائر المغرب العربي دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الاولى - تونس 1988 .

التنبكتي (ابو العباس سيدي احمد عرف ببابا السوداني) ، *نيل الابتهاج بتطريز الديباج* ، طبع بهامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون ، طبع عباس بن السلام ابن شقرون- الفحامين- مصر-الطبعة الاولى 1351 هـ.

الحجاري و خمسة من اهل الاندلس ، كتاب وشي *الطرس في حلي جزيرة الاندلس من « المغرب في حلي المغرب »* ، تحقيق شوقي ضيف ، جزءان ، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف - القاهرة 1953- .

الحميري (أبو عبد الله محمد) ، *كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار* (معجم جغرافي) ، حققه احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، الطبعة الثانية 1980 .

المؤلف نفسه ، *صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار* ، تحقيق إ. لافي بروفنصال ، دار الجيل - بيروت ، دون تاريخ .

الراشدي (عمر بن علي الجزائري) ، *ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب سيدي أحمد بن عروس* ، طبعة أولى بمطبعة الدولة التونسية - تونس 1303/1885-1886 .

الرصاع الانصاري (او عبد الله محمد) ، *فهرست الرصاع* ، تحقيق محمد العنابي - سلسلة «من تراثنا الاسلامي » (4) ، المكتبة العتيقة - تونس . 1967

الزركشي (ابو عبد الله) ، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية* ، المكتبة العتيقة - تونس 1966 .

السخاوي ، *الضوء اللامع لاهل القرن التاسع* ، 12 جزءا في 6 مجلدات ، دار مكتبة الحياة - بيروت (دون تاريخ) .

السيوطي (عبد الرحمان) ، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة* ، مجلدان ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه 1964 .

المؤلف نفسه ، ، *طبقات الحفاظ*، تحقيق على محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1393/1973 .

الضبي (ابو جعفر ابن عميرة) ، *كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس* ، المكتبة العربية الاسبانية ، مطبعة روخاس -مجريط 1885 .

العبدري ، *الرحلة المغربية*، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي ، سلسلة الرحلات (4) ، حجازية (1) ، نشر جامعة محمد الخامس - الرباط - . 1968

العمري (شهاب الدين) ، *وصف إفريقية والاندلس* ، مقتطف من كتاب *مسالك الابصار في ممالك الامصار* ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، مطبعة النهضة - تونس ، دون تاريخ .

الغبريني (ابو العباس آحمد) ، *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية* ، تحقيق رابح بونار ، سلسلة ذخائر المغرب العربي ،نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر1970 .

القزويني (زكرياء) ، *آثار البلاد واخبار العباد* ، نشر صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1960 .

القلقشندي (ابو العباس) ، *صبح الاعشى في صناعة الانشاء* ، 15 ج ، سلسلة تراثنا، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي ، طبع المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة ، دون تاريخ .

الرقيق القيرواني ، *تاريخ افريقية والمغرب* ، تونس 1968 .

الكتبي (محمد شاكر) ، *فوات الوفيات والذيل عليها* ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، 4مجلدات ، دار صادر ، بيروت 1974 .

الماوردي (علي بن محمد) ، *الاحكام السلطانية والولايات الدينية* ، الطبعة الاولى ، دار الفكر ، القاهرة 1983/1404 .

مجهول ، *الاستبصار* ، مقتطف حول بجاية نشر في *الاصالة*، عدد خاص ، مارس -أفريل (1974) ، ص 100-101 .

مخلوف (محمد بن محمد) ، *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية* ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1349-1350 .

عبد الواحد المراكشي ، *المعجب في تلخيص اخبار المغرب* ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، الطبعة السابعة ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1978.

المقري التلمساني (احمد بن محمد) ، *نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب* ، تحقيق احسان عباس ، 8 مجلدات (المجلد الثامن : فهارس) ، دار صادر- بيروت 1988 .

مقديش (محمود) ، *نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار* ، تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ ، مجلدان ، دار الغرب الاسلامي - بيروت 1988 .

النويري (شهاب الدين) ، *نهاية الارب في فنون الادب* ، 18 جزءا ، القاهرة- بيروت ، بدون تاريخ .

الورثيلاني (الحسين بن محمد) ، *نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية* ، تحقيق محمد ابن ابي شنب ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي -بيروت 1394 - 1974 .

الوزان الفاسي (حسن بن محمد) ، *وصف إفريقيا* ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الاخضر ، منشورات الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر - الرباط - 1980/1400 .

الوطواط (محمد بن ابراهيم الانصاري) ، *مباهج الفكر ومناهج الفجر* ، نسخة محمد بن احمد المكي الصفاقسي ، تونس 1176 هـ ، مخطوط رقم 7600 (المكتبة العبدلية) بالمكتبة الوطنية ، تونس .

الونشريسي (احمد بن يحيى) ، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب* ، 13 جزءا ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف الدكتور محمد حجي ، نشر دار الغرب الاسلامي - بيروت 1401-1981 .

ياقوت الحموي (ابو عبد الله) ، *معجم البلدان* ، 5 مجلدات ، دار صادر - دار بيروت 1957 .

اليافعي اليمني المكي (ابو محمد) ، *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان* .- 4 اجزاء - منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة الثانية - بيروت 1970/1390 .. ط

* المصـــادر باللغـات الاجنبيـــة :

L'Africain (Jean -Léon) ,*Description de l'Afrique* ,Nlle éd. Traduite de l'Italien par A. Epaulard , 2 Tomes - Librairie d'Amérique et d'Orient -Adrien Maison--neuve , Paris 1956 .

Aguiló (E.K.),éd. ", Tractat de Pau entre El Rey de Mallorca Don sanxo y el de Bugia Boyhahia Abubechre ... dia 23 de nov. de 1312 " , *Boletin (ou Bolleti) de la societat Arqueológica Luliana* ", (1915) ,p.217-226

Du même, éd.," Creacio del Consulat de Bugia , y nominaco del primer consul en Benet Blancas 1302 " , *Boletin de la Societat Arqueológica Luliana* ,XV, (1915),p. 220-222 .

Alarcón y Santón (Maximiliano A.) ,y García de linares (Ramón) ,éd. , *Los Documentos Árabes Diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón* ,Madrid 1940.

Amari (Michel), éd., ,"*I Diplomi Arabi del R.Archivio fiorentino.*Testo originale Con la Traduzione letterale e illustrazioni In firenze - 1863 .

B. Ishaq (Halil) , *Abrégé de la loi Musulmane suivant le rite de l'Imam Mâlek* , Trad. . G.H. Bousquet ,2 Vol., Alger 1956.

Blachère (Régis)éd. , " Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge ", Edition : P. Geuthner , Paris, 1932 , Imprimerie Catholique - Beyrouth 1932 .

Du même , "Le palais d'el Mansour à Bougie : Courte introduction +la traduction d'une poème d'Abou Mohamed Abdeljebar ben Boubaker ben Mohamed ben Hamdis el Azdi Essekalli " + Le texte Arabe, dans *Revue Tunisienne* ,(1922) ,p.50-56 .

Blancard(Louis), éd. , *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age* - Marseile 1884 , réédité Genève 1978 .

Brunschvig (Robert),éd. ," *Deux récits de voyage inédits en Afrique. du Nord au XV è s.: Abdelbāsit B. Ḫalīl et Adorne* , Publication de l'Institut d'Etudes Orientales de la Fac. des lettres d'Alger , Ed. Larose Editeurs-Paris 1936 .

Du même , éd. " Documents inédits sur les relations entre la Couronne d'Aragon et la Berbérie Orientale au XIV è s . " *Annales de l'Institut d'Etuses Orientales,* T. 2 , (1936), p.235-265.

De Capmany y de Montpalau (Antonio), éd. , " *Memorias Historicas Sobre la Marina , Comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona* ,Reedicion anotada prologo del Excm Sr F.E. Chameni ,Introduccion y notas por E . Giralt y Raventos , revision documental por C. Batlle Y Gallart . 2 Vol. (2è vol. en 2 parties), Ed. Teide - Imp. Juvenil - Publication de Camara oficial de Comercio y navegation de Barcelona ,vol.I en 1961 -vol.II-1 en 1962 , vol.II-2 en 1963 .

Du même, éd. , *Antiguos Tratados de paces y alianzas* , indices por jose Hinojosa Montalvo - Madrid 1786 , Valencia 1974.

Debruge (M.) ,éd. ," Abri sous-roche à Bougie ", Extrait du *Recueil des Notices et Memoires de la Société Archéologique de Constantine* , Vol. XXXVII , (1903), 6 pages .

Du même,éd. " La grotte du fort Clauzel" ,Extrait des *Comptes rendus de l'Association Française pour l'Avancement des sciences congrés de cherbourg,* 1905 p.624-632 .

Du même ,éd., " Tombeau présumé phénicien à Bougie ", Extrait de *Bull de la Sté Archéol . de Sousse* , 2 ème Année n° 4 . 2ém Semestre (1904) , -Imp. française Bd Pichon , sousse 1905, 4 pages .

Du même, éd. , "Nouveaux rochers Traillés de la Région de Bougie ." Extrait du *Bulletin de la Société Archéologique de Sousse . 1er semestre 1906* . Imp. Française 1907 - 3 pages

Du même, éd.,Catalogue des objets préhistoriques renfermés dans les vitrines du Musée de Constantine " ,Extrait du *Recueil des Notices et Memoires de la Sté Archéologique de Constantine ,vol. XLIII , (1909*), Constantine - Imprimerie D.Braham 1950 - 24 Pages .

Gaudefroy -Demonbynes,éd., *Masālik El Absār Fī Mamālik El Amsār - L'Afrique moins l'Egypte* , (textes traduit) Série Bibe. des Géographes Arabes, Paris 1927.

Dufourcq (Ch.E.) ,éd.," Nouveaux documents sur la politique africaine de la Courone d'Aragon " *Analecta Sacra Tarraconensia* , XXVI , (1953), p. 291-322.

Du même,éd., "Documents inédits sur la politique ifrikienne de la Courone d'Aragon " , *Analecta Sacra Tarrconensia* , XXV, 1952 , p.255-291

Du même, éd. " Catalogue chronologique et analytique du Registre 1389 , de la Chancellerie de la Couronne d'Aragon , Intitulé " Guerre sarracenorum 1367 - 1386 " (1360-1386), *Miscelanea de textos . Medievales* ,2, Barcelona , (1974) ,p. 67-152 .

Fagnan (Edmond) ," *Nouveaux textes historiques relatifs à l'Afrique du Nord et à la Sicile* , Trad. et notices explicatives d'Edmond Fagnan (Extrait du Kitab el-Istibsar) .

Féraud (L.Ch.),éd., " Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe , d'Abou Ali Ibrahim el-Merini ", *Revue Africaine* , 12 Année , n° 70, Juillet (1868) p. 245-256 , et n° 71 sep. 1868 p. 337-349 .

Gimenez Soler (André) , éd. , "Documentos de Tunez , Originales o Traducidos " *,Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans* ,(1909-1910), p. 210-257

Gramaye (J.B.) , *description de l'Algérie* , Traduite de " L'Africa Illustratae " par Ch. Brosseland, 1839 .

Gsell (Stephane) ,éd., *Atlas Archéologique de l'Algérie* , éd. spéciales des Cartes au 200.000 è du service Géograhique de l'arrivée avec un texte explicatif rédigé par S. Gsell .Alger - Paris 1911 .

Du même,éd., *Mosaiques des Oueld- agla et de Bougie* (avec planches) Constantine 1892 .

Du même ,éd., *Inscriptions latines de l'Algérie* 1922 .

Marmol y. Carvajal (Luis del), *Description générale de l'Afrique* , Traduite de l'Espagnol à l'ancien français par Nicola p. d'Ablancourt et le duc d'Angoulesme le père sous le titre de "L'Afrique de Marmol " divisée en 3 volumes ,Paris MDCLXVII (1867) .

Masia de Ros (Angeles) ,éd., *La Corona de Aragon y los Estados del Norte de Africa - Politica de Jaime II y Alfonso IV en Egipto , Ifriquia Y Tremcen* , Instituto Espanol de Estudios Mediterrane - Publicaciones sobre historia , Barcelone 1951 .

De Mas Latrie,éd., "Chartes inédites relatives aux états de Bougie et de Bône (1268 - 1293 - 1480)", *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes* A II, - Paris 1841-42 , p. 388-397 .

Du même ,éd. , "charte de nolissement de l'an 1264 pour un voyage de Pise à Bougie ",*Bibliothèque de l'Ecole des Chartes* , B,IV , Paris 1847-1848 ,p.244-256 .

Du même, éd., Documents sur l'histoire de l'Algérie et de l'Afrique Septentrionale pendant le moyen âge, Relations avec Pise " ,*Bibliothèque de l'Ecole des Chartes* , B,V, (1848-49),p.134-154.

Du même, éd. ," Documents relatifs au commerce des Génois sur la côte d' Afrique au Moyen âge " *Bibliothèque de l'Ecole des chartes* ,D,III , (1857) ,.p.439-452

Du même,éd. , *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge,* recueillis par ordre de l'empéreur (de France) avec une introduction historique en 342 p , Ed. H.Plon ,Paris 1866 .

Maury (Roger),éd. , *Masā il al-Sarf* , Extrait des Nawāzil de Burzulī , C.A.R sous La direction de M.Talbi , Université de Tunis 1975 .

Pegolotti (Fransesco Balducci) , *La pratica della mercatura* edited by Allan Evans Cambridge -Massachusetts 1936 .

Reinaud (M.) ,éd., *Géog. d'Aboulféda* , traduite de l'Arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissements ,2 tomes , Paris 1848-1883 .

Udina (Frederic) ,éd.," Documents relatifs à la Tunisie dans les Archives de la Couronne d'Aragon " , *Cahiers de Tunisie* , n° 69-70 (1970), p. 107-116.

Du Val (P.) , *La carte générale et les cartes particulières des cartes de la Mer Méditerranée* , Paris 1664.

المـراجـع

* المـراجع باللغة العربية :

ابن شعيب (محمد المـهدي) - *تاريخ مدينـة قسنطينـة* ، مطبعة البعث ، قسنطينة - الجزائر 1980 .

ابن عاشور (محمد الفاضل) ، *ومضات فكر* ، الدار العربية للكتاب ، تونس- طرابلس 1982 ؛ ورد ايضا في مجلة *الفكر*، عدد 7،(1961 - 1962).

ابن يوسف (سليمان داود) ، «مساهمة بجاية الحمادية وآل زيري في الحضارة الاسلامية على نطاق واسـع داخـل المغـرب وخارجهم» ، *محاضرات ومناقشات الملتقى الثامـن للفكـر الاسلامـي* ، منشـورات وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينيـة ، قسنطينة 1369 / 1976 المجلد الثاني ص 579 - 609 .

أركـون (محمد) ،« نحن وابن خلدون» ، *اعمال ندوة ابـن خلدون* ، 14 / 17 يبراير 1979 منشورات كليـة الاداب والعلـوم الانسانسة بالرباط مطبعة النجاح الجديدة 1981 ، ص 29 - 35 .

امين (سمير) ،« نحو نظرية للثقافة غير اوروبية التمركز» ، مجلة *الوحدة* ، عـدد51 ، (1988) ، ص 122 - 131 .

بدوي (محمد) ، «المورفولوجيا الاجتماعية واسسها المنهجية عند ابن خلدون» *اعمال ندوة ابن خلدون (1979)* ، منشورات كلية الآداب - الربـاط 1981 ، ص 173 -182 .

برنشفيك (روبار) ، *تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 الى نهاية القرن 15 م* ، نقله الى العربيـة حمـادي الساحلـي ، جزءان ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1988 .

بروDال (فردينان) ، « دراسات في النقود والحضارات ، من ذهب السودان الى فضة امريكا او من مآسي البحر المتوسط » ، مستخرج من بحوث *في التاريخ الاقتصادي* ، ترجمة توفيث اسكندر ، القاهرة 1961 ، ص 79-100 .

بروفنسال (ليفي) ، الاسلام *في المغرب والاندلس* ،ترجمة محمد عبد العزيز سالم وم.ص الدين حلمي ول. ع . البديع ، القاهرة ، دون تاريخ .

بروى (إدوار) ، *القرون الوسطى* ، نقله الى العربية ي.أ . داغر و ف.م. داغر ، سلسلة تاريخ الحضارات العام ، بيروت 1965 .

بالحميسي (مولاي) ، «دور بجاية في البحر الابيض المتوسط في عهد الحماديين والحفصيين » ، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي* (1974)، منشورات وزارة التعليم الاصلي -قسنطينة 1976 ، المجلد الثاني ص 561-576 .

بلخوجة (محمد الحبيب) ، «الهجرة الاندلسية » ، *كراسات تونس* ، عدد 69 - 70 ، (1970).

بن حمادي (عمر) ،« كتب الطبقات ومشاكل استغلالها في ابحاث الديموغرافية التاريخية » ، *ندوة حول الديموغرافية التاريخية* 15 و 16 نوفمبر 1991 بتونس ، نشر دار سراس والمعهد الاعلى للتربية والتكوين المستمر ، تونس 1993 ، ص 5-26 .

بن سالم حميش ، «ابن خلدون وتجربة التاريخ المسدود » ، *اعمال ندوة ابن خلدون* (1979) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية - الرباط 1981 ص387 - 399 .

بورزاق (احمد)، *الادب في عصر دولة بني حماد 405 / 1014 - 1152/547* شعادة دكتوراه الحلقة الثالثة ، كلية الاداب والعلوم الانسانية -الجزائر 1975 .(مرقونة) .

بورويبة (رشيد) ، « الحياة الاقتصادية والفنون في بجاية الحمادية »، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي*(1974) ، منشورات وزارة التعليم الاصلي قسنطينة 1976 ، المجلد الثاني ص 489- 502 .

المؤلف نفسه ، *الدولة الحمادية ، تاريخها وحضارتها* ، الجزائر 1977 .

جدلة (ابراهيم) ، *المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي*،اطروحة المرحلة الثالثة لنيل شهادة التعمق في البحث ، باشراف منيرة شابوتو - الرمادي ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس 1988 /1989 .

المؤلف نفسه ، «محاولة في الديمغرافيا التاريخية :السكان الحضر بإفريقية من القرن 13 الى 16 م ،*ندوة حول الديمغرافيا التاريخية* 15 - 16 نوفمبر 1991 ، نشر دار سراس والمعهد الاعلى للتربية والتكوين المستمر ، تونس 1993 ، ص 85-100 .
جعيط (هشام) ،« نظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدين » ، *ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر* المنظمة بتونس من 14 الى 18 افريل 1980 ، *الحياة الثقافية* ، عدد 9 ، (1980) ، ص 234-239 .
المؤلف نفسه ، « الاصلاح والتجديد في الدين » ، مجلة *الاجتهاد* ، العددان 10 و 11 ، (1991) ، ص 234-239 .
المؤلف نفسه ، «العقل السياسي الديني في الوطن العربي» ، مجلة *الوحدة* ، عدد ممتاز ، (1988) ، ص
الجنحاني (الحبيب) ، *دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي* ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1986 .
الجيلالي (عبد الرحمان) ، *تاريخ الجزائر العام* ، جزءان ، دار الثقافة ، بيروت 1980 .
الجون(محمد صالح) ، *الوحدة المغربية الاندلسية واثرها في الثقافة المغربية في عهد المرابطين* ، شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة ، كلية الاداب الجزائر 1974 .
حسن (محمد) ،« فروع جديدة من شجرة انساب الحفصيين من خلال الكتابات الجنائزية » ، *كراسات تونس* ، المجلد XXX ، ص 95-134 .
المؤلف نفسه ، *القبائل والرياف المغربية في العصر الوسيط* ، دار الرياح الاربع للنشر ، تونس 1986 .
حسن (ممدوح) ، « العرب الهلالية في افريقية ودورهم في الحروب الصليبية » ، *كراسات تونس* ، عدد خاص، رقم 117- 118 ،(1981) ، ص 73-90 .
الدولاتلي (عبد العزيز) ، مدينة *تونس في العهد الحفصي* ، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي ، دار سراس - تونس 1981 .
المؤلف نفسه ، « النمو العمراني وتعدد جوامع الخطبة في المصر الواحد » ، *الهداية* ، عدد 3 ، (1978) ، ص 74-79 ، 83 .
رعد (سعيد محمد) ، « دور بجاية الحمادية في تكوين نظرية ابن خلدون التاريخية العمرانية عن العمران البشري » ، *الملتقى الثامن للفكر الاسلامي* ، بجاية 1394 / 1974 ، وزارة التعليم الاصلي ، قسنطينة 1976 ، المجلد الثاني ، ص 533-558 .

زيادة (خالد) ، « الخسيس والنفيس ، الفئات في المدينة الاسلامية » ، *الفكر العربي* عدد 29 ، (1982) ، ص 153-161 .
زيادة (نيقولا) ، *الجغرافيــة والرحلات عند العرب* ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1962 .
سالم (عبد العزيز) و العبادي (احمد مختار) ، *تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس* ، دار النهضة العربية ، بيروت 1969 .
السبتي (عبد الاحد) و فرحات (حليمة) ، *المدينة في العصر الوسيط ، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الاسلامــي* ، بيــروت - الدار البيضاء 1994 .
السعداوي (احمد) ، « المجاعات والاوبئة في تاريخ الغرب الاسلامي الوسيط : النتائــج الديمغرافية »، ندوة حول *الديمغرافيا التاريخية في تونس والعالم العربي* ، 15 - 16 نوفمبــر 1991 ، نشر دار سراس والمعهد الاعلى للتربية والتكوين المستمر ، تونس 1993 ، ص 27-48 .
سعيدان (عمــر) ، *علائق الحفصيين ببلاط أراغون في عهد جاكمو الثاني* ، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر ، سوسة 1985 .
الشابــي (محمــد) ، « مقدمـــة لدراســة نقــود افريقية العربية » ، *افريقيـــة (Africa)* ، المعهد القومي للآثار والفنون ، تونس (1966) ص 151-194 .
الشريف (محمد العادي) ، *تاريـــخ تــونس* ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، دار سراس ، تونس 1980 .
شيخة (جمعة) ،« ثــورة الميورقيين بافريقيــة واثرها في توازن القوى بين الاسلام والنصرانية في المغرب والاندلس »، *كراســات تونس* ، عدد خاص ، الجزء XXIX ، (1981) ، ص 91-122 .
الطالبي (محمــد) ، *دراسات في تاريخ افريقية وفي الحضارة الاسلامية في العصــر الوسيط* ، منشــورات الجامعة التونسيــة ، مجلد XXVI ، 1982 .
المؤلف نفسه ، « الهجرة الاندلسية الى افريقية ايام الحفصيين » ، نشر في *دراسات في تاريخ افريقية* ... ، ص 165-213 ، ونشر في *الاصالة* عدد 26 ، (1975) ، ص -46-90 .
المؤلف نفسه ، « النظرية الارتقائية جذورها في التفكير العربــي الاسلامــي واثرها فــي مقدمة ابن خلدون » ، *اعمال ندوة ابن خلدون* (1979) ، منشورات كلية الآداب بالرباط 1981 ، ص 205-218 .

عبد الغني (سليمان) ،« الحيـــاة الاجتماعيـــة في مدينـــة مراكش في عصر المرابطين والموحديـــن » ، *الكراســـات التونسية* ، عدد خاص ، مجلد 34 ، 1986 ، ص
عبد النور (أنطوان) ،« السكان وديموغرافيـــة المدينة ، مدن بلاد الشام في العصـــر العثماني » ، ترجمـــة م .فرانس جنابزي للفصل الاول من كتـــــاب *Introduction à l'Histoire Urbaine de la Syrie Ottomane (XVI-XVIII è s-)* ، بيروت 1982 .
عبد الوهاب (حسن حسني) ،*ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية*، 3 اجزاء ، مكتبة المنار ، تونس 1964
العجابي (حامد) ، *جامع المسكوكـــات العربية بافريقية* ، نشر المعهد القومي للآثار ، تونس 1988 .
المؤلف نفسه ، « السكة الاسلامية في افريقية » ، *دائرة المعارف التونسية* ، بيت الحكمة ، قرطاج ، الكراس 1 / 1990 ، 112-116 .
العربي (اسماعيل) ، *دولة بني حماد ، ملوك القلعة وبجاية* ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980
المؤلف نفسه ، *عواصم بني زيري ملوك اشير - القلعة - بجاية - غرناطة - المهدية* ، بيروت 1984 .
المؤلف نفسه ، « بجاية : العاصمة الثانية لبني حماد » ، *الثقافـــة* ، العدد 18، (1973) ، ص 23-38.
العروي (عبد الله) ، *العرب والفكر التاريخي* ، نشر المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ .
عنان (عبد الله) ، « مدرسة بجاية الاندلسية واثرها في احياء العلوم بالمغرب الاوسط » ، *الاصالة* ، عدد 13 ، 1973 ، ص 193-197 .
غراب (سعد) ، *ابن عرفة والمنزع العقلي* ، الدار التونسية للنشر ، الطبعة الاولى 1993 .
قاسم نايت بالقاسم (مولود) ، « بجاية الاسلام لقنت اوروبا الرياضيات بلغة العروبة » ، *الثقافة* ، عدد 89 ، (1985) ،ص 27-45 .
كحالة (عمر رضا) ، *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة* ، دار العلم للملايين بيروت 1968 .
الكعاك (عثمان) ، «البجائيون من بربر واندلسيين وصقليين ودورهم العظيم في حضارة شاملة على ضفتي البحر المتوســـط الغربي خلال اربعة قـــرون » ، *الملتقى الثامـــن للفكـــر الاسلامـــي* (1974) ، وزارة التعليم الاصلي قسنطينة ، 1976 ، المجلد الثاني ، ص 503-532 .

مجموعة من المؤلفين ، مقـالات مختلفة في *الاصالـة* ، عدد خاص بجاية عبر العصور رقم 19، (1394/ 1974) .
محفوظ (محمد) ، *تراجم المؤلفين التونسيين* ، 5 اجزاء ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1982 .
مخلوف (محمد) ، *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية* ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1349-1350 هـ .
مصطفـاي (رشـيد) ، « بجاية في عهد الحماديين » ، *الاصالة* ، العدد الاول ، (1971) ، ص 83-91 .
منيمنة (سارة) ، « التكوين الوظيفي للمدينة الاسلامية »، *الفكر العربي*، عدد 29 ، (1982) ، ص 134-152 .
موسى (عز الدين) ،« طريق عبر الصحراء « الليبية » من المغرب الاقصى الى مصـر في القرن 12/6 » ، *مجلة البحوث التاريخية* (ليبيا) ، عدد 1 (1983) ، ص 107-118 .
هيرنانديز (كروز) ، «التكويـن الفلسفـي لابـن خلدون وحدود وضعيتـه التاريخية » ، *اعمال نـدوة ابن خلـدون* ، الرباط 1979 ، مطبعـة النجاح 1981 ، ص133-134 .

* المـــراجع باللغات الاجنبيـــة :

Abakar (Abdelhamid) ,*Le commerce caravanier du Sudan Occidental et Central avec le Nord à l'époque médiévale,* Mémoire de CAR dirigé par Mounira Chapoutot , université de Tunis 1982-1983.

Abitol (Michel) , " Juifs maghrébins et commerce transsaharien du VIIIè au XV è s . " ,*R.F.H.O.M* (Revue Française d'Histoire d'Outre Mer) ,T. LXVI, (1979) , p. 177-192 .

Action Sociale (L') ,"Un savant modeste , notre concitoyen, M.Debruge) , *l'Action sociale* , 18 Janvier ,(1925).

Amargier (Paul) , " Gens de mer en méditerranée des années 1375 -1390" , in *Navigation et gens de mer en Méditerranée de la Préhistoire à nos jours* , CNRS Paris 1980 , p. 68-83 .

Amin (Samir) , *Le développement inégal , essai sur les formations sociales du capitalisme périphérique* , éd. Minuit -Paris 1973 .

Du même, *L'échange inégal et la loi de la valeur* , la *fin d'un débat* , avec la contribution de Jagdish c. Saigal , éd. anthropos -idep . ,Paris 1973 .

Arié (Rachel) ," Une métropole Hispano-musulmane au Bas moyen âge : Grenade Nasride " , *Cahiers de Tunisie* , XXXIV , n°137-138 , (1986) ,p. 47-67 .

Du même, " Un opuscule grenadin sur la peste noire de 1348, La Nasiha de Muhammed al -Suquri " , dans son receuil *Etudes sur la civilisation musulmane* , Leiden -Brill ,1990,p. 57-67 .

Augustin (Bernard) , *Afrique sept. et Occ.* , Paris 1937-39 .

Auzias (J. Marie) , *L'anthropologie contemporaine* , Expérience et système , 1ère éd. ,P.U.F , Paris 1976 .

Ayalon (David) ," Regarding population estimates in the countries of medieval Islam " , *Journal of the Economic of Social History of the Orient* ,vol XXVIII, (1985) ,p. 1-19 .

Balard (Michel) ," Notes sur le commerce génois en Tunisie au XIIIè s ." , *Cahiers de Tunisie* , T.43 ,N°155-156, (1991),p. 368-386.

Balbas (L. Torres) , " Cronica Arqueologica de la Espana Musulmana : Esquema demographico de la Ciudad de Granada " , *Al Andalus* , XXI , (1956) , p.131-147 .

Du même, " Les villes Musulmanes d'Espagne et leur urbanisation " , Traduit de l'Espagnol par Robert Ricard, *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales* , t. VI, (1942-1947) , p. 5-30.

Balletto (Laura) , " Bougie nei manuali toscani di mercatura del due-trecento " , in *Italia et Algeria* ,Milano 1982, p.81-95 .

Balout (L.) , *Préhistoire de l'Afrique du Nord , Essai de chronologie* ,Paris Arts et Métiers Graphiques 1995

Barges (J.J.L) , *Complément d'histoire de Beni -Zeiyan , rois de Tlemcen* : *Ouvrage de Cheikh Med Abdeljalil al -Tenessy* ,Paris 1887 .

Basset (M.Henri) , *Nouvelles Etudes nord -africaines et Orientales* , publiées par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines , 1928 .

Bautier (R. Henri) ," Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre économique méditerranéen du XII è au XIV é siécle ", *Bulletin philologique et historique du comité des travaux historiques et scientifiques* , (1953- 1954), p. 399-416 .

Du même, " Les grands problèmes politiques et économiques de la Méditerranée Médievale " , *Revue Historique*, t. CCXXXIV , PUF (1965) , p. 1-28.

Bedoucha - Albergoni (Geneviève) , " La memoire et l'oubli : l'Enjeu du nom dans une societé oasienne ", *Annales E.S.C* . , N°3-4 ,(1980) , p. 730-747 .

Bel (Alfred) ," *Les Banou Ghanya Derniers répresentants de l' empire Almaravide et leur lutte contre l'Empire Almohade* , Paris 1903.

Du même, " Le sufisme en Occident musulman au XII è et au XIIIè s de J.S. ,",*A.I.E.O* ,I (1934-1935) ,p. 145-161.

Belhamissi (Moulay) , *Histoire de Moustaganen : des origines à l'occupation française* , Alger , 1976 .

Benabou (M) , *La résistance africaine à la romanisation* , éd. F. Maspero- Paris 1976 .

Ben Salem (Lilia) , "Intérêt des Analyses en termes de segmentarité pour l'Etude des societés du Maghreb ", *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* (R.O.M.M) , N° 33 , (1982) ,p. 113-135

Berques (Jaques) , *l'Intérieur du Maghreb XV è -XIX è s.*, éd. Gallimard 1978 .

Du même, *Etudes d'histoire rurale Maghrebine* , Tanger -Fes 1938.

Du même, " Les capitales de l'Islam méditerranéen vues par Ibn Khaldoun et les deux Maqqari " , *Annales Islamologiques* VIII, (1969) ,p. 71-97 .
Bertrand (Louis) , " préhistoire " , *Echos de Bougie* (1906).

Bertrand (Louis), " Préhistoire " , *Echos de Bougie* , (1906).

Beylié (Général de) , *La Kalaa des beni -Hammed , une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI és* , Paris 1909 .

Bono (Salvatore) , *Le relazioni commerciali fra I paesi del Maghreb e l'Italia nel medioevo* , Publication Quaderni dell' istituto italiano di cultura di Tripoli 1967.

Boeuf (Jules le) , *les confins de la Tunisie et de Tripolitaine , historique ,du tracé de la frontière* , traduit du flamand par O. Dapper ,Paris 1909 .

Bosworth , Lambton , Sourdel," Hajeb" in *Ency . de l'Islam* , nouvelle éd. ,T.II , p. 47-51 .

Boulifa (S.A) , *Le Djurdjura à Travers l'histoire (depuis l'Antiquité jusqu'à 1830) , Organisation et indépendance des Zouaoua* , Alger 1925 .

Bourouiba (Rachid) , *L'Art réligieux musulman en Algérie* , Alger S.N.E.D . 1973.

Boutin (Abel), *Anciennes relations commerciales et diplomatiques de la France avec la Barbarie 1515-1 830* ,Paris 1902 .

Braudel (Fernand) , *Ecrits sur l'histoire* , Flammarion , Paris 1969 .

Du même ," Monnaies et civilisations , de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique . Un drame méditerranéen " , *Annales E.S.C* . ,1ère Année ,n° 1 , (1946), p. 7-22.

Bresc (Henri) , *Un monde méditerrranéen ,économie et societé en Sicile 1300-1450* , 2 volumes ,Ecole Française de Rome ,Palerme 1986.

Du même , " La Sicile et la mer : navires et routes maritimes (XI è - XIV è s) ", dans *navigation et gens de mer en méditerranée de la Préhistoire à nos jours* , Paris CNRS 1980, p. 59-67 .

Brett (Michael) , " The city -state in médieval Ifriqiya : The case of Tripoli ", *Cahiers de Tunisie* , N° 137 -138 , (1986) , p. 69-94 .

Brunschvig (Robert) ,*La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV è s* , 2 vol. , éd. Librairie d'Amerique d'Orient , Adrieu -Maisonneuve, Paris 1940.

Du même, *Etudes sur l'Islam classique et l'Afrique du Nord* , Edité par Abdelmajid Turki , Variorum Reprints-London 1986 .

Du même , " Métiers vils en Islam " , *Studia Islamica* , XVI (1962) , p. 41-60 .

Du même ," Mesures de capacité de la Tunisie Médiévale", *Revue Africaine* , LXXVII , N°364-365 (1935),p.86-96 .

Du même , Sur les mesures Tunisiennes de Capacité au commencement du XVII è s , *A.I.E. O.* ,Alger (1937), p. 74-88 .

Du même, " Contribution à l'Histoire du contrat de en Afrique du Nord " , dans *Etudes sur l'Islam classique et l'Af.du Nord* ,Variorum Reprints - London 1986 , p. 17-21 .

Du même, " Un dinar Hafside inédit " , *Bull. de la societé Historique et Géog. de la région de Sétif* , II (1941) Alger - Sétif, p. 179-182 .

Du même, " Urbanisme médiéval et droit musulman " , *Revue des Etudes Islamiques* , T. XV, (1947) , p. 127-155 .

Du même, " Esquisse d'histoire monétaire Almohado-Hafside ", *in Mélanges offerts à Wiliam Marçais* , par l'Institut d'Etudes Islamiques de l'Université de Paris , Paris Maisonneuve et cie 1950, p. 63-94 .

Cahen (claude) , "Les finances urbaines dans le moyen âge musulman" , Bruxelles , *Correspondance d'Orient* , N°11,(1970).

Du même, " Contribution à l'étude de la circulation monétaire en Orient au milieu du moyen âge " , *Annales Islamologiques* ,t. XV , (1979) , p. 37-46 .

Du même, " Considérations sur l'utilisation des ouvrages de droit musulman par l'historien", *Actes du 1er Congrés d'Etudes Arabes* , Naples (1967),p. 239-247 .

Du même, " Note pour l'histoire de la Himaya " , *Mélanges Louis Massignon* , t. I , Institut Français de Damas , 1956, p. 287-303 .

Du même , " Quelques mots sur les Hilaliens et le nomadisme ", *J.E.S.H.O.* (Journal of the Economic and Social History of the Orient) vol. XI (1968) , p. 130-133 .

Du même, "Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l'Egypte médievale d'aprés le minhadj d'Al Makhzumi",*J.E.S.H.O* ,vol. VII/3 (1964), p.218-314 .

Du même," Les facteurs éco. et sociaux dans l'ankylose culturelle de l'Islam " , *Symposium de Bordeaux* , Paris (1957) ,p. 195-216 .

Du même," L'or du Soudan avant les Almoravides : Mythe ou réalité ? " , *R.F.H.O.M* (Revue Française d'Histoire d'Outre -Mer) , t. LXVI , N° 242-243, 1ère et 2è trim .(1979) , Paris , p. 169-175 .

Cahen (Claude), Talbi (Mohamed) Mantran (Robert), Lambton (A.K.S.) , Bazmée Ansari ' (A.S) , " Hisba " , *Encyclopédie de l'Islam* , Nouvelle éd. ,t. III , P. 503-510 .

Cahen (Cl.) , Vatikiotis (P.j.) , Colin (G.S) , " Ḫimāya " , in *Ency. de l'Islam* , t. III , Nouvelle éd. ,p. 406-409 .

Caille (Jacques) ," Les Marseillais à Ceuta au XIII è s . ", *Mélanges d''Histoire et d'Archéologie de l'Occident " Musulman* ,Alger , 1957 , t.II , p. 21-31.

Cambuzat (Paul -Louis) ,*L'Evolution des cités de Tell en Ifrikya du VIIè au XIè s* , 2 tomes ,Alger 1971 .

Camps (G.), *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara* , doin, éditeurs , Paris 1974 .

Carette (E.) , *Recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique Sept . et particulièrement de l'Algérie,* Paris 1859.

Carrère (Claude) , *Barcelone, contre économique 1380-1462* ,éd.Mouton et co, 2 tomes, Paris-la Haye 1967.

Chabassière (Jules) , " Le Mégalithe de Bougie " ,Journal : *Echos de Bougie* , n°9,(1906) .

Du même, " Nos gloires ignorées" , *Echos de Bougie* , n° 9 , (1906).

Chapoutot (Mounira) , " Les relations entre l'Egypte et l'Ifriqya aux XIIIè et XIV è s. d'après les auteurs mamlûKs , *Actes du 1er congrés d'Histoire et de la civilisation du Maghreb* , t. 1, (1979) , p.139-159.

Du même, " Dans la région de l'Islam front saharien et front méditerranéen ", *Hinterland* , An. 3,N°15-16, Luglio-Dicembre (1980) ,p.15-17.

Du même," Reflexions sur l'Industrie textile dans le monde musulman au moyen âge , à propos d'un livre récent", *Annales E.S.C.* ,3-4 , Mai-Août (1980), p. 504-511 .

Du même ," La diaspora des Banū Sayyid al -nās dans les pays musulmans méditerranéens " , communication inédite au *Colloque d'al-Ḫusayma* (Maroc) , Juillet 1988.

Cheddadi (Abdesslam) ," Le système du pouvoir en islam d'aprés Ibn Khaldoun " , *Annales ESC* , 35 è Année ,N° 3-4 , (1980) , p.534-550.

Cherbonneau (A.) ," Aicha , poète de Bougie , au VIIè s de l'Hégire " , *Revue Africaine* , N° 19, (1859) , p. 34.

Chevalier (Dominique) ,et autres ," L'espace social de la ville arabe ", *Actes du colloque sur les espaces socio - culturels et la croissance urbaine dans le monde arabe* , organisé par le C. N .R .S 1977, université de Paris -Sorbonne ,Paris 1979.

Colin (G.S) ," Diwan " (occident musulman) ,Encyclopédie de l'Islam , Nouvelle éd. t.II, p. 341-342.

Cornulier - Lucinière (Général Comte de) , *La prise de Bône et Bougie d'aprés des documents inédits (1832-1833)* , Paris 1898 .

Courtois(Christian) ," Remarques sur le commerce maritine en Afrique au XIè s " ,*Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident musulman* ,imprimerie officielle ,Alger 1957 , t .II, p.51- 59.

Cuoq (Joseph M.) ,*Recueil des sources arabes concernant le Bilad- al sudan depuis la VIIIé s jusqu'au XVI è s.* (traduction française avec notes) , thèse pour le doctorat d'université , Paris- Sorbonne 1973 (Dactylographié).

Cusson (C.) ," Histoire de Royaune de Tunis depuis Bou Fars jusqu'à sa conqête par les Turcs de 1204 à 1574 , Oran 1863.

Daghfous (R.) ," De l'origine des Banu Hilal et des Banu sulaym " , *Cahiers de Tunisie* , n°91-92,(1975), p.41-68.

Dalche (J.Gautier) , " Monnaie et économie dans l'Espagne du nord et du centre (VIII è à XIII è siécles) " , *Hespiers -Tamuda* , Vol. III , Fasc,(1962), p. 63-74 .

Daoulatli (Abdellaziz) , *Tunis sous les Hafsides , Evolution urbaine et activité architecturale* ,Tunis 1976 .

Delort (R.) , *Introduction aux Sc auxiliaires de l'histoire* , Armand Colin -Paris 1969.

Du même, *Le Moyen âge , Hist. illustrée* , Lausanne 1972 .

Du même, *Le commerce des Fourrures en Occident à la fin du moyen âge* (1300-1450), 2 tomes, Rome 1978 .

Desanges (J.) , Lancel (S.) , *Bibliographie analytique de l'Afrique du Nord* , IX (1972) : Institute for the Arts Houston -Diffusion de Pioccard - Paris 1977 , XII (1977) : Ecole Française de Rome 1982 .

Devisse (J.) , Ibn Battuta , Textes et documents relatifs à l'histoire de l'Afrique , Dakar 1966.

Du même, " Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée " , *R.H.E.S.* (Revue d'Histoire Eco. et Sociale), (1972), n°1 p. 42-73 N°2 p. 357-397.

Dhina (Atallah) ," Etudes comparatives de deux traités de Tlemcen " , celui 1286 entre le royaume abd-el wadid et la courone d'Aragon et celui de 1339 entre le roi jacques III de Majorique et le Sultan Marinide Abul-Hasan ", *Rev. d'Histoire et de Civil. du Magh.*, (1974), 29-37.

Du même, " Les finances et la monnaie des états de l'occident Musulman des XIII , XIV è et XV è s (Hafsides ,Marinides, Abd-Al Wadid et Nasrides)", *Majallat Et -Tarikh* , (1980) ,p.5- 39 .

Du même, *Les états de L'occident musulman aux XIII è , XIV è et XV è s. Instructions gouvernementales et Administratives* , Office des Publications Universitaires , ENAL - Alger 1984.

Dhoquois (Guy) ," Les étapes de la formation algérienne, proposition pour une recherche " , *Revue Agérienne des Sciences Juridiques Economique et Politiques,* vol. ,N°2 , (1968) , p. 373-383 .

Djait (Hichem) ,*Al- Kufa : naissance de la ville islamique* , Paris- éd. GP. Maisonneuve et Larose , 1986 .

Doumerc (Bernard) , " Venise et la dynastie hafside à la fin du XVè s ,*Cahiers de Tunise* , N° 117-118, (1981) , p. 573-581.

Du même, " La ville et la mer -Tunis au XVè s " ,*Cahiers de Tunisie* ,t. XXXIV ,N°137-138, 3é et 4é Trim. (1986), p. 111-130.

Du même ," Le Consulat vénitien de Tunis (1470-1473) ", *cahiers de Tunisie* , t.XXXXIII, n° 155-156(1991), p.447-478.

Doucellier (Alain) ," L'Adriatique et la Berbérie au moyen âge : Trafic d'appoint ou Trafic caché ? ", *Cahiers de Tunisie* ,N° 117-118,(1981) ,p.561-572.

Du même, " Visions Byzantines du Maghreb au Moyen âge " , *Cahiers de Tunisie* ,N° 137-138 (N° spécial) , (1986) , p.95-110 .

Du même, " Le registre de Giovanni Manzini , notaire sur les galées vénitiennes de Barbarie (1472-1476) ", *Cahiers de Tunisie* , T. XXXXIII, N° 155-156 (1991) , p. 514-534.

Dufourcq (Ch.E.) ," Les activités politiques et économiques des catalans en Tunisie et en Algérie Orientale de 1262 à 1373 ",Boletin de Real Academia de Buenas letras de Barcelona , t. XIX , 1946, p. 5-96 .

Du même, " La couronne d'Aragon et les hafsides au XIIIè s . (1229-1301)" Analecta Sacra Tarraconensia , vol . XXV , (1952), p. 51-113.

Du même, " Prix et niveaux de vie dans les pays catalans et maghribins à la fin du XIII è et au début du XIV é s ", Revue *le moyen âge* ,n° 3-4 ,Alger (1965), p. 475-520.

Du même , " Les Consulats Catalans de Tunis et de Bougie au temps de Jacques le Conquérant " , *Anuario de Estudios Medievales* , 3, Barcelona ,(1966) , p. 369-479 .

Du même , *L'Espagne catalane et le Maghrib de la bataille de Las Navas de Tolose* (1212) *à l'avènement du Sultan mérinide Abul Hasan (1331)*, PUF 1966 .

Du même, " A propos de l'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIè et XIV è s " ,*Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb* , N° 2 (1967) , p. 32-51.

Du même , " Les relations de la péninsule Ibérique et de l'Afrique du Nord au XIV è s , Anuario de Estudios Médievales de L'Instituo de Historia Medieval de Espana , (1970-1971), p. 39-65

Du même, " L'orientation de l'Europe occidentale vers le Maghrib au temps d'Ibn Khaldoun (1332-1406) " in , A mal nadwat Ibn Khaldoun , 14-17 fév. Rabat 1979, p. 464 à 478 .

Du même ," Commerce du Maghreb Médieval avec l'Europe Chrétienne et marine musulane , données connues et pétitiques en suspens ", in *Actes du 1er Congrés d'Histoire et de la Civil. du Maghreb*,2 tomes ,CERES, Tunis 1979 , Tome I , p. 161-192.

Dufourcq (Ch.E.) , Kaddache (M.) , Colonna (F) , . Février (P.A) et . Helie (D.), " Méditerranée et Maghreb du XIIIè au XVI è s " (compte - rendu) ,*Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb* , N° 3 (1967) ,p. 75-87.

Dulout (Fernand) , Le Habous dans le droit musulman et la législation nord-africaine (Doctrine,Jurisprudence et procédure) , La maison des livres -Alger 1938 .

Dunlop (D.M.) ,Ibn Hubaysh , *Encyclopédie de l'Islam* , nouvelle édition ,t. III ,p, 826-827 .

Duplan (L.) ,*La région de Bougie* ,Monographies régionales 1ére série - Algérie n° 17 , XIX è congrés géologique internationale , Alger 1952 .

Duplan (.L) et Gravelle (M.) ,*Notice explicative de la carte géologique ai 1/500,000 é : Bougie* , 2è. éd. ,Service de la carte géologique de l'Algérie -Alger 1960.

Duplessy (Jean)," La circulation des Monnaies arabes en Europe occidentale du VIII è au XIII è siécle", *Revue Numismatique* , 5 é série , Tome 18, (1956) - p. 101-120.

Echos de Bougie ," Conférence sur l'homme préhistorique " , *Echos de Bougie* (1906) .

Du même," Dons au musée , *Echos de Bougie* , (1906) .

Du même, " Archéologie " , *Echos de Bougie* (1903) .

Eustache (Daniel) ," Etudes de numismatique et de métrologie musulmanes (II) " ,*Hespéris-Tamuda,* vol. X, Fasc. 1-2 (1969), p. 95-190.

Farrugia (J.) ," Monnaies Hafsites du Musée du Bardo " ,*Revue Tunisienne*,(1938), p. 231-288, Accompagné de cinq planches entre la page 288 et la page 289.

Féraud (L.CH.) , *Histoire des villes de la province de Constantine : Bougie* (tome 1), constantine 1869 .

Du même, Kitab el-adouani ou le Sahara de Constantine et de Tunis -Alger 1868.

Du même, " Expédition du Roi pierre III d'Aragon à collo.(au XIII è s) d'après une chronique catalane " *in Revue Africaine* , 16è Année (1872), p. 241-258.

Ferhat (Halima) , "Famille et société à Sabta d'aprés l'ouvrage du Cadi Iyyad Madhahib Al-Hukkam(XIIès)", *Hespéris - Tamuda* , Vol. XXX , Fasc . 2, (1992) , p. 5-15 .

Du même , *Sabta des origines au XIV ès .* , préface de M. Allal Sinaceur ,éd. Al Manahil - Ministère des affaires culturelles - Imprimerie El Maarif Al-Jadida , Rabat 1993 .

Du même , *Le Maghreb aux XII è et XIIIè s : Les siècles de la Foi* ,éd. Wallada Casablanca 1993,(Recueil de 184 pages .)

Du même , " Un maître de la mystique maghrebienne au XIIè s: Abu Madyan de Tlemcen ", dans son recueil , *Le Maghreb aux XII è et XIII è s* ..., p. 55-78 .

Du même, " La fiscalité au Maghreb du XI è s. au VIII è s. : Enjeux et conflits " dans son recueil , *Le Maghreb aux XII è et XIII è s.* ..., p.127-142 .

Février (Paul Albert), *Approches du Maghreb romain : Pouvoirs ,différences et conflits* , 2 tomes , éd. , EDISUD , Aix- en- provence , t. I en 1989, t.II en 1990 .

Forand (Paul G.) , " Notes on Usr and maks " , *Arabica* , III (1966) ,p. 137-141.

Fournel (Henri) ,*Les Berbères ,Etudes sur la conquéte de l'Afrique par les Arabes* ,Paris 1875-1881.

Du même, *Richesse minérale de l'Algérie* , publié par ordre du gouvernement , 2 tomes ,Imprimerie Nationale - Paris t.1 : M DCCC XLIX , t.2 : M DCCC LIV .

Gallissot (René) , Essai de définition du mode de production de l'Algérie précoloniale , *Revue Alg. des sciences Juridiques éco. et politiques,* Vol V ,n° 2 Juin (1968) , p. 412

Gaid (Mouloud) , *Histoire de Bejaia et de sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954* , SNED -Alger , Avril 1976.

Ghrab (Saad) ,*Ibn ʿArafa et le Mālikisme en Ifriqiya au VIIIè - XIV è sièles* , t.I, Université de Tunis I, Faculté des Lettres - Manouba 1992 .

Goitein(Shelomo D),"Le commerce méditerranéen avant les croisades ,quelques faits et problèmes " , Diogène , n°59, Juillet - Sept . (1967), p. 52-68.

Golvin (L.) , *Le Maghrib central à l'époque des Zirides* , Recherches d'Archéologie et d'Histoire ,Paris 1957.
Du même, *Recherches archéologiques à la qal a des Banu Hammad* ,Paris 1965.
Du même, Kalaat Bani Hammad , *Encyclopédie de l'Islam* , . t. IV , nouvelle éd., p. 499-502. .
Gosse (Philippe) ,*Histoire de la Piraterie* ,Paris 1933.
Gourdin (Ph.) ," Italiens et Européens en Afrique du Nord pendant la deuxième moitié du XVè s, Contrats avec la population locale (d'aprés les archives de Gênes et de Savone) ,dans *Etat et colonisation au Moyen Age et à la Renaissance sous la diretion de Michel Balard* , la Manufacture , Lyon 1989,p. 365-376.
Gragueb (A.) et Mtimet (A.) , *la Préhistoire en Tunisie et au Maghreb* , Alif les Guides ,Tunis 1989 .
Gsell (S),*Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* , 8 tomes, Paris-Hachette 1913-1928 .
Guémara (Raoudha) , " Les immigrés dans les sources médiévales italiennes " *Actes du colloque sur la démog. hist. en Tunisie et dans le monde Arabe* "15-16 novembre 1991. ., éd . CERES productions et Institut Sup. de l'Education et de la Formation Continue , Tunis 1993 ,p. 57-72 .
Hadj-Sadok (M) ,"Atravers la Berbérie Orientale du XVIII è s avec le voyageur Al-Warthilani",*Revue Africaine* tome XCV, 3è et 4è Trim. (1951) p. 315-399.
Harmand (Louis) ,*L'Occident Romain Gaule - Espagne -Bretagne -Af . du Nord (31 Avril J.C. à 235 ap. J.C),* Préface d'Albert Grenier -Coll: Bibliothèque Hist. éd. PAYOT - Paris 1969 .
Hazard (Harry W.) , *The numismatic history of late médieval North Africa* , Numismatic studies, n° 8 ,The American Numismatic Society ,New -York,1952.
Du même, " Late médieval North Africa : Additions and supplementary notes " ,in *Museum Notes* , the American Numismatic Society ,New-York 1966, p.195-221.
Heers (J) , *Esclaves et domestiques au moyen âge dans le monde méditerranéeen* , Fayard 1981 .

Du même , " Origines et structures des compagnies coloniales génoises (XIIIé - XV é s .) " Etat et colonisation au moyen âge et à la Renaissance sous la direction de Michel Balard , Ed. la Manufacture , Lyon 1989 ,p. 17-33.

Du même, " Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du moyen âge " ,*A.I.E.O.* (Annales de l'Institut d'Etudes Orientales) (1958) ,T. XVI , Alger, p. 247-255.

Du même, " Un exemple de ville méditerranéene au moyen âge : Gênes ." , *Diogène*, N° 71, Juillet -Septembre , (1970), p. 52-63.

Idris (Hady Roger) , *La Berbérie Orientale sous les Zirides X è - XII é s* , Publication de l'Institut d'Etudes orientales -Fac .des lettres et sc. hum. d'Alger , Ed. Librairie d'Am. et d'orient , Adrien-Maisonneuve, Paris 1962, 2 Tomes .

Du même, HAMMADIDES (BANŪ HAMMĀD) , *Ency .de l'Islam* - nouvelle Ed. , III, p. 139-141.

Du même, " HILAL , *Ency . de l'Islam* , Nouvelle édition - tome III HAYDARAN , Ency. de l'Islam ,noulelle édition, Tome III , Leyde - Paris ,1965 , p. 334.

Du même, " HAFSIDES " , *Ency. de l'Islam*, nouvelle édition , T. III , Leyde E J Brill- Paris 1960, p. 68-72.

Jehel (Georges) , *Les Génois en Méditerranée occidentale* (fin XI é début XIV é siècle) , Ebauche d'une stratégie pour un empire , Centre d'Histoire des Sociétés ,université de Picardie , Producteur : Alphacopy , Paris 1993 .

Du même ,"Besants et dinars à Gênes au XIII è s " ,in *Etat et colonisation au moyen âge et à la Renaissance* , sous la direction de Michel Balard , Ed . la Manufacture , Lyon 1989, p. 55-70.

Joleaud (L.) , *Constantine et l'Algérie Orientale ,congrés de l'association française pour l'avancement des sciences de France* , à Constantine avril 1927 .

Kaddache (Mahfoudh) , *L'Algérie dans l'Antiquité*, 2è éd. SNED Alger 1982.

Krueger (H.C.) ," The wares of exchange in the genoese African Trafic of the twelfth century " , *Speculum* , XII, 1937, p. 57-71.

Du même, Genoese trade with North West Africa in the twelfth century " , Spéculum , XIII , Cambridge Massachusettes ,1933 , p. 377-395 .

Lacoste (Yves), Nouschi (André) et Prenaut(André) , *L'Algérie passé et présent , le cadre et les étapes de la constitution de l'Algérie actuelle* , préface de Jean Dresch ,Paris 1960.

Lambert (J.M.) , *Saldae - Bougie et lechristianisme* , Imprimerie Charry - Alger 1958 .

Lancel (Serge) , *Actes de la Conférence de Carthage en 411*, 4 vol.,Série sources chrétiennes ,N° 194 , éd.CERF-Paris 1992 .

Lapidus (Ira Marvin) , *Muslim cities in the later middle ages* , Cambridge 1967 .

Laroui (Abdellah) , *l'Histoire du Maghreb , In essai de synthèse* , Ed. François Maspero , Paris 1970 .

Latham (J.D.) ," Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie ", *Recueil d'Etudes sur le Moriscos Andalous en Tunisie* . STD , Tunis 1973 , p. 21-64 ; paru en anglais in *Cahiers de Tunisie* , vol. 19-20 , (1957) , p. 203-255.

Lepelley (Cl.) , *Les cités de l'Afrique Romaine au Bas Empire,* 2 tomes , Paris 1979-1981 .

Leschi (L.) ," Les Juvenes de Saldae d'après une inscription métrique " , *Revue Africaine* , t. 98 (1927) ,p. 393-419 .

Lessard (Jean Michel) " Sijilmassa : La ville et ses relations commerciales au XI é siècle d'après El-Bekri ", *Hespéris - Tamuda* , Vol X , Fasc 1-2 (1969), p. 5- 36 .

Lézine(Allexandre)," Sur la population des villes africaines", *Antiquités Africaines* , t.3 , (1969), p. 69-82.

Du même, *Deux villes d'Ifriquiya* : *Sousse -Tunis* ,librairie Geuthner -Paris 1971.

Littré (Emile) , *Dictionnairre de la langue française* , Gallimard - Hachette 1970.

Lopez (Robert S.) ," Venise et Gênes : Deux styles , une réussite " , *Diogène* , N° 71 , Juillet -Septembre , (1970) , p. 43-51.

Mahfoudh (Faouzi) , " Aspects de la démographie de la ville de Sfax au moyen âge (IX-XII é siècle) " ,*Actes du colloque sur la démographie historique en Tunisie et dans le monde arabe* 15-16 Novembre 1991, éd. CERES production et Institut Sup. de l'Education et de la Formation Continue ,Tunis 1993, p. 73-82.

Mahjoubi (A.) ," Les allogènes en Tunisie , à l'Epoque romaine (146- la conquéte vandale)" ,*Actes du colloque sur la démographie historique en Tunisie et dans le monde arabe* 15-16 Novembre 1991, éd. CERES production et Institut Sup. de l'Education et de la Formation Continue ,Tunis, p 35-49 .

Mahler (Eduard) , *Vergleichungs - Tabellen der mohammedanischen und christlichen zeitrechnung,* Leipzig 1926.

Malowist (Marian) ," Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au moyen âge ." , *Annales ESC* , n° 6 ,25 ème Année (1970), p.1630-1636.

Marçais (G.) ,*La Berbérie musulmane et l'orient au moyen âge* , Coll . les grandes crises de l'histoire , éd. Montaigne ,Paris - Alger 1946 , p. 277-305 .

Du même, Manuel d'Art musulman , *l'Architecture :Tunisie, Algérie ,Maroc ,Espagne ,Sicile du IX è au XII è s.* 2t. éd. Auguste Picard- Paris 1926 .

Du même, " *Les poteries et faiences de Bougie (collection Debruge) Contribution à l'étude de la céramique musulmane* , Constantine (1916) .

Du même, ,*Les arabes en Berbérie du XI è au XIV è s* ,Paris-Constantine 1913.

Du même, " L'urbanisme musulman dans *Mélanges d'histoire et d'arch. de l'occident musulman"* , Imprimerie Officielle -Alger 1957 conférence déja publié dans *Rev. Af.* (1939-40) , p. 13-34.

Du même, " Sur deux stèles funéraires hammadites du Musée stéphane Gsell" , *Bull .de la Societé hHistorique et Géog. de la région de Sétif .,* TII, (1941) ,p. 171-178.

Du même, " Les villes de la côte algérienne et la piraterie au moyen âge " *AIEO* (Annales de l'Institut d'Etudes Orientales),T. XIII, (1955) ,p. 118-142 .

Du même, BIDJAYA , *Encyclopédie de l'Islam* , nouvelle édition,Leyde E.J. Brill, Paris 1960, p. 1240-1241.

Marçais (William) , " comment l'Afrique du Nord a été arabisée ? , *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales,* t. VI, (1942-1947) .

Marguet (Gaston) ," Une station préhistorique à Bougie ", Journal *L'Union Républicaine* , (1906) .

Du même, " Les Aiguades ", Journal *L'Union Républicaine* , (1906) .

Du même ," La Grotte d'Ali Bacha " Journal *L'Union Républicaine* , (1906) .

De Mas Latrie , *Relations et commerce de l'Afrique sept. ou Maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge,* Librairie de Firmin Didot et cie, Paris 1886,

Masselot (J.) , *Ville et rade de Bougie , Province de Constantine* , Bougie 1869 .

Massiera (Paul) , M'sila du Xè au XV è siècle , *Cahiers de Tunisie* , T.XXII ,n° 85-86 , (1974) , p. 177-207 .

Masson (Paul) , *Histoire des établissements et du commerce francais dans l'Afrique Barbaresque* (1560-1793) ,Paris - Hachette et cie 1903.

Mauny (R.) , *Les siècles obscurs de l'Afrique noire , Histoire et archéologie,* Fayard 1970 .

Du même, *Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen âge , d'après les sources écrites , la tradition et l'archéologie* ,IFAN (Institut Français d'Afrique Noire), Dakar 1961 .

Mazard (J.) , *Corpus nummorum numidiœ mauretaniœque,* Arts et métiers graphiques ,Paris 1955, p. 160-161.

Mercier (E.) , *Hist. de l'établissement des arabes dans l'Afrique sept . selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'histoire des berbères d'Ibn Khaldoun* , constantine 1875.

Miége (J. Louis) , " Le commerce trans-saharien au XIXè s , Essai de quantification ", *Revue de l'Occident Musulman et de la Médit.* , N° 32 , 2ème Sem.(1981), p. 93-110.

Miquel (André) , *La géog. humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11è siècle* , 3 Tomes , Mouton -Paris - La Haye ,1ére éd. 1967, 2éd. 1973.

Du même, quelques aspects de la ville dans la géographie arabe du Xè siècle ", *Mondes et cultures* , T. XLVII, vol . 2 (1987) , p. 153-162.

Mols (Roger) , S . J. , *Introduction à la démographie historique des villes d'Europe du XIV , au XVIII ès* , Université de Louvain 1954-1956 ,t.1: 1954 - Les problémes ,t. 2: 1955 : Les résultats , t.3 1956: Annexes .

Négre (A.) , *A propos des rapports entre les Magrebs central et extrême et l'Espagne musulmane au Moyen âge* . Ann. Univ. Abidjan . série 1 (Hist.), 7 (1979), p. 139 -145 .

O'kelly (Alfonse) , *Etudes politiques sur le Royaume de Tunis,* Bruxelles 1871 .

Pascon (Paul) ," Le commerce de la maison d'Ilîgh ,d'après le registre comptable de Hussayn b . Hachem (Tazerwalt ,1850-1875) ,*Annales E.S. C.* , N° 3-4 , 35ème année , (1980) , p. 700-729.

Du même, " Qu'est ce qu'une tribu . les tribus du Haouz. L'idéologie du almohade", *Lamalif* ,N° 93 ,(1977) p. 24-26.

Pellat (Charles) ," Peut -on connaitre le Taux de natalité au temps du Prophète ? A la recherche d'une méthode ", *Journal of the Economic and Social history of the Orient* , Vol XIV , Part II, (1971) , E.J. Brill- Leiden , p. 107-135.

Petit (Odette) , " Les relations intellectuelles entre l'Espagne et l'Ifriquya aux XIIIè et XIV è siècle " , *IBLA* , n° 127 , (1971) -1 ,p. 93-121.

Pirenne (H.) , *Les villes du Moyen âge* , Paris PUF 1971.

Piquet (Victor) , *Les civilisations de l'Afrique du Nord . Berbères, Arabes ,Turcs* , Paris 1909.

Pistarino (Geo) , Genova é il Maghreb nel secolo XII " , in *Italia e Algeria ,Aspetti storici di Un' amicizia mediterranea a cura di Romain H. Rainero Marzorati* editore , Milano 1982 .

Poncet (J.) ," Prospérité et décadence ifrikiyenne " Tunis 1962 ,Extrait des *Cahiers de Tunisie* ,n° 33 ,34 et 35 , (1961) , p. 221 et sq .

Provençal (Levi) , Latham (J.D.) , Balbas(L.T.) , Colin(G.S.) , " Al Andalus " ,*Ency . de l'Islam* , Nlle éd. ,T. 1, p. 501-519 .

De la Primaudaie (M.F. Elie) , *Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française* , Imprimerie de ch. Lahure et cie , Paris 1861.

E. Levi-provençal , *Histoire de l'Espagne musulmane* , 3 tomes, G.P. Maisonneuve - Paris , E.J. Brill- Leiden 1950-1953.

Rachet (Margérite) , *Rome et les Berbères ,un problème militaire d'August à Dioclétien* , Coll Latomus Vol. 110 - Bruxelles 1970.

Racine (P.) " Les débuts des consulats italiens outre- mer ", In *Etat et colonisation au moyen âge et à la Renaissance* , Sous la Direction de Michel Balard , Ed. la manufacture , lyon 1989, p. 267-276.

Rambert Gaston ,*Hist. du commerce de Marseille* ,publié par la chambre de commerce de Marseille sous la direction de Gaston Rambert ,T1: l'Antiquité par Raoul Busquet,le Moy. âge jusqu' en 1291 par Régine Pernoud , T2 : de 1291 à 1423 par Edouard Baratier, t. 3 : 1480 à 1599 par Raymond Collier et Joseph Billioud, éd. librairie Plon , Paris 1951.

Rémondon (Roger) , *La crise de l'empire romain , de Marc-Aurèle à Anastase* , Coll." Nouvelle clio " , l'Hist. et ses problémes ,n° 11 PUF , Paris 1964.

Renouard (Yves) , *Les hommes d'affaires italiens du moyen âge* , Coll. U2 - Armand Colin , Paris 1968.

Ricœur (P) , *Histoire et vérité* , Editions Seuil 1964 .

Riggio (Achille) , *Gli stati Barbareschi e la calabria 1536-1816* , Firenze " La Nuova Italia "1950.

Rocca (Monce) , *La France en Orient depuis les rois francs jusqu'a nos jours . Aperçu historique* ,Paris - Bône 1876.

Rostow (W.W.) , *Les étapes de la croissance économique ,* Traduit de l'américain par M. J. du Rouret , Editions du Seuil 1963 .

Sansot (Piérre) , *Poétique de la ville* ,Paris 1973.

Sayous (A.E.) , *Le commerce des européens à Tunis depuis le XII è jusqu'à la fin du XVIè s , Exposé et documents,* Paris 1929 .

Schleifer (J.) , "La geste des Banû Hilal *", Ency. de l'Islam* III , Nouvelle éd., Leyde- Paris 1965 , p. 399-400 .

Shili (Chédli) , " L'Ifriqiya au carrefour des espaces saharien et méditerranéen à l'Epoque médieval place et rôle des marchands " , *Cahiers de Tunisie ,* N° spécial (1), Tome XXXXIII, n° 155-156, (1991) , p. 241-261 .

Slablab (Ali) ," La pop . Tunisoise durant la période coloniale" , *Actes du colloque sur la démographie historique en Tunisie et dans le monde arabe* 15-16 Novembre 1991, éd. CERES production et Institut Sup. de l'Education et de la Formation Continue Tunis 1993 , p. 95-102.

De Slane (Mac-Guckin) , *Histoire des Berbères et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Sept.* ,4 Vol - Alger 1852-1856.

Du même , *Recueil des historiens des croisades (Historiens orientaux t.1) ,* Imprimerie Nationale -Paris MDCCCLXXII .

Soler (Giménez Andrés) ," El commercio en Tierra de Infieles durante la Edad Media " , *Boletin de Real Academia de Buenas Letras de Barcelona " ,* T.V, 1909 -1910, p. 171-199,287-298, 521-524.

Stöckly (Gattkon) ," Les premiers convois de Galées commerciales vénitiennes en direction de la Barbarie au milieu du XV è s ", *Cahiers de Tunisie ,* N° 155-156,t. 43, (1991) ,p. 479-512.

Talbi (Mohamed) , *Etudes d'histoire ifriquienne et de civilisation musulmane médievale* ,Publication de l'Université de Tunis -Fac lettres , 4 ème Série : Histoire ,Vol. XXVI ,Tunis 1982.

Du même, " Rapport de l'Ifriqiya et de l'orient au VIIIè s ", *Cahiers de Tunisie* ,n° 26-27, (1959) ,p. 299-305.

Talbi (M.), Cahen (CL.), Mantran (R.) , Lambton (AKS) , Bazamée (A.S) , Ansari , " HISBA " , *Ency. de l'Islam,* Nouvelle éd. t. III, Leyde -Paris 1965 ,p. 503-510 .

Talbi (M.) , " Effondrement démographique au Maghreb du XIè au XV è s." , *Cahiers de Tunisie* ,1er et 2ém trim. n° 97-98, TXXV,(1977) ,p. 51-60.

Du même, " Opération Bancaires en Ifriqiya à l'époque d'al-Mazari (453-536/1061-1141) ",in M. Talbi , *études d'histoire ifriqiyenne* , p. 420 - 435 publié initialement dans *Recherche d'Islamologie* , Recueil d'articles offerts à GS. Anawati et C. Gardet, Bibliothéque philosophique de louvain , n° 26 - Louvaine 1978, p. 307-319 .

Du même, " Al- Kayrawan " *Ency. de L'Islam ,* Nouvelle Edition , T. IV , p. 857-864.

Du même, " Droit et économie en Ifriqiya au IIIè IX è s. ", Publié dans M. Talbi , *Etudes d'Histoire Ifriqiyenne,* p. 185-229 .

Du même, " Les contacts culturels entre l'ifriqiya Hafside (1230-1569) et le sultanat nasride d'Espagne (1232-1492) " dans M.Talbi , *Etudes d'Histoire ifriqiyenne* p. 263-293

Tissot (J.) , *Texte explicatif de la carte géoglogique provisoire au 1/800.000 è du département de Constantine ,* Alger 1881.

Touati (Houari) ," En relisant les Nawāzil Mazouna, marabouts et chorfa au Maghreb Central au XV è s ." *Studia Islamica* ,t.LXIX ,(1989) , p. 75-94 .

Le Tourneau (R.) , FUNDUK , *Ency. de l'Islam* , Nouvelle éd., T.II, p. 966-967.

Du même, " L'occident musulman du milieu du VIIè s à la fin du XVè s " ,*Annales de l'Institut d'Etudes Orientales,* Tome XVI ,(1958) , p. 147-176

Toynbee (A. J.) ,*Les villes dans l'histoire : Cités en mouvement* , (Traduit de l'anglais) ,Paris 1972 .

Union Républicaine (L') , " Recherches préhistoriques à Bougie " , Le Journal *L'Union Républicaine (* 1906).

Urvoy (D.) , *Le monde des Ulémas andalous du V/XIè au VII/XIII è s. : Etude sociologique,* Genève : Droz, 1978.

Du même, " La Stucturation du monde des ulemas à Bougie au VIIè / XIIIè siécle " , *Studia Islamica* , n° XLIII (1979), p. 87-107.

Valérian (Dominique) , *Bougie , port maghrébin du XI è au XVI è s.,*mémoire de DEA ,sous la direction de Michel Balard, Université Paris I , 1993-94 .

Vanacker (Claudette) ," Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes IXè-XIIès " , *A.E.S.C.* (Annales , Economie ,Societé ,civilisation), 28è Année ,n° 3, (1973), p. 659-680.

Vasse (Henri) ," Bougie et sa région " ,*Bulletin éco. et Juridique* , publiée par l'Office Algérien d'Action Economique et Touristique . Fév. Mars (1961). p. 319 et suiv.

Vaufrey (Raymond) , *Préhistoire de l'Afrique du Nord* , t.1 : le Maghreb , Librairie Masson et cie - Paris Imprimerie Officielle -Tunis 1955 .

Vernet (Robert) ," Recherches sur la production et la circulation des céréales dans le Maghreb Médieval ", *Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb* , n° 13 , Janvier(1976) , p. 31-62.

Veyne (Paul) , *Comment on écrit l'histoire suivi de Foucault révolutionne l'histoire* , Coll.Points , Ed. seuil ,Paris 1979.

Vilain (G.) , *Etudes sur l'histoire de la Tunisie depuis la conquête arabe (VIIè s) juqu'à la conquête turque (XVI é)* , Paris 1882 .

de Vinchon (M. Le Baron) ,*Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques depuis les temps les plus anciens jusqu'à ce jours,* Paris 1839 .

Warmington (B.H.) ,*Histoire et Civilisation de Carthage* , Payot - Paris 1961.

Wintzer (P.) , " Bougie ,place forte espagnole " , *Bulletin de la Societé de géo . d'Alger de l'Af. du Nord* , 37 è Année , N° 130 , (1932) ,p. 185-222.

Yver (G.) , " Bougie " , *Ency. de l'Islam* , Ancienne éd. ,t. 1 , Leyde - Paris ,t.1 , p. 786-787 .

فهـــرس المحتوى

* هياكل التمثيل الاجنبي في بجاية :